مكتبة

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إبراهيم نصر الله

طفولتي حتى الآن

الملهاة الفلسطينية

رواية

مكتبة طفولتي حتى الآن

طفولتي حتى الآن

الطبعة الأولى: نيسان/أبريل 2022 م - 1443 هـ

ردمك 978-614-01-3466-9

جميع الحقوق محفوظة للناشر:

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

التوزيع في المملكة العربية السعودية

دار إقـراء للـنـشـر

إصـدار

الدار العربية للعلوم ناشرون م م ح

مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر
المنطقة الحرة، الشارقة
الإمارات العربية المتحدة
جوال: 585597200 971+ - داخلي: 0585597200
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون**

acebook.com/ASPArabic twitter.com/ASPArabic www.aspbooks.com asparabic

لوحة الغلاف: **الفنان عصام طنطاوي**

IBRAHIM NASRALLAH ♦ MY CHILDHOOD SO FAR

الملهاة الفلسطينية

إبراهيم نصر الله

طفولتي حتى الآن

رواية

لم أترُكْ طفولتي، يومًا، تبتعد كثيرًا
إنّ الوحوشَ تتجوّلُ في الجوار
لذا...
لم أَجِدْ بُدًّا من الاحتفاظِ بها... حتى الآن

من ديوان "عواصف القلب. 1989"

مكتبة

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عن الخيال الذي عِشتُهُ
والحقيقةِ التي عاشتْني
إ. ن

مكتبة

*اسم الشخصية وكنيتها، حيثما وردَا في الرّواية، وضِعا قصدًا في حالة رفْع.

طفولة أولى

قبل كلّ شيء، بعد كلّ شيء

أكثر الرسائل حزنًا، تلك التي تلقّيتها، وأنا في طريقي إلى المطار: رسالة واتساب قصيرة، كما باتت رسائلها في الفترة الأخيرة. فهي مثلي، لم تعد تؤمن بالرسائل، وتؤجّل كلّ شيء يُقلقها، أو يُفرحها، إلى لقاءات تجمعنا بين حين وحين:

كتبتْ لي "نور": "أخاف على الماضي، أخشى ألّا يعود."

أرسلتُ إليها أيقونة وردة.

فكتبَتْ: "إن لم نستعِد الماضي، فسنخسر المستقبل. محزن أن نحسّ أننا لا نملك من هذا العالم إلّا خوفنا على الماضي بعد أن أصبح وحده حياتنا المؤكّدة، مع هشاشة حاضرنا".

"سأكتبُ لكِ من المطار، قليلًا وأَصِل".

وبسرعة جاء الردّ:

"الوضع في إيطاليا يتدهور بسرعة، الوباء يجتاحها، لا أريد أن تنحشر هناك، هل تستطيع أن تعود؟ أعني الآن: أظنّ أن الجهة الدّاعية ستتفهّم الوضع. أنت تعرف أنني لستُ متشائمة بطبعي، لكن الأمور تتجّه إلى الأسوأ".

كتبتُ لها: "أفهمكِ، في أوقات الخطر الشديد، نغدو مثل كلّ أولئك الذين يلتجئون إلى ماضيهم ويستعيدونه كشريط سريع، أو بطيء، وهم يواجهون خطر الوجود، لكن معضلتنا أننا لا نستطيع استعادة الماضي، للعيش فيه، نستطيع أن نتذكّره، ولذا ليس لدينا خيار سوى أن نصعد عتبات المستقبل، مهما كانت مهشّمة، بل حتى لو لم نستطع رؤيتها. على أيّ حال، لديّ ربع ساعة لأفكِر في العودة أو الذّهاب قبل وصولي إلى المطار".

***

حاولتُ استعادة ما عشتُه في النهار، نهار واحد لا غير، نهار محتشد بالأعمال، مثل كلّ أيام السفر، نهار يخيّل للمرء أنه أمضاه راكضًا، يلهث، للّحاق بزمن لا يستطيع اللحاق به مهما كانت سرعته.

توقّفت السيارة، انتصب مبنى المطار عاليًا، وداكنًا كما لم أره من قبل،

كنت أستغرب، وما زلت، السبب الذي دفع الشركة المنفِّذة للبناء، لاستخدام الإسمنت نفسه لونًا للمبنى، وأتخيّل كم كان يمكن أن يكون رائعًا لو استخدموا اللون الورديّ لصخور "البتراء"، ورملها متاح في أماكن كثيرة؛ أو أي لون آخر. سرتُ نحو بوابة رقم 2 أجرّ حقيبتي الصغيرة، عبرتُها وعيناي تبحثان عن شاشة حركة الطائرات، لتفقُّد رحلتي؛ في موعدها، متأخّرة، أَم ملغاة.

وقْفُ الرّحلات الجوية، قرارات الناس يتوقّعونه في أيّ لحظة.

من المحزن كثيرًا أن تركض طوال النهار للّحاق برحلتكَ، وتكتشف أنك تأخّرتَ، أو أنها أُلغيتْ.

تفهّمتُ دائمًا تأخّر مواعيد الرّحلات، أما إلغاؤها فمسألة أخرى: قاتلة، مثل طعنة. رغم ذلك، بقيتْ هذه الشّاشة، أو لنقُل لم تزل، أجمل لوحة يمكن أن أشاهدها، لا لشيء، إلّا لأنها حافلة بأسماء المدن التي تشتهيها، التي تتخيّلها، التي تستحضرها، التي تبنيها، بمجرّد أن ترى أسماءها، وتقرأ أوقات التّحليق، ولا أقول الإقلاع، وأوقات العودة، أو الوصول، ولا أقول الهبوط.

لم أتأخّر عن موعد التّحليق، لم تكن الطائرة متأخّرة، ولا الرّحلة ملغاة.

***

عبرتُ نقطة التّفتيش، إجراءات الأمن. تذكّرتُ كم عانيتُ، لسنوات أمام هذه النقطة، النقطة الأسوأ. استعدتُ المرّات التي أُعِدْتُ فيها إلى البيت بقرار أمنيّ، بعد أن وصلتُ إلى هنا، وكم مرّة تمنيتُ -حين طالت فترة المنْع من السفر- أن أصل إلى هذه النقطة، ولو مرّة. ولا بأس بعد ذلك أن أُعاد، كنت سأعتبر ذلك سفرًا.

***

بعد دقيقة من ختْم جواز سفري، وبينما كان الدّرج الكهربائي يصعد بي، تردّد صوت أنثويّ رقيق في فضاء القاعة الشّاسعة مُعلنًا إلغاء الرّحلة.

لم أكن راغبًا في تصديق أُذنَي، وقفتُ. سرتُ باتجاه شاشة حركة الرحلات، وصلتُ. رفعت رأسي، رأيتها جدارًا.

1

أشرعتُ باب بيتنا، لاحقَني صوت أمّي:

- إلى أين؟

- لا أعرف.

أغلقتُ الباب خلْفي، مخافة أن تتسلّل الدّجاجات إلى الحارة. يوم مشمسٌ، نظرتُ إلى السّماء؛ طائرة قادمة من الغرب، متوجّهة إلى مطار "ماركا"، شرقًا.

أفضِّل أن أبدأ يومي بطائرة تُحلّق، لا بطائرة تهبط؛ كلّ تحليق يمنحني الأمل بيوم جميل.

على الحائط المقابل لبوابة بيتنا لوحة كبيرة، أكبر من أيّ لوحة لحركة الطائرات في أيّ مطار دولي.

قرأتُ ما كتبتُه عليها بالطّباشير البيضاء، وأحيانًا بالملونة، ورسمتُ أسْهُمًا.

بيروت ← 300 كم

أثينا ← 1300 كم

بغداد ← 800 كم

روما ← 2500كم

باريس ← 3400 كم

مدريد ← 3700 كم

الجزائر ← 3000 كم.

القاهرة ← 500كم.

برلين ← 3900 كم.

كانت رؤوس الأسهم مصوَّبة بأوضاع مختلفة تحدّد مواقع المدن في الجهات الأربع.

فوجئت بأصابع تُربِّت على كتفي اليمنى بهدوء، التفتُّ، كانت "نور":

– إلى أين ستسافر اليوم؟
– ما رأيكِ بباريس؟
– باريس، باريس. وما الذي يمنع من السّفر إلى روما؟
– أمس زرتُها.
– لا بأس، باريس إذًا.
– هل أحضرتِ حقيبتكِ؟
– كلّ ما يلزم. وأنتَ؟ لا أرى حقيبتكَ.
– هناك حقيبة جاهزة في الطائرة.

***

فتنتني الكرة الأرضية منذ أن وضع أستاذ الجغرافيا مجسّمها على الطاولة، وبحركة صغيرة من إصبعه، دارَت الأرضُ، فراحت بلاد تبتعد وأخرى تقترب. كانت أجمل شيء رأيته في حياتي على الإطلاق، ألوانها، اتّساع بحارها، مناطقها الخضراء، الصفراء، البنيّة، الأزرق بتدرّجاته، ذلك القوس النحاسيّ الذي يضمّها، ليتيح لها الدّوران، دورانها؛ فتنتْني تلك الجُزُر البعيدة وسط المياه، الجزُر الصغيرة والكبيرة، الأنهار، الغابات، وحيّرني كيف استطاعوا رسْم تلك الخطوط المستقيمة والمتعرّجة، التي أسموها الحدود، وألزمونا أن نحفظها لنُقدّم فيها امتحانات مادة الجغرافيا. لم يكن يعجبني أن أكون مُلزمًا بأن أحفظ خطوطًا ميّتة عن ظهْر قلب، أو ظهْر عين، مثلما عليّ أن أحفظ قصيدة.

سرتُ ونور. وصلْنا. تفقّدتُ المدْرج بنظرة خبيرة، نظرتُ إلى الأعشاب إلى جانبيه لأتأكد من اتجاه الرياح.
– مُستعدّة؟
– مستعدّة.

رفرفتُ بيدَي كأنّهما جناحان، انطلقتُ، وصوت محرّكات عملاقة يتصاعد من جوفي.

التفَتُّ خلْفي، رأيت نور محلّقةً أيضًا، ابتسمتُ لها، ورفعتُ رأسي إلى الأعلى قليلًا وابتسمتُ للسّماء. كانت صافية.

2

مدفوعًا بخريطة العالم الموجودة في الكتاب الضّخم، "الأطلس"، كنتُ قد أنشأتُ المطار، حدّدتُ قاعته: المساحة الموجودة أمام بيتنا، وبوابته: بوابة بيتنا. تأكدتُ من جهتَي الشمال والجنوب، فجهتا الشرق والغرب كانتا سهلتين: تشرق الشّمس من بداية شارعنا، وتغرُب في نهايته خلف المدارس.

"مستشفى البشير" كان الشّمال، ومبنى الإذاعة كان الجنوب.

كلّ شيء واضح، أما ما ينقصني فهو تحديد وجْهات الرّحلات إلى المدن التي قد تحبّ نور زيارتها أكثر من مدن أخرى.

قمتُ ببحث، بشكل سرّي، حتى يكون المطار مفاجأتي لها، سألتُ، وشاهدتُ بعض المجلات التي يشتريها صديقي، خالي محمود، وسألتُه عن كلّ ما لم أعرفه. فوجئتُ أنه يحلم بالسفر أكثر من نور، بل بحاجة إلى مطار خاص به ليبتعد.

الفرق بينه وبين نور أن خالي محمود كان يتحّدث عن السفر باعتباره نجاة، أو خلاصًا، ولم يقلْ لي مِنْ ماذا، أما نور فتحدّثَتْ عنه كأنه روحها التي تحلم بأن ترى وتعرف أكثر. لم تكن ناقمة على أحد.

***

اتجاهات الطيران كانت واضحة، كلّ سهم يؤدّي في النهاية إلى مدينة كبيرة في هذا العالم، ولحسن الحظّ، في مسائل الطيران، أن حالة الطقس تتغيّر، أما المسافة بين المدن فتبقى ثابتة.

كان المدرج هو المشكلة الكبيرة التي واجهتْني، فالأرض مُنحدرة بعد بيتنا؛ سفحٌ، والحجارة كثيرة، ولم تكن هناك مسافة كافية للإقلاع.

إحساس باليأس كاد يصيبني، إلى أن اصطحبني خالي محمود معه إلى السّينما وشاهدنا فيلمًا حربيًّا تظهر فيه حاملة طائرات. هذا جعلني أعيْد النظر في مسافة الإقلاع؛ في مطاري الخاصّ. عدتُ وعاينتُ الأرض من جديد، إلى أن عثرتُ على مساحة من الأرض مناسبة، تنتهي بصخرة كبيرة، لم يكن صعبًا

عليّ أن أعتبرها حافّة الحاملة التي تصلها الطائرات وتقفز في الهواء قبل أن تحلّق.

لكن الصخرة كانت عالية، إذ إن أيّ خطأ في الاندفاع قد يتسبّب في تحطُّم طائرتي.

اشتغلتُ أيامًا تحت تلك الصخرة وأنا أجمع التراب، إلى أن غدا الارتفاع آمنًا، والسّقوط، إن حدَث، غير قاتل.

بعد ذلك، عملتُ على المدْرَج، نظفتُه، فأصبح سهْلا، سالكًا مثل مدارج مطار ماركا التي ذهبتُ لأراها، بصحبة صديقَيّ الأقربين (قاسم الذي يسكن مع جدته، وله حكاية تطول، وبشير الذي ينتظر عودة أبيه من الخليج، حيث يعمل مدرِّسا، وله أحلام أصغرها أكثر اتساعًا من كل أحلامنا)، ذهبنا سيرًا على أقدامنا. رأيت طائرة تحلّق وأخرى تهبط، في زمن لم يكن فيه عدد الطائرات كبيرًا، وانتظرتُ لأرى أكثر. ضاقا بي؛ قالا إن ذلك يكفي، لكنني كنت مُصرًّا على أن أرى طائرة أخرى تهبط وأخرى تحلّق، فالطيران مسألة لا تحتمل أقلّ خطأ.

أجريتُ التّجارب الأولى على التّحليق ببطء، ثمّ بسرعة، وفي الحالتين توقّفتُ تمامًا عند حافّة الصخرة، وفي كلّ محاولة اكتشفتُ عائقًا صغيرًا لم أكن انتبهتُ إليه، نتوءًا ما، أو جذور نبتة جافة، أو حجرًا يُطل برأسه من التراب، حادًّا، قد يثقب إحدى العجلات.

بعد عمل طويل، استمر أسابيع، أصبحتُ متأكّدًا من أن المطار مستعدّ لاستقبال الطائرات وإقلاعها.

حضرَ قاسم، وحضر بشير، لمشاهدة أوّل إقلاع، وراقبَنا صديقُنا نبيل، عن بُعد، صديقنا الذي لا يتحدّث معنا إلّا نادرًا.

استجمعتُ قوتي، ونفختُ، مُصدِرًا صوتًا عظيمًا، حتى إنني شممتُ رائحة دخان المحرّكات، وأحسستُ بقوة الهواء المندفع منها، وفي اللحظة المناسبة اندفعتُ بكلّ قوّتي، إلى أن وصلتُ الصخرة فنشرتُ يدَيَّ وحلّقتُ.

طرتُ حتى خلتُ أن أيّ مَدْرج مطار لن يكون قادرًا على استقبال لحظة عودتي.

عدتُ.

بهدوء لامستْ عجلات طائرتي التراب.
وعندها أدركتُ أن تعبي لم يذهب هباء.

***

بعد تجارب عديدة للطيران إلى مدن قريبة، مثل القاهرة وبغداد وبيروت، تأكّد لي خلالها أن الرحّلات ستكون آمنة، لم يبق سوى أن أدعو نور لافتتاح المطار، والتّحليق في أوّل رحلة رسمية ستنطلقُ منه.

3

أحببتُ كلّ شيء يطير؛ أما الأكثر قدرة على الطيران فهي تلك الصغيرة ذات العينين الخضراوين، والوجه النحاسيّ، والشعر الأحمر، الأجعد قليلًا، الذي يحلو لي أن أراه ضحى أيام الجمعة، حيث يكون لامعًا، مضاءً بملامحها العذبة بعد الحمام الأسبوعي.

أحببتُ كل شيء يطير: العصافير، الصقور، النّحل، وحتى الدبابير التي عانيتُ من لسعاتها كثيرًا. ولم يكن لديّ أيّ موقف مُعَادٍ للذباب؛ كنت أرى عيوبه كلها، عيوبه التي لا يستطيع أيّ كائن غضَّ الطرْف عنها، لكن ما غفر له دائمًا أن له أجنحة.

لم أكن أسافر كلّ يوم؛ بعض الرّحلات طويلة، بل طويلة جدًا، أستريح بعدها يومًا أو اثنين. لم أضع بعض المدن على جدول رحلاتي، مثل نيويورك، فهي بعيدة جدًّا. قراءة الرّقم الذي يشير إلى بُعْدها عن "عمّان"، يُلهثُني. في كلّ مرّة فكّرتُ ببلوغها، نظرتُ إلى حذائي، القديم دائمًا، واكتشفتُ أنني مع حذاء مثله، بصعوبة قد أصل إلى باريس. واستثنيتُ مدن الشمال؛ كلّ الدول الإسكندنافية، وروسيا. مجرّد التفكير في الصحاري الجليدية يجعلني أرتجف، ومع ثياب غير قادرة على ردّ برْد "مخيّم الوحْدات"، و "عمّان"، بشكل عام، كان الذّهاب إلى تلك الصحاري يعني شيئًا واحدًا: رحلة في اتجاه واحد.

استثنيتُ مدنَ الجنوب، أيضًا؛ كلّ ما يقع تحت خط العرض العابر للأردن وفلسطين؛ كان المجسم الكرويّ للأرض يشير إلي أن على الطائرة أن تنحدر بسرعة كبيرة، كبيرة جدًا، مع انحناءات الأرض الشديدة، بحيث أنها قد لا تستطيع التوقّف أبدًا، فتسقط في المحيطات في الأسفل.

خبرتي استندتْ إلى مشاهدتي لعدد من الكوارث التي سببتها شاحنات، أو صهاريج مياه، أو سيارات فقَد سائقوها السّيطرة عليها بسبب خراب ما في كوابحها. ذلك ساعدني على أن أتخيّل أيّ كارثة تلك التي تصيب طائرة تسقط من الفضاء وترتطم بالأرض.

***

بعد عودتنا بسلام، سألتُ نور:

- كيف رأيتِ باريس اليوم؟

- بصراحة؟

- أكيد بصراحة.

- أظنّها أبرد مما توقعتُ، ضبابها الكثيف الذي أخفى برج إيفل، جعلني أحمد الله على أننا لم نذهب إلى لندن، وبصراحة أكثر، لو لم تكن معي لما أحببتُها هذه المرة.

ارتجف قلبي، أحسستُ نفسي أحلّق ثانية وهي تذكّرني بأنني معها.

***

عدتُ إلى البيت، متظاهرًا بأنني أحمل حقيبة كبيرة. رأتْني أمّي أنحني وأضعها أمام الباب. ابتسمتْ:

- كم مرّة عليّ أن أطلب منك أن تضع الحقيبة في الزاوية كلّما عدتَ من السّفر، كي لا تتعثّر بها أخواتكَ وإخوتك؟

بأدب العائد من باريس اعتذرتُ لها بلطف شديد، انحنيتُ ثانية، رفعتُ الحقيبة الخفيّة ووضعتُها في زاوية خلف الباب.

التفتُّ إلى أمّي وكأنني أسألها إن كانت راضية عن مكان الحقيبة، فهزَّتْ رأسها، وابتسامتها تتّسع، كاشفة بياض أسنانها الصغيرة وسط بشرتها المائلة إلى الاسمِرار، تلك المرأة ذات العينين الصغيرتين البنيَّتَين التي لم أرها أبدًا محنية الظهر، دائما متأهِّبة، بمشيتها ووقوفها، كما لو أنها ذاهبة لخوض حرب، وكم كانت حروبها كثيرة.

***

لم يفارقني وجه نور، ولا كلماتها التي عبّرتْ فيها عن إحساسها بباريس، فقط، بسبب وجودي. في ذلك النهار، كتبتُ لنور كلامًا جميلًا، أحسسته يحلِّقُ في داخلي، همسًا في البداية، إلى أن تحوّل إلى أغنية.

كالعادة، طويتُ الورقة الصغيرة، وضعتُها في جيب قميصي، فوق قلبي تمامًا، وخرجتُ لأُسلِّمها ما كتبتُ، قبل أن يبرد، وهذا ما كنتُ أفعله في كلّ مرّة أكتب لها شيئًا جديدًا.

أكبر منّي قليلًا كانت نور، بعام ونصف ربما، لكنها أعلى منّي بصفّين. يعنيها كثيرًا ما أكتب، بل لاحظتُ أن وجهها يحمرُّ، وعينيها تزدادان خُضرة، وشعرها يصبح أكثر احمرارًا والتماعًا، كلّما قرأتْ شيئًا لي. أعترف أن ما كان يحدث لها يفوق جمال لحظات الكتابة نفسها، بل إن الكتابة ما كانت ستعني شيئًا لو أن ما يحدث لها لا يحدث.

أحيانًا تتراجع خُضرة عينيها واحمرار وجهها، وأرى شعرها يدور ويلتفّ على نفسه بقوة، فأعرف أن هناك خطأ إملائيًا أو لغويًّا فاضحًا في كتابتي. أمّا إذا بدا المعنى غير واضح، فأراها تجلس، تحتضن رأسها براحتيها ضاغطة عليه بشدّة، قبل أن ترفعه وتسألني:

– هل أنا غامضة إلى هذا الحدّ؟

أمّي قالت لي لو لم يطلق عليها أهلها اسم "نور" لأطلقته عليها بنفسي، ألم تلاحظ أنها مضيئة دائمًا كالشمس، وبخاصة حين ترتدي مريول المدرسة الأخضر؟ ألم تلاحظ أن جسدها يصبح مثل سروةٍ طفلة، ورأسها الشمس نفسها؟

– لا لم ألاحظ.

– اذهب وانظر إليها، وعُد إليّ، وقلْ لي ماذا رأيت.

***

الفتاة الأذكى في المخيم، ربما. أحببتُ أباها أيضًا، يتركنا نسهر على عتبة البيت إلى أيّ وقت نشاء، دون أن يقطع حديثنا. أمّها تفنّنتْ في تقطيع أحاديثنا:

– حابين تشربوا شاي؟ ما تعبتوا من الحكي؟ ما عطشتوا؟ جعانين؟ أكيد إمّك قلقتْ عليك، بتفكْروا إنكم راح تنجحوا السّنة؟ بيكفّي، الصُّبح طِلع.

وبالطبع، لم يكن الليل قد انتصف.

في ما بعد، حين كبرنا قليلًا، أصبحت أمّها تجد وسائل أخرى للتعبير عن عدم رضاها عن سهراتنا.

4 مكتبة

لم تتأخّر نور يومًا عن المدرسة، لم تدَّعِ أو تُبدِ تعبًا في الصباحات الباردة أو الحارّة التي سهرنا الليل قبْلها؛ تنهضَ بمجرّد أن تسمع من يدعوها للنهوض.

بالتأكيد، كانت البنت الأذكى في صفّها أيضًا، ولذا لم تمانع أبدًا في أن تكون الأولى. رغم أن كلّ مَن في المخيم مِن فتيات وفتيان ينظرون إلى أولئك الذين يحتلّون المرتبة الأولى في صفوفهم، على أنهم هُبْل، لكن ذلك لم يكن يعنيها؛ ضاربة عرض الحائط برأي الفتيات والفتيان من أصحاب المراتب، مِن الثانية حتى الخمسين. إن بعض مَن يستميتون ليكونوا الأوائل، بدوا لنا غالبًا أنهم لا يعرفون شيئًا غير الكتب، ولذا يخفِقون في أيّ اختبارات بسيطة خارج غرف الصفوف، لا يجوز أن يخفق فيها من هم بأعمارهم، كما أننا كنّا نادرًا ما نراهم خارج بيوتهم، ومن بينهم "رحاب" المستميتة لأن تكون الأولى، بنظّارتها الطبية التي تزيدها هزالًا وشحوبًا أيضًا.

رحاب عبّرتْ لصديقاتها دائمًا عن أمنيتها في أن تنشقّ الأرض وتبتلع نور. نور سمعتْ بذلك، انتظرتْها أمام باب المدرسة، سارت معها، خافت رحاب كثيرًا، أيقنتْ أن استغابتها وصلتْ. نور فاجأتها:

- سأساعدكِ في أن تكوني الأولى.

- لا أريد أن تساعديني، أستطيع أن أكون الأولى دون مساعدة من أحد.

- "إنسي هذا الكلام"، قالت لها نور بحزْم. "سأساعدك، فبغير مساعدتي لن تتمكّني من أن تكوني الأولى حتى لو اشترى أبوك المدرسة".

- كيف؟

- غدًا تبدأ امتحانات الشّهرين، سأهديكِ شيئًا لم تحلمي به من قبل. سأتركُ واحدًا من الأسئلة دون إجابة، بل سأترك سؤالين دون إجابة، فالفرق بين علاماتي وعلاماتكِ كبير دائمًا، ونسْياني لإجابة واحدة لن يكفي لكي تكوني الأولى.

- موافقة، ولكن ماذا تريدين مقابل هذا؟

- "سأفكّر في الأمر"، ردّت نور.

- لن تبالغي بطلب شيء لا أستطيع تنفيذه.

- اطمئني، أنا أعرفكِ، وأعرف ما تستطيعين تقديمه وما لا تستطيعين. اتّفقنا؟

- "اتّفقنا"، أجابتْ رحاب. قلبها يرتجف سعادة باقتراب لحظةِ تحقق حلمها، وخوفها من طلبِ نور الذي قد يكون أكبر من أن يُنفّذ.

***

الوحيد، من الأولاد، الذي كنّا نحترم إصراره على أن يكون الأول، مع أنه لا يُحدِّث أحدًا منّا، هو نبيل، الصامت دائمًا منذ رحيل أمّه. ذات ليلة أحضروا لها سيارة "رينو"، تابعة لوكالة الغوث، لنقْلها إلى المستشفى، فعادت جثة.

ترتيب نبيل في صفّه كان العاشر، توقّع الجميع أن يصبح العشرين. في نهاية ذلك العام أصبح التاسع، لكنه لم يعد يتكلّم. بعد تناوله طعام الغداء الذي تعدّه خالته التي راحت تعتني بإخوته وأخواته وأولادها معًا، يخرج، ويجلس على الصخرة المجاورة للمطار الخاصّ بنا؛ الصخرة المشْرفة على طائرات مطار ماركا، في حالتَي تحليقها وهبوطها.

يدرس إلى أن يُعتِم النهار.

نراه يتململ في بعض اللحظات، واضعًا كتابه إلى جانبه، وفوقه حجر حتى لا تأخذه الرّيح. عندها نتجرأ؛ نور وأنا؛ فنذهب إليه ونجلس إلى جانبيه صامتَين.

ما شجّعنا على فِعْل ذلك مرّتين أو ثلاثًا في كلّ أسبوع، أنه يستخدم أرض مطارنا. إلّا أنه كان متفهِّمًا دائمًا لحركة الطائرات فيه، ففي كلّ مرّة بدَوْنا فيها على وشك القيام برحلة، نهض وابتعد عن المدْرج مسافة آمنة، وبعد أن يطمئن أننا بتنا في السّماء يعود إلى مكانه وهو يتابعنا طائرَيْن.

أكثر من مرّة دعوته للسفر، فاكتفى بهزّ رأسه مُعتذرًا.

بعد سنتين سيفتح فمه ويقول جملة واحدة:

- "أتعرف؟ ربما أرافقكما ذات يوم إلى ..."، ولم يُكمِل.

5

وكنت أستيقظ قبل الجميع، مُتخيِّلًا أنني أتأمّل نور نائمةً، مأخوذًا بصفاء وجهها.

أُمّي تنهرني:

- نَمْ، لسّه الدنيا بدْري.

أرى أُمي تحمل بطانيّتها السوداء، مثلما تفعل كلّ يوم وتخرج، مُغلِقةً الباب خلْفها، متجاوزةً السور الحجريّ حول الغرفة الصغيرة التي هي بيتنا. أسمع خطاها تبتعد، تبتعد، وأسمع خطوات أخرى تمرّ تحت شباكنا، تسير في الاتجاه الذي سارت فيه. أتساءل: إلى أين تمضي في مثل هذا الوقت؟ أتقلّب، فأسمع صوت أبي الذي أنهى وضوءه، ودخل الغرفة:

- نَمْ، لسَّه الدنيا بدْري.

أحيانًا أنام، وأحيانًا أتأمّل وجه نور، وأكتب كلامًا جميلًا عنها، في ذاكرتي، لأنني لم أكن أستطيع الوصول إلى قلم ودفتر. أُطمئِن نفسي: "لن أنسى ما كتبت"؛ أردّده وأردّده. أغمض عينَي، أرى وجه نور، أفرح، لكنني أكتشف أنني أحلم، أنها ليست هنا، وكذلك الكلمات التي في رأسي، لم تعد فيه؛ طارت.

منذ أن وصلْنا إلى المخيم، وأُمّي تخرج في أواخر الليل، لم أكن ألاحظ ذلك في البداية، صغيرًا كنتُ، ويسمحون لي أن أنام أكثر. نومنا أفضل الأوقات التي تستريح فيها الأمّ منّا ومن مشاكلنا.

أمّي وجاراتها كنّ يُردِّدن دائمًا: "نوم الظّالم عِبادة". والحقيقة، لم نفهم كيف أننا ظالمون، فنفكّر: "ظلَمْنا مَن"؟ لا نصِل إلى نتيجة، فننسى قولهنّ، إلى أن يُذكِّرْنَنا بظلْمنا ثانية.

ذات يوم، عاد أبي إلى نومه بعد أن أدى صلاة الفجر. حملتْ أمّي بطانية

سوداء، خرجتْ، تسللتُ خلفها قبل أن ينتبه أي من إخوتي. الشمس لم تشرق بعد، ضوء رمادي آخذ في الانتشار، ورائحة طيبة لمطر ناعم توشك أن تتحوّل من فرط روعتها إلى طعم لذيذ. تجاوزتُ ثلاثة بيوت قبل أن أصبح على طرف الخلاء، الخلاء الممتدّ سفحًا فسهْلا فواديًا، فجبلًا في البعيد يسير على حافته قطار سكة حديد الحجاز؛ قطار له هيبته، بدخانه المتصاعد إلى السّماء وصفارته المدوِّية.

بعد أقلّ من ثلاثين خطوة، سمعتُ خطى تتبعني، وضعتُ البطانية على رأسي، سرتُ خائفًا. ما إن أشرفتُ على السّفح حتى رأيت هناك ما لم أره في حياتي، كان السفح أشبه بمخيم كبير من خيام سود صغيرة؛ مئات الخيام.

ارتجف قلبي، لم أعرف ماذا يحدث، ووددتُ لو أهرب، خفتُ. رأيتُ امرأة تنحني وتصنع من بطانيتها خيمة، فعلتُ مثلها، وانتظرتُ.

وقت طويل مرّ، قبل أن أتأكّد من أنني لم أعد أسمع خطى تأتي أو خطى تعود. من شقّ صغير نظرتُ، وقبل أن أرى شممتُ رائحة البول والبراز، ورأيتُ. كان المشهد خاليًا أمامي من أيّ خيمة. إلى البيت عدتُ بسرعة، فوجدت أُمّي تنتظرني أمام الباب ثائرة.

- يا خوف قلبي إنكْ كُنتْ هناك في الخلاء. وللكْ كنت في الخلاء؟

لم أستطع الإجابة، فقذفتْ بي نحو باب الغرفة وهي تصيح:

- إياك ثم إياك أن تكررها ثانية، ألا يكفينا أننا لا نملك حمّامات، ليقوم الأولاد بمراقبتنا.

- لم أكن أراقب، كنت أريد أن أعرف.

- وهل ارتاح بالك الآن؟ هل عرفتَ؟

6

في الوقت الذي كانت فيه علامات نبيل تتحسّن، تراجعتْ علاماتي. كنت الثاني على صفّي، أصبحتُ الثالث. نور قالت لي بصوت واضح لا يخلو من تهديد: "أنتَ أفضل من هذا".

قلت لها: لا فرق بين الثاني والثالث.

– ولكنني اخترتُ أن أكون الثانية بنفسي، وليس مثلكَ؛ تتراجع من الثاني إلى الثالث. في أيّ وقت أريد أن أكون الأولى، سأفعل ذلك، فهل تستطيع أنت؟

لم أُجب. ولكي تُخفّف في وقْع المواجهة في تلك الظهيرة، سألتْ:

– هل كتبتَ لي شيئًا ليلة أمس؟

– كتبتُ، ولكنني نسيتُ ما كتبتُه.

– انتظرني هنا.

دخلتْ البيت، غابتْ قليلًا. عادتْ، وواصلتْ كأنها لم تتوقّف عن الكلام: "منذ هذه الليلة، أي القادمة، عليك أن تضع هذا الدفتر تحت رأسكَ قبل أن تنام"، وناولتْني دفترًا جميلًا، لم أرَ مثله من قبل، ثم امتدّتْ يدها وأخرجتْ قلم حبر جاف، وأضافتْ: "هذا لكَ أيضًا، وتضعه تحت رأسكَ؟"

– قلم حبر جاف؟

– قلم حبر جاف كي تفكِّر جيدًا قبل أن تكتب، فالكتابة بالقلم الرّصاص مُتسرِّعة دائمًا لأننا نحسّ أن باستطاعتنا محوَ ما كتبناه بها. فهمتَ؟

في ذلك اليوم تأكّد لي أنها أذكى فتاة رأيتها في حياتي، وبعد أن سِرْنا قليلًا، قالت:

– ولكن عليَّ أن أعترف، حتى لو رجعتُ لأكون الأولى، فإنكَ تكتب أفضل منّي، لا بقلم الحبر الجافّ فقط، بل بقلم الرّصاص أيضًا.

كنت على وشك أن أقول لها كلامًا جميلًا، بسرعة، لكنني قلتُ في نفسي: سأكتبه لها بقلم الحبر الجافّ.

7

ابنة أكبر تاجر جُـمْلة في المخيم، كانت رحاب، وقد قيل إن والدها تدخّل لتكون ابنته الأولى على الصف أكثر من مرّة، لكن مديرة المدرسة واجهتْه بحزم، بل ويقال إنها طردّته بغضب، وأنذرتْ المعلمات:

- لا تأخذ أيّ فتاة في هذه المدرسة إلّا العلامة التي تستحقّها.

وهذا ما كان.

وحينما بدأت رحاب بالتقدّم نحو الدّرجة الأولى، ونالتْها، لم تكن أيّ من المعلمات، أو المديرة، راضيات عن النتيجة؛ فشعبية نور لدى المعلمات لا تقلّ عن شعبيتها عندي. كلّ مَن رآها أحبّها، ولا أظنّ أحدًا نال هذه المرتبة حتى لو كانت أمّه تدعو له، كما تدعو كثير من الأمهات لأولادهنَّ:

- اللهم يحبِّبْ فيك كلّ مَن شافك.

طبعًا، كانت الدعوة جميلة حقًا، ولكنها للأسف لم تكن تتحقّق دائمًا، فكثير من أصدقائي، بمن فيهم بشير، تحطّمتْ قلوبهم لأن حبيباتهم لم يكلّفن أنفسهن بالنظر إليهم بربع عين، لكن وضْع بشير سيتحسّن بعد فترة، حين أحبّ ابنة شرطيّ وأحبَّتْه. لكنها لم تبُح له بحبّها إلّا مرّة واحدة؛ صادفها عائدة من سوق الخضار، في الزّقاق الضيق المجاور لبيتها، ارتبكتْ، وارتبكَ. في النهاية استجمعتْ شجاعتَها؛ امتدّتْ يدها إلى ضمّة بقدونس تحملها، استلّتْ عِرْقًا واحدًا لا غير، وناولتْه لبشير برقّة مَن تناوله وردة حمراء. امتدتْ يده، وبأصابع منفعلة وقلب مرتجف ووجه مُحمرّ تناول عرْق البقدونس.

بشير ظلّ يتعامل مع البقدونس كنوع من الزّهور، حتى اليوم، ويرى أكله شكلًا من أشكال همجية البشر.

بمجرّد أن أصبحتْ رحاب الأولى على الصّف، هدأت نور أكثر لأنها لم تعد تحس أنها تصارع أحدًا، لكن كلّ من يعرفها كان يدرك أنها الأقوى التي يخشاها الجميع.

أهم ما حدث في الوضع الجديد، أن تغذيتي تحسّنتْ، فقد كانت نور تقتسم بيننا كلّ ما تحصل عليه من رحاب مقابل تخلّيها عن موقعها كأفضل طالبة في الصف، فأتخِمْنا بأشياء كثيرة اشتهيناها طويلًا؛ بدءًا من السّكاكر والموالح وانتهاء بالمعلّبات، ومن بينها علب اللحم المفروم التي يَسيل لعابنا لمجرّد أن نراها. نور لم تأخذ نقودًا من رحاب، اكتفت بهذا، مع أن في استطاعتها أن تطلب من رحاب أن تحمل حقيبتها، لكنها رأت في ذلك نوعًا من التسلّط، إلا أنها لم تسمح لرحاب أن تسير أمامها، ولا أظنّها كانت تستطيع حتى لو حاولت، فقد كانت نور تسير دائمًا محرِّكة يديها في الاتجاهات كلّها، كما تشتهي؛ لتلبية نداء روحها وجسدها الممتلئين بطاقةٍ لا طاقةَ لنا على اللحاق بها.

والد رحاب غدا فرحًا، بحيث لو طلبتْ منه ابنته الوحيدة أيّ شيء لأعطاها إياه. لم يكن يمانع وهو يراها تدخل المخزن الكبير لتملأ حقيبتها بأي شيء، مهما ارتفع ثمنه، لتعطيه في ما بعد لنور، أو لي، لأوصله إليها بعد أن أخبرتْها صاحبة الشعر الأحمر:

– أنا وهذا الشّاب الوسيم شخص واحد، أفهمتِ؟

كان ذلك اليوم هو اليوم الأوّل في حياتي الذي أتذكر أنني ذهبتُ فيه خصيصًا لأرى صورتي في المرآة، وكأنها قاموس، لأعرف معني كلمة "وسيم" تلك.

لم أنم.

كتبتُ الكثير لها في ذلك الدّفتر. قرأتْه، قالت لي وهي تبتسم:

– "من الواضح أنكَ فكّرتَ كثيرًا قبل أن تكتب هذا الكلام. اليوم يمكن أن أقول لك إنكَ الأول، مع أنك الثالث". وأعادت لي الدفتر.

قلتُ لها: "خذيه، فما فيه لكِ".

– آخذه فقط حين يمتلئ.

لم يكن دفترًا صغيرًا؛ عدد صفحاته يفوق عدد صفحات أيّ دفتر وزَّعتْه علينا وكالة الغوث، فأحسستُ أن دفترًا كهذا لن يمتلئ قبل تخرُّجي من المدرسة الثانوية.

لكن ما حدث، أنني أنهيته قبل منتصف سنتنا الدّراسية تلك.

8

في الوقت الذي بتُّ أحسّ فيه بأنني تحوّلت إلى طائر، بسبب ما ينتابني من أحاسيس مع نور، تصاعد النقاش بين أبي وأمّي حول علاماتي وعلامات أخواتي وإخوتي المدرسيّة.

أمّي التي أشرع كلّ منّا عينيه، فوجدها سيدة أمور البيت، ظلّت رغم نحولها وخجلها الفائض -مقارنة بجاراتنا وما بعد جاراتنا- قائدة صُلْبة، أمّا حينما تروي لنا حكايات ما قبل النوم، فإنها تتحوّل إلى ساحرة.

كلنا نبدو مسحورين، وليس في الأمر مبالغة إذا قلتُ: إن السّلوك المنضبط لمعظمنا، سببه أنها عاقبت كلّ من تجاوز الحدود، بحرمانه من الجلوس لسماع تلك الحكايات الليلية.

لم يكن هناك حرمان أكبر وعقاب أشدّ من هذا.

لا أتذكّر أنني عوقبتُ، لا لأنني الأكثر التزامًا بمطالبها وبكلّ ما يمكن أن يفعله الابن لينال الرِّضا، بل لحرصي على ألّا يتمَّ ضبطي مُتلبِّسا بعمل شيء يُغضِب، وإن كنت لا أنكر أن ثمة معاملة مختلفة لي باعتباري ابنها الكبير، الذي جاء بعد عامين من موت ابنها الأول.

مسألة التعليم كانت مختلفة عن أيّ قضية، فهنا لا وجود لكلمة التّساهل. ولأن أبي كان غاضبًا بسبب تدنّي مستوى نتائجنا، وهو الأمْيّ الذي ما حلم بشيء مثلما حلم بأن يكتب اسمه، ويكتب أسماءنا مثل طفل بدفتره، كما سأصفه بعد زمن طويل، فإن غضب أمِّي تصاعد بحيث فاق التوقّعات.

بتصميم مُتَّقِد لم نعْهدْه فيها قالت لأبي: "أتركْهم لي، سأحلّ المشكلة".

السبب الوحيد الذي دعا أبي، ربما، لأن يأخذ كلامها على محمل الجدّ؛ أنها لم تقطع وعدًا إلّا ونفّذته، وبالتالي فإن كلامها أقوى من أيّ عقد يمكن أن يوقّعه طرفان، متّفقان أو مختلفان.

تغيّر كلّ شيء فجأة ورأينا وجهًا جديدًا لها، لم نرَه من قبل.

***

ذلك الحديث الصاخب دار في الصباح، وعندما حلَّ المساء، كنّا جميعًا في البيت؛ بعضنا نائم على بطنه يدرُس، بعضنا يكتب فوق وعاء الغسيل الذي قُلِبَ رأسًا على عقب، وأنا كالعادة، لا أقرأ إلّا إذا كنت أسيرُ مثل بندول الساعة في الحوش الصغير، وفي مكان أقدامي دائمًا هناك ممرّ يزداد عمقًا وصلابة يومًا بعد يوم، بحيث يغدو مثل مجرى جدول جاف تحوّل إلى درب.

بعد ساعة من انهماكنا في الدراسة طلبتْ دفاترَ الذين أتمّوا واجباتهم، كما يطلب أيّ أستاذ أو معلّمة أوراق الامتحان عند انتهاء الوقت المخصص.

أمسكتِ الدفاتر واحدًا بعد الآخر، وهي تمرِّر عينيها بسرعة فوق الأسطر، واضعة بعضها إلى يمينها مفتوحةً على الصفحة التي أنجِزتْ، والأخرى إلى يسارها مُغلَقةً تنتظر دَوْرها.

كانت أرجلنا تهتزّ كلّما اهتزّ رأسها.

نظرتْ إلى صاحب أوّل دفتر مقلوب، وقالت دون مقدمات:

- "كيف يمكن أن تنجح وأنت تكتب هذا؟"، ومزّقت الصفحةَ التي كتبها وألقتْ الدّفتر تحت قدميه، طالبة منه أن يُعيد ما كتَبَ بصورة أفضل.

... وهكذا استمرَّ الأمر.

في ذلك اليوم مزّقت خمس صفحات من ثلاثة دفاتر على الأقلّ:

- "ما مرَّ لن يعود أبدًا. من اليوم سأكون معكم في كلّ كلمة تكتبونها".

وطلبتْ منّا أن نقرأ. خفْنا؛ المجتهدون ونصف المجتهدين والكسالى، بحيث راح بعضنا يتأتئ قبل أن تأمره بإعادة قراءة بعض الجُمَل.

حين وضعْنا رؤوسنا على المخدات المصنوعة من قطع القماش البالية، أو من القش أحيانًا، كنّا على ثقة -كما اعترف الواحد منا للآخرين أننا بعدم اجتهادنا جَنَيْنا على أنفسنا، بعد أن فوجئنا أن أمَّنا تعرف القراءة والكتابة.

***

لم يطل الوقت. تحسنتْ نتائجنا، وبدا أبي راضيًا عنّا قليلًا، وعنها كثيرًا، فقد وعدتْ وأوفتْ، ولم تكتفِ بإشرافها علينا في البيت، بل راحت تدور على صفوفنا وتسأل المعلمين والمعلمات عنّا واحدًا واحدًا، وذلك أمرٌ يخيفنا أكثر من أي شيء آخر.

9

افتقدتْني نور وافتقدتْ كتاباتي لها، جاءت تسأل عنّي، فتحتْ أُمِّي الباب وخلفها شجرة التوت تهتزّ.

استدارتْ هاتفة باسمي.

خرجتُ، ابتعدتْ أمّي، وإذا بي وجهًا لوجه مع نور.

- لم تعُد تظهر.

شرحتُ لها ما حدث، فهزّتْ رأسها:

- كان يجب على أمّك أن تفعل هذا منذ بداية العام الدّراسي، لكنها تأخّرتْ، فعلاماتكَ لا تعجبني أيضًا.

- أنتِ معها إذا؟

- "وهل تتوقّع أن أكون معك؟"، واستدارت.

- متى سأراكِ؟

- عندما تتحسّن علاماتك، بعد أسبوعين سأزوركم، وإذا كانت الأمور جيدة سأراكَ، أما إذا كانت جيدة جدًا، فسأسافر معك.

وابتعدتْ.

في تلك اللحظة أحسستُ أنني أقف في نقطة ليس لها أيّ اتجاه؛ نقطة تشبه النقطة التي توقّفتُ فيها طويلًا، في اليوم الأوّل لوصولنا إلى المخيم حيث لا شيء غير الطين والضباب.

تفقّدتُ جناحَيّ فلم أجدهما، أما مدْرج مطاري فقد تحوّل إلى أخدود.

10

أصبحنا نخشى أُمّي أكثر مما نخشى أيّ أستاذ، لم نعرف كيف استطاعتْ بين يوم وليلة أن تُغيِّر سلوكها معنا، وتضبطنا، بحيث بات الواحد منا قادرًا على أن يحصي أنفاسه وأنفاس من حوله، أثناء الدّراسة وكتابة الواجبات.

ولم تظهر نور.

وظهر أستاذ الرياضيات الذي كان مُصرًّا على أن يقتطع نصف وقت الحصّة ليُعلِّمنا الدِّين.

قرأ سورة الفاتحة، وألقى نظرة علينا. سمعتُ اسمي يخرج من بين شفتيه الغليظتين كعاصفة تهتزّ معها شعرات لحيته المدبَّبة، التي يعتصرها دائمًا، كما لو أنه يحلب نعجة، طالبًا منّي أن أرفع يدي.

رفعتُ يدي. لم يكن في الصّف أحد يحمل هذا الاسم سواي، وهو اسم أوقعني في الكثير من المشكلات، فكلّما قرر أستاذ الصفّ أن يسأل سؤالًا أو يطلب منّا طلبًا، استند إلى الترتيب الأبجدي، غالبًا.

- أنت هو إذن؟ وهز رأسه بحركة تُنذر بالعواقب، ولكنها لم تكن كذلك.

حتى اليوم يدهشني أولئك الذين يقولون عبارات طيبة وعبارات مُهدِّدة بالطريقة نفسها.

- "سلِمَتْ يُمناك"، قال لي، وأضاف: "هذا أجمل خطٍّ رأيته منذ أن اجتازت قدماي عتبة أوّل صفّ مدرسيّ، مُعلِّمًا"، وسألني: "من علّمكَ هذا؟".

أدركتُ أنني لن أتعرض لعقاب، لكن الطريقة التي طرح فيها السؤال أوحت بأنه سيعاقبني ويُعاقب من علّمني الكتابة بصورة جميلة.

- "أنا علَّمتُ نفسي"، أجبتُ.

11

بدأ الأمر، قديمًا، حينما وقعتْ في يدي جريدة "فلسطين" التي أحضرها ذات يوم خالي محمود أثناء زيارة لنا، لم أكن أعرف اسمها بالطبع. فتنتني تلك الكلمات الكثيرة التي لا أعرف معناها.

سألته عمّا فيها، فقرأ لي بعض الأخبار وأنا أستمع إليه غير مُصدِّق أن الكلمات السوداء على الورق لها هذا الصوت الجميل.

ثم فتح الجريدة وقرأ من منتصفها كلامًا أحببته كثيرًا؛ شِعرًا، كما أخبرني، إلى درجة أنني سألته سؤالًا لم يكن يتوقّعه: "لماذا لا يكون كلّ ما يُكتب في الجريدة كلامًا جميلًا كهذا؟".

خالي محمود قال لي: "يا ريت، كنتُ سأصبح أغنى الأغنياء".

وسيمرُّ زمن طويل حتى أعرف سبب أُمنيته تلك.

طلبتُ منه أن يهديني قلمه الذي يُطلّ من جيب قميصه. لم يتردّد، منحني إياه، وقال "سأجلب لكَ دفترًا". غاب قليلًا، وعاد يحمل دفترًا اشتراه من أقرب دكان.

أوّل ما فعله، أنه علمني كيف أمسك القلم بطريقة صحيحة، أما الدرس الثاني فأن أكتب فوق السّطر.

طويلًا تأمّلتُ القلم، ولحرصي الشّديد على الدفتر، قررتُ أن أكتب أولًا على يدي.

حدّقتُ إلى الكلمات كأنني أُصوِّرها، رأيتها تغادر الورق وتنتقل إلى رأسي. بعد يومين من استخدام راحة يدي اليسرى صفحةً، أملؤها وأمحوها، بدأت باستخدام الدفتر.

كنت دقيقًا جدًا، أجتهد ما استطعتُ في كتابة كلّ كلمة كما هي تمامًا في الجريدة، الكلمات الكبيرة استخدمتُ عودًا خشبيًّا لكتابتها على التراب؛ كان لديّ يقين أن الكلمات الكبيرة تُكتب كبيرة لأن صوتها عالٍ، وتُقرأ بصوت عالٍ، أما الكلمات الصغيرة فتُكتب صغيرة لأنها تُقرأ بصوت منخفض.

أُمّي فرحتْ باستغراقي، تتأمّل ما أخطّه في دفتري بسعادة، وتداعب شعري بأصابعها الدّقيقة. وضاعف سعادتها أنني لم أعد أختفي فجأة، حتى، وهي تنظر إليّ. حوادث اختفائي كانت سببًا في ميلاد قصص كثيرة، ودموع، أيضًا، وهي تبحث عنّي.

أصبح الدفتر والجريدة بيتي الصغير، داخل بيتنا، الذي لا أغادره.

خالي محمود أحضر لي دفاتر أخرى، وصحُفًا، وهو مبهور بقدرتي على الكتابة مع أنني لا أعرف القراءة، وحينما بدأ يلاحظ أن خطّي أصبح أجمل، اشترى لي دفاتر أفضل، وأقلامًا بأربعة ألوان: أسود، أحمر، أزرق وأخضر.

أمدّتني الألوان بحماسة أكبر، إذ بتُّ أرى أن ما أكتبه بها أجمل من الأصل، لأن الأصل أسود، إذا ما استثنينا الكلمات ذات الصوت العالي، الكبيرة، التي تُكتب بأحرف حمراء، وأعني العناوين. ولكن ما حدث، أن الألوان باتت تُنسيني الكتابة أحيانًا، ففي الوقت الذي أكون فيه مُنهمكًا في الكتابة، تبتعد يدي عن انحناءات الحروف وامتداداتها وتذهب نحو انحناءات وخطوط من نوع آخر، فتكون النتيجة رسومًا لطيور أو بيوت، أشجار، بشر، أو أشياء لم أكن رأيتها من قبل، أو لعلي رأيتها في أحلامي ونسيتُها واستعدتها بالرّسم.

بعد ثلاثة أشهر أحسّتْ أمّي أنني لن أنمو، وأن زيت الزيتون الذي دهنتْ به جسدي، وأنا رضيع، سيضيع سدى. كانت تعتقد أن الزّيت سيجعلني طويلًا، ولم تكن تكتفي بدهن جسمي بل تشده ليصبح أطول.

هذا ما ظلّتْ تردّده طوال حياتها، سعيدة بإنجازها الذي تحقّق، وإن كنتُ تمنيتُ لو أنها دلّكت شعري بالزّيت أيضًا، كي لا يكون مجعّدًا، أو كما يُطلق الأولاد على هذا النوع من الشعر "فلافل".

ذات يوم صحوتُ، لم أجد دفاتري وأقلامي، وقبل أن أسأل أين اختفتْ، أخبرتْني أنها ستعيدها إليّ بعد أن ألعب مع الأولاد الآخرين خارج البيت.

فوجئتُ بهذا التحوّل الذي لم أتوقعْه، فطلبتُ أن تعيد الدفاتر إليّ أولًا قبل أن أخرج.

أصرَّتْ.

خرجتُ.

وبعد أقلّ من خمس دقائق عدتُ، فطلبتْ منّي أن أذهب لألعب أكثر. بعد

خمس دقائق عدتُ. أخبرتها أنني تعبتُ، قالت: "الأطفال الذين في عمرك لا يتعبون، اذهب والعب، لا أريد أن تنسى أن لكَ قدمين فتتحوّل إلى سحليّة، فأنت طوال النهار نائم على بطنكَ، تكتب".

ما حدث أنني حين دخلتُ المدرسة كنت صاحب أجمل خطٍّ، لا يحتاج سوى للقليل من الدّروس ليعرف القراءة بسرعة تفوق سرعة غيره من التلاميذ.

***

لم أقُل ذلك لأستاذ الرياضيات الذي يصرّ على اقتطاع نصف الحصة لتعليمنا الدِّين، رغم وجود حصة دين وأستاذ دين نحبّه.

لم أقل له ذلك، ولكنني وجدتُ قدمَي تمضيان بي بعد انتهاء اليوم المدرسي إلى بيت نور.

طرقتُ بابها، خرجتْ.

- بشّرني.

- أستاذ الرياضيات الذي يُصرُّ على أن يُدرِّسنا الدِّين أخبرني أمام الصفّ أنه أحبَّ خطّي كثيرًا.

- وهل حسَّنَ هذا علاماتكَ في الرياضيات؟

- لا، لا أظنّ.

- عليك إذن أن تُحسِّن علامتكَ في الرياضيات، قبل أن تأتي إليّ في المرّة القادمة.

ابتعدتُ، غير قادر على أن أنظر خلْفي، وأنا أحمد الله على أن نور ليستْ أُمّي.

12

الآن أستطيع القول إن تراجع مستوانا التّعليمي في المدرسة أيقظ في أُمِّي أقسى الحكايات، الحكايات التي عاشتها أيام الهجرة، كما لو أنَّ تراجُعَنا نكبة ثانية تخبئ لها الكثير من العذابات.

حكتْ لنا ما لم نسمعْه من قبل، هي التي استبدلتْ القصص الشعبية التي كانت تحكيها لنا، كي ننام، بقصص عاشتها لتحِرمنا من النّوم، أو لنبقى متنبّهين لما سيأتي، دائمًا:

"عطشتْ خالتكم آمنة، أصغر البنات، ومع أن خالكم محمود كان الأصغر، إلّا أن خالكم محمود لم يتعب، كان يركض حاملًا طنجرة وكأنه ذاهب إلى عُرس".

في كلّ مرة جلستْ لتحكي، أعادت تلك الجملة المتعلِّقة بخالي محمود، ثم صمتت بعدها طويلًا، حتى نظنّ أنها نسيتْ ما كانت تريد قوله.

كنّا نحسّ أن أمّي غادرتْنا وذهبتْ إلى هناك، إلى زمن التهجير من فلسطين. وحين تعود تبدو ضائعةً، إلى أن تتذكّر السبب الذي جمعتْنا من أجله.

"خالتكم آمنة لا تنتهي قصصها، وكلّ قصّة أغرب من الثانية، اليوم سأقول لكم إن تلك البيضاء، الشقراء كبنات الإنجليز عطشتْ، بكتْ وبكتْ، ونحن نرى وجهها يتشقّق ويديها.

جدتكم قالت لنا إن جلد آمنة، تحت ثيابها، يتشقّق أيضًا؛ ظهْرها، بطنها، صدرها.

لم تعرف جدتكم "خضْرة" ما الذي يمكن أن تفعله، لكنها ذات يوم، بين الجبال، قالت لنا: اجلسوا هنا، سآخذ محمود معي، ونذهب لإحضار الماء من أجل آمنة.

فرحتْ آمنة، وفرح محمود الذي رفض أن يترك الطنجرة الفارغة خلْفه، فلولا تلك الطنجرة... ".

وصمتت أمّي ثانية.

"غابت جدتكم وخالكم طويلًا، حتى ظننّا أنهما لن يعودا، لكنهما حين وصلا، قالت لي جدتكم "خذي محمود بعيدًا، لا أريده أن يرى ما سيحدث".

رأينا علبة صغيرة في يد جدتكم، علبة خضراوات فارغة، وكلّ أعيننا محدّقة فيها، وفي يد جدتكم التي ترتجف كأنها تحمل قنبلة ستنفجر وتقتل الجميع.

ابتعدتُ بمحمود، جلستُ معه خلف صخرة، والطنجرة في يده، وهو لا يكفّ عن ترديد سؤال لا يفارق لسانه منذ أن غادرْنا قريتنا: "مطوْلين لنصل؟"، وكانت إجاباتنا دائمًا: "قرّبْنا".

***

"حين عُدنا وجدنا آمنة تضحك، بعد أن أروتْ عطشها، أما جدّتكم فكانت تبكي.

كلّما بكتْ آمنة أخذتْه جدتكم من يده ومضت به بعيدًا عن أعيننا. أحيانًا كانا يعودان بسرعة، وأحيانًا يتأخّران كثيرًا.

في يوم من الأيام تأخّرا أكثر مما يجب، فذهبتُ للبحث عنهما.

وجدْتُهما، كانت أُمّي تطلب من محمود أن يحاول مرّة أخرى، أن يضغط على نفسه أكثر، وكان يصيح: لا أستطيع.

رأيت ثوبه مرتفعًا إلى ما فوق خصْره، وأمّي ممسكة بالعلبة الفارغة بين فخذيه، مُعيدة مرّة تلو أخرى طلَبها الأشبه برجاء، دعاء، أن يبول.

في تلك اللحظة بدأتُ أبكي، وواصلتُ بكائي، والكلّ يسألني:

- لماذا تبكين؟

فأجيب وأنا أحتضن آمنة بيد ومحمود بيد: أبكي على حالي.

13

ذات يوم عادت أختي نوال بدفتر تُغطي صفحتين منه علامات X مرسومة بحبر أحمر. رأته أمّي، سارت إلى آخر الحوش وراحتْ تبكي.
غربت الشمسُ؛ لم نعد قادرين على رؤية أمّي بسبب العتمة، سمعنا صوت خطواتها وهي تتقدّم نحونا. خفْنا أكثر، أقرب لشبح منها إلى إنسان، أشعلتِ القنديلَ الذي لم نجرؤ على إشعاله، وتأمّلتْنا كما لو أننا غرباء فوجئتْ بوجودهم حولها.
طلبتْ من نوال أن تكتب واجبها المدرسي من جديد، وبين حين وحين كانت تُلقي نظرة على الدفتر، وعلى دفاترنا. أنْهينا ما علينا، طلبتْ منا جميعًا أن نقرأ دروسنا، واحدًا بعد الآخر، بصوت عالٍ.
استمعتْ باستغراق، وجعلتْنا نعيد بعض الجُمل مرّة، مرّتين، ثلاثًا، إلى أن باتتْ، تلك الجمَل، ملتصقة بألسِنتنا، ومزروعة في عقولنا.
لم أستطع النوم عندما ناموا، اعتدلتُ مُسندًا ظهْري إلى الجدار.

في الليلة التالية سألتُها:
- ما هي حكاية خالي محمود مع الطنجرة؟
- سأقولها لكَ ذات يوم، لأنني أخشى أن أقولها الآن فيسمعها من بعيد، ويتذكّرها إن كان نسيَها، مع أنني لا أظنّ أنه سينساها.
- ولكنه ليس هنا.
- سيسمعنا، صدّقني، سيسمعها حتى لو كان في آخر الدنيا.
- وهل علِمتْ خالتي آمنة بما كان يحدث؟ هل علمتْ ماذا كانت تشرب؟
- لم تتحدّث في ذلك، ولم نتحدّث، لكن بعض الأسرار التي لا نقولها تصبح معروفة أكثر لأننا نبالغ في صمتنا كلّما تذكرناها، أو كلّما سُئلنا عنها.
ثم صمتتْ، كأنها اختفتْ، أو كأن الكلام الذي في العالم انتهى، إلى أن عاد

صوتها:

- أريدكم أن تتذكّروا ما حصل لنا، أريد أن أتذكّر ما حصل لنا، كي لا نُصاب ببلادة كيس الطحين الذي يتصدّقون به علينا في نهاية كلّ شهر، وأريدكَ أنتَ، أنت بالذات، أن تتذكّر، أتعرف لماذا؟ لأنك الكبير، ووحدكَ الذي يمكن أن يُذكِّر أخواته وإخوته بما عشناه إن حصل لي أو لأبيك -لا سمح الله- مكروه.

كانت أُمّي تتعامل معي، منذ أن بلغت السابعة، باعتباري رجل البيت طوال غيبة أبي عن المنزل في عمله. أما حين يعود، فكنت أشبه ما أكون بحـارس يمضي إلى النوم ليُسلِّم حارسًا آخر مسؤوليات الحماية.

***

- "سأقول لك شيئًا، أنتَ لم تعد صغيرًا"، قالت لي بعد أربعين عامًا، وقد أصبحتْ تشكو من أمراض الشيخوخة وتُردِّد كلّما زُرْتُها وسألْتُها عن صحَّتها:

- شوفْ، أنا بعرف، ما راح أشفى من أمراضي إلّا لما أموت. ولكن هل تعرف ما الذي يشغل بالي؟ مَن سيدعو من أجلكم اللّـهَ إن متّ؟ هل تعرف كم هو صعب أن تدعو الأمُّ اللّـهَ كي يحفظ لها عشرة أبناء؛ عشرة أبناء لا يستر أرواحهم في هذه الغربة وطن؟ هل تعرف كم هو صعب وقد أصبح عدد الذين يريدوننا أمواتًا أكثر من عدد شَعري الشّائب هذا؟ هل تعرف...؟

وأحاول أن أهرب بها بعيدًا.

- كنتِ تريدين أن تخبريني بشيء ما، أمْ تراجعتِ؟

- لا، لم أتراجع، سأظلّ أحكي لك كلّ ما عشته، كلّ ما أتذكره، ولكن أنت تعرف: شو بدي أتذكّر لأتذكّر؟ هو قليل اللي عشته؟ أظنّ أن أبي كان يعرف هذا، فسمّاني عايشة. سأقول لكَ قصة أخرى، لتحفظها، لا أريد أن تموت هذه القصص إذا متُّ: الله يطوّل عمري ويعطيني الصّحة. أريدك أن تعرف ما حصل، فأنتَ الكبير.

هل قلت لكم إن جدتكم "خضرة" كانت تبكي أحيانًا وتطلب من محمود أن يلعق الدموع التي تبلل خديها، لكي ترويه؟ لكن دموعها جفّتْ آخر الأمر.

وصمتتْ أيضًا. لم أجرؤ على مقاطعة صمتها، وأنا أرى العتمة القديمة تهبط وتهبط، وأرى سرًّا آخر على وشك أن يولَد:

- الآن أنت تعرف قصة خالك محمود، لم أنسَ أنكَ أخبرتني أنه قالها لك بلسانه في زيارتك له، هناك، في السّويد، مع أنني صلّيتُ كثيرًا لكي ينساها. سأقول لك الآن، بعد أن كبرتَ، إن ما حدث مع خالتك آمنة لم يكن أقسى ما عشناه أيام الهجرة. كان من الصّعب عليّ أن أخبرك بهذه القصة، وأخبر إخوتك، لو سمعها أحدكم لعاش خارج النوم، وكره الماء، كما كرهتْه آمنة.

وصمتتْ.

- في ذلك اليوم البعيد وصلنا إلى قمةِ تل، عطشى وجائعين، بثياب ممزّقة. في كلّ يوم كنّا نترك خلْفنا قبر واحد من أطفالنا، أو قبر امرأة كبيرة السنّ، أو قبر رجل عجوز تركتْه رجلاه وعادتا لأرضه حينما فهمتا أنه ابتعد عنها أكثر مما يجب. أو قبر مصاب بطلقة أو بشظايا قذيفة.

بعض المهجَّرين رأوا طيورًا تحطّ في أسفل السّفح، قرب ماء يلمع في حوض حجري. عرفنا أن هناك بئرًا. اندفعنا كالمجانين، لا شيء يمكن أن تركض نحوه وأنت فاقدٌ عقلكَ كما يمكن أن تركض نحو الماء وأنت موشكٌ على الموت عطشًا.

وصمتتْ.

ولأنني اعتدتُ ألّا أقاطع صمتها أبدًا، تمسّكتُ بصمتي.

- في ذلك اليوم ارتوت البئر أكثر مما ارتوى الناس.

طلبتُ منها أن تشرح لي، فقالت موبِّخةً: *أنت الذي تقول عن حالك كاتب مش فاهم شو بقصد؟*

وواصلتْ: *الناس جُنُّوا، فأخذوا يسقطون في البئر بسبب اندفاعهم، ومرّ وقت طويل قبل أن ينتبه مَن في الخلف لما يحدث للذين في الأمام، فتوقّفوا.*

كلنا سمعنا صرخات الذين كانوا يغرقون، يغرقون عطشى، أظنّهم كانوا يفكّرون في الموت لحظتها، من يستطيع أن يتذكّر عطشه وهو يغرق؟ الماء في قعر البئر كان الموت لا الحياة.

عثرنا على حبل وأنزلْنا بعض الشباب لرفع الجثث التي في الماء، لم نعرف إن كنّا، في تلك اللحظات السوداء، عطشى أمْ أمواتًا.

انتشرت الجثثُ حول البئر، ونحن نبكي. فجأة رأينا امرأة تنحني، ودموعها تنحني معها، وتضع الثياب المبتلّة لأحد الغرقى في فمها، وتمتصّ الماء الذي فيها.

كلّنا اعتقدنا أنها جُنّتْ، إلى أن انتبهنا أنها العاقلة الوحيدة بيننا، لأننا بغير ذلك سنموت. اندفعْنا جميعنا، نجمّع أطراف ثياب الغرقى بين أصابعنا كأنها ضرع بقرة ونمتصّ ما فيها من حياة.

منذ ذلك اليوم، كلّما صادفتُ في الطريق واحدًا ممن عاشوا معنا تلك اللحظات التي لم تنتهِ لا أستطيع النظر إلى عينيه، ولا يستطيع...

14

رحنا نحقّق نجاحات أفضل في مدارسنا، وبدا أبي سعيدًا، إذ بات يشتري لنا بعض الفواكه التي لم نكن نراها إلّا في نهايات الشّهر؛ عندما يستلم راتبه. أكثر شيء أتذكره هو تلك الشّامة الكبيرة التي تكفي قبيلةً، هي عائلتنا حتى ذلك الحين، قبل أن تشتعل الحرب بيني وبين أمّي وتتعرض صداقتنا لأصعب اختبار منذ ولدتُ؛ الحكاية التي سيأتي وقتها، لأنها الحكاية التي كانت السبب الأوّل في كتابة ما كتبتُ حتى الآن.

في تلك الشّهور أثبتتْ أمّي أنها القائدة الفعليّة لبيتنا، إلى ذلك الحدّ الذي أطلقتْ فيه على نفسها لقب "وزيرة التربية والتعليم". وظلّت متمسّكة بهذا المنصب، رغم جلوس عشرات الوزراء على هذا الكرسي، ومغادرتهم له، رسميًّا.

في لحظات كثيرة كانت تهدّد بعضنا أن باستطاعتها منحه علامة جيدة أو تجعله يرسب في صفّه، لكن تهديداتها امتزجتْ دائمًا بابتسامة منها، وإيمانًا منّا، بأنها تستطيع.

15

كعادتها، وصلتْ عمّتي إلى بيتنا ، ضحى الخميس، قادمة من "بيت لحم"، مُتعبةً كما لو أنها قطعتِ الطريق من مخيم "العَزّةْ"[1]، هناك، إلى مخيم الوحدات، هنا، سيرًا على رموشها.

كلّنا لاحظنا أن زيارات عمّتي تزايدت في الشهور الأخيرة، وكنّا فرحين بذلك، فالفصل شتاء، ولم تكن لدينا مدفأة أفضل منها؛ سمينة، وتفوح منها رائحة موقد عملاق، لذا كنّا نتسابق إلى النوم بجانبها، هي الحريصة على أن تظلّ عادلة في توزيعها لدفئها، وإن استيقظتْ، أحيانًا، بعد انتصاف الليالي غير قادرة على التّنفّس لأن واحدًا أو اثنين من إخوتي، أو أخواتي كان ينام على صدرها، كما لو أنها سرير.

رقيقة كانت، ويضاعف رقّتها ذلك الوجه الصغير الممتلئ بجمال غير عادي، لا تجاعيد فيه ولا ترهل، كوجوه الأطفال. تفتح عينيها، تعدّل رأس النائم على صدرها وبطنها، وتعود إلى نومها. عرفنا هذا، لأننا كثيرًا ما استيقظنا، دون أن نشعرها أننا استيقظنا، ورأيناها تُعدّل جسد أحدنا كي لا يصحو برقبة متخشّبة.

عمّتي كانت تحبّ نور أيضًا، وبمجرّد أن تنتهي من تفقّدنا، تسأل سؤالها المعتاد:

- لماذا لا أرى صاحبة العينين الخضراوين والشّعر الأحمر؟

لم تكن نور راضية عن رضا أُمّي عليّ، كان سقف مطالبها، كما يقال اليوم، أعلى. صحيح أنها استجابت لأمّي وزارتنا مرّة، بعد تحسُّن علاماتي، إلّا أنها لم تكفّ عن مطالبتي بنتائج مدرسية أفضل. حتى تراني؛ إن رأتْني؛ وهي سعيدة فعلًا بلقائي.

---

[1] - تأسس مخيم "العَزّةْ"، ويسمى أيضا مخيم بيت جبرين، عام 1950 في قلب مدينة بيت لحم. وهو يُعدّ أصغر مخيم للاجئين الفلسطينيين في الضفة الغربية، حيث تبلغ مساحته 20 دونمًا.

بسرعة شرحتْ لها أمّي لعمّتي أسباب رفض نور للقدوم. عمّتي هزّتْ رأسها وهي تتأمّلني غاضبة أكثر منها معاتِبة:

- وإذا لم تتحسّن علاماتكَ فلن تنام هذا الشتاء قربي أبدًا.

داهمني بردٌ شديد وأنا أسمعها تقول ذلك، في وقت كان فيه ابتعادي عن نور يجعلني أحسّ بصقيع لا أستطيع التغلّب عليه مهما اقتربتُ من النار.

16

لم يكن صعبًا عليّ، أنا الواقع في حبّ لا أستطيع أن أخفيه، إلّا أن ألاحظ ما كانت تخفيه عمّتي؛ فعلى بُعد أربعة بيوت من بيتنا يسكن رجل على مشارف الأربعين من عمره، يعرفه المخيم باسْم "المصري".

بعض الناس تهامسوا: "إنه فلسطيني، ولا علاقة له بمصر"، لكن أحدًا لم يستطع تأكيد ذلك أو نفيه. لم يكن قد تزوّج، مع أنه واضح الوسامة، في زمن حافل بفرص الزّواج بسبب الفقر المقيم في كلّ بيت؛ فإذا كان عدد أفراد العائلة خمسة، فالفقر سادسهم، سبعة، فالفقر ثامنهم، أما إذا كانوا فوق العشرة، فإن الفقر أمّهم وأبوهم.

كلنا رأينا في "المصري" عاشقًا، قبل أن نعرفَ من هي الحبيبة، قلنا: "ليستْ من سكان الوحدات". بعضنا تمادى أكثر: "حبيبته هُجِّرَتْ إلى سوريا، لبنان، العراق، مصر، غرقتْ في البحر، قُتِلتْ في غارة على مشارف الخليل. نجتْ، فتزوّجتْ وأنجبتْ". وقال بعضنا: "كلّ ما في الأمر أنه يبحث عن فتاة أحلامه ولم يجدها بعد". أصحاب هذا الرّأي عزّزوا اعتقادهم بأنه مصريّ، وفي مصر الحياة مختلفة، إذ لا يحصل هناك ما يحصل معنا "مَن يُرِدْ أن يعرف مصر، فعليه أن يرى فيلمًا مصريًّا على الأقل، ليتعلّم كيف يكون الحبّ"؛ هذا الرأي أغاظ بعض اللاجئين من أهل عكّا وحيفا ويافا والقدس الذين أكّدوا "أن مدنهم لم تكن أقلّ تطوّرًا من القاهرة، ومَن لا يعرف هذه المدن فلا يعرف أيّ مدينة في العالم. يكفي أن أمّ كلثوم وفريد الأطرش ويوسف وهبي والرّيحاني، كانوا يغنّون عندنا، ويقدّمون مسرحياتهم في مدننا أكثر مما يغنون ويعرضون أعمالهم في القاهرة نفسها".

دفاعهم عن مدنهم كان جزءًا من إحساسهم أنها لم تزل لهم وحدهم، لا للاحتلال؛ هذا ما كانت تفعله أمّي وهي تقول لنا: "تذكروا، مهما رأيتم من بلاد في حياتكم، فلن تروا أجمل من بلادنا".

الآن يمكنني القول إن تلك غَيْرتهم على قراهم ومدنهم، وسأفهم الأمر

أكثر عندما راحت صحّة أمّي تتدهور بعد عقود. في كلّ يوم تنسى ما حولها، لعشر دقائق أو أكثر، لا تتحدّث خلالها إلا عن بيتها وطفولتها في فلسطين.

بِتْنا نخشى عليها فقدان الذاكرة، مع أن أحدًا في العائلة لحسن الحظّ لم يُصب به. كلّ يوم، تسافر في الزمن، تطلب من أحدنا أن يُحضِر لها تينًا من حوش بيتها هناك، وأن ينتبه لخالتي آمنة التي تلعب بجانب البئر، وتبكي وهي تتذكّر الطائرة الإنجليزية التي سقطت فوق بيارة البرتقال العائدة لجدي "عليّ"، تبكي لأن أشلاء الجنود الهنود ظلّت معلّقة على الأشجار أسبوعًا؛ أكثر من ثمانين جنديًّا ماتوا؛ كان يمكن أن تواصل الطائرة طريقها نحو بيت جدّي فتقتل كلّ من فيه، لولا أن أشجار البرتقال كبحتْ انطلاقتها وهي تتقدّم كقطعة ملتهبة من جهنّم.

كانت أمّي تسألنا عن خالي الكبير، ونستغرب سؤالها: هل أعادته الطائرة إلى المطار؟

ولم يكن هناك مَن نسأله عن حقيقة هذا الأمر سوى خالتي زينب. قالت لنا: "أمّكم لا تهلوس، ما تتذكره صحيح، كان المطار قربنا، بجانب بيارتنا، والشباب الفلسطينيون يشتغلون فيه، ومع تزايد المعارك بيننا وبين الإنجليز، كان الطيّارون يخشون عبثَ شبابنا بطائرة ما، فتسقط بعد أن تطير، وتزايد خوفهم بعد سقوط الطائرة في البيارة، مع أنها كانت قادمة من الهند. لذا، بدأ الطيارون يأخذون ولدًا من أولاد البلد معهم، رهينة، في الطائرة، كلّما حلّقوا، كي لا يجرؤ أحد على العبث بها، ولكي لا يستطيع المقاتلون الفلسطينيون إسقاطها حين تقصفهم".

تسقط دمعات من عينَي أمّي ونحن نراها تعود إلينا بعد الدّقائق العشر التي أمضتها في قريتها، تتأمّل وجوه أبناء إخوتي، تتفقّدهم، وتسألنا عن سبب غياب واحد منهم أو أكثر، معدّدة أسماءهم بذاكرة نغبطها عليها.

17

عمّتي أصبحتْ مأخوذة أكثر فأكثر بأغاني أمّ كلثوم، وسماعها، عبر ذلك الراديو الذي اشتراه أبي ويحتاج إلى ثماني بطاريات كي يعمل.

لم يكن هناك رضا على الإسراف في الاستماع للراديو لأننا ندّخره لأخبار كبيرة، ليست أغاني أمّ كلثوم منها، وأعظمها خبر عودتنا إلى فلسطين.

كلّ إنسان في المخيم انتظر، وتمنّى، سماع ذلك الخبر قبل الآخرين، وكأن ذلك سيجعله أوّل العائدين، لذا كانوا يحتملون المخاطر التي يمكن أن تنجم بسبب اقتناء راديو، وأبسطها بالطبع، حيازة رخصة سنوية صادرة بمقتضى المادة 15 من نظام الأجهزة اللاسلكية اللاقطة رقم 1 الصادر عام 1955، وقيمتها دينار، كما أن صاحب الراديو مسؤول عن الحفاظ عليه، وبذلك لا يستطيع الادعاء أنه تمّ شطب الرّاديو أو تلفه، أو ضياعه أو سرقته دون أدلة كافية، وإذا حدث ذلك، فإن عليه مراجعة دائرة البريد خلال شهر من تاريخ وقوع السبب، ولوزارة المواصلات حقّ قبول الادعاء أو رفضه حسب المادة 24، بما يترتب عن ذلك من مساءلات قانونية.

كلّ هذه المجازفات من أجل اقتناء راديو، ولم يأت الخبر عبر "الأثير" كما كان المذيعون والمذيعات يتلذّذون وهم يخاطبون المستمعين: نحييكم عبر أثير إذاعة عمّان، عبر أثير إذاعة القاهرة، عبر أثير إذاعة الـ بي بي سي. كانت كلمة "أثير" ساحرة.

كلمة أثير تلك، كتبتُها في دفتر خاص أدوّن فيه الكلمات التي تعجبني.

لم يطل الوقت قبل أن أكتشف أن عمّتي مغرمة بالمصري، وإن لاحظتُ، بخبرتي العاطفية، أن فرصة ملاحظتِه لوجودها معدومة تمامًا، مع أن أي أعمى سيراها إذا سارت في الشارع أو في سهْل فسيح.

وتأكّد غرامها حينما راحتْ تتقلّب في نومها على غير عادتها؛ حتى إنها

أوشكت على سحق أخي الأصغر، محمد، ذات ليل. ومنذ ذلك اليوم بدأنا نتحاشى الاقتراب كثيرًا منها، فالمسألة أن نتدفأ بها، لا أن نتحوّل إلى رقائق آدميّة؛ خطر هذا ببالي لكنني لم أبُح به بالطبع.

كائن ما، قد لا يكون منتميًا لفصيلة البشر، همس في أذْن عمّتي أن المصريّ لن يتزوّج إلا فتاة مصريّة مثله.

وضعتْ ملابسها القليلة التي تحضرها عادة معها، في صرّتها، واختفتْ شهرين، حتى ظننّا أنها لن تزورنا ثانية.

بدايات الربيع، وارتفاع درجات الحرارة، ومطالع الصيف، أنستْنا عمّتي، وبدتْ أمّي غير منزعجة من غيابها، لأنها كانت مُحرَجة على الدوام أن تطلب منها ألّا تستخدم الراديو كثيرًا، حرصًا على البطاريات. كلّ ما تجرأتْ أن تقوله لها: يا ريت توطّي صوت الرّاديو يا حبيبتي شوي، حتى يعرف الأولاد يدرسوا.

أمّي بدتْ على يقين، في تلك الأيام، أن استهلاك البطاريات سيكون أقل مع صوت منخفض، بخاصة أن صوت أمّ كلثوم قويّ، ويتصاعد جدًا في مقاطع كثيرة، وهي بذلك أكثر المغنيات استهلاكًا للبطاريات، في رأيها.

***

... وعادت عمّتي، فوجئنا بأنها تتحدّث بلهجة مصريّة. ولم يطل الوقت قبل أن نعرف أنها قررت المغامرة بقليل مدَّخراتها، لشراء راديو خاصّ بها. وعلى مدى شهرين، هناك في مخيم " العَزّة"، خصّصت وقتها كلّه لسماع الأغنيات المصرية والتمثيليات المصرية التي تُبثُّ كثيرًا عبر إذاعة القاهرة، بل والأفلام التي تُذاع صوتًا، وكأنها تمثيليات إذاعية.

تعاملتْ عمّتي مع اللهجة المصرية كلغة ثانية تتكلّمها، عكس المصريّ الذي يتحدّثها كلغة أمّ.

عمّتي أسرَّتْ لي في ما بعد، أنها فكّرت بالذّهاب إلى سينما بيت لحم، في منطقة "المدبسة"، وامتدحتِ البناية التي تقع فيها السّينما كأنها فستان عرسها الذي تحلم به: لو تشوف؛ بناية بواجهة حجرية جميلة مكونة من ثلاثة طوابق،

ويقولون إن فيها 600 كرسي وشاشة طولها ستة أمتار.

وتضيف: أحلى الأفلام المصرية تعرض فيها، لكنني لم أجرؤ على دخولها لمشاهدة "بين السّماء والأرض"، "ردَّ قلبي"، "أنا حرّة" و "دعاء الكروان" وغيرها ...

عمّتي أصبحت تُصرّ على الحديث معنا باللهجة المصرية، لتحسينها. نطلب منها أن تتحدّث باللهجة الفلسطينية، فتُذكِّرنا أنها أنفقتْ كلّ ما معها لتتعلم مصري".

كانت تدهشنا وهي تسألنا بين حين وحين: "إزايك يا واد؟ إنت مِكشَّر كِده ليه ؟".

الشيء الوحيد الذي كان يعيدها إلى لهجتها الأصلية جلوسها مع أبي؛ يعتدل لسانها، وتستخدم مفردات فلسطينية لا نعرفها، مثل: مشحَّرين، مسخمطين، هرعيته، كلاكل[2] ... وكأنها تريد أن تنفي معرفتَها باللهجة المصريّة.

***

ذات يوم، تحيَّنتْ عمّتي الفرصة، ورتَّبت لقاء بدا كمصادفة مع المصريّ الذي وجد نفسه وجهًا لوجه معها:

– صباح الخير.

– "صباح الخير"، أجاب وعقله في مكان آخر.

– إزاي حضرتَك؟

– "الحمد لله"، أجاب وقد عاد عقله.

– إنتِ بتتكلِّمي مصري؟

– أمّال إيه؟

كانت الكلمتان الأخيرتان كأنهما السّحر؛ انعقد لسانه، وبقي في مكانه مُتسمِّرًا، كما لو أنه تحوّل إلى مسلّة فرعونية.

فرحة عمّتي بقدرتها على اختراق جدرانه فتحتْ شهيتها، فجعلتْها تُقبل

---

[2] - (مشحَّرين، مسخْمطين): عاثرو الحظّ. (هرعيته): ذاك هو. (كَلاكِل): قلاقِل.

على الطعام، سمنتْ أكثر، وتزايد تقلّبها في الفراش ليلة بعد أخرى. أما المصري، فراح ينحل وينحل؛ ربما، بسبب مروره أمام بيتنا عشرين مرّة، في النهار، على الأقل.

ولكي توقد النار في قلبه أكثر، تسلّلتْ عمّتي ذات فَجر إلى موقف الباصات عائدة إلى بيت لحم، كما لو أنها كانت تسلبه، بحبها له، وحبّه لها، كلّ شيء، وتمنحه الأمل في أن يكون يائسًا أكثر؛ فتحوّل بحثه عنها إلى جنون.

18

وكنّا نحبّ السّينما..

ولم نزل..

الشخص الوحيد الذي أحبها أكثر منا، وشاهد أفلامًا كثيرة قبل أن نعرف ما هي السّينما، والد نور، ذلك الرجل الطويل النّحيف، بشاربيه الدّقيقين ونظارته الخفيفة، الذي تعطيك نظراته حسًّا ثابتًا بأنه لا يتوقّف عن التفكير أبدًا، والدها الذي عمل أيام شبابه في ميناء حيفا وصحفها، كان يترجم مقالات لعدد من الصحف، باسم مستعار، حتى بعد أن أصبح مترجمًا في الجيش. كان يحرص على أن يأخذ نور إلى الأفلام التي تُعرَض في دور سينما الدّرجة الأولى، الأفلام التي كان علينا أن ننتظر طويلًا ليتمّ عرضها في دور سينما الدّرجتين: الثانية والثالثة، لكن سفره إلى القدس، للعمل هناك مع الوحدات العسكرية الأردنية المرابطة في المدينة، قبل حرب حزيران، 1967، حرَمَها من السّينما.

ذات يوم عُرض فيلم "شيء في حياتي" وهو من بطولة ممثلةِ نور المفضّلة، فاتن حمامة، مع إيهاب نافع.

انتظرت نور أباها أن يأتي من القدس، ليأخذها، لم يأت. تفقّدتْ ما معها من النقود، لم تكن كافية.

بعد انتقال الفيلم إلى واحدة من دوْر الدرجة الثانية، قررتْ أن تذهب وتراه.

بصعوبة وافق أخوها الكبير على الذّهاب معها، عندما أقنعتْه بأنها سترتدي بعض ملابسه، وتذهب إلى السّينما متنكِّرة بزيّ ولد.

على واجهة السّينما انتشرت ملصقات كثيرة لفيلمين آخرين: "جناب السفير"، وفيلم الكاوبوي الشهير "ديانغو" الذي شاهدناه مرّات ومرّات.

ضحك بائع التذاكر في "سينما الحمراء" وهو يرى ذلك الولد الصغير

الذي يغطي رأسه بحطّة في الصيف، الولد الذي سأل عن فيلم فاتن حمامة.

- تريد أن تراه؟ إما أن تذهب إلى مدينة "الزّرقاء"، أو إلى مدينة "إرْبد"، فهو يُعرض هناك الآن.

كانت الأفلام تنتقل إلى المدن الأخرى بعد أن تكون عمّان، العاصمة، قد شبعتْ من مشاهدتها.

نور التجأتْ إلينا، أي إلى بشير وقاسم وأنا، فجمَعْنْا ما يكفي من نقود لمساعدتها على الذّهاب إلى "الزرقاء"، فهي أقرب، والوصول إليها أقلّ كلفة من مدينة "إربد".

ودّعتْنا، وأنا أتمنى الذّهاب معها، لكن ميزانيتنا كانت هزيلة.

عشتُ ساعات طويلة خائفًا من مغامرتها تلك، مع أنني ذهبتُ معها، سرًّا، ذات يوم، وكانت مُتنكرة، لمشاهدة فيلم "عالم السيرك" لجون وين وريتا هيورث وكلوديا كاردينالي.

في ذلك اليوم نسينا ريتا، الممثلة الأولى، وأحببنا كلوديا، التي ستغدو الممثلة الأجنبية المفضلة لنا الاثنين.

***

مع أن نور حسبتِ الوقت اللازم لذهابها وإيابها مع أخيها، من وإلى الزرقاء، إلا أن ضمان العودة في الموعد الآمن لم تكن مؤكّدة.

تأخَّرا، سألتْنا أمّهما عنهما عشر مرّات على الأقل؛ تغيب، ثم تعود لتسأل من جديد. بكتْ كثيرًا.

... وأعتَمت الدنيا، أعتمتْ أكثر، وبدا أن النجوم ستنزل إلى الأرض للبحث عنهما لفرط ما رفعتْ أمُّهما الدّعوات إلى السّماء.

بعد العاشرة لمحتْهما أمُّهما في أوّل الطريق المؤدي إلى البيت، انطلقتْ تركض نحوهما مثل كرة تتدحرج على سفح. احتضنتهما وبكت. أمسكتْ كلّ واحد منهما بيد، وسارت بينهما غير قادرة على أن تمسح دموعها.

- "أحسستُ أنها كانت خائفة من أنها لو تركتْ يد أحدنا سيختفي إلى الأبد"، أخبرتْني نور في ما بعد.

ما إن وصلوا البيت، حتى تحوّلت دموع الأم إلى جمرات غضب، أمسكتْ بهما، حشرتْهما في واحدة من الغرف، وضربتْهما إلى أن أوجعتْها يداها، ثمّ

جلستْ تبكي، محدّقة في يديها، وكأنها هي من تلقّتِ الضّرب.

***

في الصباح التالي، كان يمكن أن يُشاهد كلّ مَن في البيت عدّة كدمات على أذرعها، وخصلات من شعر نور على الأرض.

كانت الأم هاذيةً تُتمتم:

- يا ربي يعني ضاعت البلاد ويضيع الأولاد.

نور، التي تخصصتْ، دائمًا، في نقل أدقّ التفاصيل إليّ، تلك التي تراها وتلك التي تتخيّلها، قالت:

- "أظنّنا قسونا عليها"، وقبل أن تصل إلى ندم ما، أضافت، "ولكن ماذا كان علينا أن نعمل إذا كان أصحاب السّينما عرضوا فيلمًا أجنبيًّا قبل فيلم فاتن حمامة".

- هل أحببتِ الفيلم؟

- نسيتُ. كنتُ خائفة طوال الوقت، وكأن الحبّ والخوف لا يلتقيان. أنت الذي تكتب، قلْ لي، هل يمكن أن يلتقيا دون أن يقتل أحدهما الآخر؟

كان سؤال نور كبيرًا؛ لعلّه أكبر وأصعب سؤال يوجّه إليّ، فقلتُ لها:

- أجيبي، فأنت تسبقيننا في كلّ شيء.

- أسبقكم في ماذا؟

- في ما قلتِه الآن عن الحبّ والخوف، ثم إنك سبقتِ الجميع وسافرتِ إلى مدينة أخرى وحضرتِ فيلما؛ لا أحد من أصحابنا فعل ذلك.

تنهّدت، ونظرت إليّ مباشرة:

- أولًا، ما قلته عن الحبّ يشبه كلامًا قالته الممثلة في الفيلم الأجنبي، أما السّفر، فهو اختصاصك، وقد حرمتَنا منه بسبب سوء علاماتك. رغم ذلك، أتمنى أن أصل ذات يوم إلى مدن أبعد من هذه، وربما، أقول: ربما، آخذكَ معي.

- وعْد، وعْد؟

- بريء.

19

تخلخُلُ مستوى بعض النتائج، في الفصل الثاني لذلك العام الدراسي، دفع نور إلى القيام بالخطوة الأقسى، أعلنتْ أنها لن تراني قبل نهاية العام.

صاعقًا كان الأمر بالنسبة إليّ، إلى درجة أنني ملأت دفترين كاملين بكتابات، متأثرة بالأغاني الرّائجة، عن الشّوق والحرمان وسهر الليالي. في تلك الأيام فهمتُ عمّتي، لكنني بتُّ متعاطفًا مع المصريّ أكثر.

الشيء الذي أربكنا أن أمّي اتّخذتْ خطوة غريبة لم يفهمها أحدٌ منّا، إذ بدأت تُمضي ساعتين يوميًّا، على الأقلّ، في بيت نور.

سألناها عن سبب ذهابها إلى هناك، فأعلنتْ بوضوح أنها مضطرّة، أيضًا، لتعليم نور، التي كانت تسبقني صفّين، لأنها تريدها أن تعود إلى مستواها وتكون الأولى على صفّها.

تزايد خوفنا من أمّي، فأصبحنا أكثر حرصًا على دراستنا.

حاولتُ ترتيب بعض المصادفات لأرى نور، كما يفعل كثير من العشاق خلال أيام حظر التّجوال، هذه، في زمن كورونا. بعض المحاولات بدت عفويّة، أما معظمها فمكشوف بطريقة مُخجلة.

في فترة قصيرة، أصبحتْ أمّي تناقشنا بدقّة في مجموعة من الكلمات الصعبة، كما كانت تطلب من أحدنا أن يشرح شيئًا ما لأخيه أو أخته، وكأنها تحمّله المسؤولية في تلك اللحظة، وإذا لم يعرف، تطلب من واحد آخر أن يقوم بذلك على لوح خشبي حرصتْ على شرائه وتعليقه على الحائط.

الإخوة الصغار كانوا يرسمون الحروف الأبجدية ويصحّحهم الكبار، أما هي فلا تتوقّف عن الكتابة في دفتر معها، كأنها تتابع بدقّة كلّ التفاصيل.

إضافة لنور، بدأتْ أمّي تمضي وقتًا أطول مع خالي محمود، وفي كلّ مرّة رأيناها تعود من عنده تكون أكثر ثقة وقدرة على ملاحظة أيّ خطأ نرتكبه،

لكنها لم تقل لنا إنها مضطرّة لتعليم خالنا أيضًا.

***

تصميمها _كما أخبرني خالي محمود بعد زمن طويل_ جعله يحترمها، ويخشاها.

- "بعزيمة جنديّ قرر أن يقاتل وحيدًا بعد انسحاب رفاقه، هكذا كانت في مسألة تعليمكم"، قال لي.

لم نعرف شيئًا من هذا، أيامها، ولم نحاول أن نعرف، لأننا لم نكن نستطيع تخيّل الجهد الذي تبذله لإنجاز مهمّتها بنجاح تام. يحاول المرء أن يعرف حين يشكّ، يتخيّل، يتساءل، أما إذا كان الأمر أوسع من خياله وتوقعاته وشكِّه، فإنه يبقى هناك مُتحجِّرا في مكانه.

مع نهاية العام الدراسي أصبحنا أفضل بكثير، لكن أُمِّي هي التي استحقّتْ كلّ كلمة من الكلمات الجميلة التي كتبها المعلمون في أعالي صفحات أوراق امتحاناتنا بخطّ واضح، وحولها دائرة تُضاعِف وضوحها: (جيد جدًا، ممتاز).

اطمئنانها للنتائج التي حققناها دفعها لأن تهمس لي ذات يوم: ما رأيكَ أن تطلب من صاحبك نبيل أن يأتي ليدرس معنا في البيت؟ كلّما رأيته جالسًا على تلك الصخرة، وحيدًا يدرس، تقطّع قلبي.

- سأسأله.

- وبشير وقاسم.

- بشير أبوه معلّم.

- أظنّه بحاجة إليّ أكثر منكم، لأنني أرى نتائج تدريس المعلمين لكم. قل له أن يأتي وقاسم.

ذات مساء سألتْني عن نور، أخبرتها بصراحة أنها لم تعد تقابلني. سألتْني عن السبب، شرحتُ لها الأمر كما هو تمامًا.

هزّت رأسها وقالت: سأذهب وأحضرها بنفسي.

ما إن غادرت أمّي البيت حتى قفزتُ، غسلتُ وجهي، وخلعتُ ملابسي، وارتديتُ ملابس كان اشتراها لي أبي لعيد الفطر، وخبأتُها مجبرًا، لارتدائها ثانية خلال عيد الأضحى.

سمعتُ باب الحوْش يُفتح، تذكرتُ أنني لم أمشط شَعري، القصير أصلًا، قفزتُ، وقبل أن تصلا الباب الدّاخلي أخفيتُ المشط، دون أن أتوقّف عن تمسيد شعري براحتي.

رأتني أمّي بثياب العيد فابتسمتْ، أما نور فلم تتردّد في مدّ يدها إليّ ومصافحتي، وهذا ما لم تفعله منذ زمن، فأدركتُ أن أمّي قالت لها كلامًا طيبًا عني.

***

- "الليلة سأخبركم أشياء تجعلكم سعيدين، وتضحكون، قلوبكم تستحق أن تضحك بعد نجاحاتكم"، وصمتتْ قليلًا وهي تمرّر نظرتها الطويلة على وجوهنا، واحدًا واحدًا، إلى أن استقرّت على وجه نور، فأضافتْ: "نور، كانت ولم تزل أجمل فتاة في المخيم، الحقّ يقال"، وقالت لأخواتي الثلاث "وأنتنّ معها جميلات الجميلات، لكن بما أن الليلة ليلة نور، أقول هذا، لأن هذا ليس رأيي وحدي، أليس كذلك؟"، والتفتتْ نحوي، فعرفتُ أن السؤال موجّه إليّ، فأجبتُ بارتباك: "صحيح".

- "ما هو الصحيح؟"، سألتْني أمي.

- أن نور أجمل بنت في المخيم، وأخواتي.

لحسن الحظ أن أخواتي كنّ يحببنها كثيرًا، وبخاصة نوال، الكبيرة، التي طالما رجت أُمّي أن تُنجب لنا بنتًا جميلة بشعر أحمر، وكانت أمّي تجيبها "ليس هناك سوى نور واحدة في هذه الدنيا".

- "نور في صغرها كانت مثل البطّة، جميلة كلعبة، لذا كنّا نستعيرها من أمّها لتكون معنا عدة ساعات، قبل أن تأتي امرأة أخرى وتستعيرها، كنّ يستعرْنها بسبب جمالها، وبخاصة إذا كنّ حوامل، لأنهن يشتهين بنتًا مثلها. أما البنات فكن يتعاملن معها كلعبة. هذه حكاية نور، أما حكايتكَ، فهي

مختلفة"، قالت وهي تنظر إليّ. "كان الجيران يستعيرونكَ كلّما جاء موظفو وكالة الغوث لإحصاء اللاجئين لكي يحدّدوا عددهم لأغراض استلام المؤن، فكلّ أسرة تأخذ كمية من الطحين والصابون والزّيت والعدس حسب عدد أفرادها. اليوم أنتم تعرفون هذا. أنتَ، كانوا يستعيرونك، إذا كان أحد أولادهم غائبًا، أو طامعين بحصّة أكبر، وفي حالات كثيرة إذا كان الولد ميتًا، وكثيرًا ما كان الأولاد يموتون".

تصمت أمّي هنا، تصمت طويلًا، ونعرف أنها تتذكّر أخي "زهران" الذي مات بعد أن أتمّ عامين من عمره.

"ونحن كنّا مضطرين لاستعارة أولاد من الجيران لكيلا نخسر حصة زهران، لكن الغريب أن الجيران ظلّوا يستعيرونكَ حتى بلغتَ الخامسة من عمرك؛ ويصرّون ـحين يرى موظفو الوكالة وجهكَ الذي لا يشبه وجه رضيعـ أنك هكذا منذ ولدتَ، تبدو كبيرًا رغم أنكَ لم تكمل عامك الأوّل بعد. في أحيان كثيرة كانوا يصدّقون، بخاصة حين تبدأ بإطلاق أصوات مُقلِّدًا أصوات الرُّضّع، وأحيانًا كانوا يتصرّفون كما لو أنهم لا يعرفون الحقيقة، لأنهم يريدون مساعدة الناس، وفي حالات أخرى كنّا نستعير أولادًا أكبر، ولكن موظفي الوكالة يأخذون كلّ ولد بعيدًا عن الآخرين ويسألونه: شو تغديت مبارح؟

- سباخ.
- سبانخ؟
- سبانخ.
- سمك.

فيعرف الموظفون الطفلَ الدّخيل بينهم، ودائمًا كان هناك ولد واحد لا يأكل إلّا السّمك، لأنه لا يشتهي غيره من المأكولات، مع أنه لم يذق غير سردين العلب. تعرفون من هو بالطبع؟".

تستدير العيون إليّ.

"بعد أن انتبه الناس لهذه الأسئلة، أصبحوا يخبرون الأولاد باسم

الطبخات التي أكلتْها العائلة، ولكن أحدهم كان ينسى دائمًا، وكلّما سألوه عما أكل، قال بفرح شديد: سمك".

يضحكون، في حين أحسّ بجوع شديد وأنا أتشمّم سمكًا مقليًّا تملأ الهواء رائحته السّاحرة، أما في الحالات التي لا أكون فيها جائعًا فأراه محلِّقا، يسبح في فضاء الغرفة.

20

صمَتَ نبيل وهو يستمع منّي دعوة أمّي له للدراسة معنا، صمتَ أكثر مما يصمت دائمًا. أخبرتُ أمي بذلك، فسألتْني:

- وبشير وقاسم، هل أخبرتهما بأنني مستعدة لأن أدرّسهما؟

- أخبرتهما.

- وماذا قالا؟

- قالا إنهما يخافان منكِ.

- يخافان منّي لماذا؟ ولوْ، وهل يخاف الإنسان من النّجاح؟

***

... وعادت نور للظهور في بيتنا، وبدا أبي فرحًا بالجميع، وأصبح كلّ ما في أمّي يشير إلى أنها أكثر ثقة بنفسها؛ لم يكن ينقصها سوى أن تحمل حقيبة مثل تلك التي يحملها كبار المسؤولين، أما إن مضت لتوقد النار في منتصف الحوش، بعد إحضارها الحطب من الخارج، أو الأقمشة البالية، وأحيانًا الأحذية الممزّقة كما لو أن ذئابًا جائعة مضغتها، فإننا نحسّ أن أمِّي متواضعة أكثر مما يجب، ويزداد تواضعها في نظرنا، حين نراها تُلقي قطع الصابون الصغيرة جدًا في وعاء الماء الذي يغلي لتنظيف ثيابنا؛ القطع الصغيرة التي لم يعد هناك مجال لاستخدامها في غسل اليدين أو الجسد لانزلاقها المتكرِّر، الأسرع من انزلاق الماء من بين الأصابع.

لم يحدث أن تمّ التخلّص من شيء في تلك الأيام، حتى قطع الخبز التي تجفّ، كانت تجمعها وتحوّلها إلى وجبة شهية بعد أن تنقعها قليلًا في حساء العدس.

في أيام الجمعة تكافئنا بحلوى، هي طعام الفطور أيضًا؛ تسلق المعكرونة الناعمة، التي نسميها الشْعيريّة، ربما بسبب سُمْكها الأقرب لسُمْك الشّعرة، وبعد ذلك ترشّ عليها قليلًا من السُّكّر. كانت أطيب من الكنافة التي نسمع عنها ونراها عن بُعد، ولن نتذوّقها إلّا بعد زمن طويل.

***

اختَلَتْ بي نور في الخارج، وسألتْني: "أين حلوان علاماتكَ الجيدة؟"، فأخبرتها أنها أكلتْه قبل قليل. وكانت أمِّي حريصة على دعوتها لذلك الاحتفال الصّباحيّ، بالذّات، تقديرًا لوقوفها إلى جانبها بحزم، وحثّي على الدِّراسة.

– أريد أن يكون الحلوان دفترًا على الأقل، وإلّا سأعتبر أنني لم أخطُر ببالك طوال الشهور الماضية.

غبتُ قليلًا في الداخل، وعدتُ حاملًا دفترًا، ناولتُه لها، تصفَّحتْه بسرعة.

– أنتَ ملأتَ الدّفتر؟

سحبتُ دفترًا آخر من وراء ظَهْري، ناولتُه لها، فشهقتْ. تصفَّحتْه بسرعة أيضًا.

– أنت ملأتَ دفترين؟

في ذلك اليوم نظرتْ نور حولها، تأكّدتْ أننا وحدنا، طبعتْ قُبلة على خدّي الأيمن، فتمنيتُ لو أنني ملأت عشرة دفاتر.

تأملتْني مبتسمة، كما لو أنها تراني للمرّة الأولى.

– أظنّ أن الوقت قد حان لنسافر من جديد معًا، هذه المرّة سأقود الطائرة بنفسي. إلى أين تريدُ أن تذهب؟

– الطقس جيد في أثينا هذه الأيام؟

– أثينا إذًا.

– لكنني لا أرى حقيبتكِ معكِ.

– غريب أنكَ لا تراها وهي أمامكَ.

انحنتْ نور، وتظاهرت بأنها ترفعها عن الأرض بصعوبة.

– ربما أكون قد أحضرتُ ملابس أكثر مما يجب، ولكن من يعرف، إذا أحببنا المدينة فسنمدّد زيارتنا لها. ما رأيكَ؟

– موافق.

طلبتُ منها أن تنتظرني قليلًا، اختفيتُ في الدّاخل قليلًا، وعدتُ حاملًا حقيبة أكبر من حقيبتها.

أطول رحلاتنا وأجملها، كانت رحلة أثينا، لكننا لم نشعر بأي تعب.

- من اليوم وصاعدًا، أقول لكَ، باستطاعتنا أن ننسى أشياء كثيرة إلّا السَّفر.

- من اليوم وصاعدًا، أقول لكِ، باستطاعتنا أن ننسى أشياء كثيرة إلّا السَّفر.

***

الغريب في الأمر، أننا لم يحدث أن سافرنا لأننا غاضبان، أو نشعر بحزن، أو بغضب على أحد، أو بغضب الواحد منّا على الآخر؛ كنّا نسافر كلّما بتنا على يقين من أن الأرض لم تعد تتّسع لفرحنا. وهكذا، تحوّلت جملة "أراكَ، أو أراكِ في المطار" إلى كلمة سِرٍّ لباب سعادتنا.

21

نجاح أُمِّي السّاحق في قيادة مسيرتنا التعليميّة، دفعها للقيام بالخطوة التي لم يتوقّعها أحد؛ الالتحاق بصفوف محو الأمية. في ذلك الصيف سألناها عن سبب ذلك، هي التي تقرأ أفضل منّا، فقالت لنا مؤنِّبة: العُمر ينتهي والعِلْم لا ينتهي، أريد أن أصبح أفضل.

حقيبة القماش على كتفها كانت تحوّلها إلى طفلة، فتتراجع قوَّتها كمسؤولة كبيرة، ويبدو أن كلّ ما ينقصها في طريقها إلى المدرسة جديلتان صغيرتان.

أبي لم يعارض، ففي أكثر من مساء سلَّم لها نفسه كطفل صغير، وهي تُعلِّمه الحروف الأبجدية، وصولًا إلى كتابته اسمه الأول، الذي لحسن الحظ لم يكن صعبًا. وبعد أن أجاد كتابته، انتقلتْ إلى اسمه الثاني، وظلّت تسير معه إلى أن كتب اسمه السّابع.

حين كانت أمّي تحصل على علامات جيدة، تعود إلى البيت متقافزة، ناسيةً عمرها، ناسيةً أن هناك أولادًا ينتظرونها لتُعِدّ لهم طعام العشاء، وتقودهم إلى النوم بحكاية. ومع نجاحاتها المتلاحقة باتت حكاياتها أجمل ومفرحة أكثر، وساخرة، تجعلنا نضحك بصوت عالٍ أحيانًا.

إحدى معلمات أمِّي قابلت أختي الكبيرة، نوال، في الطريق، تجرأتْ أختي وسألتْها عن أمّي، كما تسأل أمّي المعلمين والمعلّمات عنّا، فردّت المعلمة:

– أرجو أن تكوني مجتهدة مثلها في السنة القادمة، أمّكِ الأولى دائمًا.

حتى الذين حققوا، منّا، نتائج جيدة، ومنهم أنا، الذي لم يكن بيني وبين الأوّل على صفّي، في المعدل العام، إلا ثلاث علامات، نظرنا إليها وكأنها الأولى على المملكة.

زياراتها لنور لم تنقطع، لم نعرف ما يدور بعيدًا عنّا. أما نحن فلم تسألنا عن أي كلمة وجدتها صعبة أو معادلة رياضية، أو معلومة عامة، وكأن سؤالًا واحدًا سيؤدّي إلى انهيار سلطتها التعليميّة، وسيضعها في مرتبة أقلّ من مرتبة، أو مراتب جنودها.

المنصب الذي احتلَّتْه ذات يوم وهي تمازحنا، منصب: "وزيرة التربية والتعليم"، عاد للظهور من جديد، وفيه الكثير من المزاح، والكثير من الحقيقة، إذ أثبتتْ بما لا يدع مجالًا للشكّ أنها تستطيع أن تُرفّعنا للصفوف الأعلى إذا قررتْ هي ذلك، وليس المدرِّسون أو المدرِّسات أو المدرسة أو مدير التعليم في وكالة الغوث.

خالاتي بدأن الاستعانة بها؛ عبر زيارات متقطّعة لأغراض تعليمية، يجلس فيها أبناؤهنّ صامتين.

تقوم واحدة من أخواتي بإعداد شاي يكفي لكوبين، لأمّي ولخالتي، لا غير، وهذا رسّخ في نفوس بنات وأبناء الخالات أن الزيارة لها هدف واحد هو التعلّم، أما الزيارة العائلية فهي شيء آخر.

حلوق تلميذاتها وتلاميذها كانت تجفّ، إلّا أن عقولهم، كما يبدو، كانت أرطب، وعيونهم أوسع. وفي حالات كثيرة تُجمِّع أمّي أولاد إحدى خالاتي، ونحن، وتجعلنا نقرأ دروسنا بصوت مرتفع معًا، مع أن كلّ واحد منّا كان في صف مختلف.

... نسألها كيف ستعرفين أن أحدنا لم يخطئ، فتسألنا: كم عددكم؟

- "14"، يجيب أكثر من واحد منا.

- اطمئنوا أنا لي 14 أذنًا.

بعد سنوات، حين ستستعيد تلك الأيام، ستأخذ نفَسًا عميقًا كلّما رأتْ واحدًا أو أكثر من أولاد وبنات خالاتي ومنّا، وتقول: الله عليكِ يا عايشة، لقد تخرَّج من تحت يديكِ أطباء، وأساتذة جامعات، ومعلّمون، ورسّامون وكتّاب، وسائقو شاحنات ونجّارون ومختصّون في تجليس ودهان السيارات ومنجّدو أثاث.. الله عليكِ.

- صاحي؟

- صاحي.

- "هل أنتَ متأكد من أن علامات صاحبكَ نبيل عالية؟"، سألتْني هامسة، أمّي.

- عالية، اطمئني.

- وكيف تكون متأكدًا وهو لا يتحدّث معك أو مع غيرك؟
- لأنني أسأل عنه.
- الله يرضى عليك، هذا الولد لا يغيب عن بالي، أحسّ أنه أمانة في عنقي.

***

ذات مرّة، حطتْ طائرتي، بعد رحلة طويلة مع نور، أشار إليَّ نبيل أن أقترب، فرحتُ بذلك كثيرًا، ركضتُ، وصلتُ إليه. طلب مني أن أقترب أكثر. لم يكن راضيًا عن قربي، فخطوتُ خطوتين، مقتربًا أكثر.

- "أريد أن أسافر إلى... إلى روما"، تجرأ وهمس لي.
- سآخذك الآن.
- لا، ليس الآن، بعد أن أُنهي تعليمي المدرسيّ.
- اطمئن، سأكون حينها حاضرًا لأوصلكَ.

بدا راضيًا بالوعد الذي قطعته له، حتى إنه ابتسم.
ودَّعتُه، وعندما أصبحتُ بعيدًا عنه، التفتُّ خلْفي، فرأيتُه مُحلّقًا.

22

لم تعد عمّتي للظهور ثانية، فانهار المصريّ. علِم أنها تسكن في مخيم العَزِّة، في بيت لحم، اختفى أسبوعًا من الحارة وعاد أكثر يأسًا؛ فنحوْله ازداد.

بعد أيام من عودته، بدأنا نهيئ أنفسنا للعودة إلى فلسطين، فأخبار اندلاع الحرب تدقّ الأبواب، ومع تصاعدها، حزَم كثير من الناس ملابسهم، تمهيدًا للعودة إلى بيوتهم التي طردوا منها؛ تفقّدوا المفاتيح، نظّفوها، مسحوها بالزيت، وعقَد بعضهم اتفاقيات مع أصحاب الشاحنات، ليكونوا أوّل العائدين.

في الوقت الذي بدا فيه الناس فرحين بنتائج الحرب التي لم تندلع بعد، كان أبي الذي اعتُقل قبلها بشهور، لسبب عرفناه في ما بعد، صامتًا على الدّوام، مثل صديقي نبيل، ولا يُبدي أيّ مظهر من مظاهر البهجة وهو يستمع إلى خطابات الرئيس المصري جمال عبد الناصر، بخلاف الناس الذين كانوا يقفزون فرحًا مع كلّ كلمة يقولها.

المصريّ، الذي يعاني من حرقة قلبه المكسور، استعاد صحّته، راح الناس في المخيم يصافحونه ويعانقونه كأنّه عبد الناصر، ولو رأت عمّتي ذلك، لذهبت بنفسها لتطلب يده. أما نحن الأطفال، فوجدنا أقدامنا تسوقنا رغمًا عنا للجري خلفه كلّما رأيناه، محاولين التحدّث معه بكلّ وسيلة، ولأي سبب، ودائمًا كنّا حريصين على استخدام اللهجة المصرية. لم يزعجه اقترابنا منه، أزعجته لهجتنا الضعيفة التي كان مُضطرًّا لتصحيحها باستمرار.

***

بعض الأُسر في شارعنا والشوارع الموازية له، كانوا يقتطعون من طعامهم صحنًا ويرسلونه إلى المصري، بحيث يمكنني القول إن عشرة أيام من الطعام بثّت فيه روحًا جديدة، وفي جسمه صحة أفضل، وربما أنستْه عمّتي؛ اختفتْ الأخاديد الصغيرة من خديه والهالات الزُّرق والسُّود من تحت عينيه.

صبيحة يوم الحرب أشار إليَّ أن أقترب، اقتربتُ، فسألني ذلك السؤال

الذي لم يستطع أن يكتمه أكثر:
- ليه عمّتَكْ ما عدتش تزوركم زي الأوّل؟
- على شان الطريق صارت مُتعبة ليها، زي ما بيئولوا.
هزّ رأسه بسعادة وهو يسمعني أجيب بلهجته، فسأل بتفاؤل:
- تفتِكِرح تزوركم قُريِّب؟
- "دا مستحيل"، ولم أستطع أن أكمل باللهجة نفسها، فأضفتُ: "الناس يتمنّون أن يكونوا هناك الآن، أقرب إلى بيوتهم التي طردوا منها سنة النكبة".
- وأبوك وأمّك وإخواتك ح يرجعوا لفلسطين؟
- المخيم كله ح يرجع، وانتَ؟
- وأنا ح اعمل إيه لو بقيت لحالي هِنا، بالتأكيد ح أرجع، ما أنا ليّا بيت هناك زيّكم.

كنت على وشك أن أسأله عن بيته، حين سمعتُ صوتًا قادمًا من السّماء يهزّ الأرض، نظرتُ إلى الأعلى، فرأيت طائرتين حربيتين قادمتين من الغرب نحو الشرق، وما هي إلّا لحظات حتى سمعْنا صوت انفجارات، ورأينا دخانًا يتصاعد من مطار ماركا، حيث المسافة الهوائية التي تفصلنا عنه قصيرة، وتتيح لنا أن نرى كلّ شيء بوضوح تامّ.

***

كانت تلك، صدمة لا تُحتَمل لكلّ من رأى المشهد، ولم يكن المصري أقلّ منا ذهولًا وقد فَهِم ما حدث، إذ استدار، فتح باب بيته وأغلقه خلْفه بإحكام.

في الإذاعات كان الأمر مختلفًا؛ المذيعون، كلّ عشر دقائق، يقطعون بثّ الأغنيات الحماسية ليزفّوا للمستمِعين أخبار إسقاط عشرات الطائرات الإسرائيلية وتدمير مئات الدّبابات.

أبي لم يكن سعيدًا، لكنه لم يُفسِد فرحتنا بالانتصارات التي تأتينا عبر موجات الأثير؛ يكتفي بهزِّ رأسه وحسب، إلى تلك الدرجة التي بتُّ أشكّ معها أن أبي يفكّر في العودة، بخاصة أنه لم يُصَب بحمَّى البحث عن شاحنة تحملنا إلى هناك.

بعد أربعة أيام من الحرب، يوم التاسع من حزيران، كان صوت جمال عبد

الناصر يأتينا عبر الأثير الكالح كأوّل أيام العزاء، مُعلنًا استقالته.

كثير من الناس كانوا يبكون، وبدا أنهم مستعدّون لقبول نتائج الحرب لكنهم غير قادرين على احتمال استقالة ناصر.

ومثلهم بكيتُ.

وصلتُ البيت؛ كلّ شيء صامت، والجميع هناك. أبي، أمّي، أخواتي، وإخوتي. اقتربتُ من أبي الذي أراه للمرّة الأولى يدخّن، وقلتُ له بعينين دامعتين:

- عبد الناصر استقال يابا.

طارتْ يدُه اليمنى في الهواء وصفعَني:

- ولماذا لا يستقيل؟

كانت تلك هي المرّة الأولى التي يضربني فيها.

23

في المؤتمر الذي عقدتْه جامعة البتراء حول القدس في الرواية العربية، قدّمتُ شهادة حافلة بأحزان تلك الذكريات، ويمكنني أن أعترف أيضًا أن صوت الصّفعة كان حاضرًا فيها، وكذلك حرارتها:

*مَن الذين نعرفهم أكثرَ من الآخرين؟

- نعرف الشهداء.

* ما الذي نعرفه عن المنفى؟

- نعرفُ الوطن.

* ما الذي نعرفه عن الخيمة؟

- نعرف بيوتَنا التي وراءنا.

* ما الذي نعرفه عن حريتِنا؟

- نعرف أسرانا.

* ما الذي نعرفه أكثر من كهولتِنا؟

- نعرف طفولتَنا.

طفلًا عرفتُ القدس؛ مرَّتين في العام، حين كنتُ وأبي، نزورُ جدّي إبراهيم وأعمامي وعمّاتي في "مخيم العَزّة" في "بيت لحم". لم يكن أبي يتركني، هناك، خلفه أيامًا لأعرفَ أكثر، كانت مشقةُ الذَّهاب من مخيم الوحدات في عمّان، إلى " العَزّة"، هناك، الأقل من 100 كم، شاقةً ومكلفةً أيضًا، لذا، كان كلّ من يأتي لزيارتنا، من هناك، يحرص على أن يمضي عدة أيام في بيتنا كي تستحق الزيارة المبلغ الذي أُنفق من أجلها، وكذلك نفعل نحن.

بين مخيمين تأرجحتُ، وثلاثِ مدن: عمّان، القدس، وبيت لحم.

عرفتُ عمّان، مدينةَ حياتي، كما لم أعرف مدينة أخرى. لكنّ القدسَ هي مدينتي، فضمْن قضائها تقعُ قريتي، البُرَيْج، وهي تصغير لكلمة بُرْج، لكنني لم أكن أعرفُها كما يليق بها أن تُعْرف. حتى قريتي، لم أحظَ بلقائها؛ لأنها باتت منطقةً عسكرية يُحظَر الوصول إليها.

لكن القرية التي لم أرها بعيني رأيتُها بأعين سواي.

عمّي أحمد، بقي في مخيم العَزِّة بعد حرب حزيران، 1967. خرج جدّي إبراهيم ومعه أبناؤه وبناته، ولم يخرج عمّي أحمد، ذلك الفتى الصغير، بقي هناك، متشبّثًا بمخيم أقربَ إلى البحر، مع أنه لا يستطيع رؤية البحر وهو فيه، في زمن مضى أهلُه إلى مخيم لا يُطلّ حتى على النّهر.

وقال لي جدي بعد زمن طويل: حمدًا لله أننا لاجئون خلف النّهر لا خلف البحر.

في عام 1967 كان أبي يُتابع أخبار النّازحين، هو الذي توقّف عن سماع أخبار الحرب بعد يوم واحد من اندلاعها. كنتُ أكبرَ أبنائه، قال لي: ستبحث في مدرسة من مدارس المخيم وأبحثُ في أخرى.

لقد فكّر أبي مثلما فكّر جدّي تمامًا.

فكَّر الجدُّ: ابنيَ الكبيرُ في مخيم الوحدات. أن أكون في واحدةٍ من مدارس ذلك المخيم يعني أن يجدني.

أبي وجدَه، لأن أبي يعرف.

وبقيتُ مُستغربًا، ولم أزل، لماذا لم يأتِ جدّي مباشرة إلى بيتنا الصغير؟ فهو يعرفه. لماذا ذهب إلى المدرسة؟ هل كان خجلًا من ابنه وهو يسير منكسرًا على آثار خطوات نكبة أخرى؟ أم أنه كان خائفًا من لقاء نكبتين في بيت واحد، بيتنا؟

وذهب أبي إلى المدرسة، وأرسلني إلى أخرى؛ لم ينتظر أباه أن يطرق البابَ.. هل كان يعرف أنه لن يفعل؟ ما الذي يعرفه أبي أكثر من سواه؟ من علَّمه أن يعرف أكثر من سواه؟

أبي علّمتْه النكبة، لكنني كنت أعرف أشياء أكثر منه.

في عالم المنافي يتعلَّم الأبناءُ بسرعة تفوق سرعةَ تعلُّم آبائهم؛ فهناك الأب الذي يبدأ عملَه قبل شروق الشمس إلى ما بعد غروبها، وهناك الأولاد يعيشون كلّ ما لا يراه الأب خارج أسوار عمله.

عندما عَلِمْنا أن عمّي أحمد لم يخرج، عمّي الصغير الذي يبدو أصغر من أن نناديه "عمّي". عندما علِمْنا أنه بقيَ في مخيم العَزِّة، خِفْنا عليه، وبقينا نخاف عليه.

- لماذا لم يخرج عمّي أحمد معكم؟

سؤال يبدو بسيطًا، لكن أحدًا لم يسأله. كلنا اكتشفنا أنه سؤال غبيٌّ، في غاية الغباء. هل سألوا عمّي أحمد بعد ذلك؟ ومتى؟ لا أعرف. كلّ ما عرفته هو ما سمعتُه والعائلة تتحلّق حول المذياع لسماع رسائلها المتتالية لذلك الابن، في ذلك البرنامج الإذاعيِّ الذي يُفتتحُ بأغنية فيروز:

"وسلامي لكمْ

يا أهل الأرض المحتلةْ

يا مُنْزرعين بمنازلكم

قلبي معكم... وسلامي لكم"

وكان جدي يقول لي: حمدًا لله أننا لاجئون خلف النهر، وحمدًا لله، أكثر، أن هناك واحدًا منّا لم يزل أقربَ للبحر.

لا أذكر الآن متى وصلتْ رسالتُه الأولى؛ عمّي؛ لكنني أعرف أنها تأخَّرتْ كثيرًا، قبل أن يأتي إلى عمان زائرًا.

كان جدّي قد رحل.

في تلك الزيارة، لعل هناكَ مَن سألَهُ: لماذا لم تخرج مع العائلة؟

أتخيّلُه دائمًا صامتًا لا يجيب، فإجابةٌ عن سؤال غبيٍّ قد تكون أكثر غباء من السؤال ذاته.

وعاد إلى مخيم العَزِّة...

لكننا بقينا نخاف عليه.

أكثرَ وعيًا بعد ذلك أصبحنا، كان أوّل شيء علَّمَنا إياه الوعيُ، هو الحسد؛ كلّما عرفنا مخيَّمنا حسدْنا عمّي أحمد على مخيّمِهِ أكثر، مع أنه مخيّم أيضًا، لكنه مخيم في الوطن. عند ذلك لم يعد عمّي أحمد ذلك الشخص الذي عرفناه، أصبح الأفضل بالنسبة إلينا جميعًا.

***

تحدثتُ بعد ذلك عن أثر هذا في كتابتي، شعرًا ورواية، تحدثتُ عن تفاصيل قريتي.

في طريق عودتي إلى البيت، كنت أفكّر لماذا لا أكتب عن ذلك كلّه؟

24

لأشهر طويلة بقينا نشمّ دخان الحرب في ثياب جدّي إبراهيم وأعمامي وعمّاتي الذين تجمّعوا في حوش بيتنا داخل خيمة كبيرة. كانت جدتي لأبي قد رحلت قبل النكبة، وتزوّج جدّي وأنجب من عروسه عددًا من الأولاد والبنات، كلّما حاولتُ أن أخبر أحدًا كم عددهم، أخطأتُ.

أشهر الصيف كانت رحمة؛ باستطاعة كلّ واحد من النازحين أن ينام في أي مكان، في الخارج أو في الداخل. أما أُمّي فعادت إلى حكاياتها القديمة الحزينة، ولم يكن هناك ما هو أكثر حزنًا من حكايات التهجير، عام النكبة، قبل تسعة عشر عامًا:

"كان أبي، جدّكم "عليّ"، يسير في الخليل، ممزّق الثياب، لم يلمس الماء جسمه من شهرين، صادف رجلًا يعرفه من أيام البلاد، حلَّ ضيفًا عليه ذات يوم. واصل جدّكم طريقه، لكن الرّجل الذي رآه توقّف محاولًا أن يتذكّر أين رأى هذا الوجه، وعندما تذكّر استدار، وناداه باسمه، فالتفتَ جدّكم، وعندها عرف الرجل أنه هو.

عانقه، وبكى الرّجلان.

رفض جدّكم الذّهاب معه، كان يحسّ بمهانة كبيرة بسبب حاجته، بعد أن فقد كلّ شيء في فلسطين، والرّجل فهِمَه، راح يواسيه: ليس هذا حالكَ وحدكَ، هذا حال شعبنا كلّه.

الرّجل كان من أهل الخليل، أخذ جدّكم إلى بيته وأجبره على أن يحْلِق ذقنه، يستحمّ، ويأكل، ودعاه أن ينام عنده. رفض جدّكم:

- سألتحق بأهلي؛ عليّ البحث عمّن فقدناهم في الطريق.

في "الدْهَيْشَة"، وهذا مخيم قرب بيت لحم، كنّا في ذلك الشتاء نتّقي المطر بالبطاطين التي كان علينا أن نغطي بها أجسادنا حين ننام.

جدّكم عليّ، كان غاضبًا من كلّ شيء، يقاتل الهواء والذباب والزّمن الأسود، وهو يحاول الحصول على خيمة، خيمة زعموط؛ أصغر الخيام التي

توزَّع على اللاجئين. كان سيكتفي بواحدة رغم كثرتنا. ذهب لطلب خيمة، فقال له موظف الأمم المتحدة الأجنبي، المسؤول عن توزيع الخيام: اذهب وابحث عن أسرة أخرى تشارككم الخيمة، ليس لدينا سوى خيام كبيرة مخصّصة لأسرتين. جنّ جدكم عليّ، سحب خنجره وهاجم المسؤول الذي سقط على الأرض خوفًا. جاء الناس وفصلوا بينهما.

أعطوه خيمة زعموط.

في اليوم الثالث تغيّر الطقس؛ بدأت سرعة الرّياح تزداد، تفقّدنا حبال الخيمة وأوتادها. قبل العصر اشتدّت الرّيح، صوتها مثل صوت قطار يحمل موتى، لا أعرف كيف خطر لي ذلك، كانت الريحُ تنوح كأنها بكاء الأرض علينا. لكن الرّياح اشتدّت، وفجأة راحت الخيمة تفلت من أيدينا. كلّ الخيام أفلتت من أيدي الناس القابضة على حبالها. طارت الخيام، طارت في الهواء، كلّ الخيام طارت في الهواء، مثل مظلّات الطيارين كانت، ولكن بدل أن تهبط تعلو، والرجال يركضون خلفها، مسافات. وانتظرنا في العراء، انتظرنا إلى أن عادوا بها عند منتصف الليل.

نصبناها من جديد، وحرصنا على أن تكون الأوتاد أعمق والحبال أشدّ، وفي اليوم التالي ـ وكأنّ العذاب لا يجد بشرًا غيرنا فوق الأرض ـ صحوْنا، وإذا بالخيام قد سقطتْ فوقنا، تكاد تخنقنا أو تميتنا متجمّدين. كنّا نزحف نحو باب الخيمة، ولكننا لا نعرف كيف نخرج، فوجئنا بالثلج، الثلج الذي لم نكن رأيناه من قبل. رحنا نحفر مستخدمين الصّحون والصواني. وصلنا إلى الهواء، اكتشفنا أن ارتفاعه أكثر من مترين، تلك كانت الثلجة الكبيرة. أسبوعان مرّا، ولم يختفِ الثلج، ظلّ يذوب، وتحوّلت أرض الخيام إلى طين. رحنا نبحث عن أغصان نضعها تحت فراشنا، لكن كلّ أغصان الدنيا لم تكن تكفي. كلّنا مرِضْنا، كلّنا. بعد مرور كلّ هذه السنوات، لم يزل جدّكم يعاني من آلام المعدة، والكلى، بسبب تلك الثلجة.

قرروا نقلنا إلى الأغوار، قلنا: "هناك على الأقل يوجد دفء، ولا توجد ثلوج." حملونا في سيارات كبيرة أوصلتْنا إلى الغور. أنزلونا أمام مخفر "أريحا" وقالوا لنا: هذا "مخيم نُمْرَة 4" هنا تستطيعون أن تنصبوا خيامكم.

هناك التقينا خالتكم زينب، زوجها، وابنها يوسف، كان عمره عامين، لم

تكن قد أنجبتْ "ميسَّر" و "جميلة" و "عيسى" و "مأمون، و... كانوا دون خيمة، فنصبنا خيمتنا ووضعناهم فيها. المشكلة أين سينام الرجال؟ ذهبوا إلى مقهى أنشأه أحد المهجَّرين، وحين أُغْلِق باب المقهى، الذي لم يكن أكثر من لوح صفيح، قالوا: "ماذا نعمل؟"، فقال جدّكم عليّ: "سنتمشّي حتى الصّباح".

في الليل وهم يمشون، سمعوا صوت حمار، وبعد قليل تبين لهم أن الحمار داخل خيمة، فقال جدّكم: "لا يمكن أن يكون الحمار مع الناس في خيمة"، تنحنح، ألقى السّلام، لم يُجب أحد، رفع بابها ونظر، كان الحمار وحده فعلًا، مربوطًا بعمودها.

- الله أكبر، حمار في خيمة والناس في العراء.

أخرجوا الحمار، ربطوه في الخارج، وحملوا الخيمة.

في الصباح وجدنا أنهم نصبوها بجانب خيمة الأولاد والنساء، وناموا.

ماذا أقول لكم؟ أيام قاسية، الله لا يعيدها.

وصمتت قليلًا قبل أن تضيف: ولكنه أعادها.

في ذلك الحرّ أمطرت الدنيا، لم يكن عليها سوى أن تمطر لنرى ما لم نره في حياتنا. الماء الذي سقط ملأ الجحور والثقوب التي في الأرض، فخرجت العقاربُ، عقارب بلا عدد.

سألنا عن المسؤول عن المخيم، فقالوا إنه في أريحا. ذهب وفدٌ من الرجال إليه. طلبوا منه أن ينقل المخيم إلى منطقة أخرى. "قال إن المنطقة جيدة وواسعة، لقد نقلناكم منذ عشرة أيام، فقط، من "الدْهيشة". لن ننقلكم مرّة أخرى". عندها فتح جدّكم وعدد من الرجال عُلَبًا كانوا قد أحضروها، وألقوا بكلّ ما فيها على سطح طاولته: عشرات العقارب، فتراجع المسؤولُ مذعورًا، وهو يصرخ: "ما هذا، ما هذا؟"، قالوا له: "هذا ما يملأ المخيم، هل يستطيع أولادنا أن يعيشوا مع هذه العقارب؟".

... رعبٌ، عشنا الرُّعب، أكثر من الرُّعب، إلى أن نقلونا إلى عمّان.

ماذا أقول لكم، أيام قاسية، الله لا يعيدها".

وصمتت قليلًا قبل أن تضيف: "ولكنه أعادها".

25

اختفى المصريّ تمامًا. تشمّمْنا الهواء قرب نافذته، متوقّعين أننا سنلتقطُ رائحة جثته.

كان لا بدّ من الخطوة التالية.

ذهبتُ مع بشير وقاسم، طرقْنا الباب، والنافذة الصغيرة، لم يُجب.

قلنا: لا بدّ أنه رحل بعد هزيمة الجيش المصريّ، ولم نقل الجيش الأردني، خوفًا، ونسينا أننا كفلسطينيين خسرنا بعد تلك الحرب فلسطينَ كلّها.

عمّتي أيضًا لم تسأل عنه، بدت وكأنها نسيتْه تمامًا، كأن لم يكن موجودًا، لكنها ذات ليلة سألتْ أمّي، وسمعناها:

- هل صحيح أن المصري ترك المخيم؟
- يتركه إلى أين؟ وهل له مكان غيره؟

***

بعد التّهجير الأول، أعطوا المصريّ ما أعطونا: بطاقة إعاشة، ووحْدة صغيرة، أي منزل مكون من غرفة، ومساحة من الأرض أمامها لا تكفي لبعث الحلم بالطيران في أجنحة دجاجة تتأمل عصافير الدّوري على أغصان شجرة التوت.

أما في التّهجير الثاني فقد هُجّرتْ مع الناس حكاياته التي لم نكن نعرفها.

كان المصري يحبّ مصر فعلًا، يحبّ عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش، ويتابع حفلاتهم في القدس ويافا وحيفا، ومسرحيات يوسف وهبي أيضًا، مع أنه كان يشتكي من ارتفاع أسعار تذاكرها، لذا، لم يُخْفِ سعادته حين بدأ الناس في يافا يسمونه: يوسف "نَهْبِه"، ولكنه رغم ذلك ظلّ يستمتع بالحديث باللهجة المصرية؛ في البداية كنوع من المزاح، إلى أن تطوّر الأمر باعتمادها لهجةً رسمية له.

ذات يوم تحدّث مع أحد أعضاء فرقة أم كلثوم باللهجة المصرية، وسأله إن كان يتحدّثها بإتقان كالمصريين فردّ عضو الفرقة: فاضلّك كتير، كتير

أوي.

في تلك اللحظة قرّر المصري، الذي لم يكن لقبه كذلك، السّفر إلى مصر، وحين عاد بعد ثلاثة أشهر، اكتشف معارفه أنه يتحدّث المصريّة أفضل من المصريين.

أسعده ذلك كثيرًا، وتُوِّج الأمر بأطلاقهم عليه لقب "المصري"، وهو لقب رآه يفوق لقب إمبراطور.

بعد النكبة سَمِع عن بطولات الفرقة التي قاتلت في قريتَي "عراق المنشيَّة والفالوجة" ورفضتْ أوامر الانسحاب التي أرسلتْها قيادتها في مصر، فتمسّك بلقبه أكثر، وعندما قامت الثورة، وأصبح عبد الناصر رئيسًا، أحبّه، بعد أن علِم أنه من الضباط الذين قاتلوا مع تلك الفرقة التي رفضت الانسحاب، واعتبرتها قيادتها خسائر حرب. ذهب إلى مختار المخيم، وطلب منه أن يغيّر اسمه الحقيقي، ليصبح "المصريّ"، لكن مختار المخيم قال له: الناس في إيش وإنت في إيش؟

تفهّم المصريّ ما قاله المختار _كما عرفنا في ما بعد_ مُكتفيًا بلقبه الذي بات يُعرف به.

أما الشيء الذي ظلّ مجهولًا، فهو: هل سافر حقًّا إلى مصر، وأقام فيها، وتعلّم اللهجة المصريّة على أصولها، هناك؟ أم أن الإنجليز منعوه من دخولها، في زمن الحرب ذاك، فاختفى، دون أن يعرف أحد أين، إلى أن عاد مصريًّا، مصريًّا تمامًا؟

مكتبة

26

لفرط ازدياد عدد الناس، لم يعودوا قادرين على رؤية بعضهم بعضًا.

أصبح المخيم مثل مزرعة دجاج، الدّجاج الذي كنّا نسميه: دجاج مَزارِع؛ وترى أمهاتنا أن طعم لحمه يشبه طعم التِّبن.

أما جدّتي لأمّي، وكانت امرأة رقيقة الملامح كاسمِها "خضرة"، فكانت تضيف: لا غرابة في أن ينتشر هذا الدّجاج، بطعمه هذا، بعد أن حشرونا في هذه المخيمات التي نعيش فيها عيشة الحيوانات.

الغرف الصغيرة وساحات البيوت التي نُصبتْ فيها الخيام، باتت تلفظنا خارجها، ترمينا بعنف، كما لو أنها تقول لا أريد أن أرى وجوهكم مرّة أخرى.

والدُ نور قرر أن يترك بيته في المخيم لأخيه، وأسرة أخيه، الذين نزحوا من مدينة "جِنِيْن"، واستأجر شقة معقولة في المبنى الذي تسكنه أمّه، في سفح "جبل النَّظيف" المطلّ على ثلاثة من جبال عمّان على الأقلّ.

نور جاءت وودّعتْنا واحدًا واحدًا، وودّعتْ جدي إبراهيم، وزوجته وأولاده، وأمامهم جميعًا، أمام قاسم وبشير، احتضنتْني طويلًا، كأنها مسافرة إلى الصّين، مع أن بيتها الجديد لا يبعد عنّا أكثر من نصف ساعة سَيرًا على الأقدام.

جبل النظيف كان شيئًا مختلفًا؛ بيوتًا حقيقية وأدراجًا، جبل النظيف لم يكن مخيّمًا.

في ذلك اليوم، أخرجتْ نور من حقيبتها المدرسيّة دفترًا وأعطتني إياه:

- اكتبْ لي شيئًا.

في تلك اللحظة، أحسستُ أن نور لن تكون بعيدة أبدًا، مهما ابتعدتْ، لكن أُمِّي بكتْ وهي تلوّح لها مودِّعة. أما أنا فوددتُ لو أركض خلفها، لم أستطع، تيبَّستُ، لم أعرف هل ذلك بسبب احتضانها لي، الاحتضان الذي راح يتدفّق نهرًا من الدفء في جسدي، أمْ لخوفي من أنني لن أكون قادرًا على

لقائها طوال اليوم.

***

وضاقت المدارس أيضًا بسبب الأعداد الجديدة من الطلاب المهجَّرين بعد الحرب؛ فأصبحتْ هناك فترتان للدّوام، صباحية ومسائية. وضاقت غرف الصفّ، فوصل عدد الأولاد في الصف الواحد إلى اثنين وستين طالبًا.

وجدنا أن السّهول هي الأماكن الوحيدة، غير الضَّيقة، التي يمكن أن نكون فيها على راحتنا، لكن شيئًا غريبًا بدأ يظهر في سلوكنا؛ صار الأولاد عدائيين؛ كثرتْ المعارك بينهم، وتزايدتْ الجروح في رؤوسهم، وأيديهم، بسبب الشّجارات، وبسبب حجارتهم التي يستخدمونها في اشتباكات الرِّماية عن بُعد.

وضاق أهلنا بنا وبمشاكلنا التي لا تنتهي، وضقْنا بأنفسنا أكثر...

كأن الجروح اليومية التي كنّا نُصاب بها لم تعد تكفي، ونحن نجري في النور والظلام، حفاةً، بتهوّر. هل كنّا نتعمّد السير على قطع الزّجاج والمسامير، وألا نتجنّب العثرات القاتلة؟ لا أعرف.

أمامنا ضاق كلّ امتداد، ضاقت الأرض، وضاقت الحياة؛ تحدّينا أنفسنا فشربنا ماء ملوّثًا كان يجري في قناة صغيرة من مخلّفات مستشفى البشير باتجاه وادي الرِّمم، ماء نرى الحمير والأغنام تشرب منه، أما الأشجار التي على جانبيه فكانت مريضة دائمًا.

ونجوْنا.

تحدّينا بعضنا: مَن يقترب أكثر من أفعى، من حنش أسود، من يُمسك الأفعى من عنقها؛ ونجونا. من يلمس ظهْر عقربة، وتكون يده أسرع من إبرة سُمّها المثبتة في آخر ذيلها؛ كان قاسم هو الأمْهر، مع أنه لم يكن يملك سوى يد واحدة؛ اليسرى.

ونجوْنا.

في سفح محْجر مهجور، بجبل المريخ[3]، أحد جبال عمّان، كنّا نرى الصّقور

---

[3] – حين ظهرتْ فيه أوّل إصابة كورونا بعد أكثر من خمسين عامًا، تساءل الناس عن سرّ اسمه، فقيل: إن سبب التسمية نسبة إلى بُعده عن مركز عمّان، مثل بُعد كوكب المريخ عن كوكب الأرض، مع أنه لا يبعد عن المركز أكثر من 20 دقيقة، سيرًا على الأقدام.

تبني أعشاشها على ارتفاعات تصل إلى ستين مترًا، وأكثر...

تسلّقنا المحْجر، وهو عبارة عن جدار حجريّ، أنا وبشير.

لا حبال ولا أي شيء يمكن أن نتمسّك به لو تعثّرنا.

قاسم في الأسفل يراقبنا بخوف شديد.

من الأعلى، نسمع خفقان قلبه، وخفقان قلوب الناس خوفًا علينا، متضرِّعين لله، وطالبين منّا أن نصعد إلى الشارع العلوي، أو نهبط إلى شارع "المُصْدَار".

نسمع خفقان قلوبهم ولا نسمع أصواتهم، ونتجمّد، أحيانًا، غير قادرين على الحركة بسبب تيبُّس أرْجُلنا، أو بسبب اعتمادنا على يد واحدة، حين لا نستطيع إقناع يدنا الأخرى بترْك فرْخ الصّقر المُطْبِقَة عليه.

وكانت الصقور الكبيرة تُغيْر علينا، وترتفع محاولة إنقاذ فراخِها دون جدوى...

ونجوْنا.

وعدنا إلى بيوتنا ونمْنا، وحين استيقظنا، عدنا إلى تلك الميتات كلّها من جديد...

ونجوْنا.

***

كان قاسم أبيضَ، بعينين عميقتَي السواد، عكسي. أقصرَ ممن هم في عمره، عكسي. مكتنزًا قليلًا، عكسي. ولولا شعرْه الكستنائي الناعم، لظنَّ كلّ من رآه أنه أجنبي، عكْسي.

أما بشير فكان أنحف منّي، رأسه بحجم رأسيْنا إلّا قليلًا، تتميّز ذراعه اليسرى بعضلة قوية وراحة قوية وأصابع سميكة، إذ نادرًا ما استخدم اليد اليمنى، إلّا للكتابة، وحين سأسأله بعد زمن طويل إن كان تقصّد فِعْل ذلك، تضامنًا مع قاسم، سيصمت.

أما نبيل فكان أقصرنا، جبهة عريضة، وفم صغير لم يكن بهذا الحجم قبل موت أمّه. نسينا صوته، لذا، لم تتوقّف محاولاتنا عن دفعه إلى الكلام، دون أن نبالغ. قسَّم يومه إلى ثلاثة أجزاء، وذلك كلّه مُتعلّق بعينيه: قسم للتّحديق في كتبه، قسم للتّحديق في البعيد، وقسم للتّحديق في الظلام قبل أن ينام.

27

كانت جدةُ نور، وأمُّ نور التي تساعدها في شراء حاجياتها، عائدتين من سوق الخضار، كلّ منهما تحمل سلّة فوق رأسها. سينما "الكواكب" عن اليمين، وسينما "دُنيا" عن اليسار، لكن المشهد أمامهما لم يكن مُقتطعًا من فيلم؛ مظاهرة كبيرة تدفّقتْ وسدّت شارع الملك طلال في نهايات تشرين الثاني، تردّد صدى هتافاتها هادرًا بين جبلَي عمّان والأشرفية والسّفح الشمالي الشرقي لجبل النظيف.

لم يكن صعبًا على عينَي الجدّة الصغيرتين رؤية تلك البنت المرفوعة على كتفَي بنت ضخمة تصيح:

ما بدنا دموع وأحزان...
نبكي ع القدس وعمّان
بدنا سلاح لنحمي الناس
من مراكش للبنان[4]

لم تكن الجدة مرتاحة لوجود بنت يلعلع صوتها في أيّ شارع، فما بالك في شارع رئيسي وسط العاصمة؟ لذا، أطلقتْ تعليقها الأول:

– يلعن أبوها وأبو إللي حاويها في بيته.

أم نور سمعتِ اللعنة ولم تعترض، وواصلتا السَّير باتجاه المظاهرة؛ لم يكن هناك طريق يؤدّي إلى البيت غير ذلك.

مع اقترابهما راح صوت الصغيرة المرفوعة على الأكتاف يزداد وضوحًا.

فجأة، أسقطت الجدّةُ ما على رأسها من أشياء وراحتْ تركض نحو المظاهرة كالمجنونة.

كانت الصغيرة التي تهتف تراقب الجدة تتقدّم، لكنها لم ترتبك، وواصلت الهتاف:

---

[4] – مظاهرات غاضبة راحت تخرج بين حين وحين احتجاجًا على نتائج الحرب.

الحريّة مثل الميْ
من غيرها ما في شي حيّ
اخترقت الجدةُ المتظاهرين، وأمسكت الفتاة الصغيرة من كتفها وسحبتها بكلّ قوتها فسقطتْ على الأرض. صرختْ: قدّامي.
وجدت نور نفسها على الأرض، لكنها لم تتوقّف عن الهتاف.
- الحريّة مثل...
وتتلقى ضربة...
- الميّ
وتتلقّى ضربة أخرى...
- من غيرها...
ضربة ثالثة...
- ما في شي حيّ
ضربة رابعة.
أمسكتْها الجدّة من كتفها وأجبرتْها على الوقوف، فوقفتْ. قادتْها أمامها وهي ممسكة برقبتها، لكن نور واصلت الهتاف وهي تبتعد، وجدَّتها تأمرها بالسّكوت، في الوقت الذي كانت فيه أمّها تجمَع، بمساعدة من المتظاهرين، ما تناثر على الأرض من خضروات الجدّة:
ما بدنا دموع وأحزان
نبكي ع القدس وعمّان
بدنا سلاح لنحمي الناس
من مراكش للبنان
لحظة واحدة لا غير تراختْ فيها قبضة الجدّة، فأفلتتْ نور مبتعِدة، وهي تواصل الهتاف:
الحرية مثل الميْ
من غيرها ما شي حيّ
وتهديدات الجدة تلاحقها: سأسلخ جلدك عندما نصل الدّار.
***
إلى البيت وصلتْ نور قبل الجدّة، رأت الجدّة تصعد الشارع وعلى رأسها

سلّتها، وعلى بعد خطوات تحاول أمها عبثًا اللحاق بالجدّة.

بعد لحظات اختفتْ نور في الدّاخل، ثم ظهرتْ ثانية فوق السّطح المطلّ على الشارع، الشارع الذي يطلّ على هوّة، وفي يدها مخدّة.

الجدّة التي رأت المخدة، قذفتْ سلّتها، وانطلقتْ تركض كما لو أنها تحاول النجاة بحياتها من وحش خلْفها، لكن الوحش كان أمامها واسمه نور.

- إذا لم تُقسِمي أنكِ لن تضربيني فإنني سأرمي كلَّ ما في المخدّة.

ريح تشرين الثاني التي هبّتْ، وقطرات المطر التي انهمرتْ، أسقطتْ قلب الجدّة.

- اعقلي يا نور يا حبيبتي.

- أريد أن أسمع منكِ وعدًا بأنكِ لن تضربيني، الحرية مثل المي... من غيرها ما في شي حيّ.

مرّ زمن طويل قبل أن تعِدها الجدّة:

- وعد ما راح أضربك.

- امسكي عُقْصِتِك، وسمْعيني.

أمسكت الجدة خصلة شعر نافرة فوق جبينها، وأعادتْ:

- وعْد، ما راح أضربك.

اطمأنّتْ نور:

- الآن أنزل.

***

- ولكن ما الذي كان هناك في المخدة، سألتُ نور بعد يومين من المظاهرة.

- كلّ مصاريها. كلّ ما معها من مال في المخدّة.

- وهل كنتِ سترمينها فعلًا لو لم تعدكِ بأنها لن تضربكِ؟

- بصراحة؟

- طبعًا.

- كلّ شيء كان ممكن يصير.

- "مجنونة"، قلتُ لها.

- "بريء"، قالت لي.

28

بعد أن رأيتُ الدخان يتصاعد من مطار ماركا، بعد أن رأيت الطائرات الإسرائيلية تغير عليه وتدمّر ما فيه، وتعود سالمة إلى قواعدها، بعد أن امتلأ المخيم وباحة بيتنا باللاجئين، لم أعد أقترب من أرض مطارنا الخاصّ، ولم تعد نور تذكّرني به؛ لم نتحدّث في الأمر، لكنها فهمتْ، بل باتتْ تمسكني من يدي وتجرّني في الاتجاه الآخر من شارعنا، الاتجاه الذي لا يؤدّي إلى مطارنا. كنّا نكتفي بإلقاء نظرة على لوحة حركة الطائرات، ثمَّ تعلّمتُ أن أغمض عينَي ما إن أصل إلى عتبة الباب كي لا أراها. لكن أحدًا منّا لم يجرؤ على محو لوحة الأحلام تلك.

... وعلى الجانب الآخر، نبتتْ تلك الفكرة التي لا أعرف من ألقى ببذرتها في عقولنا، فَجُنِنَّا بها. كانت أخطر من لعبة الرّوليت الرّوسية؛ ربما شقيقتها؛ لعلّ لعبة الرّوليت ولِدتْ في جحيم سيبيريا، في ذلك الضياع المُطلَق الذي لا يجد فيه الإنسان من وسيلة للهو أفضل من أن يضع رصاصة واحدة في أسطوانة المسدس التي تستوعب ستّ رصاصات، ويدير الأسطوانة بسرعة، ثم يُلصِق الفوهة برأسه، ويضغط الزّناد.

في ذلك الضيق، حيث كلّ شيء أسود، بارد حوْلنا، حتى قلوب الأمهات التي انطفأتْ فجأة كأعينهنّ، رحنا نتحدّى بعضنا: مَن يستطيع أن يتسلّق عمود الكهرباء في الشارع، ويلمس السِّلْك الأول؟

يخلع الواحد منّا حزامه، يضعه حول أسفل السّاقين، ويتسلّق.

أما أغرب ما في الأمر، فهو أن أحدًا منّا لم يَنْهَ الآخر عن الإقدام على تلك المغامرة القاتلة.

وصعدَ بشير، بيد عارية لمس السِّلْك الأوّل وهبط.

ففعلناها جميعًا.

راقَبَنا قاسم نصعد أعمدة الكهرباء، نتعارك مع الموت في الأعلى، نُلقي الموت أرضًا، راقَبنا بقلب مذعور، عيناه تتّسعان، ويده الوحيدة، اليسرى،

ترتجف كما لو أنها مُعلّقة على حبل غسيل، تتحرّك رغمًا عنه، كأنه يكشّ الموت عنا، يبعده، وكذلك قدماه تنتفضان، تركلان الموت في معدته، لكنه في النهاية رفض أن يكون أقلّ منّا، فعلَها، بقدمين ويد واحدة.

أخبرْنا نبيل بما فعلنا. رفض أن يكون رابعنا. رفع رأسه، نظر إلينا كما ينظر إلى الجبل البعيد، الجبل الذي تعبر سفحه سكة الحديد، ويعلو فيه دخان القطار أكثر من أي مكان آخر، وهو يصفُر.

لم يقل شيئًا.

في اليوم التالي غلبه الفضول، ولعله الخوف، الخوف علينا، وجدناه على صخرة صغيرة قرب حنفيات الماء العامّة التي تتجمّع عندها أمهاتنا، كلّ ثلاثة أيام، للحصول على حصص عائلاتهنَّ من الحياة.

من بعيد راقَبَنا خفْية؛ عين على كتابه وعين علينا.

في اليوم التالي، كانت النّبتة الشّيطانية التي في رؤوسنا أعلى. جئنا ونحن نعرف قرار بشير: سيلمس السِّلْك الثاني.

مثل صرخةِ عينَي نبيل وخوفه، رحنا ننهاه.

لفّ حزامه حول أسفل ساقيه، وصعَد.

وتوقّف خفقان قلوبنا ونحن نراقب يده تقترب ببطء من السِّلك؛ اختفى جسده كله من أمامنا، لم يكن هناك غير يده.

لمس السّلك الثاني. اشتعلتْ النار فينا، ابتعدتْ يده، هبط.

لم يعد هناك هواء في رئاتنا، في المخيم، في العالم.

حدّقنا إلى قمة العمود، وفعلْنا ما فعله.

كلّ يوم كانت النبتة الشيطانية تعلو أكثر، وتحمِلُنا، تحمِلُنا إلى السِّلْك الثالث، تحمِلنا إلى السِّلك الرابع، الخامس، وحتى السّادس.

وصعدتُ وهدفي السِّلك الأخير. مددتُ يدي بحذر، لكن السِّلك كان قد هيأ كلّ ما فيه من قوة ليردع تطاولي عليه؛ ضربتْني الكهرباء، ألقتْ يمناي بقوة بعيدًا عن السِّلْك، أحسستُ بجسدي يطير في الهواء، من على قمة العمود، لكنني لم أسقط، انزلقتُ مُستخدمًا قدمَي ويدي اليسرى، أما اليمنى فكانت ترتجف، ترفُّ كجناح لم يعرف بعد أنه انكسر.

وخافوا...

كأن اليد يدنا كلّنا، لا يدي وحدي.

نظرتُ إلى نبيل، رأيتُ دموعًا على خديه تلمع.

وبدأتِ الشمسُ تغرب. يدي الحمراء لا تكفُّ عن الارتعاش، ارتعاش يهزّ جسدي كلّه، كنت خائفًا، خائفًا جدًا، وقاسم وبشير أكثر خوفًا ربما، لكنني لم أبكِ. وغربت الشمسُ أكثر، درتُ حول نفسي كأنني أبحث عن يدي، يدي التي لم تعُد لي، خائفًا أن أعود إلى البيت فترى أمّي ما بي، فتُجنّ. حتى الأعمى سيرى ارتعاش يدي، يدي التي لم أعُد أعرف هل أرفعها إلى الأعلى ما فوق رأسيَ، أمْ أُنزلها؛ كانت تمضي في الاتجاهات كلّها مرتعشة رغمًا عنّي وأنا أدور محاولًا اللحاق بها.

مرّر صديقاي المذعوران حزامي من تحت يدي اليسرى، ثم أنزلا بقوة يدي الضائعة، ثبّتاها إلى جانبي، وشدّا الحزام حول منتصف بطني وحولها.

راح جسدي يهتزّ كلّه.

في ذلك الظلام، الذي رأيت فيه جسدي وقد تحوّل إلى لمبة حمراء ضخمة، تسللتُ إلى البيت بجسد مُتّقِد كجمرة، وروح ضيَّعتْ طريقها ما بين الحياة والموت.

29

كان باستطاعة قاسم أن يقوم بكثير مما نقوم به، لكن عدم قدرته على تسلّق المحاجر يزعجه كثيرًا.

أفضل فتى في الحارة، بل ربما في المخيم، في لعبة "الجلول"؛ لا يخسر أبدًا، جيوبه ممتلئة دائمًا بتلك الكرات الزجاجية الملوّنة الجميلة التي يربحها منّا ومن غيرنا.

في اللعب لم يكن يجامل أحدًا.

وصل قاسم متأخّرًا إلى المخيم، لكنه اخترق حياتنا بسرعة. أحببناه، لكننا لم نملك الجرأة لأن نسأله: "أين فقدتَ يدك؟". وذات يوم سألَنا هو: هل تعرفون قصةَ يدي؟

– "لا"، أجبنا، وكنّا مجموعة من الأولاد، ومعنا نور.

– حين ولدتُ، لم تُولد معي، وبقيت أفكّر أن القابلة نسيتْها في رحْم أمّي. كنت أعتقد أن جدّتي هي أمّي، إلى أن أخبرتْني ذات يوم أنها جدّتي، وأن أمّي سافرت إلى العراق، ثمَّ أخبرتْني أنها انتقلتْ إلى الكويت. أخبرتْني أن أمّي صغيرة، وأنها لم تكن قادرة على تربية ولدَين، يفصل بينهما عشرة أشهر، أخبرتني أنها... لهذا تركتْني عندها. في ذلك الوقت قلتُ: ربما ستلد أمّي يدي هناك، وأنها تكبر الآن هناك، وأن أمّي ستُحضرها لي يدًا قوية. قلتُ ذلك لجدّتي التي كنت أناديها أمّي، فبكتْ رغم قسوتها.

حين زارتْنا أمّي بعد ستّ سنوات، أمّي التي لم أكن أعرفها، اضطرَّتْ جدتي أن تقول لي: "صافح أمّك". استغربتُ ذلك، وبقيت واقفًا في مكاني إلى أن تذكّرتُ أن لي أمًّا غير جدّتي. بحثتُ سريعًا عن يدي الغائبة، لم أرها معها، ارتبكتُ. ثم عادت جدتي وطلبتْ مني أن أصافح تلك المرأة الغريبة ثانية. مددتُ يدي، مدّتْ يدها وتصافحْنا، واكتفينا بذلك، أنا وهي.

لم أفقد الأمل في أنها تخبئ يدي مفاجأةً، لذا، انتظرتُ بلهفة أن تنتهي جدّتي من طهي الطعام، قلت: حين أمدّ يدي اليسرى لآكل، ستقول لي تلك المرأة

وهي تناولني يُمناي: "من اليوم، لستَ مضطرًا لاستخدام يدك اليسرى لكي تأكل أو تكتب".

لكن ذلك لم يحدث؛ أكلْنا بصمت.

أخرجتُ عددًا من الكريات الزجاجية من مخبئها، وضعتُها في جيبي وخرجتُ أسير ببطء، وأنا أنتظر أن تسألني تلك المرأة، مثل كلّ الأمهات: "إلى أين؟"، أو تقول لي: "لا تتأخّر".

لم يحدث ذلك، ولن يحدث في ما بعد.

ثلاثة أشهر أمضتْها تلك المرأة في بيت جدّتي، لم نتصافح مرّة أخرى، ولم تلمسْني، حتى مصادفة، رغم ضيق البيت.

... وذات يوم، حضر رجل لا أعرفه. جدّتي طلبتْ منّي أن أصافحه، فصافحتُه، تأمّلني وقال: "والله وكبرت"، وضمّني. في تلك اللحظة التقتْ عيناي بعيني تلك المرأة التي أخبرتْني جدتي أنها أمّي، وحين انتبهتْ أنها تنظر إليّ استدارتْ، ودخلتْ الغرفة تاركةً جسدي في حضن أبي.

كان لا يزال يحتضنني، عندما تذكرتُ أنه قد يكون أحضر يدي معه، فابتعدتُ عنه بسرعة، لعلّني أراها، فلم أرها. رأيتُ حقيبته على الأرض، انحنيتُ، فتحتُها، بعثرتُها، وسط دهشته ودهشة جدّتي التي صرخت: مش هيك ربّيتك.

لم تكن يدي هناك.

حبستُ دموعي وخرجتُ.

- "إلى أين؟"، سألتْني جدتي.

- "إلى جهنَّم"، أجبتُ.

كان يمكن لقاسم أن يكون أفضلنا؛ يغلبنا جميعًا، فيموت أولًا، لكنه حُرِم من ممارسة لعبة تسلّق المحاجر.

أما أغرب ما سيحدث، في ما بعد، فهو أن الموت سيلعب مع قاسم أكثر بكثير مما لعب الموت معنا ولعِبْنا معه. سنعرف أنه لم يكن مضطرًّا للصعود للَّعبِ معه، لأن الموت نفسه سيهبط إليه ليفعل ذلك.

30

بلا مقدمات، قطع قاسم الموضوع الذي كنّا نتحدّث فيه، وأخبرنا بأن تفوّقه في الرّياضيات أفاده كثيرًا.

وعاد إلى صمْته.

توقّعنا أن يقول لنا إن ذلك سهَّل عليه عمليتَي الجمْع والطَّرح لإحصاء عدد الجلول، إلا أنه فاجأنا وتحدّث عن عمليتَي الضرب والقسمة.

- الآن بتُّ أعرف كم مرّة أُضرَب في العام.

فاجأتْنا حقيقة أنه يُضرَب، إذ كيف يمكن أن يتمّ ضرب ولد مثله؟ وكيف يستطيع أن يتلقّى الضربات بيد واحدة؟ كنّا على استعداد لأن نقطع يد من يضربه في تلك اللحظة ونحن نسأله بغضب:

- مَن يضربكَ؟ لم نر أيَّ ولد يفعل هذا.

- "جدتي"، قال.

- ولماذا تضربك؟

- لا أعرف، أعرف أنها تضربني، مرّتين في اليوم على الأقل... كما أنها تعرف كلّ مغامراتنا، هي التي أخبرتْني، دون أن تطلب منّي ألّا ألعبها، أظنّها تريدني أن أموت بسرعة.

- "سنكسِّر بيتها"، قلتُ.

- وأين سأنام إذا كسَّرتُم بيتها؟

- سنرمي بأفعى في غرفتها.

- ومن سيعتني بي إذا فعلتما ذلك؟

كنتُ غاضبًا إلى درجة أنني ركضتُ نحو أقرب عمود كهرباء، خلعتُ حزامي، ثبتّه أسفل قدمّي، لأمسك السّلك السادس، وقبل أن أبدأ الصعود أطبقتْ يد قوية على كتفي من الخلف وألقتْني أرضًا؛ كانت يده.

- "تريد أن تلعب مع الموت مرّة أخرى، ألم تكتفِ بما حدث لكَ في المرّة الماضية؟ أين يمكن أن أجد أخًا مثلك؟" صرخ قاسم وهو يكاد يبكي.

بقيتُ على الأرض جالسًا، لم أنهض، ولعلّني كنتُ سأصعد رغمًا عنه لو قال لي: "أين يمكن أن أجد صديقًا مثلك؟"، ولكنه قال: "أخًا مثلك".

استدرتُ، أسندتُ ظهري إلى عمود الكهرباء، ففعل الشيء نفسه في الجهة المقابلة، ووقف بشير يراقبنا بعينين مبتلّتين.

- أمّي لديها أبناء آخرون، كلّهم كاملون، لكن ما حصل لي لم يكن ذنْبَها.

***

كانت أمّه حامل به، تعاني من آثار الحمْل، ذهبتْ إلى المركز الصّحي التابع لوكالة الغوث، أعطوها دواء "ثاليدومَيد Thalidomide"، الذي يُوصفُ للنساء الحوامل للحدّ من الغثيان، وأمّه منهنّ. في ذلك العام، وبعده، وقبله أيضًا، كان الدواء يوزّع على اللاجئين، لكن أحدًا لم يلاحظ مبكرًا، أن هناك تزايدًا في الحالات التي يولد فيها الأطفال مشوَّهين.

قاسم صار يعتبر نفسه محظوظًا بعد سنوات، لأن هناك أطفالًا وِلدوا من غير أنوف، بعين واحدة، بتشوّه داخلي، بنصف قدم، برأس ملتصق بأحد الأكتاف، برأس صغير جدًا، أو كبير جدًا.

سنوات مرّت قبل أن يكتشفوا أن ذلك الدّواء هو السّبب. تمَّ وقْف تداوله، وانتهى الأمر عند هذا الحدّ. لا أحد تحمّل المسؤولية، حتى أمّه التي أحسَّ أنها لم تحتمل وجود ابن بيد واحدة، ألقتْه في وجه جدّته وابتعدتْ.

لا أحد يعرف ما يدور في داخلها، أمّه الصغيرة الخجول المنطوية.

بعد سنوات طويلة، أخبرني قاسم، دون مقدّمات:

- أتعرف ما هو أغرب شيء؟ منذ اليوم الذي استردتْني فيه أمّي، مضطرّة، بعد موت جدّتي، لم أسمعها تقول لأيّ من أخواتي أو إخوتي: يمّه؛ غريب، أليس كذلك؟

لم يكن ينتظر جوابًا منّي، ربما كان يدعوني للتفكير في الأمر بعد أن فكَّر فيه كثيرًا.

هل حَرَمَتْهم من ذلك لأنها حَرَمَتْه؟ هل كانت تعاقب نفسها من كلّ أمومة أخرى لأنها هجرتْه؟ لم ولن أعرف، رغم أنني التقيتُها ذات يوم، في أواخر عمْرها، بعد عودتهم جميعًا من الكويت، بعد احتلالها. متعبةً كانت، وأنيسة، بحيث لم أجرؤ على تذكّر حكاية قاسم، الطفل، في تلك اللحظات.

31

نسي الناسُ المصريّ، لم يعد أحد يتذكَّره، لكنّ عمّتي أخذتْني جانبًا ذات يوم وسألتْني:

- هل هناك أخبار عنه؟

- مَن؟

- المصري.

- لم يره أحد منذ آخر أيام الحرب.

- هل ترك بيته؟ هاجر؟ ولكن إلى أين سيهاجر هذا المسكين؟ هل تكون الأرض انشقّتْ وابتلعتْه؟

- لا لم تبتلعه، أحيانًا نتخيّل أننا نسمع بكاءه، أنا وأصحابي، كلّما مررْنا من هناك، لكن أحدًا منا لم يجرؤ على طرْق الباب.

- يعني حيّ؟

- سأكون صريحًا معكِ؛ إننا نسمع صرخاته في الليل، ربما يكون هو وربما يكون شبحه، لا نعرف، وربما نتخيّل.

***

- "أنتم لا تتخيّلون"، قالت لي صباح اليوم التالي وعيناها ممتلئتان بالدّموع، إنه يصرخ طوال الليل. الصحيح، إنه يحاول كتْمَ صراخه طوال الليل، وهذا ما يجعل صراخه أعلى في أذنَي، الليلة لم أنمْ، سمعتُه وأنا في الخيمة.

ما قالتْه عمّتي دفعني لأن أجمع الأولاد، ما إن هبط الظلام، ونذهب لكي نتأكّد.

لم نكن نتخيّل، ولم تتخيّل عمّتي.

قرر أهل الحارة أن يكسروا الباب، بعد أن طرقوه طويلًا وطرقوا النافذة. لم يُجب أحد، كلّ ما حدث أن الصراخ المكتوم اختفى، وماتَ الأنين.

***

هيكلًا عظميًّا كان عندما سقط عليه ضوء القنديل الذي يحمله أبي.

تراجعْنا خطوات فَزِعين، فهي المرّة الأولى التي نشاهد فيها هيكلًا عظميًّا.

في ذلك اليوم خِفْنا من الموت، خفنا كثيرًا، وقد رأى كلّ واحد منا نفسه في تلك الزاوية. هذا ما بُحْنا به لبعضنا بعضًا، ما إن ابتعدتْ سيارة الرّينو التابعة لوكالة الغوث تحمِله.

كلّ من في المخيم كانوا يخشون تلك السيارة ويتمنّون ألّا يكونوا مضطرّين لاستدعائها، إذ لم يحدث أبدًا أن عاد حيًّا أيّ من أولئك الذين أتتْ لتُسعفَهم.

في تلك الليلة من ليالي أوائل شهر تموز، يوليو، بعد ثلاثة أسابيع من انتهاء الحرب، كان الفقْدُ يعصف بكلّ شيء: بقية فلسطين التي احتُلّتْ، مدنًا وقرى، الأحباء الذين قُتلوا، والذين فُقِدوا، والعتمة التي نهشتْ ملامح الناس بعد عاصفة الأمل التي اجتاحتهم قبل أوّل الرصاص.

نيران شمس ذلك الشهر اللاهبة تجمّعت صقيعًا في زوايا الغرف الصغيرة والخيام. كانت عمّتي ترتجف. انتبهنا لذلك، انعقدتْ ألسِنتنا وأيدينا؛ كانت عمّتي تموت أيضًا، وحيرني ذلك كثيرًا، فالمسافة كبيرة بين الهيكل العظمي للمصريّ وجسدها الضخم، الذي لم تستطع الحرب والخوف، أن يُذيبا لحمه وشحمه. كانت المسافة بين الجسدين، كالمسافة بين بيتنا والمقبرة.

لم يجرؤ أحد على أن يطلب سيارة الرّينو مرّة ثانية، وأبي قال: لن نسمح لهم أن يأخذوها، لن نتركها تموت هناك وحدها.

بعد أن قال ذلك، أحسسنا أنه خجِل من نفسه، انتبه، فأضاف: ما كان علينا أن نترك سيارة الإسعاف تأخذ المصريّ دون أن يكون واحد منّا معه.

في ليلة يوم الجمعة، قبل انتصاف الليل، بحث أبي عن حذائه بين الأحذية بصعوبة، حشر قدميه فيه، وخرج راكضًا.

ألقيتُ نظرة على عمّتي، وفي تلك اللحظة أبصرتُ شيئًا من الحياة يعود إليها.

32

مرّ وقتٌ طويل لم تلتقِ خلاله مجموعة الأصدقاء، بعد ما حدث للمصري، بعد أن وجدنا أنفسنا مع الموت وجهًا لوجه، وعندما اجتمعنا في أوائل شهر آب، في جلسة ضمّتْنا أنا وقاسم وبشير، بطلب من نور التي تابعتْ أخبارنا، إما عن طريقي أو حين تزور الحارة، كان خامسنا الصمت.

ربما كان عددنا ثمانية، نحن الثلاثة كما كنّا سابقًا، يضاف إلينا نحن الثلاثة الذين تغيَّرنا، ونور والصمت.

وقت طويل مرّ قبل أن يفتح قاسم فمه:

– أظنّنا تهورّنا أكثر مما يجب في الفترة الماضية.

هزّت نور رأسها تشجّعه، فواصَل:

– لقد بقيتُ أفكّر في شيء لم يخطر ببالكم، وهو أنني أمضيت عدة سنين أنتظر فيها عودة يدي المفقودة إليّ، ولم تأتِ، فكيف قبِلتُ لنفسي أن أكون مجنونًا لأعطي الموت بقية أعضائي ومجانًا.

***

لم نعترف أننا خفنا من الهيكل العظمي الذي رأيناه في الزاوية، اعترفنا في ما بعد؛ وفي كلّ مرّة التقينا فيها في بلد ما، بعد ذلك بكثير، كنّا نعترف بشيء آخر.

الغريب أننا حين كبرنا كثيرًا، ورغم سهولة تبادل الرسائل عبر الإيميل ووسائل التّواصل الاجتماعي، لم نكتب شيئًا عميقًا حول ما عشناه. الحديث الوحيد الذي يمكن أن يكون عميقًا، دارَ دائمًا حول مقال كتبه قاسم أو قصيدة أو رواية كتبتُها، أو كتاب ترجمه بشير، وتبادلنا ذلك كلّه بيننا.

***

المصريّ استطاع تحطيم القاعدة الوحيدة التي لم يُحطِّمْها أحد قَبله؛ لقد عاد حيًّا؛ وبذلك منح كلّ من عرفوا قصّتَهُ الأملَ في وجود فرصة لبقاء المريض الذي تأخذه سيارة الرّينو، على قيد الحياة.

أبي أخبرنا أن الحياة عادت للمصريّ، لأن هناك من يسأل عنه؛ أبي الذي حرص على أن يزوره في الصباح، حاملًا له بعض الأشياء الصغيرة: حبّة تفاح، برتقالة، طعامًا خبأته أمّي، أمّي التي باتت في كلّ مرّة تقتطع كمية من طعامنا وهي تقول: وهذه حصّة المصريّ.

***

عمّتي التي علِمتْ بتحسّن صحّته، من حديث أبي للجميع، عادت الحياة إلى عينيها أوّلًا، قبل أن تعود إلى بقية جسدها.

ذات ظهيرة قالت لي:

- أريدكَ أن تأتي معي.

- إلى أين؟

- حين نصل إلى هناك ستعرف.

ما إن سحبتْني من يدي باتجاه السّوق الواقع خلف المسجد الكبير للمخيم، واشترتْ كيلو تفاحًا، غير ذلك التفاح الصغير، الرّخيص، الذي نراه في بيتنا على فترات متباعدة، حتى أحسستُ بأنني أرافقها في مهمّة جليلة فعلًا. واشترتْ كيلو موزًا من بائع آخر، فعرفتُ إلى أين سنمضي، إذ لم نكن نرى الموز إلّا في المناسبات التي يمرض فيها أحد ما، وكأنّ سهولة تناول الموز مقترنة بضعف جسد المريض الذي لا يستطيع أن يأكل أي فاكهة بالسهولة التي يأكله بها.

سأرافق عمّتي مرّات كثيرة، لكنها لم تكن قادرة على أن تشتري للمصريّ هدايا دائمًا؛ في أحيان كثيرة تكتفي بمراقبة ما تبقّى من أشياء اشترتْها له، وعندما ترى أنها على وشك أن تنتهي، تشتري له شيئًا جديدًا.

أما هو، فكان ينظر إليها طويلًا بامتنان، ثم ينظر إليَّ سريعًا، مُقدِّرًا، كما يبدو، دوْري كمساعدِ زائرةٍ للمريض.

كنت أخشى أن تؤثّر مشاهدتي له وهو يتعافى، يومًا بعد يوم، ثم نجاته، على قراري وقرار المجموعة، بالتوقّف عن القيام بالمغامرات الخطرة التي كادت تؤدي إلى موتي صعقًا بالكهرباء؛ لكن الفترة الطويلة التي أمضاها ضعيفًا ومتأرجحًا في بعض الأيام بين الحياة واحتمالات الموت، بسبب انتكاسات صحيّة مفاجئة، دفعتْني لأن أكون متمسّكًا برأي المجموعة،

وبرأي نور الذي لم أسمعْه أبدًا، بل رأيته في عينيها، وهي تحدّق إلى قاسم وبشير بغضب، وكأنها تقول لهما:

- أتريدان أن تجعلاني أفقد أعزَّ إنسان إلى قلبي؟

كنت أسمع هذا الذي لم تقلْه، ويؤثِّر فيَّ كثيرًا.

***

في طريق عودتنا من مستشفى الطِّلياني، حيث يرقد المصريّ، سألتُ عمّتي:

- هل تعتقدين أن المصري فقد صوته بسبب مرضه؟

- لماذا تقول ذلك؟

- لأنني لم أسمعه يتكلّم منذ اليوم الذي حملتْه السيارةُ فيه إلى المستشفى.

- سيتكلّم، سيتكلّم، لكنني أظنّ أنه لو تكلَّم الآن، فلن يعرف ما سيقول.

33

بشير فاقنا بشيء واحد: إنه الأكثر تحدِّيًا، والذي يمكن أن أدعوه الآن التحدّي الإيجابي، إضافة للتحدّي السّلبي الذي عاشه معنا.

كان موقف بشيرِ الأشهر كرهه للمدرّسين، وعندما ذكَّرته أن أباه مدرس، صمت طويلًا قبل أن يخبرني أن أباه غير ذلك، وربما يعود السبب لكونه يدرّس خارج البلد، ولأنه لا يراه أكثر من سبعين يومًا في العام، خلال إجازته الصيفية.

***

كان يمكن أن يكون ثلاثتهم، منذ الطفولة، شعراء وروائيين؛ بشير، وقاسم ونور، لكنهم قرّروا ألا يكونوا، نور ستشرح لي في ما بعد، أما بشير فشرح لي: كنتُ أظنّ أنني أعرف الكتابة، إلى أن طلب منّا أستاذ اللغة العربية ذات يوم: "ارسم حديقة بيتك بالكلمات" أمسكتُ بالقلم، لم أعرف ما الذي يمكن أن أكتبه. في النهاية قررتُ الكتابة عن حوض نعناع صغير زرعتْه أمّي في أبعد زاوية في الحوش، خوفًا عليه من أقدامنا الهائجة. أغلقتُ الدفتر وسلّمته للأستاذ. في اليوم التالي، وقف الأستاذُ خلف الطاولة المخصّصة له، وصرخ: "مَن بشير؟"، "أنا"، "هل تسخر مني؟ هل هذا وصف لحديقة؟ صفر". كرهتُه، كيف يطلب منّي أن أرسم حديقة بيتي في الوقت الذي سرقوا فيه منّا البيت؟

في مرّة أخرى، لم تكن النتيجة ذاتها.

في السّاحة الترابية التي تحوّلتْ إلى مستنقع طين، وقف الطلاب تحت المطر، ينتظرون أن يُقرَع الجرس ليدخلوا الصّفوف، لكن المطر ازداد هطولًا والجرس لم يُقرع.

أحسّ بشير بالماء يتسلل عبر ملابسه وحذائه المثقوب، فحرّض الطلاب على الدّخول.

دخلوا...

بعد قليل جاء نائب المدير وصاح:

- مَن بشير؟

- أنا.

- هل أنت المسؤول في هذه المدرسة أم أنا؟

- أنت.

- ولماذا طلبتَ من الطلاب أن يدخلوا قبل أن يُقرع الجرس؟

- لأن الدنيا تمطر، ملابسنا خفيفة ومعظم أحذيتنا مثقوبة.

كانوا سبعة أولاد أولئك الذين تجرأوا ودخلوا غرفة الصف.

- اخرُجوا، وانتظروني في الممرّ.

خرج بشير، ومَن معه.

- "افتحْ يدك"، أمره نائب المدير، لكي يضربه.

رفض بشير، أخبره أنه لم يفعل أيّ شيء خاطئ. فأمره نائب المدير:

- اذهب إلى مكتب الإدارة.

ذهب. طلب النائب من الآخرين أن يفتحوا أيديهم، رفضوا، باستثناء واحد لا غير، أصبح مدير مخفر للشرطة في ما بعد.

- قولوا لي كيف أُحبّهم؛ هؤلاء الأساتذة؟

***

قاسم لم يعبّر عن رغبته في أن يكون كاتبًا، وسيشرح لي الأسباب في ما بعد، كنور، لكنه سيصبح ناقدًا، ويواصل طريقه فينال درجة الماجستير في الأدب المقارن، لغة فرنسية، وسأبقى أمازحه: لو لم تقرأ كتاباتي أيام المدرسة لما أصبحتَ ناقدًا.

- أعترفُ؛ إذا كنتُ ناقدًا جيدًا اليوم، فهذا بسبب كتاباتكَ الجيدة أيام المدرسة، أما إذا كنتُ ناقدًا رديئًا، فإن ذلك بفضلها أيضًا، لأنها كانت رديئة، فماذا تقول؟

- كانت أفضل كتابة بالطبع؛ أقول له ضاحكًا.

- الآن يمكن أن أعتبر نفسي، بشهادتكَ، ناقدًا جيدًا، ويضحك أكثر.

34

يحبُّ الكتب ويكره المدرِّسين.

... وبشير كان الأكثر ولعًا بالقراءة بيننا أيضًا، ومع أن أباه كان مدرِّسًا، إلا أن الفضل يعود لعمّه الذي كان يسمّيه "الأرثوذكسي"، لأنه درس في مدرسة للطائفة الأرثوذكسية في "حيفا". هذا العمّ الذي خرج من فلسطين قبل أن يُتمَّ الثانوية العامة، وعُيِّن مدرِّسًا في "مدارس الكلية العلمية الإسلامية" بجبل عمّان؛ كان من أفضل المدرِّسين، لكنه اكتشف بعد ذلك، أنه إذا أراد أن يُحسِّن وضعه، فإن عليه التقدّم لامتحان الثانوية العامة.

فَعَلَها، بعد أن قاوم رهاب الحالة التي سيجد نفسه في بحرها: أن يجلس في قاعة الامتحانات، ويجيب على الأسئلة التي سيجيب عليها كثير من طلّابه الجالسين حوله، المحدّقين إليه.

... سيظل الأرثوذكسي المثال الأعلى لبشير.

***

أما والده، المدرّس، فكنّا نراه كما يراه، عند عودته صيفًا من إمارة أبو ظبي. كانت كلمة "إمارة" تفتننا، فنبالغ في توجيه الأسئلة لوالده حول الحياة فيها، هو الذي بدأ العمل هناك في بداية الخمسينيات من القرن العشرين.

نستغرب حين يقول لنا: "إن رواتبنا تأتي من الكويت"، ونستغرب أكثر وهو يخبرنا كيف تقوم الكويت أيضًا، بدفع النقود لأهالي طلابه هناك كي يسمحوا لأبنائهم بالالتحاق بالمدارس، وكيف يجوب المعلّمون المناطق الصحراوية لإقناع الأهل بأهمية التعليم. أما الصورة التي لم تزل عالقة في ذهني فهي وصْفُه للمدرسة في مواسم العواصف: نحن خمسة مدرِّسين، في تلك المنطقة، أصعب أيام التدريس علينا هي الأيام التي تهبّ فيها الرياح القويّة، أوّل شيء نحرص عليه هو ألّا تطير غرفة الصّف.

حديثه عن الغرفة التي تطير، فتح في خيالي سماء أخرى، فسألتُ:

- وهل تطير الغرف هناك؟

- طبعًا تطير، ولكننا نمنعها من ذلك، لأنها إن طارت فلن نستطيع استرجاعها من جديد.

- تطير، ويطير معها الطلاب؟، سألتُه.

- لو كان الأمر كذلك لكنّا تركناها تحلّق كما تشتهي ولحلّقْنا معها.

- لم أفهم، علّق قاسم.

- هناك؛ غرفة الصف خيمة، وحينما تبدأ الرياح بالهبوب يقوم أربعة من المعلِّمين بإمساك حبال أوتادها الأربعة، مثبّتين أرجلهم في الرّمل، أما المعلم الخامس فيُعلِّم، وعندما تنتهي حصّته، يذهب ويُمسك بأحد الحبال، ويقوم المعلم الآخر بتدريس الطلاب، وهكذا يستمر الوضع إلى أن ينتهي اليوم الدّراسي.

نأخذ نفسًا عميقًا، بعد أن أحسسنا أن الرّياح ملأت رئاتنا بالرّمال.

- وفي الشتاء؟ أسألُ.

- لا شتاء فعليًّا في الصحراء، هناك فصل واحد تقريبًا هو الصيف، ولكنه ليس كالصيف هنا، إنه النار، لذا، على كلّ واحد منّا في الليل أن يصحو عدة مرّات ليُبرِّد فِراشه بصبِّ الماء عليه، حتى يستطيع النوم ساعة أو ساعتين، قبل أن ينهضَ من جديد ليصبّ الماء مرّة أخرى بدل الماء الذي تبخّر.

***

... وإضافة لكونه الأكثر جرأة وحبًّا للكتب، كان بشير المموّل الأساسي لاحتياجاتنا الأساسية، فهو الوحيد الذي يملك ثروة حقيقية، جمعها حينما سكن مع أهله في مدينة الزرقاء، قبل انتقالهم إلى المخيم.

ثروة بشير عرف بها ثلاثة فقط: قاسم، نور، وأنا. كانت لا تقلّ عن عشرين دينارًا على الأقل، لكنه أنفق معظمها علينا؛ كلّما سمع أحدنا يتمنّى الحصول على شيء، ذهب واشتراه، إلى درجة أننا بتْنا نخجل من أن نتمنّى.

بشير أصبح يقول، ساخرًا، بعد سنوات: أنا أكثر إنسان خسِر بسبب خروج الاستعمار الإنجليزي من الأردن.

***

في الزرقاء، حيث أقيمتْ معسكرات الجيش البريطاني، كان بشير وأصدقاؤه يُمضون معظم وقتهم في السباحة في نهر الزرقاء. أحيانًا يصطادون

السّمك. بشير فُتنَ بصيد السلطعونات؛ "كنت أصطادها انتقامًا من غبائها"، كلّ ما عليه أن يفعله للإمساك بها، أن يمدّ غصنًا باتجاهها، فتدافع عن نفسها بأن تتمسّكَ بالغصن، غير عارفة أنها بذلك سيتمّ اصطيادها، وحتى بعد خروجها من الماء لا تنتبه، تبقّى متشبّثة بالغصن الجاف؛ كان يعيدها غالبًا، إلى أن رآه جندي بريطاني يصطاد سلطعونًا، فسأله أن يبيعه إياه. استغرب بشير، فالعرض غير متوقّع، لأنه وأصحابه لا يأكلونه أصلًا.

سأل بشير الجنديَّ بجرأة خبير: كم ستدفع ثمنه؟

– إذا أعطيتني خمسة، أعطيك عشرة قروش، هل هذا جيد لك؟

صُعق بشير الذي كان مصروفه اليومي نصف قرش؛ أحيانًا لا يحصل عليه.

– هذا جيد لي.

وهكذا بدأت تجارة السلطعونات، الجنود يشترون، ونهر الزرقاء، نهر حقيقي، ممتلئ بها.

في إحدى المرّات كان صيده وفيرًا، توقّع أنه يحصل على أربعين قرشًا على الأقل، لكن الجنود تأخّروا. انتظر، فتأخّروا أكثر، هبط الليل، ففَقَدَ الأمل، تلّفتَ حوله باحثًا عن حلّ، لم يرَ، فأعاد السلطعونات إلى الماء.

***

في حالات كثيرة كان بشير يدّعي أنه عثر على خمسة قروش، يعطيها لأمّه، أمّه التي تدعو له من كلّ قلبها:

– الله يفتح لك كل كنوز الدنيا.

وللحقّ، كان أفضل ولد في الحارة في تعامله مع أمّه: يساعدها في الجلي، الغسيل، نشر الثياب، كنْس البيت والحوش، شراء كلّ ما تحتاجه من السّوق، وحينما كانت أخواته يحاولن التدخّل لمساعدته، لم يكن يسمح لهنّ، وهذا ما سيؤثر في علاقتي بأمّي كثيرًا.

***

بعد أن انتهى كنزه، سمع قاسم يتمنّى السّفر إلى الكويت:

– لو لم أزل غنيًّا لفعلتُ المستحيل لكي أُسفِّرَكَ إلى هناك على حسابي.

وعندها أدركْنا أن بشير صار مثلنا، بشير الذي بات يحلو له، في ما بعد، أن

يبدأ كلامه بتلك الجملة:

- عندما كنتُ غنيًّا...

***

في كلّ مرّة جلسنا فيها معًا، غابت الشمس قبل أن ننتبه. في كلّ مرّة جلسنا فيها، تكون نور ملتصقة بي، في أيام البرد تقترب وتلتصق بي أكثر، فيغمرني دفء آخر، غير ذلك الذي يغمرني به دفء عمّتي في أشدّ الليالي برودة.

يلاحظ قاسم وبشير التصاقنا، ولكنهما يواصلان الحديث، كما لو أن شيئًا لا يحدث، فمنذ أن عرَفانا كنّا هكذا دائمًا.

- سأوصلكِ إلى البيت، تأخّرنا.

تنهض، نودّع صديقينا، ونبتعد.

وصلنا أوّل الشارع الصاعد إلى بيتهم، همستْ، كأنها تحدّث نفسها:

- الحرية مثل المي...

- ماذا؟

- هل قلتُ شيئًا؟

- يهيأ لي أنكِ قلتِ: الحرية مثل الميّ.

- لا أتذكر، ولكن قل لي، هل كتبتَ لي شِعرًا؟

فاجأني سؤالها كثيرًا.

- أنا؟ أنا لا أكتب الشِّعر، نفيتُ ذلك بشدَّة.

الرّسالة الأولى:

يسعد صباحك،

سعدتُ بأنكَ أرسلتَ إليّ "طفولتنا الأولى".

أعيدها إليك مع بعض الملاحظات الصغيرة.

انطباعاتي أنه تقديم جميل وعذب لعمل سأحبّه؛ يرى في طفولتنا وذكرياتنا كلّ هذا الحزن، وكلّ هذا الفرح، وهذا الشّغب، ويقبض على جوهر العلاقات والمشاعر (... ...)، يبدو لي حياةً حقيقية كُتِبتْ بأسلوب إبداعي فبدتْ كالخيال.

آمل أن نتمكّن من الحديث حوله يوماً ما، خارج زمن كورونا.

معايشتي للفصول السابقة جعلتْني أحس بأنني أهزم الوباء.

دمتَ وسلمتَ

نور

طفولة ثانية

1

استيقظتُ مذعورًا... لم أكن أعرف أن أمرًا كهذا يثير الرّعب.

لكنني، لسبب لا أدركه، رحتُ أحاول بحماسة إكمال الكابوس.

لم أفكّر بالعودة إلى النوم. كان هنالك برْدٌ، بردٌ شديد، واستغربتُ أن يكون هنالك برْد وأنا أنام بجانب عمّتي.

رغم مرور سنوات، ظلّتْ خلالها محافِظَة على نظام التّدفئة الذي اعتمدتْه؛ كانت تختار ولدًا، وتضعه إلى جانبها الأيمن، وبنتًا، وتضعها إلى جانبها الأيسر، ولهذا تطوّر دوْرها عامًا بعد عام، إلى أن أصبحنا نتعامل معها باعتبارها وزيرة للطاقة. كانت سعيدة بالمنصب، لأنها الأولى التي تحتلّه، في زمن لم يكن فيه في الأردن وزارةً كهذه.

في الشتاء، غدت العمّة أفضل مدفأة يمكن أن يحظى بها بيتٌ في "مخيم الوحدات للاجئين الفلسطينيين"، حيث لا غطاء يكفي في تلك الغرف الصغيرة، التي معظم سقوفها من صفيح؛ ودائمًا كانت تفوح من جسمها رائحة موقد عملاق، كما كتبتُ سابقًا.

استيقظتِ العمَّةُ، حين سمعتْني أتمتم بكلمات غير مفهومة، كلمات غامضة كأنها تعويذة ساحر.

خافتْ، فهي من المؤمنات بقوّة السِّحْر والسَّحَرة، لكن جسمها الضَّخم، مقارنة بجسمي، ساعدها دائمًا على أن تكون أكثر جرأة، هي التي سمعتُها تقول، ذات يوم، لرجل في السّوق، ضايقها: "وهل تعتقد أن دبابة يمكن أن تخشى بسكليت؟"، ومن يومها أصبحنا نتعامل معها باعتبارها وزيرة للدفاع أيضًا، مع أنه لا توجد وزارة فعليّة للدفاع في الأردن حتى اليوم.

عمّتي قالت لي:

- ما الذي تفعله في هذه العتمة؟ هل جُننتَ؟

- بل مُتُّ؟

راحت العمّة تُبسمل، طاردةً الشيطان. امتدَّتْ يدها ورفعتْ ضوء

القنديل قليلًا. تحسستْ جبيني.

- "نَمْ"، قالت لي.

- ولكنني مُتُّ.

- نَم الآن، في الصباح، حين تشرق الشمس، سنتأكّد، إن كنت قد مُتَّ فعلًا أم مَا زلتَ حيًّا.

شدَّتْني بقبضتها القوية نحوها، فأصبحتُ كالبيضة التي يرقد عليها فيلٌ لطيف. وبدل أن تخفض نور القنديل، اعتدلتْ، ونفختْ؛ انطلق الهواء من رئتيها عاصفةً صغيرة، فاختلط بالظلمة دخان برائحة كاز ملأت الغرفة.

سعَل أحد إخوتي النائمين بقوة.

وسمعتُ قطرات المطر النازلة من السّقف، القطرات التي تتجمّع في وعاء معدني قرب أقدامنا، تُصْدِر ذلك الصوت الذي لم نكن نحبّه:

"تِكْ... تِكْ... تِكْ".

2

أغربُ سبب يمكن أن يوقظ إنسانًا، أن يحلم أنه أصبح شاعرًا، فيصحوَ مذعورًا.

كنتُ على يقين من أنني مُتُّ؛ فكلُّ الشّعراء الذين قرأتُ قصائدهم في كتبي المدرسية كانوا أمواتًا؛ لم يسبق لي أن سمعتُ أن هناك شاعرًا على قيد الحياة؛ لتأتيَ "نور" وتقول لي إنني أكتب شِعرًا.

الشيء الذي حيّرني، هو محاولتي استعادة تلك القصيدة التي ألَّفتُها في ذلك الكابوس، أو الحلم، ما حيّرني أكثر أنني حينما تذكَّرتُ بعض أبياتها، رحتُ أعمل على إكمالها.

بصعوبة، وضعتُ رأسي على الوسادة، في الظّلمة، وكم سرّني أنني ما زلتُ حيًّا.

في الصباح، تململتْ عمّتي، أحسستُ بالأرض تتحرّك تحتي. كنتُ مغمورًا بدفء غريب. استيقظ إخوتي وأخواتي البعيدون عن العمّة، بفعل الزّلزال أيضًا، كانوا يرتجفون.

- "ما زلتَ حيًّا؟"، سألتْني.

تحسستُ صدري، وجهي، تلمَّستُ الهواء الخارج من رئتَي، وأجبتُها:

- أظنّ.

- "قُمْ واغسل وجهكَ، وكُلْ شيئًا حتى تُثبتَ لي أنك حيّ، فالأموات لا يتناولون الطعام، ثم اذهب إلى مدرستك"، وصمتتْ قليلًا قبل أن تضيف: "إن أفزعتَني ثانية، فلن تنام إلى جانبي طوال الشتاء، فهمتَ؟".

كان ذلك أخطر إنذار أتلقاه في حياتي.

- فهمتُ.

***

الشوارعُ غارقة في الطين، الشوارعُ طينٌ. بجزْمتي البلاستيك العالية سرتُ وسط قناة الماء الصغيرة في منتصف الشارع؛ ذلك يجعل الوصول إلى

المدرسة أسْهل. هكذا لا يُطبِقُ الوحْل على الجزمة، كان وحْلًا كثيفًا، أحمر داكنًا، يمكن أن ينتزع أيّ حذاء من قدَمَي أيّ تلميذ، بل أي مُعلِّم أيضًا؛ السّير في المياه أضمَن.

أطلّتْ كلماتُ القصيدة ثانية من ذاكرتي، تمتمْتُها. نسيتُ الوحْل، وصلتُ المدرسة. كيف وصلتُ بسرعة؟ لا أعرف.

أحسستُ بأن للكلمات أجنحة.

ولكن كيف يكون لها أجنحة، والشّعراء أموات؟

هل تكون الكلمات أرواحهم، لا أجنحتهم، وأنا الآن لستُ أكثر من روح؟

مُربِّي الصفّ، صرخ في وجهي:

- لماذا تأخّرتَ؟

- "لماذا تأخّرتُ؟ كنت أعتقد أنني سبقتُ الجميع لأنني جئتُ طائرًا"، أجبتُ، وقد نسيتُ أن كلامًا كهذا سيحوِّلني إلى طُرْفة على ألسِنَة الجميع.

- "في المرّة القادمة، غدًا، عليك أن تأتي ماشيًا"، قال لي الأستاذ، وأضاف: "سأسامحكَ، فهذه هي المرّة الأولى التي تأتي فيها متأخّرًا".

- "حاضر"، أجبتُ، ولكن ما إن بدأ الدّرس حتى أحسستُ بنفسي مُحلِّقًا في فضاء غرفة الصفّ.

3

عمّتي المُهجَّرَة من بيت لحم، عمّتي الطيبة، كانت تضع صليبًا يتدلّى من رقبتها، صغيرًا، من الصّعب أن يراه أحد، لا يظهر إلّا في لحظات انحسار ثوبها، حين يعجز ذلك الثوب عن إخفاء أعالي صدرها الأشبه بالتلال الشرقية مقابل المخيم، التلال التي كنّا نطارد فيها، بأقدامنا الحافية، أجنحة العصافير، قبل أن تبدأ الخيام وغرف الصفيح المبنيّة على عجل بالانتشار فيها.

كلنا نعرف حكاية الصليب التي أهدتْه لها قبل الحرب صديقة لها، صديقة قتلتْها قذيفة ألقتها طائرة إسرائيلية، سقطتْ على الشاحنة التي تستقلّها مع أهلها خلال حرب حزيران. لم يسلَم أحد من أفراد الأسرة من تشوّه ما، في الوجوه أو الأيدي أو السّيقان أو الرّقاب، أمّا لحم الصديقة فقد التصق بأجساد أهلها.

عمّتي كانت تقول ذلك الكلام، وتضيف: "دائمًا أحسّ أن الصليب المُعلَّق في رقبتي نجا، ولكن المسيح مات"، وتتساءل: "لماذا ينجو الصّليب في كلّ مرّة يكون هناك قتْلٌ، ويموت المصلوب؟".

تلك أسئلة كانت أكبر منّا، لكن عمّتي، تعود للتحدّث مثلنا، بعد أن تتنهّد.

كلّما تفتّحتْ سيرة صديقتها الشهيدة صمتتْ طويلًا، ثم قالت كلامًا أكبر منّا، وربما أكبر منها، حتى إنني أصبحتُ على يقين من أن روحها هي التي تقول ذلك الكلام الكبير الذي لا نفهمه.

هكذا أصبحنا نتلمَّس الصليب الصغير برهبة ورفق، كما لو أننا نتلمَّس جسد سيدنا المسيح، عليه السلام، مُعلَّقًا عليه، حتى لا نوقظ جراحه.

***

- إن كنتَ تنْوي إفزاعي بكوابيسكَ، كما فعلتَ الليلة الماضية، فنمْ في تلك الزاوية.

كان في صوتها، وفي سبَّابة يدها اليمنى المصوَّبة كمسدس، تهديدٌ حقيقيٌّ،

بحيث انفجر برْقٌ في الخارج، تلاه رعدٌ رفعَ سقفَ الغرفة الصفيح شبرًا على الأقلّ.

- أفهمتَ؟

- فهمتُ.

- "هات خدَّك لأبوسه، أتعرف لماذا؟"، وقبل أن أجيب أضافتْ: "لأنك ما زلتَ حيًّا، وعليك أن تفهم جيدًا، أنكَ لو متَّ، فلن أتركك تنام إلى جانبي أبدًا، رغم أنك العزيز الغالي. أفهمتَ؟"

- فهمتُ.

4

تململتْ أُمِّي مُحاوِلةً النّهوض، مع أنها في الشهر الثاني من حمْلها. كلّ ما فيها يشير إلى وجود توأم في رحمها. ورغم نُحْفها الشّديد، بات وسطها بنصف ضخامة وسط عمّتي، وهذا ما لم نفهمه أيضًا. كانت تمنعنا من الاقتراب منها، أو النوم بجانبها. حتى أبي، لم نره بجانبها نائمًا، أقول هذا الكلام وقد كبرتُ الآن؛ فقد امتدتْ مسافةُ أمان بينهما، ومسافة أخرى بينها وبين أخواتي وإخوتي إن اضطرَّتْ للاقتراب منا لتشجيعنا. أما إذا أرادت تهنئة أحدنا لحصوله على علامة جيدة، فإنها تُرسل إليها، أو إليه، قُبلة طائرةً عن بُعد. ولأنّ أمي تمتعتْ بخفّة دم متدفِّقة، وربما، ببراءة استثنائية، كانت تسأل كلَّ من يحظى بقُبلة طائرة، لتتأكد: "هل وصلتْك البوسة؟".

إذا أجاب "لا"، وغالبًا ما كنّا نفعل هذا، فلا تتردّد في إرسال قُبلة طائرة أخرى بعد أن تحرص على أن تلامس أصابعُها الثلاثة وسط يدها اليمنى شفتيها تمامًا: "وصلتْ؟" تسأل. وحين تسمع أحدنا يؤكّد وصول القُبْلة، تقول: "إلى كتابك. إذا جاءت علاماتكَ أفضل في المرّة القادمة، سأغامر وأبوسك شخصيًّا، أما الآنَ فعليَّ أن أعتني بالولد الذي في بطني".

حرصها على الجنين، الذَّكَر، الذي تريد أن تختتم به مسيرة حمْلها وإنجابها، هو السبب في وجود المناطق العازلة.

ما لم يخطر ببالها أبدًا، أن يكون ما في رحمها بنتًا، فآخر حمْل أسفر عن قدوم أخت لي، وعلى الرّغم من جمالها الذي غطى على جمال كلّ مَن في العائلة، إلّا أن أمّي _التي ابتدأتْ مسيرتَها بولدين ذكرين، مات أحدهما قبل أن يتمّ الثانية من عمره_ حلمتْ أن تُنهي مسيرتها بولد واحد على الأقل، وإن أنجبت توأمَ ذكور، فهذا حلم أحلامها.

كان الجنين الغامض يتقّلب في جسدها، ونحسُّ به يرفسنا بعيدًا، كلّما اقتربنا منها، وهكذا تحوّل إلى مشكلة لنا جميعًا، قبل أن يتحوّل إلى قضية حياتي أو نهايتي التي سأعاني بسببها شهورًا طويلة.

5

استمرار نجاحنا في تحقيق نتائج جيدة، جعل أُمّي تحسّ بأنها أفضل مديرة مدرسة في المخيم، ونجاحها في صفوف محو الأمية، بنتائج "ترفع الرأس"، كما كان يقال لها في المدرسة، جعلها أكثر سعادة بلقب "وزيرة التربية والتعليم"، لكنها لم تكن مرتاحة لأن عمّتي استأثرتْ بلقبين: "وزيرة الطاقة" و "وزيرة الدفاع". وبقي الوضع هكذا، إلى أن تذكّرتْ أنها هي من تشرف على أدقّ الأمور الصغيرة في ما يتعلّق بمصاريف البيت وتدبير شؤونه، فمرَّرتْ ذات يوم طموحَها، في شكواها، حينما سمعتْنا نطالب برفْع مصروفنا اليوميّ: وهل تعتقدون أنني وزيرة المالية؟

كلّنا التقطنا ما سرّبتْه لنا، ونجحتْ خطّتها، فأصبحنا ندعوها "وزيرة المالية" أيضًا.

لم تعد أمّي تشعر بأي غيرة من عمّتي.

أما أنا، فبدأتُ أعاني في تلك الفترة من ذلك المأزق الذي عبّر عنه شكسبير، قبل أن أسمع بشكسبير: أكونُ أو لا أكون.

***

قرأتُ للشاعر الأشهر، المتنبّي، قصيدته الشهيرة:

عَلى قَدْرِ أهْلِ العَزْم تأتي العَزائِمُ
وَتأتي علَى قَدْرِ الكِرامِ المَكارمُ
وَتَعْظُمُ في عَينِ الصّغيرِ صغارُها
وَتَصْغُرُ في عَين العَظيمِ العَظائِمُ

كنتُ، لفرط جوعي في تلك الأيام أُفضِّل أن يكون مُفرد "عزائم"، "عزيمة" أو "عزومة" كما نقول؛ أي الدّعوة إلى الطعام، لا القدرة على التغلّب على الصِّعاب. أنا الذي سألتني أمّي مرّة بعد عودتي من المدرسة بعلامات ممتازة: جائع يا حبّة عيني؟ فأجبتها: "من كُثر جوعه لحسْ كوعه"، وأظنّ أن ذلك أوّل مثل أؤلفه في حياتي.

قبل هذا بسنوات كنت أحسّ بالجوع أكثر، كلّما سمعتُ محمد عبد الوهاب يغني:

أخي أيها العربي الأبيُّ
أرى اليوم موعدنا لا الغدا

وكنت أعتقد أنه يقول للغَدا، أي للغداء.

وحين يغني:

ولقد مررتُ على "الرّياض"
بربوةٍ غنَّاء كنت حيالها ألقاكِ

أقول لعلّه زار العاصمة السعودية في طريقه إلى "القاهرة" خلال سفره، هو الذي تبين لي في ما بعد أنه لا يحبّ ركوب الطائرة، بل السفينة، وما كان باستطاعته أن يصل إلى العاصمة السعودية بسفينة مهما كان حجمها.

أما حين سمعتُ في تلك الأيام اسم "الجامعة العربية" فقد حلمتُ بالدراسة فيها، والحمد لله أن تبيّن لي، في ما بعد، أن ذلك غير ممكن أبدًا.

***

أدهشني أن المتنبي، صاحب هذه القصيدة، ولِدَ عام 915م. ولوْ!

حاولتُ أن أحسب عدد السنوات التي تفصل عام ميلاده عن عام ميلادي، فتوصَّلتُ -مع أنني كنتُ جيدًا في الحساب- إلى أن الزمن أطول مما أتخيّل. أدركتُ أنه "شَبع موتًا"، كما تقول عمّتي، كلّما ورَدَ اسم شخص فارق حياتنا، أو: "صارتْ عظامُه مكاحِل"، كما تُردِّد جدّتي كلّما جاء أحد على ذِكْر اسم شخص عرفتْه أيام البلاد، أي أيام فلسطين، أي قبل النكبة، قبل تَشرُّدِها وتَشرُّدنا وتحوّلِ بيوتنا إلى خيام، وبحرنا إلى قنوات وبِرَكٍ صغيرة، وأرجلنا وأيدينا إلى مجاديف في الطين.

***

وعدت إلى الشاعر "أبي تمام"، ذلك الذي حفظنا له عن ظَهْر قلب:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ
في حدِّهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعبِ

تساءلتُ، رغم عدم قدرتي على البوح بسؤالي: لماذا لا يوزِّعون علينا السّيوف بدل الكتب في المدارس، ما دامت السّيوف أصدق؟ وما دامت

العصيّ تنهال على أيدينا، بسببها، أي الكتب؟ وما دام في السيوف جدٌّ ولعِب؟ وما دامت مفيدة ومبهجة في الوقت نفسه؟

أفزعني أن أبا تمام ولد عام 803 م، أي أنه أكبر من المتنبي بـ 112 عامًا. ولوْ! ردّدتُ ثانية. وفكّرتُ في عظامه، ولم أعرف ما الذي يمكن أن تقوله جدّتي عنها.

***

حين وصلتُ إلى امرئ القيس، وعرفت أنه ولد عام 500م، توقّف قلبي عن النبض، وأدركتُ أن كلَّ فرصي في أن أكون شاعرًا حيًّا تلاشتْ تمامًا. بل إن فكرة غريبة خطرتْ لي: هل كتَبَ هؤلاء الشِّعرَ قبل أن يموتوا أم بعدَ أن ماتوا؟

سخرتُ من نفسي ما إن وصلتُ إلى هذه النقطة، وقلتُ: إذا بقيتُ على هذا الحال، فإنني سأصبح مجنونًا، رسميًّا، بالتأكيد.

أما مَن هوّن الأمر عليّ قليلًا، وبعث الأمل فيّ، فهو الشاعر إبراهيم طوقان، فعلى الرّغم من أنه كان ميّتًا أيضًا، إلّا أنه لم يمُتْ منذ زمن طويل، بل عام 1941، كما أنني أحببتُ قصائده كثيرًا؛ أولًا؛ بسبب لغتها التي تشبه كلامنا تقريبًا، لا كلام امرئ القيس، وثانيًا؛ لأن في كلّ قصيدة قرأتها له، في كتبي المدرسيّة، قصّة أحببتُها.

***

أخطر شيء في العالم، أن تكون شاعرًا.

6

يا طير يا اللي مَرَق... مثلِ الشِّهاب وغابْ
قلبي بناري انكوى... سلِّم على الأحبابْ

بكتْ جدّتي لأمي، "خَضْرَة"، ما إن سمعتْ جدّي "عليّ"، يقول ذلك الكلام الذي بدا لي كالشِّعر، وخفتُ أنا. لم يخطر ببالي سوى شيء واحد: أن جدّي سيموت ما دام قال شعرًا، كما أنني سأموت أيضًا لأن نور أخبرتْني أنني أكتب شعرًا؛ ما دام الشعراء الذين قرأت لهم طوال حياتي، في كتبي المدرسيّة، أمواتًا.

جدّتي قالت لجدّي عليّ: يا عليّ، ألم ننتهِ من هذا الكلام؟ ألم نتّفق على إغلاق هذا الباب؟

لو كان بيدِّي أنا، أتذكَّر أو أنسى
طيف اللي غايب هناك، من يوم ترحالي
لنسيت حالي أنا، حتى انّي ما أقسى...
على قمر طلعته تِحيي وتحلالي
لكن وليفي اللي كان البحر والمرْسَى
بيسألني صُبْح ومسا: كيف إنتَ يا حالي؟

كان علينا أن ننتظر طويلًا قبل أن تتسرَّب إلينا همساتُ الكبار، الهمسات التي يحرصون على ألّا نسمعها، هم الذي تناسوا أن الجهد الذي يبذله البشر في سماع الهمسات، أكبر بكثير من الجهد الذي يبذلونه وهم يسمعون الكلمات بصوت مرتفع، ولذلك تلتصق الهمسات بذاكرتهم بصورة أفضل.

***

كان جدي عليّ، قبل النكبة، على وشك الزّواج من امرأة سوريّة، وقد عمِل الكثير لكي يُقنع أولاده وبناته لتكون وجهة تهجيرهم إلى هناك، لا إلى الأردن.

أولاده، بتحريض من جدّتي، قالوا له بوضوح:

- إذا ذهبتَ، فانسَ أن لكَ عائلة هنا.

لكن الذّهاب إلى سورية لم يكن سهلًا أيضًا، بسبب إدراكه، أن أهل تلك المرأة الذين كانوا، ربما، مستعدّين للقبول به زوجًا لابنتهم، قبل النكبة، لأنه صاحب بيارات برتقال وبيوت، لن يقبلوا به بعد أن فقَدَ كلّ شيء.

يومًا بعد يوم أصبحتْ الأمور أكثر تعقيدًا، فمدّخراته انتهتْ، ولولا أنه أجبر أخوالي على ترْكِ مدارسهم للعمل، باستثناء خالي محمود، لكان مضطرًّا لتسوّل لقمة خبزه.

صامتًا أصبح جدّي منذ ذلك الحين، وكنّا نستغرب هذا، إلى درجة أننا كنّا نظنّ أنه لا يتكلّم، كالمصريّ في مرضه، إلى أن فتح فمه ذات يوم وقال ذلك الشِّعر.

تلك الحالة؛ أعني قوْل الشِّعر؛ ظهرتْ بعد أن عاد ذات يوم من الشام، قبل النكبة بالطبع؛ لم يعد يقول كلامًا ككلام الآخرين.

إذا سألته جدتي:

- إلى أين ستذهب؟

يرد:

ما في دربْ يا خضرة... غير درب القَلْبْ

وموجة حنيني بحر... وقول الحقيقة صِعِبْ

أو يسأله أحد أهل قريته:

- هل تعتقد أننا سننجو من هجمة اليهود؟

فيرد:

رُمْح البلد عالي... لكنّه وحداني

والمعتدي بيحموه... غُرْبٍ وعُربانِ

جدي الذي كان مغمورًا بحزنه الخاصّ، وخوفه على قلبه ومن فيه، طلب من زوجته وأولاده بعد انتشار أخبار المذابح، أن يخرجوا مع الناس، ويبقى هو مع من سيبقى من رجال القرية للدفاع عنها.

***

بعد أسابيع، من انسحابه، مع من نجا مِن المدافعين عن القرية، استطاع

العثور على أسرته. كان مثل عدد كبير من الناس، عصبيًّا، ويقاتل الذّباب الطائر، وكأنه يفتش عن موت لم يستطع العثور عليه هناك، بعد ذلك اليوم الذي أُحتلتْ فيه أرضه.

... بدا لجدّتي أنه نسي تلك المرأة، ولم يكن لديها دليل على ذلك أفضل من أنه عاد يتحدّث كما يتحدّث الناس؛ نسي الشِّعر تمامًا، هدأ قلبها، إلى أن سمعتْه يقول الشّعر من جديد.

خالتي زينب همستْ لأمّي وجدّتي تَسمعُها:

- خوفي أنه على وشك أن يودِّعنا.

- يذهب إلى الشام؟

- لا، بل يموت.

سمعتُ همساتهنّ فخفتُ أكثر؛ لم أعد متأكدًا هل سأموتُ قبْله بسبب الكلام الذي أكتبه، ووصفتْه نور شِعرًا، أم سأموت بعده.

لكن جدي لن يقتله الشِّعرُ كما سيتبيّن لي في ما بعد، بل سيقتُله شيء آخر.

7

منذ استخدام نور لأقوى أسلحتها: تهديد جدّتها بنثر أموالها في الرّيح، أصبحت الجدّة تتعامل معها كفتاة ناضجة، لانَ لسانُها، فغدا العسل يفيض من كلماتها كلّما تحدّثتْ مع حفيدتها.

أدركتِ الجدةُ أن كنزها سيُكتَشف، مهما حرصتْ عليه، ومهما اخترعتْ من مخابئ، فالبيت صغير في النهاية والعثور عليه ليس مستحيلًا ما دام الباحث قد حدّد هدفه.

انتظرتُ نور قرب مدرستِها التي لم تكن بعيدة عن مدرستي. والدها حاول العثور لها على مدرسة قريبة لبيتهم في سفح جبل النظيف، لكن المدارس كلّها اعتذرتْ عن قبولها، فالفصل الدّراسي الأوّل في منتصفه، والصفوف مكتظة بأعداد تتجاوز قدرتها على الاستيعاب.

كنتُ فرِحًا بقرار تلك المدارس.

رأتْني نور، ترَكتِ البنات اللواتي كانت تتحدّث معهنّ، وجاءت إليّ.

لم يكن يهمّها ما يقال، وما لا يقال، تقدَّمتْ نحوي مثل عصفورة حمراء، أو وردة شقائق نعمان تمشي على ساقين. وأنا أرى زميلاتها يتهامسن ويتضاحكن خلْفها.

- أوّل مرّة بتعملها وبتيجي ع المدرسة. شو في؟

- كنت أريد أن أسألكِ: هل تعتقدين، فعلًا، أنني أكتب شِعرًا؟

- أظنّ أن ما تكتبه جميل جدًا، وأحبه، ربما يكون شعرًا، ولكن لماذا تسأل؟

- لا أعرف.

- وهل تحبّ أن تكون شاعرًا؟

- لست متأكّدًا، فالشعراء الذين نقرأ لهم كلّهم أموات.

- أتخشى أن تموت إذا كتبتَ الشِّعر؟ ولكن هل نسيت أنهم كتبوا الشّعر وهم أحياء؟ اذهب واكتب ما تريد، واترك الباقي عليَّ؛ سأقرأ كلّ ما تكتب، وفي رأيي، إذا كتبتَ شيئًا جميلًا فأنتَ حيّ، أما إذا كتبت شيئًا سيئًا فستموت،

لا سمح الله. ولكن، لماذا لستَ في المدرسة الآن؟

- لدينا حصة فراغ، قلتُ آتي وأراكِ.

- ارجع إلى مدرستك، وبعد انتهاء الدّروس، تعال، أحبّ أن أعرّفكَ إلى جدّتي.

- جدّتك التي...

- جدّتي التي هددتُها. لا أظنّ أنها ستعارض قدومكَ.

***

في نهاية الدّوام المدرسي انتظرتها. رأتْني، ركضتْ نحوي، وصلتْ، أوشكتْ أن تلتصق بي. كان ذلك يحرجني بعض الشيء، فأن يسير ولد وبنت معًا في الشارع، أمرٌ يجعلهما محطَّ أنظار المارّة، وبخاصة الطالبات والطلاب.

- "كيف مرّ يومكِ؟"، سألتُها.

- "بمصيبة"، قالت وهي تضحك.

- مصيبة؟ وتضحكين؟

- واحدة من الطالبات أخبرتِ المديرةَ بأنني أتحدّث مع الأولاد، المديرة جُنَّت، ونادتني. كانت تتوقّع أن أنفي حديثي مع (الأولاد)، أي أنتَ، ولكنني أكدتُ لها أنني فعلًا تحدَّثتُ. سألتْني:

- أخوكِ؟

- لا.

- قريبكِ؟

- لا.

- صاحبك؟

- لا.

- ...؟

وبدتْ لي أنها متردّدة في أن تقول: حبيبكِ؟

- لا.

- من هو إذًا؟

- لا أعرف.

- غريبٌ يعني؟

- لا. أعرفه منذ زمن طويل.
- "من هو؟" صرختْ بي.
- لو أنني أعرفُ لكنتُ أخبرتكِ.
- إياك أن تفعليها مرّة أخرى.
- لا أعدكِ.
- لماذا؟
- لماذا؟ لأن: الحرية مثل الميّ، من غيرها ما في شي حيّ.

طردتْني من مكتبها. كنت أعرف أنها لن تضربني، لأنها لن تجد طالبة أفضل منّي لتقدّمها للحديث أمام المفتّشين ومدير التعليم، كلّما زاروا المدرسة.

***

صامتَين بقينا بعد ذلك.

كنت أفكّر في مَن أنا بالنسبة إليها، ولعلها كانت تفكّر بالطريقة نفسها.

لم أقطع صمتها.

تجاوزنا مقرَّ قوات شرطة البادية، بدأنا نسير بمحاذاة كراجات تصليح السيارات، قطعْنا الشارع المتفرِّع يمينًا باتجاه "جبل المريخ"، أخذتُ نفَسًا وسألتُها، بعد أن فقدتُ صبري:

- "ولكن من أنا بالنسبة لكِ، ما دمتُ لستُ أخًا ولا قريبًا ولا صديقًا، ولا..."، وتجرأتُ وقلتُ: "حبيبًا؟".
- أنتَ شيء آخر، حين أتأكّد مَن تكون، سأقول لكَ.

... وستمرُّ سنوات قبل أن تقولها.

8

كلامًا واضحًا أصبحتْ الهمساتُ التي تدور حول جدّي عليّ الذي راح ينحَلُ ويزداد لون بشرته اسمرارًا، وبرز أنفه أكثر بعد انطباق خدّيه وغارت عيناه، وأصبح أقصر، في وقت بدأ الغضب يتصاعد من صدور بناته وأولاده. كلّهم كانوا متّفقين عليه، لكنه حتى ذلك الوقت، لم يكن يفعل شيئًا سوى أن يحنّ:

يا اللي قسيتْ... وحرَّمْتِ العِشِقْ شو تكون؟
ما يحرِّم العِشْقْ إلّا الجاهل المجنون.
لو حرموا العِشْقْ شو يبقى حلال للناسْ؟
المي تِحْرَم والهوا والقمح والزّيتونْ

سمعتُ ذلك، خفتُ كثيرًا، وبتُّ على يقين من أن جدّي لن يعيش طويلًا. أما الغريب فقد سكنني حسٌّ عميق يقول لي إن الشِّعر شيء جميل جدًا، وربما يكون الموت من أجله أمرًا يُحتَمَل، إن حدَث.

طرقتُ باب بيت جدّتي "خَضْرَة". جلستُ إلى جانبها، قلتُ لها: سأقرأ لكِ قصيدة... ربما قصيدة.

هل كنتُ خائفًا من أن أؤكّد لها أنها قصيدة؟ لا أعرف، فما كتبتُه كان غامضًا بالنسبة إليّ، كما أنا غامض لنور، التي لم تقُل لي من أنا بالنسبة إليها: صديقها، حبيبها، أم ابن جيرانها لا غير.

فتحتْ جدّتي عينيها على آخرهما حتى حسبتُ أن عينيها ستفرّان من محجريهما، وقالت بصوت مرتفع: شو؟

- سأقرأ لكِ قصيدة، ربما.

بعد أن التقطتْ أنفاسها سألتْني:

- وأينَ الرَّبابة؟

جدّتي تعرف أن الشّاعر هو المغنّي الجوّال، الذي كان يطوف بين القرى

حامِلًا ربابته قبل النكبة، ويغنّي للرّجال في سهرات بيوت الضّيافة التي يجتمعون فيها بعد ساعات عملهم الشّاق في الحقول.

- يا جدّتي، شاعر اليوم ليس مُضطرًّا لأن يحمل ربابة.
- ولوْ! معقول؟ وماذا يظلّ من الشِّعر إن غابت الرّبابة؟
- أعني الشِّعر الذي يُدرّسونه لنا في الكتب، في المدرسة.
- يدرِّسونكَ الشِّعر بلا ربابة؟
- بلا ربابة.
- "ماذا أقول لكَ، هل أقول لك: وما فائدة الكتب التي تقرؤونها؟"، أم أقول: "يا خسارة الشِّعر الذي أحسّ أنه بلا ربابة كاللاجئ بلا بيت؟".
- يا جدتي اسمعي أولًا، اسمعي جيدًا، لأنني أريد رأيكِ بصراحة.
- بصراحة بصراحة؟
- أجل.
- "شِعْرك مش حلو"، قالت ذلك وعقْلها في مكان آخر، كما بدا لي.
- يا جدّتي، أنتِ لم تسمعيه بعد.
- شِعرك مش حلو لأنه ما فيه ربابة.
- من أجلي، حاولي أن تسمعيه.
- بصراحة، لولا أنك ابن ابنتي والله ما بسْمعُه.

استندتْ بظهرها إلى حائط الغرفة الصغيرة، سمعتُ طائرًا يغنّي في أعلى شجرة السَّرْو في باحة بيتها، تفاءلتُ.

قرأتُ، وأنا أراقب وجه جدّتي الذي كان مثل غطاء طنجرة يغلي فيها ماء، صاعدًا هابطًا، مُطلِقًا بُخارًا مكتومًا:

تسير في الشارع مثل عصفورة، وناعمة كالنسيمْ
حين ألمسُ يدها في السّوق تُبعدني وأنا بها أهيمْ
لكنني أسمع يدها تكلّمني وتضحك معي وتُضْحِكني
تقول لي أشياء لا أعرفها أو نسيتُها عن زمني
وحين يهبط الليل تهمسُ يدها ليدي في الظلامْ
فأحلَم أصير كالطيور في السّماء يغمرني السّلامْ

صرختْ جدّتي: يكفي، يكفي هذا، "وألمسُ يدها وتلمسُ يدي"، ما هذا

الشِّعر؟
- ألم يعجبكِ؟
- أعجبني؟ هل تفهم ما تكتبه؟
- طبعًا أفهم.
- هل تفهم معنى "وألمسُ يدها؟".
- طبعًا، يعني: "لمستُ يدها".
- وهل تعرف ماذا يحصل إذا لمستَ يدها؟
- ماذا يحصل؟
- يا حبيبي، إذا لمستَ يدها فإن ذلك ينقُضُ الوضوء، فاهِم؟ يعني: شِعرك ينقضُ الوضوء.
أخذتْ نفسًا عميقًا ثم نفختْ، فأحسستُ بها تقذفُني إلى الخارج، وسألتْني بالفصحى: "هل لمستَ يدها فعلًا؟".

9

بعد فترة طالتْ، تعافى المصريّ، عاد إلى بيته الذي حرصتْ عمّتي على تنظيفه وغسْل آثار الموت التي عشّشتْ فيه، كما أخبرتْنا؛ فتّحتْ نوافذه طويلًا، جدَّدتِ الهواء، وكنسَتِ الباحة الصغيرة التي أمامه.

توقعّنا أن نرى المصريّ بعد أن أكّدتْ لنا عمّتي خبر عودته، لكننا لم نرَ غير خيط ضوء يتسرّب من الشّقوق الضّيقة لنافذته، فعدْنا لخوفنا القديم وحديثنا عن شبحه الذي يسكن البيت.

خِفنا.

ذات يوم، فاجأتنا عمّتي بأن طلبت من أُمِّي أن تتدخّل وتطلب من أبي، وجدّي إبراهيم، الموافقة على زواجها من المصريّ.

تراجعت أمِّي كما لو أنّ أفعى ستلدغها؛ مَهمَّةٌ كهذه كانت أكبر منها بالتأكيد.

– ما هكذا يتمّ الزّواج، عليه أن يرسل أهله ليطلبوكِ من أهلكِ، هذه هي الأصول.

– تعرفين، لا أهل له، وكما رأيتِ لو لم أساعدْه لمات وحيدًا كما عاش وحيدًا. سيأتي بنفسه ويطلبني حسب الأصول.

***

أوّل شيء خطر ببالنا، نحن أبناء وبنات أخيها، أننا سنخسر أفضل مصدر للدفء عرفناه في حياتنا؛ فعمّتي إن تزوّجتْه، ستنتقل للعيش في بيته، ستهجرنا، ويغدو دفؤها كلّه له.

تمنّيتُ ألّا تستجيب لها أمّي.

أصرّتْ أمِّي على ألّا تتدخّل، وعند ذلك، رأيتُ ابتسامات أخواتي وإخوتي تتّسِع فأدركتُ أنهم يفكّرون مثلي تمامًا.

بعد يومين امتلكتْ عمّتي جرأة الحديث في الموضوع مع أبي، أبي الذي أعاد ما قالتْه أمّي، رغم أنه، لا بدّ، كان يتمنّى أن تتزوج عمّتي لأن فرصها

قليلة ووضع الأسْرة صعب.

أبي قال لها:

– سأذهب لأراه، أنا أعرف ما مرّ به، فالهزيمة التي سقطتْ على رأسنا حطمتْ رأسه أيضًا. إذا وعدني أن يفتح بابه ويعود إلى عمله، فإنني سأقنِع أبي وإخوتي بالقبول به عريسًا لكِ، أما إن رفض، فلن أزوّجكِ خُلْدًا لا يغادر جُحْره.

يبدو أن المصريّ كان في انتظار مَن يدفعه إلى الخروج، كما أن وقوف عمّتي إلى جانبه طوال فترة مرضه، مسألة كبيرة لا يمكن أن ينكرها إلّا جاحد.

انتظرنا شيئًا ما يحدث، لم نرَ المصريّ في الشارع ثانية، سألنا عمّتي عن أحواله، لا لنطمئن عليه، بقدر ما نطمئن على مصير دفئها، فأكّدتْ لنا أنه يخرج قبل أن نصحو ويعود بعد أن ننام.

– مثل أبي؟ سألناها.

– مثل أبيكم.

– وهل ما زال صامتًا، أم أنه يتكلّم؟

– معي يتكلّم.

– بالمصري؟

10

طرقتُ باب صديقي بشير، أطلَّ من شقّ الباب، قال لي:

- لا أستطيع الخروج، والدي في الدّاخل.

قلتُ له:

- لا أريد أن أخرج معكَ، أريد أن أرى والدكَ.

- ماذا تريد منه؟

- قل له صاحبي يريد أن يراك.

- لماذا؟

- مسألة بيني وبينه.

بعد عودته من الإمارات، عمِل الأستاذ سليم، مُدرِّسًا للغة العربية، في "ثانوية حسن البرْقاوي"، في "جبلِ الأشرفية" المطلِّ على قلب عمّان، على بعد عشر دقائق سيرًا على الأقدام، شَمالًا، من مخيم الوحدات، أو لعلها أقلّ بالنسبة لشخص يحبُّ المدرسة.

غاب بشير، حتى خِلْتُ أنه لن يعود، ولكنّه أخيرًا عاد، فسألته:

- أين ذهبتَ؟

- أين سأذهبُ ما دمتَ واقفًا هنا تسدّ الباب؟ أبي سمح لكَ أن تدخل، تفضّل، ولكن قلْ لي، ماذا تريد منه؟

- أخبرتُكَ، مسألة بيني وبينه.

- يعني خاصّة؟

- صحيح، خاصة.

جرأة بشير التي نعرفها تراجعتْ مع عودة والده، كلّنا استغربنا ذلك، إلى أن أخبرنا ذات يوم بأنه يعرف ما يدور من أسئلة في رؤوسنا.

سألناه: "أي أسئلة؟"، فأخبرنا أننا مشغولون بتغيُّره، وخوفه من أبيه.

أكّد لنا أنه تغيَّر فعلًا، لا لأنه يخاف، بل لأنه يريد أن يكون بجانب أبيه، وهو يحبُّ ذلك، لأنه لم يعرف كم كان يفتقده أثناء غيابه، إلّا بعد أن عاد.

وأخبرنا بشير أنه لا يشعر أنه جبان إذا خاف منه.

***

بصمتٍ ناولتُ والده الورقة التي كنتُ أحشرها في جيبي. قلتُ له دون مقدِّمات:

- "أريدُ رأيكَ"، وأضفتُ: "لو سمحتَ".

فتح الورقة، قرأ بعض ما فيها وهو يهزّ رأسه، وسألني:

- الآن؟

- ليس ضروريًّا الآن، لا أريد أن أزعجك بقراءتها سريعًا، أريد أن أسمع رأيك بعد أن تقرأها بهدوء.

- بهدوء؟ لقد أطرتَ النّوم من عينَيّ؛ كنتُ نائمًا، وأيقظني بشير بسببك.

ونظر إلى ابنه كأنه يؤنِّبه لأنه أيقظه لسبب كهذا، ثم التفتَ إليّ وقال:

- غدًا مساءً تسمع رأيي. مساءً، وليس عصرًا كما الآن.

- حاضِر.

11

غضبَ خالي محمود حين عَلِم أنني لم آخذ رأيه قبل أن أذهب إلى بيت الأستاذ سليم، واستغربتُ غضبه، إذ لم يكن مُعلِّما للغة العربية؛ كان يعمل في مؤسسة المواصلات، أي في الهواتف والبرقيات والرّسائل بعد أن أجبره خالي الكبير على ترْك المدرسة، ليساعد أهله، ولكن خالي الكبير، في الحقيقة، كان يأخذ راتبه كلّه دون أن يُبقي له أيّ شيء. ذلك دفع خالي محمود للبحث عن عمل خارج وظيفته، كي يحصل على مصروف له.

خالي محمود فاجأني، حين رأى دهشتي أمام غضبه، وسألني بصورة أربكتني: ومَن يستطيع أن يحكم على شِعْرك أكثر منّي؟

- ربما، فقط، أستاذ اللغة العربية.
- وهل حضرتُه شاعر؟
- لا، لم أسمع أنه شاعر. وهل أنتَ شاعر؟
- ألا تعرف أنني شاعر؟ أنا شاعر وسأنشرُ ديوانًا.
- أنت شاعر يا خال؟
- بالطبع شاعر.
- يعني شاعر.. شاعر؟
- شاعر ونُصّ.

قفزتُ وعانقتُه، وسط دهشتِه، وأنا أصرخ:

- شاعر حيّ؟
- وهل تراني ميتًا؟
- لا، لا يا خال.
- انزلْ، كسرتَ ظهْري.

نزلتُ. أدركتُ أنني كنتُ متعلّقاً برقبته، ولم أكن ذلك الطفل الصغير بحيث يحتملُ ثِقَلي.

لم تكن قصائد خالي بحاجة إلى تفسيرات، لفرط ما فيها من كلمات واضحة، رغم صعوبة كلمات أخرى. قرأها لي، ولم أُصدِّق أذنيّ:

قبلاتُ الأمس هل تذكُرُها؟
إذ تساقينا الكؤوس العَطِرةْ
عاشق هام بأخرى فانحنى
يترع الكأس ويحسو دُرَرَه
قبلاتٌ لا درى فيها الأُولى
عرفوا الحبَّ ولا المستهترةْ
كنت أغفو بين كفيه كما
تحتَ جنح البْدرِ تغفو القُبَّرة

لم تكن القصيدة بحاجة إلى تفسيرات كثيرة، فبعض الكلمات التي لم أستطع فهم معناها كنت أحسّها، فتغدو شبه واضحة، دون أن أُنكر أن كلمات أخرى كانت صعبة مثل "يترع" و "يحسو" بشكل خاص.

- "شِعركَ هذا يا خال؟"، سألتُه وقد كاد يُغمى عليّ.
- طبعًا شِعري.
- هل سمعتْه جدّتي؟ أُمّك؟
- لا، لم تسمعه.
- إذا كان شِعري ينقُض الوضوء يا خال، فإن شعرك يُفسد الصّلاة والصيام والحج.
- ماذا؟
- هذا ما ستقوله لكَ جدّتي لو سمعتْه.
- يا حبيبي، يا خالي، الشِّعر لا يُفسد شيئًا، الشّعر يُحيي الحياةَ نفسها، الشّعر جمال، أمل، حلم، عالم واسع، دَمُنا الذي يجري في شرايينا جنونًا، كلّما أحببنا، كلّما رأينا وردة، أو فتاة جميلة، أو ركضنا تحت المطر...
- الآن يمكنني أن أقول إن ما سمعتُه شِعرك.
- وما الذي جعلك تغير رأيكَ، وتُصدِّق أنه شِعري؟
- لأن ما قلتَه الآن يثبتُ لي أنك كائن حيٌّ وشاعر. يبدو أنني الميتُ الوحيد في هذه العائلة.

- لا، أنتَ حيّ.
- ولكنني لا أستطيع أن أكتب شعرًا كهذا.
- أنت حيّ لأنك تحسّ بهذا الشِّعر، أفهمتَ؟ الأموات لا يحبون الشّعر أبدًا.
- فِكْرَكْ؟
- طبعًا، لأنه من الصّعب عليهم أن يسمعوه، مع أنني أظنُّ أن ميتًا جيدًا لو سمع الشِّعر لأحبّه.
- ولكن هل أنتَ متأكّد من أن هذا الشِّعر لكَ؟
- وبعدين؟ بدأت أُنرفز. لماذا تُواصل ترديد هذا السؤال؟
- لأنني اكتشفت أن كلّ الشعراء الذين نقرأ لهم قصائد في كتب المدرسة أمواتٌ. هل يمكن أن تذكُرَ لي اسم شاعر واحد على قيدِ الحياة؟ أعني غيرك يا خال؟
- كم إصبعًا في يديكَ؟
- عشرة.
- عدّ معي: بدر شاكر السَّياب.
- مين؟
- بدر شاكر السَّياب، شاعر عراقي رائع.
- لم أسمع به؟
- وكيف ستسمع به وأنت لم تعِش إلّا مع الشعراء الأموات؟ اصمت وعدّ.
- نزار قباني، نازك الملائكة.

أوشكتُ أن أستفسر عن تلك التي يوجد ملائكة في اسمها، نهرَني بنظرةٍ، وواصل: "عبد الوهاب البياتي، محمد مهدي الجواهري، أبو سلمى، صلاح عبد الصبور، محمد الفايز، محمد الماغوط، كم أصبح عددهم؟".
- تسعة.
- وخالكَ، هكذا أصبحوا عشرة.

وضحكَ قبل أن يُضيف: أمازحكَ، وهناك بشارة الخوري، وإذا أردتَ أيضًا فهناك شاعرة رائعة أخرى، اسمها فدوى طوقان.

- هل إبراهيم طوقان قريبها؟
- قريبها؟ يا خال، إبراهيم طوقان أخوها.
- أخوها، أخوها؟
- يعني أخوها ابن عمها؟ طبعًا أخوها.

12

خرجتُ من بيت خالي محمود راكضًا، إلى أن وصلتُ بيت نور؛ العرَق يتصبّب منّي، ورائحتي -كما قالت جدّتها- مثل رائحة دجاجة مذبوحة منذ يومين.

كنتُ ألهث، ونور تطلب منّي: خُذ نفَسًا، خذ نفَسًا.

- شعراء أحياء، ملائكة، فدوى...

تمتمتْ جدّتها: "يا رحمن يا رحيم، يا رحمن يا رحيم". أمّا نور فتعيد جملتها طالبة منّي التنفّس.

- "شعراء أحياء"، قلتُ لها.

- فهمتُ، شعراء أحياء، استرح.

- "هناك شعراء أحياء"، أوضحتُ لها.

- أين؟

- لا أعرف، ولكن خالي محمود أكّد لي أن هناك شعراء أحياء، وهو منهم.

- خالك شاعر؟

- شاعر ونُصّ، سمعتُ شِعره.

- ولكنك شاعر أيضًا.

- ومن يستطيع أن يؤكد لي هذا الكلام؟

- أنا، ولّا مش مْعبْية عينك؟

خفَقَ قلبي؛ كنت أريد أن أقول لها إنها ملء عيني وقلبي، لكنني خفتُ من جدّتها التي تابعت حديثنا كما يتابع المرء حديث مجنونَين.

- لقد رأيتُ خالك محمود مرّتين، من بعيد، وأستطيع أن أقول لكَ إن قلبي ارتاح له، ولذا، حين يقول لكَ إن هناك شعراء أحياء، فلا أظنّه يخدعك.

وصمتتْ قليلًا، ثم سألتْني: هل عرضتَ عليه ما تكتب؟

- لا، حتى الآن لا، لم تكن معي أيّ قصيدة حين قابلته اليوم، لم يخطر ببالي

أنه شاعر، أو يهتمّ بالكتابة، وقد غضب منّي لهذا السبب، ولكن أظنّ أنه سامحني.

- وهل ستعرض عليه ما تكتب؟

- أحبّ ذلك، رغم أنني عرضتُه أولا على الأستاذ سليم، والد صديقنا بشير.

- تعرضه على الأستاذ سليم قبْلي؟ لا أصدّق أُذنَي.

غضِبتْ، حاولتُ أن أُراضيها، أن أُذكِّرها بأنني أعطيها دفاتري كلّها، كلّ ما أكتبه، ولكنها ظلّت غاضبة.

تركتْنا جدَّتُها، فأحسستُ أن نور بدأتْ تهدأ، كما لو أن جدّتها كانت هي التوتُّر ذاته.

- هل هدأتِ؟

- هدأتُ، ولكنني لن أهدأ تمامًا قبل أن تعِدَني أنني سأكون أوّل من يقرأ ما تكتب.

في تلك اللحظة، أصبحتُ أكثر الكائنات سعادة على وجه الأرض، فما قالته يعني أنها ستكون قريبة منّي دائمًا، أيّ معي، وبتّ على يقين من أنني بوجودها، لن أتوقّف عن الكتابة أبدًا.

- "سرحتَ بعيدًا"، قالت لي.

- "بل سرحتُ قريبًا"، وضحكتُ، فضحكتْ.

- لا أعرف ما سيكون رأي الأستاذ سليم في كتابتك، ولكن من الآن، سأكون أوّل من يقرأ لكَ، ويقول لكَ رأيه قبل أن تذهب إلى أيّ شخص آخر.

- قبْل خالي محمود أيضًا؟

نظرتْ إليّ وقالت:

- قبْل أيِّ إنسان في الدنيا.

13

خالي الصغير، خالي محمود، صاحب الحكاية الحزينة، الذي بات شابًّا صغيرًا، منحني الكثير من الأمل في أن أكون شاعرًا قبل أن يقرأ قصائدي، خالي الذي أكّد لي أن الشاعر يمكن أن يكون على قيد الحياة، وعدَّد أسماء عشرة شعراء أحياء يُرزَقون في هذا العالم. وفكَّرتُ: إذا كان هناك عشرة شعراء آخرون في بلاد العالم الأخرى، غير العربية، فمعنى ذلك أن التفاؤل ممكن.

في المرّة القادمة سأطلب منه أن يُعدِّد لي أسماء عشرة شعراء أجانب، وأطلب منه أن يعيد عليّ أسماء الشعراء العرب الذين ذكَرَهم لأكتب أسماءهم، إذ لم يبقَ في ذهني سوى اسم ونصف اسم: اسم فدوى كاملًا، وتلك الشاعرة التي يوجد ملائكة في اسمها.

سأسأله في المرّة القادمة إن كان يعرف أحدهم شخصيًّا، رغم أن ما أدهشني أكثر من أي شيء آخر هو مفاجأة وجود شاعر وشاعرة في بيت واحد، من أب واحد وأمّ واحدة.

بالنسبة إليّ، أصبحتْ فدوى، وخالي إلى حدٍّ ما، الشاعرين اللذين يمكن أن أشهد أنهما على قيد الحياة؛ فدوى أولًا، وخالي ثانيًا، لا لأنه قرأ لي من شعره الذي سيجعل جدّتي تجنّ لو سمعتْه، بل لأنه الدّليل على وجود شاعرة على قيد الحياة اسمها فدوى طوقان.

صرتُ متشوِّقًا لسماع شِعْرها، وخائفًا أيضًا، خائفًا ألّا يكون شِعْرها جميلًا مثل شِعر أخيها إبراهيم.

انتفض قلبي حين نطقتُ اسمَه، كما لو أنني أسمع بهذا الاسم للمرّة الأولى: إبراهيم... إبراهيم...

طرَق بشير باب بيتنا، ونادى.

خرجتُ...

- لماذا تصرخ هكذا؟
- يريدكَ أن تذهب إليه.
- مَن؟
- أبي.

بدأ قلبي يرتجف، وكان معه حقّ، أي قلبي؛ فلماذا لم ينتظر الأستاذ حتى أذهب أنا إليه برجْلَيَّ؟ لماذا يستدعيني على عجَل كأن حربًا اندلعتْ؟

***

طويلًا كان الأستاذ سليم، أطول مما رأيته في المرّة الأخيرة بمرّتين، وعريضًا، أعرض مما رأيته من قبل بمرّتين، وعيناه تقدحان شررًا، أكثر مما رأيتُهما في المرّة الأخيرة بمرّتين عندما أيقظتُه من غفوة ما بعد الظُّهر.

وقفتُ أنتظر ما سيقول لي، وكان بشير ينظر إلينا دون أن يفهم ما يدور. بعد فترة صمتٍ خِلْتُها العُمرَ كلَّه، مدَّ يده إلى جيبه، وأخرج ورقة، وناولني إياها. تناولتُها ووضعتُها في جيبي، وقد أدركتُ ما عليّ أن أفعله: أن أستدير وأخرج، وهذا ما حدث.

- "شكرًا أستاذ"، قلتها بحلْق جافّ.

***

كانت الورقة تتلوّى داخل جيبي، جمرةً تتّقدُ، على وشك أن تحرقني، دون أن أجرؤ على مدِّ أصابعي للمْسها.

توجّهتُ إلى بيتنا، رأتْني أمّي، ابتعدتْ عن الباب، حريصةً على وجود المنطقة العازلة بيني وبينها؛ أي مسافة الأمان، إذا قررتُ الدّخول. لم أدخل. سرتُ في الاتجاه المؤدّي إلى المدرسة، وصلتُ. لا أعرف لماذا تخيلتُ نفسي جالسًا على الأرض في تلك الخيمة، الخيمة التي كانت أوّل غرفة دراسية لي. مُعلّمةٌ تُدرِّسنا، ونحن على الأرض الترابيّة التي تسلّل إليها ماء الشتاء، فأصبحتْ طينيّةً، لكن أحدًا منّا، نحن التلاميذ الصغار، لم يجرؤ على أن يخبر المعلِّمة بالطين الذي تسلل برده وماؤه عبْر ملابسنا، إلى جلودنا.

كان الخارج طينًا والداخل طينًا، وكنّا نتحلّق حول ذلك الكتاب، في تلك المدرسة الخيمة، في ذلك الشتاء القاسي، كما لو أنه موقد، ذلك الدفء ما زلت أحسه حتى اليوم، كلّما أمسكتُ كتابًا.

نغادرُ، ويبقى الكتاب في المدرسة التي لم تكن مدرسة، مع المعلمة التي تتهيأ بعد خروجنا لاستقبال فوج آخر من التلاميذ، أولادًا وبناتٍ، في زمن لم تكن هناك مدارس حقيقية لا للأولاد ولا للبنات.

في تلك الأيام، لم تكن لي سوى أُمنية وحيدة، أن يكون لي كتابي الخاصّ.

خفتُ من الرّسالة المتّقدة في جيبي، كأنني أغوص في الطين داخل تلك الخيمة، والمعلّمة تحاول دون جدوى إنقاذي بعد أن أمرتْ الأولاد بالهرب.

... واتقدتِ الرسالةُ أكثر، وأنا لا أعرف سبب خوفي منها، لأنني لا أعرف ما فيها.

فكّرتُ في الذّهاب إلى خالي محمود، لم أجرؤ. فكّرتُ بنور، بعمّتي، فكّرتُ بجدّتي، تراجعتُ بسرعة؛ ستوبّخني، وتقول لي: "وما الذي كنتَ تنتظره من شعر ينقُض الوضوء؟"، وتسألني عن الاسم الرّباعي لذلك الأستاذ الذي كتب رأيه في قصيدتي كعادتها حين تسألني عن أي صديق، (هل تعرف اسمه الثلاثي؟)، ما جعلني دائمًا مضطرًّا لحفظ الاسم الرباعي لكلّ ولد يمكن أن يطرُق بابنا.

كم من مرّة لم تسمح لي بالخروج مع أحد الأولاد، لأنني لا أعرف اسمه الرّباعي.

***

قبل غروب الشمس أدركتُ أنني لن أستطيع النوم ما لم أقرأ ما كتبه الأستاذ قبل هبوط الليل. جلستُ على صخرة جيرية مطلّة على حرْش مستشفى البشير.

الجو بارد وفي جيبي جمرة.

أخرجتُها، بدأت بقراءتها، وحمدتُ الله أنني لم أقرأها في أيّ مكان، أو لأيّ مخلوق على وجه هذه الأرض، حتى لو كان قطّة. كنت أقرأها وأبكي، أبكي بلا توقّف، كأنّ هناك سماء ممتلئة بالغيوم والبرق في عينَي، والرَّعد في صدري.

قذفتُ بها بعيدًا جدًّا وهي غارقة بدموعي.

لملمتُ نفسي وعدتُ، لملمتُ ما تبقّى منّي بعد أن ذرفتُ تلك الدموع (هذا وصف لحالتي، أكتبه الآن، بعد كلّ تلك السنوات). نهضتُ، تصفحتُ الجهات؛ أمامي شارعان: واحد يؤدّي إلى فدوى طوقان، وآخر يؤدّي إلى

ذلك الحزن الذي زرعتْهُ رسالة الأستاذ سليم في داخلي.

***

تسمّرتُ في المكان الذي وقفتُ فيه في اليوم الأوّل لوصولنا إلى المخيم، كان الشتاء، وكان الضباب؛ تلفتُّ حولي، لم أعرف، يومها، الشرق من الغرب والشمال من الجنوب.

تلفتُّ حولي ثانية، كان عليَّ أن أعرف طريقًا واحدًا لا غير، ذلك الذي سيوصلني إلى فدوى طوقان.

عدتُ، والدنيا ظلام، ووصلتُ الصخرة التي جلستُ عليها باكيًا، حاولتُ أن أرى بياضًا يشير إلى أنه تلك الورقة التي كوَّرْتها، ورميتُها، لم أرها.

كان صوت نور يأتي من مكان بعيد، في داخلي، تؤنّبني، مؤكِّدة أنني لستُ ذلك الشخص الذي تعرفه، وأنني لم أستطع النهوض بعد أوّل عثرة لي، لم أستطع الخروج من أوّل حفرة صغيرة سقطتُ فيها، وأنني...

عندها سمعتُ صوتي يخرج رغمًا عني: خلاص، فهمتُ.

نظرتُ حولي متوقِّعًا أن يكون هناك من سمِعني، كنت وحدي، أنا ونور التي أسمعها وأحسّها قريبة، ولكنني لا أراها.

بسرعة نزلتُ، وبدأتُ البحث.

طويلًا بحثتُ إلى أن رأيتُها.

بخطى متعثّرة داخل الطين سرتُ، وصلتُها، رفعتُها برفق، وضعتُها في جيبي، وعدتُ باحثًا عن طريقي، طريقي الذي اخترتُه: طريق فدوى.

14

لا أعرف إن كان يحقّ لي أن أتحدّث عنه أَمْ لا؛ أعني خالي محمود، فحكايته التي سمعتُها من أمِّي وجدّتي كانت حزينة، وتصبح أكثر حزنًا حين ترويها جدّتي. في حالات كثيرة كانت ترويها لتبكي، فقط لتبكي، لا بسبب ما فعلاه هيَ وجدّي به، بل لأكثر من ذلك. لم أرَ جدتي تُقبّل رأس إنسان وتحتضنه كما تحتضن خالي محمود، أصغر أبنائها، الذي لم يعد صغيرًا، وتُطيل احتضانه، وحين تُقبِّل رأسه، نحسّ أنها تريد أن تزرع قُبلتَها في أعمق أعماق جسده.

خالي محمود لم يروِ قصَّتَه. لم أكن أعرف تمامًا لماذا لا يرويها، ربما لأنه يهرب منها، ربما ليظلَّ مُحبًّا لأمِّه وأبيه؛ ربما لكيلا يموت، ربما أملًا في ميلاد حكاية جميلة تمحو الحكاية الحزينة القديمة (أقول هذا الآن)، لكنني لم أكن في الماضي أرى فيها إلّا حزنها:

عام النكبة، 1948، حين هاجمت الكتائب الصهيونية قرية جدّتي وجدّي قرب مدينة "الرَّملة"، كان خالي محمود في الرّابعة من عمره، طفلًا صغيرًا (بريئًا وجميلًا)، هكذا تصفه جدتي دائمًا. راقبت العائلةُ ما يدور خائفةً، مثل أهل القرية، مثل أهل فلسطين كلّهم. كلّ واحد منهم راح يحاول أن يحمل على ظهره أو كتفيه أو بين يديه، بعض الأشياء التي قد تلزمهم أثناء ابتعادهم عن القرية، إلى أن يعودوا إليها ثانية، هم الذين اعتقدوا -مثل كلّ أهالي القرى والمدن الأخرى- أن غيبتَهم لن تطول أكثر من أسبوع، أسبوعين.

خالي محمود رفض أن يسير معهم، حملوه، فقاوم كلَّ صدْر ضمّه ويدَيْن أحاطتا بجسمه الصغير.

أنزلوه، غير قادرين أن يعرفوا ماذا يفعلون، فأن يُجبرَ على الذّهاب معهم أمرٌ خطير؛ قد يواصل بكاءه ويكون سببًا في انكشافهم، وهكذا يُقتَلون جميعًا.

جدّتي التي تعرف أن صغيرها أحبَّ البحر أكثر من أيّ شيء آخر منذ أن رآه قبل شهور، جدّتي التي تعبتْ من سؤاله الذي لم يكن يكفّ عن طرحه

عليها: "متى ستأخذونني إلى البحر مرّة أخرى؟". قالت له: "محمود، نحن سنذهب إلى البحر، هل تريد الذّهاب معنا؟".

جفَّت دموعه فجأة، وضحك، أمسك بيد جدّتي وقبَّلها، فانحنتْ، ناولتْه طنجرة صغيرة وقالت له: "هيّا، سنذهب إلى البحر لنملأ طناجرنا من مائه، حتى يكون لنا بحر صغير في بيتنا دائمًا؟".

خالي محمود راح يركض سابقًا الجميع، بحيث لم تبدُ عليه أيّ من علامات التّعب؛ لم يكن يشكو، كان يركض ويركض، فيلحقون به أحيانًا ليعيدوه إلى المجموعة الكبيرة من المُهجَّرين.

وتبكي جدّتي: "كان بعضنا، نساء ورجالًا، يبكون وهم يرونه يركض، يضحك، وينظر إلينا كأنه يرى البحر. هو الذي لم يكن يعرف أن البحر أصبح خلْفَنا، ومخيمات اللجوء أمامنا ".

ذلك بعض من حكاية خالي محمود، لأن حكايته طالت أكثر مما تطول الحكايات.

15 مكتبة

طرَق المصري بابنا في اليوم المحدّد لقدومه، بعد صلاة العصر بقليل. يوم جمعة، جلسنا ننتظره، الصغار قبل الكبار، متلهّفين لمعجزة عودته إلى الحياة بعد أن خيِّل إلينا أن شبحه يتجوّل في غرفته في انتظار جسده الذي لن يعود.

قبل يوم واحد أبلغتُ أصدقائي الثلاثة: قاسم، بشير، نور، أن المصري سيزورنا.

– "شبحه؟"، سأل قاسم.

– لا، هو، بلحمه ودمه، وسيطلب يد عمّتي.

– "ستتزوّجه؟" سألتْ نور.

– "ولكن هل أنت متأكد من أنه ليس شبحًا؟" سأل بشير.

– "أنا قادمة"، قالت نور، "ليس من الجيد أن أغيب عن مناسبة سعيدة كهذه".

وصل المصريّ، مرتديًا أفضل ما يملك، لكنه ضائع في ملابسه التي بدت واسعة جدًا عليه، عكس الدّنيا التي كان يراها الجميع ضيّقة جدًا في تلك الأيام.

في الوقت الذي تجمّعت فيه فتيات العائلة ونساؤها في الخيمة، تجمّع الرّجال داخل الغرفة الصغيرة المحاذية للمطبخ. أما نحن الأربعة، فجلسنا قرب الباب، ومعنا نور التي اعتذرتْ لزوجة جدّي ولم تدخل الخيمة، حين طلبتْ ذلك منها.

لم يكن يهمّنا ما سيقوله وهو يطلب يد عمّتي، كان يهمّنا أن نسمعه، نسمعه وحسب، لنتأكد من أنه ليس شبحًا.

بلهجة مصريّة لا تقل إتقانًا عن لهجة أم كلثوم في أغنيتها "انتَ عمري" التي تحوّلت إلى أغنية للصغار والكبار ما إن غنّتها، طلبَ يد عمّتي، بعد أن مدح عائلتنا وأصولها وأصالتها وعفّة بناتها ونسائها وكرَم رجالها ومديح

الناس لها.

كان الجميع، مثلنا نحن الصغار، نعرف أن أمور هذا الزواج مُيسَّرة، فالعريس يملك وحدة سكنيّة، وعملًا، عاد إليه، وهو تنجيد الفرْشات واللّحف والوسائد، وهي واحدة من المهن الناجحة في زمن طُرد فيه الناس من بيوتهم، بما عليهم من ملابس لا غير.

مهنته، تلك، أصبحتْ موضوعًا مهمّا للحديث بيني وبين أخواتي وإخوتي، بعيدًا عن أُمِّي وأبي، فبعد أن أدركْنا أن الشتاءات القادمة ستكون قاسية علينا بسبب غياب عمّتي، أصبحنا نُعزّي أنفسنا بأن المصري سيمنحنا فرْشات وأغطية، إن لم يكن تعويضًا عن غياب عمّتنا، فلأنه سيكون قريبنا.

غرقتُ في استعادة تلك الأحاديث قبل أن أسمع جدي إبراهيم يعلن بصوت مرتفع: "الفاتحة"، ويبدأ بقراءتها، علامةً على القبول بالمصريّ زوجًا لابنته، فوجدنا أنفسنا: نور، بشير، قاسم، وأنا، نقرأها، بخشوع، أيضًا.

***

في الماضي، أي قبل حرب حزيران، كان الأمر مختلفًا، إذ كانت النسوة يُطلقن الزّغاريد فرحًا، لكن الهزيمة التي سكنت البيوت واحتلّت مساحة واسعة فيها، لم تسمح لأيٍّ من مظاهر الفرح أن تتجاوز العتبات.

أعراس كبيوت العزاء، وهذا يذكّرني الآن كيف تحوّل عرس أُمِّي وأبي إلى مأتم، بعد النكبة بثلاث سنوات.

16

"الحزنُ نصفُ الموت"، قالت أُمّي، "وإذا طال يصبح الموتَ كلَّه. لم نكن نحبّ أن نعيش أمواتًا، لسنا نحن فقط، بل كلّ الناس، كلّ أولئك الذي هُجِّروا، الذين طُرِدوا من أرضهم وبيوتهم، ولذا، يومًا بعد يوم، بدأ الشّوق للفرح يتسرّب إلى أنفسنا، كنّا جوعى، جوعى ليوم لا نكون فيه موتى، أو نصف موتى".

لأمّي عبارات كانت تعجبني، وحين كبرنا، أنا وهي، وتراني أدوّنها، تقول لي مازحة:

- إذا نشرتَها في كتاب، فلا تنسَ أن لي نصف الأرباح.

في نهاية حياتها أصبحتْ نصف حزينة؛ ربما كان السبب هو السّأم، الذي تحدّث عنه الشاعر العربي القديم، زهير بن أبي سلمى، لكن الضّعف حُزن، والمرض حزن، وإدراكها أنها لن تعود إلى بيتها الأول، قبل موتها، حزن، وكلّ هذه الأشياء، حينما تجتمع تغدو أكثر من نصف موت.

كانت أمي تُصرُّ على الذّهاب إلى الطبيب، ونحن نعرف أن العمر هو مرضها. يصف لها الدواء فترفض أن تتناوله. أحيانًا تجاملنا بعد عودتنا من عند الطبيب فتبتلع حبّة منه لتثبتَ أنها لم تُبدِّد نقودنا. وفي اليوم التالي، تقول: أتعرفون؟ أريد أن أموت، الأفضل لي ولكم أن أموت.

نطمئنها ألّا شيء بها، وأن صحتها جيدة، وكلّ ما عليها هو أن تسير كلّ يوم قليلًا ليتحرّك الدّم في جسمها.

لا تقتنع.

في اليوم التالي تقول لنا: لا أريد أن أموت، رأيت جنازة خارجة من المسجد، بصراحة لم تعجبني، ولن يعجبني أن أكون ميتة ونعشي يتمايل على الأكتاف.

تطلب منا أن نأتي لها بالدواء، تبتلع حبّة منه ثم تنساه.

كان شُبّاك بيتنا الذي انتقلنا إليه -بعد أن تركنا بيتنا الصغير في المخيم-

يطل على مسجد.

في البداية كانت أُمِّي فرحة بذلك، فأن تكون جوار المسجد الذي هو بيت الله، يعني الكثير لها.

لكن كثرة الجنازات أزعجتْها.

- "الموت ليس له طعم هذه الأيام، أيام زمان كان للموت هيبة، لكنه عندما أصبح كثيرًا فقَدَ هيبته، انظروا إلى الناس، تروْهم في بيوت العزاء يضحكون ويتحدّثون بأصوات عالية وكأن الميت لم يكن جزءًا من قلوبهم. لا أريد أن أموت هكذا، أريد أن أفرح في ما تبقى لي من حياة". وتصمت قليلًا قبل أن تضيف: "وكيف سأفرح يا حسرتي، حتى فرحتي بيوم عرسي ما تهنّيتْ فيها".

***

في الأغوار، في منطقة "الشّونة الجنوبية" عُقِد قران أبي وأُمّي.

رغم قسوة المناخ بحرارته الشديدة، فضّل كثير من الناس تلك البقعة الأكثر انخفاضًا في العالم، على المناطق المرتفعة بسبب فرص العمل في بيارات البرتقال ومزارع الموز، وبسبب الدّفء المجانيّ شتاءً.

كان الناس قد بدأوا يتجرؤون، فيبتسمون أحيانًا، بل ويضحكون.

في البداية استعادوا ذكرياتهم في فلسطين، ذكريات جميلة أعادت الحياة إلى ملامحهم والابتسامات إلى قلوبهم. لم يكن في شتاتهم ما يسرُّ، حتى ميلاد طفل كان نصفه حزنًا ونصفه فرحًا، أما الأعراس فمعظمها يتمّ بصمت؛ لا أغانيَ ولا زغاريدَ ولا رقصًا.

في عرس أبي وأمّي تجرأت بعض النسوة، فارتدين بعض أثوابهنّ الملونة، المطرّزة بالحرير، كان ذلك بحدِّ ذاته تمرّدًا على كلّ شيء، على الحزن والشتات وسوء الحال وأوامر الرجال الذين حفر العبوس والضجر والمذلّة والشقاء أخاديد في وجوههم. لكنهم في داخلهم، كانوا يتمنّون يومًا يبتسمون فيه، ولو رغمًا عنهم، ولم يكن هنالك أفضل من أن يكون هناك عرس.

***

في يوم الجمعة، ظهيرة العشرين من تموز، يوليو 1951، تمَّ اغتيال الملك عبد الله في مدينة القدس.

من سوء حظّ أبي وأمي أن ذلك اليوم كان يوم زفافهما.

***

في الغور؛ تلك المنطقة المعزولة، لم يسمعوا بالخبر، كانوا مُنشغلين بالفرح الذي قرّروا أن يعيشوه رغم شتاتهم. أغانيهم تتصاعد وتطير حتى شاطئ البحر الميّت.

كيف وصل الخبر إلى رجال الأمن، لا أحد يعرف، ربما كانت الأغاني هي التي أخبرتْ عنهم. وجَدَ مَن في العرس أنفسهم مُطوّقين، والخيّالة ينقضّون عليهم بالضرب، دون أن يعرفوا السبب الذي يدعو لذلك، فكلّ ما في الأمر أنهم يغنّون، أنهم يقيمون عرسًا، ويحتفلون بزواج تمّ على سُنّة الله ورسوله.

تبعثر كلّ من في العرس؛ لم يستطع النجاة سوى الأطفال الصغار وأمّهاتهم، والعروس التي راحت دموعها تتدفّق وصرخاتها تعلو.

لم يقتنع الضابط الذي باشر التّحقيق مع الجائعين للفرح، في مركز الأمن، أن هنالك عرسًا حقيقيًّا، كان على ثقة من أنهم يحتفلون بموت الملك، الذي لم ينقطع همسهم بشأنه، باعتباره واحدًا من الذين ساهموا في ضياع فلسطين، وهكذا كُتِبَ عليهم أن يتلقّوا ضربًا شديدًا، لم يسْلَم منه عريس أو مدعوّ، شاب أو كهْل.

... وفي البعيد، خلفهم، في الشونة الجنوبية، فُتِحتْ هناك أبواب المأتم، كلّ بيت تحوّل إلى بيت عزاء. وعندما طالت أيام الاعتقال، وأصرَّ رجال الأمن على عدم السّماح لأيّ من نسائهم أو بناتهم بزيارتهم، أصبح الليل أكثر سوادًا، وتحوّل حَرُّ الغوْر إلى جهنّم.

في تلك الأيام تحوَّلتْ أمّي التي تنتمي لقرية أخرى، غير قرية أبي، واسمها "عاقِر"، إلى مصدر للشؤم في نظر أقاربه، أما في نظر أقاربها، فبدا أن ذلك المثل الشعبي تمّ تأليفه من أجلها: "أجتْ الحزينة تفرح ما لقتلهاش مطرح".

***

منهكًا عاد أبي، الذي لم يكن قد أصبح أبي، بعد أيام طويلة، وكذلك الآخرون، عادوا مُذلّين مُهانين. وفي صبيحة اليوم التالي استيقظ الأقارب فلم يجدوا أبي وأمّي؛ فقبل أن يستيقظ الناس، بدأتْ رحلتهما شرقًا إلى عمّان، خلْفهما عرسٌ لم يكتمل، وأمامها مدينة غامضة ستبتلع حياتهما حتى الموت.

17

حزينًا كنتُ، ورغم إحساسي بأن أحدًا لا يستطيع أن يحبس ما في داخلي من كلمات، لم أعد أمرُّ من أمام باب بيت الأستاذ سليم. لذا، أصبح على صديقنا قاسم أن يذهب ويدقّ بابهم كلّما أردْنا لقاء بشير. ومع أنني، مثل غيري، كنت أخشى اللقاء بأي مُعلِّم مُصادفة في الشارع؛ لأن المكان الوحيد الذي يجب أن يكون فيه الطلاب هو المكان الذي يراجعون فيه دروسهم، وهو البيت، إلّا أنني بتُّ أخشى الأستاذ سليم أكثر مما أخشى الأساتذة الذين درَّسوني كلّهم؛ من تلك الخيمة حتى اللحظة التي قرأتُ فيها ما كتَبَ عن قصيدتي. وكدتُ أخلط بين الأستاذ سليم وابنه بشير فأهرب من كليهما، إلّا أن صداقتي لبشير كانت قويّة، بشير هو الذي حدّد هدفه في الحياة أن يكون قارئًا جيدًا، لذا، كان أكثر ما يشكو منه هو ضعف لمبات الكهرباء في بيتهم، وسيمرّ وقت قبل أن نكتشف سبب شكواه.

كما يتحدّث بشير عن أسطورة، تحدّث دائمًا عن الكهرباء. أكثر ما كان يفتنه أن يشتري لمبات صغيرة، يُوصلها بأي بطارية يجدها، لكي تتحوّل إلى مصدر للضوء، ولم تكن هناك معجزة لديه أكبر من أن هذا الضوء لا ينطفئ حين تنفخ عليه.

جدّتي خضْرة التي لاحظتْ أن لقاءاتي ببشير أصبحتْ أقلّ، سألتْني عن اسم بشير الرباعي، مع أنها سمعتْه عشرات المرّات، بشير الواقف إلى جانبي في تلك اللحظة.

– أنتِ تعرفينه.

– بالطبع أعرفه، ولكنني أريد أن أتأكّد من أنه لم يزل صديقكَ فعلًا، لأنك حين تنسى اسم صديقك تكون صداقتكَ له قد انتهتْ.

قلت: بشير.

– بشير مَن؟

تلعثمتُ، كنتُ أخشى بقية الاسم، الاسم الذي لن أنساه أبدًا.

ارتبك بشير، وقد أدرك أنني لم أعد صديقه بشهادة جدّتي. استدار وخَطا مبتعدًا. أرعبني ابتعاده. قلتُ بصوت عالٍ لأُسْمِعَه: بشير سليم خليل محمد.

وصمت العالم.

توقّف بشير لحظة قبل أن يستدير عائدًا.

وقالت لي جدّتي: أظنّك كنتَ تمزح، أليس كذلك؟ إياك أن تمزح في مسألة كهذه.

وسألني بشير:

- لماذا نسيتَ اسمي؟

- لأنني خفتُ من اسم والدك.

- بسبب تلك الرسالة؟

- بسببها.

- لن أطلب منك أن تخبرني عمّا فيها.

***

حدّثتُه عن قصيدتي، وعن نقد أبيه القاسي لها، وبكائي فوق الصخرة البيضاء، وكيف قذفتُ الرّسالة بعيدًا، لكنني لم أقلْ له إنني بحثت عنها في الظلام واستعدتُها، ولكي أخفّف من ثقل إخفائي لهذا السرّ عليه سألته دون مقدمات:

- هل تعرف أن هناك شاعرة على قيد الحياة اسمها فدوى طوقان؟

- لا. أعرف إبراهيم طوقان، وقد مات من زمان.

- ولكن وجود فدوى على قيد الحياة أمرٌ آخر.

- لماذا؟

- لكي أصبح شاعرًا، حيًّا.

- بعد كلّ الذي فعله بكَ أبي؟

- بعد كلّ الذي فعله.

18

بهدوء أقيم عرس عمّتي والمصريّ؛ لم يكن ذلك بسبب ذكريات عرس أبي وأمّي الذي لم يكتمل، بل بسبب نكسة حزيران نفسها. كانوا خائفين من العرس، كما لو أن الحزن رابض فيه.

المصريّ كان مع قرارهم، فحسّه بالهزيمة مضاعف، هو الذي تغنّى بـ "القاهِر" و "الظافِر"؛ الصاروخين العربيين اللذين تباهى بهما الإعلام المصري، وصوّر للناس أن النصر سيكون بسرعة انطلاقهما.

المصري أيضًا، لم يكن يخفي زهوه بمصر أكثر من أي بلد عربي آخر، فهناك عبد الناصر الذي بات "حبيب الملايين" في الأغاني، وخارجها، لذا، بات يشعر _كما باحت لنا عمّتي_ أن روحه خسِرتْ في حرب حزيران أكثر مما خسرت مصر وسوريا والأردن من أراض في تلك الحرب.

- "نحن لم نخسر تلك الأرض وحسب، بل خسرنا ما لا يقل عنها أهمية أيضًا، أنفسنا"، قال.

تغيّر المصري قليلًا بعد الزّواج، لكن أعضاءه التي استردَّتْ بعض لحمها وشحمها ظلّتْ واقعة تحت الاحتلال، مثل تلك الأراضي التي خسرها العرب في ستة أيام. وتزعزع حبّه لكلّ شيء، إلّا حبّه لعبد الناصر ومصر، الذي بقي متمكّنا منه.

***

كلّ شيء يتعلّق بالعروسين الجديدين، بدا للجميع أنه يسير على ما يرام، وبعد شهور قليلة، خلا حوش بيتنا من خيمة جدّي وزوجته وأعمامي وعمّاتي، فأحسسنا بفراغ عظيم، فكلّ الماضي والذكريات التي كانت تسكنه انتقلت إلى مخيم آخر، هو "مخيم البَقْعَة للاجئين"، وانتابنا شعور حزين بأنهم يُهجَّرون مرّة أخرى أمام أعيننا.

***

ذات ليلة زارتْنا عمّتي، وعندما غربت الشمس توقّعنا أن تعود إلى بيتها،

لزوجها، لكنها بقيتْ عندنا، وعندما حان وقت النوم، وجدناها تسبقنا إلى الفراش، كما كانت تفعل في الماضي، تسوّي المخدّة العالية تحت رأسها، وتسألنا ذلك السؤال القديم:

- مين بدّه ينام جنب عَمْتُهْ الليلة؟

تأملنا وجوه بعضنا بعضًا مرتبكين، مدركين أن شيئًا كبيرًا وقع، ولم نسمع به.

نام اثنان منّا إلى جانبيها بصمت، دون عراك، عكس ما كان يحدث في الماضي، وعندما أطلّ النهار عرفنا أن المصري اختفى.

19

أسمعَني خالي محمود قصائد أخرى، ولكنني لم أكن مطمئنًا إلى أن ذلك الشِّعر له؛ كان فخمًا وصعبًا ويذكّرني بقصائد الشعراء الأموات.

جال باللحظ وأردَفْ
ربربٌ في الحيِّ أهيفْ
قدّه كالغصن، والثغرُ
شذى وردٍ مُنتّفْ
والصِّبا في مقلتيه
كالندى بالضوء يُعرَفْ
لو درى ما بي من الشوقِ
إليهِ... كان أنصَفْ

طلبتُ منه أن يُعيد قراءة القصيدة التي وضعتُها في هذه الصفحة. كانت بعض الكلمات صعبة، ولكن ذلك لم يُعِقْ بحثي عن القصيدة.

***

باختصار، كنت لم أزل أشكُّ في شِعر خالي، وأشكُّ في أسماء الشعراء، وأقول: لعلّهم زملاؤه في مؤسسة البريد والاتصالات، وكنت سأسامحه في هذا، لكنني لم أكن سأسامحه لو تبيَّن لي أن فدوى غير موجودة، فقد سألتُه إن كان لديه ديوان لها، وأجاب: "لا، لا يوجد لديّ ديوان لها".

***

بحثتُ في صفحات كُتبي في الدّروس التي لم نصل إليها وفي كتب أولاد الحارة الأكبر منّي عن قصيدة خالي، فلم أجدها. طمأنني هذا قليلًا؛ أنها له، ولكنني لم أكن أعرف ما في كتب الصفوف الأعلى بكثير.

طلبتُ من بشير أن يسأل أباه إن كان لإبراهيم طوقان أخت اسمها فدوى، وتكتبُ الشّعر.

سأل، وعاد مؤكِّدا لي أن فدوى شاعرة معروفة ولها أشعار جميلة، وقال لي

إن أباه سأله عن سرِّ اهتمامه بفدوى طوقان، ولأنه كان مضطرًّا لأن يكذب، قال: "إن أستاذ اللغة العربية ذَكَرَ اسمها في الحصّة"، وأضاف، "إن أباه لم يُصدِّقه، فهو يعرف أنه حين لا يصدّقه يهزّ رأسه ثلاث مرّات وينظر إلى السَّقف نظرة طويلة، وقد فعل ذلك". ولكي يُفْهِمَ بشير إنه لم يكن صادقًا، سأله: "ما هي أخبار صاحبك؟".

***

– وهل سألتُه إن كانت على قيد الحياة؟

– لا، لم أسألْه.

– اذهب واسأله، سأنتظرك في نهاية الشارع.

وذهب ولم يعد. انتظرتُ وانتظرتُ، إلى أن أدركتُ أن والده لم يسمح له بالخروج، وقد أظلمت الدّنيا.

هزَّني أبي، أبي العائد من العمل في العاشرة ليلا: ما الذي يجعلك تجلس هنا في هذا البرد حتى هذه الساعة؟

فقلتُ له قبل أن أفكِّر: فدوى.

– ابنةُ مَن مِن جيراننا هذه؟

– إنها شاعرة، وأنا أنتظر بشير الذي ذهب ليسأل والده عنها.

– الصباح رباح، قُدَّامي على البيت.

برْدٌ شديد سكن العالم في تلك الليلة، أشدّ من أي برْدٍ عرفتُ، فقلتُ لنفسي: "حتى لو تحوّلتْ عمّتي إلى بركان، ونمتُ إلى جانبها، فلن تستطيع وقف تحوّلي إلى جليد".

لم أنم، تقلّبتُ كثيرًا.

ونكزتْني عمّتي مرّات وهي تردّد:

– يا رب، ألا يكفيني ما فيّ؟ نمْ.

***

باكرًا استيقظتُ على غير عادتي في أيام البرْد تلك، قبل أبي.

– ما الذي يُشغلكَ إلى هذا الحدّ؟ لا نمتَ الليلة ولا تركتَنا ننام. ما الذي يملأ رأسكَ بكلّ هذه الهلوسات؟

– "المدْرسة"، أجبتُه، "هناك حصة إضافية قبل الدّوام، ودروسي أصبحتْ

أصعب".

***

وقفتُ بعيدًا عن باب بيت بشير، متواريًا في زقاق، خائفًا أن يراني الأستاذ سليم أُطلّ برأسي بين حين وحين.

خرج بشير أخيرًا، فرِحْتُ، أوشكتُ أن أصيح باسمه مُلوِّحًا؛ كما لو أنني انتظرته طوال عمري، وحسنًا أنني لم أفعل لأن أباه خرج خلْفه.

أبرقتِ السّماء ودوَّى الرَّعد؛ ضوء أسطعُ مما رأت عيناي، وصوت أعلى مما سمعتْ أُذناي في أي يوم مضى، ولعله صوتُ قلبي.

ركضتُ في الاتجاه الثاني للزّقاق، حتى الشارع الموازي، واختفيتُ هناك.

إن بقيت مكاني فسأنكشف.

لم أكن أريد أن أجد نفسي وجهًا لوجه مع الأستاذ سليم بعد نقده الشديد لقصيدتي، وضعْف فكرتها وبنائها ووزنها المُكسَّر.

رأيتهما لحظة في الطرف الثاني، ثم اختفيا.

عدتُ إلى مكانيَ الأول، وبشير يسير أمام أبيه، تحجبه قامة الأب حينًا، وحينًا أراه كلّما حاول الابتعاد عن طين كثيف بخطوة واسعة.

كان لا بدّ من أن يفترقا أخيرًا.

صوْبَ الشمال توجّه الأستاذ سليم، وواصل بشير طريقه غربًا حيث مبنى المدرسة أمامه مباشرة.

ركضتُ، وصلتُ، أدركتُ أن رشقات الطّين التي التصقتْ بحذائي من الخلف طارت في الهواء وحوَّلتْ لونَ ثيابي، من الخلف خصوصًا، إلى اللون البُنيّ.

- صاحبتكَ فدوى على قيد الحياة.

- صحيح؟

وهمستُ لنفسي:

- صدَقَ أبي، الصّباح رَباح فعلًا.

20

وصلتْ جدتي "خَضْرة" غاضبة إلى بيتنا في الثالثة من بعد الظهر، ثيابها تقطر ماءً، كأنها خارجة من بركة، وأطراف ثوبها ملوّثة بطين داكن، أمّا رائحتها فمزيج من ماء السّماء وتراب الأرض ورائحتها التي أعرفها وأحبُّها.

راحت تبكي، ولأنها تعرف أن من الصّعب عليها أن تُلقي بنفسها على صدر أُمّي الحامل، ألقتْ رأسها على صدر عمّتي، وكم بدت جدتي صغيرة عندها.

أمّي، التي دبّ الرّعب في قلبها، سألتْها إن حدثَ مكروه لجدّي "عليّ"، أبيها، لا سمح الله. هزّت جدّتي رأسها وأوشكت أن تقول "يا ريت"، لأنني سمعتُها تقول: يا... وتصمت، ثم تضيف: والله مش قادرة أدْعِي عليه.

في تلك اللحظة بدأتْ عمّتي تبكي، انحدر دمع غزير فوق خدّيها، وراح يتجمّع فوق الغطاء الأبيض لرأس جدّتي، فأدركتُ أن بكاء جدّتي على حاضرها الغائب قد أيقظ دموع عمّتي على غائبها الحاضر.

تركتُها وطرتُ إلى بيت جدّي لأعرف سبب تلك العاصفة الحزينة التي اجتاحتْ بيتنا.

جالسًا رأيته على عتبة الغرفة، فوق كرسيّ واطئ من القش بلا مسند للظهر، مثل ذلك الذي يستخدمونه في المقاهي. لم يكن عابئًا بالبرد الشديد ولا بالرّذاذ المتطاير نحوه، الناتج عن المطر الغزير، الرّذاذ الذي يصل إلى أطراف ثوبه الطويل ملوثًا حذاءه الأسود.

رآني، لم يرحّب بي، فكلّ ما فعله أن ابتعد قليلًا عن الباب لأتمكّن من الدّخول، ثم استدار إليّ. الضوء الشّاحب القادم من الخارج حوّل وجهه إلى ضباب رمادي، وكأنه سيتلاشى. ارتجف قلبي، وسمعتُ كلامه قادمًا من مكان بعيد، ربما لأنني لم أكن قادرًا على رؤية شفتيه وهو يقول:

إن كُنت تسأل... عن اللي صار فارِقْني
البعد قاسي، وهجْر الولْف ذابحني

ما ظلّ من ها العمر إلّا خطوة أو ثنتين
يمشيها موتي إليْ ويوصَل ويوخذني

لا تغيبْ عنها، وإذا انها الشمس، لاحقها
واملا عيونك بها... كون نور طلعتْها
ما غابت الشمس إحنا ال غبنا من أوّل
الليل يطوينا... وأبد ما يطوي عُوْدِتْها

يا بنيِّ إنْ قلبك هفا اتبع هواك وسيرْ
في الحب اِنتَ الغني ومن غيره تبقى فقيرْ
ولو كنت أبن الملك... هارون... والّا الزّيرْ
في الحب اِنتَ الفضا... وكلّ ما سِواك صغيرْ

أمضيت ساعتين عند جدّي، لم يتوقّف لحظة عن البوح بما في قلبه، أنْشَدَ الكثير، ما يملأ كتابًا.

عجبت من أين يأتي بكلّ ذلك الكلام.

قبل أن أخرج، رأيت جدّتي تتقدّم من خلفه، سمِع خطواتها فتوقّف قليلًا قبل أن يلتفت إليها، ويقول:

يا خضرةْ في الرّوح والأشجار، مش ذنبي
طاوعتِكِ العُمْر... وما طاوع عَقِلْ قلبي
يومِنْ رمانا النهر خلْفه، قُلِتْ بنسى
كل ليلة بغفى وبصْحى، وروحي مش جنبي

أبعد جدّي كرسيّه قليلًا إلى يسار الباب، دخلتْ جدّتي، ألقتْ نظرة عليَّ، ذهبتْ إلى الزاوية بهدوء وكأنها تركتْ كلّ أحزانها في بيتنا، أشعلتْ قنديل الكيروسين الصغير، وعندها فقط أدركتُ أن أكثر من شمس قد غابت دفعة واحدة.

21

جدّتي اتخذت القرار الذي عارضه الجميع، ربّتتْ على ظهر جدّي، كأنه طفلها، وخالاتي وأخوالي هناك يراقبون المشهد، وقالت بصوت بدا حاسمًا:

– ما يقرره أبوكم، أنا موافقة عليه.

– هل تعرفين ما يريد فعلًا؟ سألتها خالتي زينب.

– "يريد تلك المرأة، فليذهب إليها، لا أستطيع أن أربطه إلى جانبي وهو طوال الوقت معها هناك"، وكبحتْ دموعًا على وشك التدفّق "أتركوه، يروح وين ما يروح، الله يسهِّل عليه، إللي فات من عُمري وعمره أكثر بكثير من إللي ظَلّ. اللي عشته معه بيكفيني، وإللي راح يعيشه معها إن شاء الله يكفِّيه".

– لكننا غير موافقين، كلنا غير موافقين، قال خالي الكبير، وغادر البيت غاضبًا.

في تلك اللحظة أدركنا أن القرار لجدتي، لا لنا، ولكن الأمر لم ينتهِ عند ذلك الحدّ.

أستعيد ذلك اليوم بحزن، وأهمس لنفسي الآن: ليتهم احترموا قرارَ أمِّهم.

22

حزن جدي الذي تدفّق، هدأ، لكن نهر الحزن اختفى في داخله مثل كلّ الأنهار الجوفية.

تذكّرتُ ما كان يقوله لي دائمًا أمام عتبة بيته ونحن نتأمل الناس؛ فمرّة يرى شخصًا، فيتنهّد ويقول:

يا خسارة جفّ الفتى
والعود لسَّهْ اخضَرْ
ما يروي روح الفتى
إلا الحبيب لِسْمر

أو يقول:

يا خسارة، كُثْر النُّضُجْ
منّه الفتى عفَّنْ
وين الطفولة غدتْ؟
صار الحزن مَسْكَن

وقد تركتْ هذه الأبيات أثرًا عميقًا في داخلي بحيث كتبتُ تحت تأثيرها بعد سنوات طويلة: الثمرةُ التي تنضج أكثر مما يجب، إمّا أن تجفّ وإمّا أن تتعفّن... وكذلك البشر.

... وأحيانًا كان جدّي يرى عجوزًا يسير بخطى ثابته غير مستعين بعكاز فيقول:

طاير مُهُرْ... كالرُّمُحْ
كل الحبايب فيهْ
كِنّه قصيدة عِشِقْ
حبِّ الولِف راويهْ

في تلك الأيام تمنيتُ أن ينظر جدّي نحوي ويقول شعرًا عن رأيه في نفسه، لأعرف أيّ إنسان هو بين الذين وصفهم؛ وكأنّه سمعني، هزّ رأسه:

الغالي جنبي وبيسأل: "مين اِنتَ يا جدّي؟"
جنْبي، ولكن بعيد ما بتلمسك يَدّي"
يا الغالي بيني وبينك مش بحر وسهول
يومِن ألاقي الولِفْ، راح تِسْمَعُهْ ردّي

أثر فيّ كثيرًا ما قاله، وأثّر فيه أكثر ما قالته جدّتي حينما وهبتْه الحرية في الذّهاب إلى المرأة التي يُحِبّ.

في تلك الفترة رأيناه ممزقًا بين رغبته في السفر إلى مَن يحبّها، وبين جدتي التي فاجأته بكلام لم يتوقّعه.

وحاول أن يهدأ أكثر، وكأنه حسم الأمر لصالح وجوده إلى جانب جدّتي؛ راح يراضيها، وكأنها تلك الحبيبة التي تمنّاها وأراد أن يقطع الحدود من أجلها، كأنه كان في الشام وجاء خصيصًا من أجلها إلى عمّان، ووصلها، لكنّ هناك بعض الأشياء لا نستطيع دفنها مهما بذلنا من جهد لتعميق الحفرة وإهالة التراب عليها.

ما حصل كان مُرضِيًا للجميع، إلّا لجدّي، وهذا ما سيتّضح لنا في ما بعد.

***

منذ تلك الأيام حلمتُ بكتابة حكاية جدّي، ولعلها أوّل حكاية تمنيتُ كتابتها، إذ كانت غير عادية في تأثيرها عليّ، مُزلزلة وحزينة على نحو لا يُصدَّق، وفوق ذلك كلّه كانت أوّل قصة حبّ أعرفها. أما الأكثر غرابة فإنها لم تكن قصة حبّ بين فتاة وشاب صغيرين، بل بين عجوز على حافّة قبره، كما يُقال همسًا، وامرأة لا نعرف إن كانت ستعرفه، أصلًا، إذا التقته بعد عشرين عامًا من فراقها.

في تلك الأيام عمَّ الهدوء، لكننا كنّا نحسّ أن العاصفة لن تتأخّر.

23

سألني صديقي قاسم: "إلى أين؟"، وكأنه أحسّ بأنني على سفر.

- إلى مكتبة العاصمة، أظنّ أنني سأصبح شاعرًا.

- خذْني معك؟

- لماذا؟

- أريد أن أصبح شاعرًا أيضًا.

كان قاسم يحب دائمًا أن يفعل ما أفعل.

- وهل تعتقد أنها مسألة سهلة؛ أعني أن تصبح شاعرًا؟

- ما دمت تستطيع أن تكون شاعرًا فلماذا لا أستطيع؟

سِرْنا في اتجاه موقف الباصات الذاهبة إلى وسط البلد، عمّان، دون أن نستقلّ واحدًا منها، اتّجهنا إلى المخفر ثم إلى مقرّ شرطة البادية، انحدرنا مع الشارع، "مستشفى الهِلال" إلى يميننا، انحدرنا أكثر؛ مقبرة "المُصْدَار" إلى يسارنا، التفتُّ إلى الشارع الصّاعد إلى جبل النظيف، الشارع الذي يبدأ بمحلات "ألبان الشّامي"، خُيِّل إليّ أن نور تراني من شرفة بيتهم في الأعلى. لم أعرف إن كنت أحبّ أن تراني أم لا، ربما كنت أخشى غضبها لأنني لم أخبرها بذهابي إلى المكتبة؛ ربما كانت تحبّ مرافقتي مع أنني أعرف أنها لا تحبّ أن تكون كاتبة.

واصلْنا طريقنا الهابط حتى شركة السّجائر الأردنية المساهمة المحدودة، حيث يعمل أبي. ارتجف قلبي: ماذا لو رآني من أحد شبابيك المصنع؟

كانت الباصات التي تركْناها في محطتها أمام نادي الوحدات، تمرُّ بنا، واحدًا بعد الآخر، ومياه السَّيل تهدرُ تحت "جسر المهاجرين"، فـ "جسر الحمّام".

أفضل ما حدث أن الدنيا لم تمطر في ذلك اليوم.

***

لاح لنا من بعيد المبنى الحجريّ لمكتبة أمانة العاصمة، كانت له هيبته،

وخلفه المدرَّج الرّوماني الذي تتصاعد درجاته من الوادي الصغير إلى أعالي سفح الجبل.

حين رآنا موظف المكتبة، قال لنا:

- هذه المكتبة للكبار، يمكنكما الذّهاب إلى مكتبة الأطفال.

- "نحن كبار"، قلتُ له.

- "واضح"، هزَّ رأسه مع ابتسامة خفيّة، "ماذا تريدان؟".

- نريد ديوان الشاعرة فدوى طوقان.

- فدوى طوقان مرّة واحدة، هكذا، فعلًا كبار. هل تعرفان كيف تصلان إلى الكتاب؟

- لا.

- هذه أوّل مرّة لكما هنا، صحيح؟

- صحيح.

وسأله قاسم:

- كيف عرفتَ؟

لم يُجبْه. طلب منّا الجلوس إلى طاولة، وغاب. بعد قليل عاد وفي يده كتابان، ألقى واحدًا أمامي، عنوانه: "وحدي مع الأيام"، مُضاءً باسم فدوى طوقان، والثاني أمام قاسم، وعنوانه: "وجدتُها" مضاء باسمها أيضًا.

أنظرْ هنا،
الصخرة السوداء شُدَّتْ فوق صدري
بسلاسل القدر العتيّ
بسلاسل الزّمن الغبيّ
أنظر إليها كيف تَطحنُ تحتها
ثمري وزهري
نحتتْ مع الأيام ذاتي
سحقَتْ مع الدنيا حياتي
دعني فلن نقوى عليها
لن تفكَّ قيود أَسري
سأظلُّ وحدي

حككتُ رأسي، وأنا أتساءل: ما هذا؟ الشِّعر لا يكون كذلك.

وهمس قاسم لي: ما هذا الشِّعر؟

التفتُّ، فرأيتُ موظف المكتبة يحدّق إلينا.

واصلتُ القراءة، وبين حين وحين ينكزني قاسم بقدمه من تحت الطاولة يدعوني أن نخرج.

قرأتُ كثيرًا؛ لم يكن شِعرًا كالذي نقرؤه في كتبنا المدرسيّة، ولكنه كان مؤثرًا، حزينًا، وكلماته غير صعبة، لا تشبه الكلمات التي يستخدمها امرؤ القيس ولا الكلمات التي يستخدمها خالي محمود في القصائد التي يقول إنها له.

وفكَّرتُ، وأنا موزَّع بين شعر فدوى الجديد عليَّ، وشعر أخيها الذي يسكنني، بالذّهاب إلى موظف المكتبة لطلب ديوان إبراهيم طوقان، لكن النكزة الأخيرة كانت قويةً، مؤلمة، كما أنني خشيتُ ألّا يكون باستطاعتي طلب أكثر من كتاب في كلِّ مرّة.

مددتُ يدي إلى الموظف لأعيد إليه الكتابين، وتجرأت فسألته: "هل صحيح أن فدوى طوقان على قيد الحياة؟".

- وهل سيؤثر ذلك على جودة شِعرها إن كانت ميتة؟ اطمئن، حيّة. ثم إذا جئتما ثانية، فلا مبرر لأن تسلّماني الكتبَ، أتركاها على الطاولة.

همستُ لنفسي: في المرّة القادمة سأعود إلى إبراهيم...

24

ساعة ونصف الساعة، أمضيناها في المكتبة، إنها ضخمة فعلًا، لم أتخيّل أن هناك كتبًا كثيرة في العالم إلى هذا الحدّ. سِرْنا صامتَين، وصلْنا إلى الجامع الحسيْني. بين حين وحين أنظر إلى قاسم فأراه ينظر نحوي؛ لم أعرف إن كان غاضبًا لأنني لم أستجب له فنخرج بسرعة أم لأن القصائد التي قرأها أثَّرتْ فيه، أو لم تعجبه.

بقي صامتًا إلى أن وصلْنا "مقبرة المُصْدَار". كان الطريق يتحوّل إلى صعود أشدّ كلّما تقدّمنا، فبدأ يلهث، قال لي بصعوبة:

- خلِّ الشِّعر لكَ.

- هل هذا يعني أنك لا تريد أن تكون شاعرًا مثلي؟

- لعب الجلول أجمل، ولأنني أفوز دائمًا فإنني أفرح، أمّا في هذه القصائد، فليس هناك سوى الدّموع والحزن والليل.

قلت له: "إنني أحببتُ شِعرها، فهو سهل"، ولكي أخفّف عليه أضفتُ: "لكنني معك في أن شِعرها حزين وليس مثل شِعر أخيها إبراهيم".

هزّ رأسه، وواصلنا الصّعود.

- "أتعرف؟ إن فكّرتَ بالذّهاب مرّة أخرى، ستذهب إلى المكتبة وحدك". قال لي حين استعاد أنفاسه قرب مخفر الشّرطة، أمام باب المخيم.

لم ينقطع لهاثه طوال الطريق؛ صعد كشاحنة صغيرة.

- حتى لو ركبنا الحافلة واشتريتُ لكَ تذكرة؟

- حتى لو قلتَ إنك ستأخذني إلى هناك بالطائرة فلن أرافقكَ ثانيةً، تريد أن تصبح شَاعرًا، افعل هذا وحدك.

مصممًا كان، لكن الأيام ستثبُت لي أنه سيكتبُ الشّعر، فمن منّا لم يكتب الشعر، أبدًا، في حياته؟

25

كلّ ما عانيناه خلال ألعابنا القاتلة لم يمنعنا من العودة إليها، أولسْنا بشرًا؟ ربما كان الملل هو السبب، أو لعله الحسُّ الدّائم بالضيق الذي يبديه أهلنا تجاه كلّ شيء، بمن في ذلك أولادهم.

في ذلك اليوم المشمس الذي سرقه الشتاء من الصيف، ذهبنا إلى ما كنّا ندعوه تندّرا "شارع القطار". مررْنا بجانب نبيل الذي صار يقرأ دروسه بجانب، أو بين قضيبَي سكة الحديد، بعد إغلاق مطاري الخاصّ، مررْنا بجانبه بصمت واحترام أيضًا. لم نحدِّثْه ولم يحدِّثْنا، وعلى الرّغم من أننا كنّا ثلاثة، أشك أنه رآنا. ركضنا خلف القطار البطيء. كنت وبشير نستطيع فعل ذلك بسهولة، قاسم لا يستطيع، لا لأنه يملك يدًا واحدة وحسب، بل لأنه يتعب بسرعة، فمن يعرف؟ ربما تسبب ذلك الدّواء الذي تناولتْه أمُّه وهي حامل بضرر لرئتيه أيضًا.

تسلُّق القطار، من أوّل جبل "القويسمة"، خلف مقبرة المسيحيين إلى آخر الجبل لم يكن شاقًّا، لكن العودة من النقطة التي ننزل فيها كانت شاقة علينا، وبخاصة أننا كنّا نسير على أقدامنا أكثر من ساعة، قبل أن نصل إلى المخيم، في ظلّ عدم وجود قطارات تعود إلى المكان الذي انطلقْنا منه. أمّا الأسوأ من المشي فكان ذلك النّفق الطويل الذي يمرّ منه القطار قبل وصوله إلى الجسور العشرة بقليل، الجسور العشرة التي كانت أكثر المعالم المعمارية إدهاشًا في تلك المنطقة، ولم تزل حتى اليوم، ففي ذلك النّفق عرفنا الموت اختناقًا أكثر من مرّة، إذ كانت سُحب الدّخان الخارجة من القطار، وصوت صفارته المنذرة لأي كائن قد يكون في العتمة، قاتلة بكلّ معنى الكلمة.

كنّا نقفز من القطار بعد خروجه شبه مختنقَين، نغرف الهواء من الجو كأنه ماء ونملأ به أنوفنا.

لم نختنق، فبدأنا نفكّر في خطر آخر يمكن أن يكون لنا الثلاثة مكان فيه.

***

عُدْنا من ذلك البعيد منهكَين، التفتنا يمينًا، ففوجئنا بخيام تُنصَبُ في السّهل المحاذي لسياج الأسلاك الشائكة الشّرقي لمستشفى البشير.

في البداية ظننّا أن حربًا وقعت أثناء انشغالنا بالتّسلل إلى عربات ذلك القطار، وأن لاجئين جُددًا وصلوا.

خِفْنا.

لكننا حينما اقتربنا، رأينا ما لم نتوقّعه؛ رجالًا مسلَّحين، ببنادق لم نرَ مثلها من قبل. اقتربنا منهم، لوّحوا لنا بفرح، وهذا ما لم يقم به أيّ حامل سلاح رأيناه في حياتنا.

اقتربنا أكثر، فرحّبوا بنا:

- أهلا بأبطال المستقبل.

التفتُّ إلى بشير مستغربًا، فوجدته ينظر إليّ باستغراب أكبر.

- "من أنتم؟"، تجرأتُ وسألتُ.

- نحن فدائيون.

- "وهذه الخيام، هل هي خيام للاجئين؟"، سأل بشير.

ضحك ذلك الرجل الذي يرتدي لباسًا عسكريًّا، وقال:

- لا، هذه خيام العائدين.

وقبل أن نسأل عمّا يعني، كانت المفاجأة الكبرى: رأينا نور على بعد ستين مترًا منّا منهمكة في تثبيت أوتاد واحدة من الخيام.

لوَّحت لنا. توقّعتُ أن تأتي لتتحدّث معنا، لكنها واصلتْ عملها في تثبيت أوتاد إحدى الخيام.

لم أستغرب وجودها، فقد كانت الفجيعة في بيتها بحجم أمل النصر الذي انكسر؛ لن أنسى أبدًا ما قالته لي عن فرحة أبيها حين راحت الإذاعات تبثّ أخبار معارك حرب حزيران؛ حمل ابنته، التي وِلدت قبل الحرب بأيام، راقصًا بها، ومعها، وهو يردّد: "بحبِّك، على وجهك راح ترجع لبلاد، " لكنه في اليوم السادس، مع انقشاع دخان الحرب وتبخُّر كلّ كلام قيل باستثناء كلمة واحدة هي الهزيمة، أصابته نوبة قلبية، وهو يصيح:

- كذابون، خدعونا، كذابون، خدعونا.

راقبتُ نور كما لو أنها الكائن الوحيد في عالم فارغ، وأنا الإنسان الثاني فيه.
كبرتْ فعلًا.. كبرتْ...
وأحسستُ أن عليّ أن أكبر بسرعة لكي أستطيع اللحاق بها.

***

ذلك اليوم، كان آخر أيام ألعابنا الخطرة.

26

- "الله ينصرهم"، قالت عمّتي ونحن أمامها ثلاثتنا: بشير وأنا، وقاسم الذي وجدناه ينتظرنا على حافّة المخيم قلقًا كقلب أُمّ. رحنا نروي بانفعال ما شاهدناه بجانب الأسلاك الشائكة للمستشفى.

كنّا نتبادل النظرات، نظرات ذات معنى، فسألتْ أُمّي:

- هناك أشياء لم تقولوها.

- نور، نور مع الفدائيين، قلتُ ذلك قبل أن يسبقني أحد، فأنا الأحقّ في الإعلان عن شيء كبير كهذا.

- عجيبةٌ هذه البنت، منذ المرّة الأولى التي رأيتها فيها في حياتي. تستغربون، لقد كانت في اللّفة، لم تتجاوزِ الشّهور الخمسة حين حملتُها، ورحتُ أتأمّلها، كانت وردة حمراء، أكثر مما هي طفلة. الغريب أنها نظرتْ إلى عينَيَّ مباشرة، دون أن يرفّ لها جفن. أربكتْني، وفي النهاية، كان لا بدّ لي أن أفعل شيئًا ما للهرب من نظراتها، فابتسمتُ، وعندها ضحكتْ، ضحكتْ كما لو أنها، والله، تقول لي "لقد غلبتكِ في لعبة التّحديق"، لكنها لحسن الحظّ لم تحدّق بي مرّة أخرى بعد أن أصبحنا صديقتَين. إلهي كم كبرت هذه البنت وكم كبرنا.

تمنيتُ لو أن أُمِّي شملتْني بالجملة الأخيرة.

خرجتُ، فتبعني قاسم وبشير، كنت متأكّدًا من أن كلّ الأسئلة التي تدور في رؤوسهم تدور في رأسي. وسمعتُ أُمِّي تقول لي:

- أسمعُ ما يدور في رؤوسكم.

ارتبكتُ، أحسستُ بنفسي مكشوفًا لها.

دائمًا كانت تعرف ما يدور بطريقة تُربكنا.

***

بعد أن كبرتْ أصبحتْ تعرف أكثر؛ خالتي زينب التي أقعدها المرض طويلًا، وأنهكها مُنظِّم القلب الذي وضعوه في صدرها، وأنهكتْه، كانت في

أسوأ وضع يمكن أن يَبتلي به العمرُ إنسانًا. في المرة الأخيرة، قبل أشهر من وفاتها، أصرت أُمّي على أن تزورها، رغم أن أمّي لم تكن قادرة على صعود الأدراج، وكان أكثر ما يخيفنا أن تسقط فينكسر أحد أطرافها، لكنها أصرّت أن تذهب.

قبل ذلك بسنتين سقطتْ وتألّمتْ كثيرًا، فانحنيتُ وحملتها فوق يديَّ إلى داخل البيت، لم يكن الضّرر كبيرًا، وما إن اختفى الألم حتى أصبحتْ تتباهى بما حدث: "للمرّة الأولى في حياتي، بعد أن كبرت، يحملني أحد". كانت فرِحة بذلك مثل طفلة وهي تضيف: "الوحيد إللي حملني من أيام لبلاد لليوم كان إنتَ، الله يرضى عليك". ولكنني لا أعرف في الحقيقة كيف استطعتُ، فقد كانت ثقيلة، بعد أن أنجبتْ سِربًا من الأولاد وسربًا من البنات.

في لقاء أمّي بخالتي زينب، راحت الواحدة منهما تُقبّل يدَي ورأس الأخرى وتبكيان، ومن بين دموعها قالت أمّي: كأننا سنموت يا زينب قبل أن نرى بلادنا مرّة أخرى.

وماتت زينب، بعد أن ماتت آمنة، حليمة، ومريم، وبقيتْ أُمّي الوحيدة من بين أخواتها على قيد الحياة.

لم نجد ضرورة لأن نُخبر أُمّي بوفاة أختها الأخيرة، ستُتعبها أكثر، ويغدو الموت أقرب إليها وهي تفكّر في أن الأصغر منها مُتنَ، والأكبر منها مُتنَ، ولم يبقَ سواها.

هكذا تمّ التّعميم على الكبار والصغار، الأبناء والبنات والأحفاد والحفيدات لئلّا يخبرها أحد.

في مساء ذلك اليوم، جاءت أختي نوال للجلوس معها، التفتتْ إليها أُمّي وسألتها:

- هل حممتِ زينب معهم؟ كنتُ أتمنّى المشاركة في تحميمها.
- خالتي زينب بخير.
- زينب ماتتْ، أنا أعرف أن زينب ماتت، ومتأكدة من هذا كما أراكِ.

صمتتْ نوال، وتركت أُمّي الدّموع التي اندفعت تسيل على وجهها. أمسكتْ نوال بمنديل ورقيٍّ لتمسح الدّموع، فقالت لها أمّي:

- أتركيها، أتركيها تسقط وتبلل الأرض، لتحسّ زينب كم أنا وحيدة

الآن وحزينة بعدها.

- "تريد أن تذهب إلى معسكر الفدائيين، لن أمنعكَ، من العيب عليّ أن أمنعكَ، فهؤلاء الذين التحقوا بهم لهم أمهات أيضًا، هم وأمهاتهم يحبّون فلسطين، وأنا أحبها مثلهم، وأحبكَ كما تحبُّ تلك الأمهات أولادهنّ، لذلك لا أستطيع أن أقول لك لا تذهب"، قالت لي أمّي.

أما أبي، فقد قال لي، كأنه يُكمل حديثها:

- "ولكن عليك أن تنتبه أنكَ لن تخدم فلسطين كثيرًا إذا ذهبت الآن؛ كلّ ما سيحدث أنك ستكون جاهلًا مثلي؛ ستخسر مدرستك، أما فلسطين فستخسر إنسانًا يمكن أن يعطيها أكثر لو أصبح متعلِّما. جهْل الكثيرين منّا نصفُ هزيمتنا، أما النصف الآخر من الهزيمة فقد كان بسبب قياداتنا الفلسطينية والعربية"، وصمتَ قليلًا: "سأقول لك شيئًا لم أَبُح به لنفسي حتى الآن: أنا أصدِّق الجنود في ساحات المعركة، وأصدق هؤلاء الذين في معسكرات تدريب الفدائيين، لكن هزيمة حزيران علّمتني ألا أصدّق أي قائد أبدًا؛ لكن الفدائيين هنا، والجنود هناك، ونحن، الناس، بين هؤلاء وهؤلاء لا نحبّ أن نفقد الأمل. لا أحد في الدنيا يحبّ أن يفقد الأمل، لذا، أتمنى عليك أن تتعلّم وتتعلّم وتتعلّم، وبعد ذلك اذهب واخدم وطنك بالطريقة التي تريدها. تريد أن تكون مقاتلًا، لا بأس، عَالِـمًا، لا بأس، أو كاتبًا، أنا أعرف أنك تحبُّ الكتابة، لا بأس، لكن لا تذهب الآن، ففلسطين بحاجة لأن تقدم لها شيئًا أكبر من أن تترك مدرستكَ من أجلها".

27

اكتفينا ثلاثتنا؛ قاسم وبشير وأنا، في ما بعد، أن نشارك في المظاهرات، أو الاحتفالات التي تقيمها التنظيمات الفلسطينية، فتابعنا خطابًا لياسر عرفات في الساحة المجاورة لنادي الوحدات، وآخر لجورج حبش في أكبر ساحة من ساحات المدارس. كان المخيم كلّه هناك في مناسبات كتلك، بنسائه ورجاله وأطفاله. سيل الحماسة يجرف الجميع ما إن يعلم الناس بالخبر. نسمع الكلمات التي تحمل لنا بشائر اقتراب عودتنا، ونصرنا على أعدائنا الذين حرمونا من وطننا وبيوتنا وأرضنا وبحرنا ونهرنا، فنحسّ أننا أقوياء.

***

في الحفل الذي أقيم بمناسبة تخريج فوج من الزّهرات، شرقي سياج الأسلاك الشائكة لمستشفى البشير، استطاعت نور، التي كانت أكبر من زهرة، أعني مُشرفة، لأنها الأكبر سنًّا ممن التحقن بالدّورة، استطاعت أن تطلق النار بدقة شديدة على الهدف؛ لم تذهب أيّ من رصاصاتها هباء.

صفّق لها المدرب وكلّ من هناك، بعد أن سمعوا صوت فدائي شابٍّ يصيح مُعلنًا تحقيقها لأفضل نتيجة في تاريخ المعسكر حتى اليوم، ناسيًا أن تلك هي الدورة الأولى لتخريج زهرات.

ما أسعدني كثيرًا أن نور التفتتْ إليَّ، وهي تسير صوب المدرب، تخرج مشط الرّصاص، وتسحب مُذخِّر المسدّس مرّتين لتطمئن ألّا رصاص داخله، وتناوله السلاح؛ قبضته في الاتجاه الذي يقف هو فيه، وفوهته باتجاهها.

ولم يطل الوقت، إذ جاءت اللحظة الأكثر إثارة. أعلن أحد المدربين بمكبر صوت يحمله في يده، أن الوقت حان لتسليم الجوائز. صفّقنا جميعًا، وبعد توزيع جوائز رمزية، أعلن القائد "أبو الفوارس" أن الجائزة الأولى فازت بها الأخت "نداء".

غضبتُ لأن نور لم تفُز، لكن المفاجئ أنها خرجت من الطابور واتجهتْ وتقدمت نحو القائد وكأنها هي الأخت نداء. أما الأكثر إدهاشًا فهو عدم

اعتراضه؛ لم يقل لها أنتِ لستِ المقصودة، بل صافحها ومنحها المسدّس جائزةً.

لم يكن صعبًا عليّ، بقلبي المتقافز في صدري مثل قطّ حبيس في غرفة صغيرة مُغلقة، أن أكتشف أن نور هي نداء، وأن هذا هو اسمها الحركي.

***

سارت نور إلى جانبنا، والمسدّس يتأرجح على خصرها، غير قادرة على التحكّم فيه.

– "ستظلّين الأولى في كلّ شيء، حتى لو قررتِ أن تكوني الثانية"، قلتُ لها.

– في مسألة إطلاق النار لا تستطيع أن تكون الثاني، لماذا؟ لأنك لو فعلتَها فستموت، أما في المدرسة فيمكن أن يحسّ غيرك، إذا كان الأول، بأن فيه حياة أكثر مما فيه.

قالت ذلك بدقّة شديدة كأنها تصوّب الكلمات إلى عقولنا. فازددتُ اقتناعًا بقدْرتها على أن تكون كاتبة حقيقية، ورحتُ أستعيد جُمَلًا من موضوعها الجميل "لكلّ إنسان شمس في هذا الوجود"، فتأكّد لي أن نور كاتبة مُتنكِّرة، كلّ همّها أن تنفي الأمر باعتباره تُهمة، لكن ما سيتبين لي في ما بعد، أنها حرصت دائمًا على أن أكون الأفضل. هل كانت تدفعني إلى الأمام؟ تجاملني؟ لا أستطيع أن أعرف، فما سمحتْ لي بقراءته من نصوصها لم يُثبتْ لي شيئًا مثلما أثبتَ أنها متواضعة فعلًا، أو مصرّة على رأيها في نفسها وفيّ.

***

وعْيُ نور كان يسبقنا، مثل جسدها الذي خلّفني وراءه أشبه بصبيٍّ مبهور، متجمّدًا في مكانه، لا يستطيع التحرّك إلّا حين يكتب لها في الدفاتر التي تهديه إياها بيضاء، ويعيدها ممتلئة بأفكار وهواجس وانفعالات.

نور أسرّتْ إليّ أكثر من مرّة أن أهمّ شيء في الدنيا بالنسبة إليها أن تهديني دفترًا فارغًا، ويعود إليها ممتلئًا.

في ما بعد، بعد سنوات طويلة، ستصارحني حين أسألها:

– ولكن من أين كنتِ تحصلين على ثمن الدّفاتر؟ كانت غالية، لا مثل تلك التي توزّعها علينا وكالة الغوث؟

- بدّك الصراحة؟
هززتُ رأسي أشجّعها.
- أحيانًا كنت أوصي أبي أن يأتيني بها لأن المدرسة طلبتْها منّي؛ أظنّ أنه كان يعرف مصيرها، لأنها لا تظهر ثانية في البيت. أما أغلب الأحيان فكنتُ أدّخر مصروفي لأشتريها لكَ. وحتى لا أجعلك تحسّ بالذّنب، سأخبرك أنه من حسن الحظّ أن الدفتر لا يمتلئ في يوم، بل يحتاج إلى شهر على الأقل، لذا، كان لديّ مصروف دائمًا.
أحسستُ أن حبّ نور لي لا يقلّ أبدًا عن حبِّ جدّتي لجدّي، نور التي قالت لي ذلك الكلام الكبير.
- هل تعرف؟ لو خيِّرتُ بين أن أبيع أفضل شيء أملكه من أجل شراء دفتر لك أو ألّا أفعل، لبعتُه واشتريت الدفتر، أتعرف لماذا؟ لأن الفرح الذي أحسّ به وأنا أقرأ ما تكتبه، يجعلني أسعد الناس في المخيم، وضواحيه أيضًا".
- تعرفين أنكِ تشبهينها، أمّي، مع أنك أكبر مني بعامين.
- لم أكن أمّك ولن أكون. أنت حكاية أخرى.
- ماذا؟
- سألتَني هذا من قبل، وقلت لكَ إنني حين أعرف سأخبرك.
- متى؟
- اطمئن، قبل أن نصبح بعمر جدّتك وجدّك وحبيبة جدِّك بالتأكيد.
وضحكتْ من قلبها، وجسدها يهتز فرحًا كأنها ترقص، ومسدّسها يهتزّ مثلها.

28

- ما رأيكَ أن نزور أمّك؟ سألتْني.

هززتُ رأسي موافقًا وابتسامتي أكثر اتساعًا من وجهي. كنت أحبّ حبَّ نور لأمّي.

أخفتِ المسدسَ تحت قميصها العسكريّ، تأكدتْ أنه غير ظاهر، وسألتْني:

- أتعرف لماذا أحبُّ أمكَ؟ أولًا لأنني أحبّها، وثانيًا لأنها قدَّمت إليَّ أروع هدية في الوجود، أنتَ.

كان لمثل تلك الكلمات مفعولها السِّحريّ، وبخاصة إذا قالتها بحضور الآخرين، كما قالتها ذلك اليوم، شبه الرّبيعي، بحضور قاسم وبشير.

***

عانقتْها أمّي، ناسية المسافة الآمنة بين ما في بطنها وبين من تُعانقه، وعانقتْها عمّتي.

تحدّثت نور عن فلسطين وعن الفدائيين، كأنها تريد أن تخبر أُمِّي وعمّتي بما لا تعرفانه. منفعلةً، كأنها تحمل لنا خبر تحرير فلسطين وعودتنا إليها. حين انتهتْ، قالت لها عمّتي:

- كلّ ذلك أعرفه منذ شهور طويلة، هل تظنّين أن زوجي اختفى فجأة، لأنه تسلل للعمل في حقل بطيخ؟ إنه هناك معهم.

كان الأمر مفاجأة كبيرة لي ولنور ولقاسم وبشير، وإن لم يكن مفاجأة لأمّي التي اكتفتْ بهزّ رأسها مؤكّدة كلام عمّتي.

- "وكيف أنتِ والمدرسة يا حبيبتي يا نور؟"، سألتْها أمّي.

- "الثانية على الصف"، ردّت وهي تبتسم، فأحسستُ بها فتاة بعمري من جديد.

- يا ريت يا حبيبتي تجتهدي وتكوني في آخر السّنة الأولى.

***

سرتُ بجانب نور مزهوًّا أنني أرافقها، وحزينًا، لأنها تبدو بلباسها العسكري أكبر مني بكثير، ومرتبكًا كأخ صغير لها، لا أكثر، ومتوجِّسًا أنظر إلى المسدس كلّما ظهر مقبضه. لاحظتْ نور:

- هل يعجبكَ المسدس؟

- لا.

فوجئتْ. توقّفتْ والتفتتْ إليَّ بغضب:

- لماذا؟

- لأنكِ أجملُ منه.

ابتسمتْ وداعبتْ شعري في وسط الشارع، على مرأى من نظرات الناس.

***

بعد يومين ذهبتُ إلى بيتها وفي نيّتي أن أعتذر لها، رغم إحساسي بأنها سامحتْني بعد ما قلتُه بشأن مسدسها.

خرجتْ إليَّ بلباسها العسكري، ارتجف قلبي وقد تأكّد لي ثانية أنها كبرتْ، وأنني لن أستطيع اللحاق بها مهما فعلتُ. لكنها فتحتْ سترتها وسألتْني:

- هل لاحظتَ شيئًا؟

- طبعًا، المسدس غير موجود.

- أظنّني لن أحمله ثانية؛ أمس انطلقتْ منه رصاصة، وحفرتْ الأرض بجانبي.

خفتُ، خفتُ كأن الرّصاصة تنطلق الآن، في تلك اللحظة، وتصيبها، وأنا أُكلِّمها.

- جاءت سليمة، الحمد لله. ولكن خبِّرني، هل كتبتَ شيئًا جديدًا؟

29

عدتُ من لقائي بنور فرِحًا، فحين أخبرتها أنني لم أكتب شيئًا جديدًا، قالت لي: "انتظر". ذهبت وبعد قليل عادت تحمل واحدًا من الدفاتر التي أهديتُها إياها ممتلئة.

- لم تكتب شيئًا، هذا غير صحيح، لأنك كتبتَ، وما كتبتَه موجود لديّ.

قرأتْ لي، وكم فوجئتُ بأنني تابعتُ ما تقرأ كما لو أنني أسمعه للمرّة الأولى، كنت أهزّ رأسي كأنها هي من كتبتْ ذلك، أو كتبَه شخص آخر لا أعرفه. صوتها الدافئ الجميل الذي لم أزل أحبه حتى اليوم، وبحّته الخفيّة السّاحرة التي لا يستطيع حتى الهاتف إخفاءها حين أهاتفها أو تهاتفني، بحّة صوتها كانت بالنسبة إليّ موسيقى تمتزج مع كلماتي، تحوِّلها إلى أغنيات وترفعها إلى السّماء أجنحةً.

وواصلت القراءة، فاختفت الكلمات تمامًا، وظلّتْ موسيقى صوتها.

سألتْني حين انتهتْ:

- أنا متأكدة أنكَ شاعر، حتى لو لم تكن تعلم. هل أحببتُه؟

- "كثيرًا"، وكنتُ أعني صوتَها.

***

فتح خالي محمود البابَ بسرعة، كأنه أمضى اليوم كلّه في انتظاري؛ تبين لي أنه وصل إلى غرفته الصغيرة قبل لحظات.

- "يمكن أن أقول لك الآن إنكَ شاعر"، قلتُ لخالي محمود.

- وهل عليّ أن أشكركَ؟ هذا يعني أنكَ كنتَ تشكّ في ذلك؟

- صحيح.

- وما الذي جعلكَ تتأكّد؟

- سأقول الصِّدْق، ولكن لا تغضب منّي؛ لم أجد قصائدكَ في كتبي وكتب أخواتي وإخوتي وكتب سواهم أيضًا. لكن الأهم من ذلك أن هناك، فعلًا، شاعرة على قيد الحياة، وما دامتْ حيّة، فهذا يعني أنه يمكن أن يكون هناك

شاعر حيّ آخر... هو أنت.

- وكيف تأكَّدتَ من أنها على قيد الحياة؟

- سألتُ الأستاذ سليم، والد صديقي بشير، وذهبتُ إلى مكتبة أمانة العاصمة، وسألتُ موظف المكتبة أيضًا.

- وما الذي ستفعله بعد ذلك؟

- أظنّ أن هناك فرصة لِيَ الآن لأن أصبح شاعرًا، وأرجو الله أن يساعدني ويساعد عايشة لأن تُساعدني؟

- يساعدكَ في ماذا؟

- أن أكون شاعرًا.

- وعايشة مَن؟

- عايشة علي خليل، أختكَ.

- أختي؟

- كيف ستُساعدك؟

- ما هو اسمي؟

- وبعدين معك. إبراهيم؟ ردّ بنزق.

- وما هو اسم إبراهيم طوقان؟

- هل جننتَ؟

- لا بأس، ما اسم أخته؟

- أخته، اسمها فدوى.

- إذن، لكي أصبح شاعرًا يجب أن تكون لي أخت اسمها فدوى، ها قد قلتُ لكَ كلّ شيء.

وقف خالي محمود في منتصف الغرفة يحكّ رأسه، كأنني سألته: 698544 تقسيم 2368.4 كم النتيجة؟

30

كلّ ما فعله والدُ نور، كي توافق مدرسة اللاتين على قبولها طالبة فيها، أنه قابل المديرة وسلّمها الموضوع الذي كتبتْه ابنته: "لكلّ إنسان شمس في هذا الوجود". بُهرت المديرةُ بعمق كتابتها، فسألتْه: وهل ستوافق المدرسة التي هي فيها على نقْلها؟ لو كانت هذه الطالبة عندي لتمسّكتُ بها.

والد نور أخبرها أن مشكلة تلك المديرة قائمة في أنها لا تريد أن تُصدّق أن ابنتي كتبتْ هذا، ولذلك هي مستعدة للتخلّص منها. وحتى أكون صادقًا معك، هناك سبب آخر، وهو أن نور تحبّ الحرية أكثر منّا، ليس حرفيًّا، بل لا تقبل بأن يتحكّم فيها أحد، وفي تلك المدرسة يُزعجها أنهم لا يكونون لطيفين معها إلّا حين يزورهم مفتش تربويّ أو مدير تعليم، فيعرضونها كأنها لعبة تستطيع أن تتكلّم بطريقة جيدة. هذا يغضبها، أعني نور. منذ أيام قالت لي: أنا لست للبيع كي يعرضوني هكذا.

استطاع والدها أن يوصل رسائله الكثيرة الصّادقة للمديرة في حديثه القصير.

مرّت لحظات من الصمت لم تكن ثقيلة، قبل أن تبتسم المديرة له:

- يسعدني أن تكون ابنتك واحدة من بناتي في هذه المدرسة.

***

أدركتْ نور أنني لستُ سعيدًا بانتقالها:

- لماذا لا أراكَ سعيدًا؟

- لأنكِ ستكونين بعيدة.

- يا أهبل، أنا لن أكون بعيدة عنك في أيّ يوم من الأيام. تذكّر هذا جيدًا.

***

لم تبتعد أبدًا.

أثبتتْ نور هذا؛ فقد أصبحتْ زياراتها لنا شبه يوميّة، بحيث لم أعد أعرف إن كانت تزورنا لأنها تأتي لتتدرّب في معسكر الزّهرات القريب من بيتنا، أم

أنها تتدرّب لكي تزورنا.

***

عن مدرستها الجديدة أخبرتْني أنها، ولكي تثبت قدرتها للمديرة الجديدة، قامت باطلاعها على مسرحية صغيرة قديمة كتبتها، اسمها "الفصول الأربعة" تتحدّث عن خلافات الفصول الدائمة وادّعاء كلّ فصل منها أنه الأفضل.

مديرة مدرسة البنات أحبّت المسرحية القصيرة جدًا، وباحت لنور بأنها سعيدة بقرار قبولها في المدرسة.

- "أريد أن أسألكِ سؤالا"، قاطعتُ نور: "لماذا لم تخبريني عن هذه المسرحيّة من قبل؟".

- لأنني أحسّ أنني لا أكتب، هناك أفكار في رأسي تأتيني وأُسجّلها.

- أنتِ لا تريدين أن تصبحي كاتبة؟

- أبدًا، لأنني كلّما كتبتُ شيئًا لا يصدّقون أنني كتبته، حتى حينما يصدّقون، يدّعون أنهم يصدّقون، كما أحسّ أحيانًا أن ما أكتبه هو أفكار وقصص قرأتها، ونسيتُ أين قرأتها، أو ربما كتبَها أحد قبْلي، لكنني لم أقرأها بعد، ثم إن هناك كتبًا كثيرة رائعة في هذا العالم أحبّ أن أقرأها، فلماذا أتعِب نفسي بالكتابة؟

استغربتُ كثيرًا مما قالته، وأكدتُ لها أنني لم أقرأ شيئًا يشبه "الفصول الأربعة"، ولا "لكلّ إنسان شمس في هذا الوجود"، فردَّت بلطف: لا تنسَ أن هناك كتبًا كثيرة جدًا لم نقرأها أنا وأنت.

... وخفق قلبي.

في كلّ مرّة كانت تضعنا معًا في جملة مفيدة كنتُ أفرح، فأعود إلى البيت وأكتب شيئًا جديدًا.

- أنسيتَني أن أكمل لكَ قصة ما حدث بعد ذلك في المدرسة. المديرة دعتْني إلى غرفة الإدارة وطلبتْ مني أن أقرأ المسرحية لأستاذ اسمه "روكس بن زايد العُزَيْزي".[5]

---

[5] - سنعرف في ما بعد أنه مؤرخ وباحث ومؤلف أصدر أكثر من 80 كتابًا.

- هل هذا هو اسمه فعلًا؟ إن اسمه فخم مثل أسماء الشعراء الذين في كُتُبنا.

- اطمئنّ، لم يحضروه من العصر العباسي، هذا هو اسمه، وهو مدرّس مولود في مدينة "مأدبا"؛ الشّارع الذي يمرّ بجانب الوحدات يوصِل إلى مدينته، ولكنه يُدرِّس في القسم الثاني من المدرسة؛ قسْم الأولاد. المهم، أنه أحبّ المسرحية وطلب من المديرة أن تسمح له أن يأخذني إلى أحد صفوف الطلاب ويدعني أقرأ لهم مسرحيّتي، لكي يعرفوا كيف تكون الكتابة.

- "وسمحتْ المديرة؟"، سألتُ بانفعال.

- سمحتْ، قطعْنا الشارع، أنا وإياه، إلى الجهة المقابلة لمدرستي، وصعدنا قليلًا، وإذا بي بعد دقائق أمام الأولاد أقرأ لهم، ومع أنهم في صفّ أعلى من الصفّ الذي أنا فيه، إلّا أنني أحسستُ أنني معلّمة، وهم تلاميذي، (تعرف، أحب أن أكون معلِّمة)، شكرني الأستاذ روكس وأعادني بنفسه إلى المديرة وهو يمدحني، فرأيتُ السّعادة في وجهها تزداد.

***

سألتُ نور وأنا أوصلها إلى نهاية شارعنا، قرب المدارس: متي نلتقي؟ فابتسمت، وقالت معاتبة: وبعدين معك؟ نحن لا نفترق.

31

وصل أبي ليلًا، فوجدَ المعركة على أشدِّها، بيني وبين أُمّي. في البداية كان عدائيًا، ضدّي، لأنه ظنَّ أنني تسببتُ في مشكلة كبيرة، مثلما يفعل الأولاد دائمًا، ولكنه حين سمع ما قالته أمّي التفتَ إليّ فرآني مُحدِّقًا إليه، سألني:

- ماذا؟

- أَقنعْها أن تلِد لي أختًا؟

- وكيف أُقنعُها؟ هذه مشكلة لا أعرف حلّها، لا أنا ولا هيَ.

- "كأنك تقول إن الأمر لا يعنيك؟"، سألتْه أمّي غاضبة.

- "بالنسبة إليّ، إن أنجبتِ ولدًا أو بنتًا، لا مشكلة لديّ"، ردّ أبي.

- هل سمعتِ؟ أبي موافق.

- حتى لو وافقتْ كلّ العائلة والحارة والمخيم، فلن أُنجِب بنتًا، ولماذا؟ لكي تصبح شاعرًا؟

- ستنجبين بنتًا.

- بل ولدًا.

- بنتًا.

- ولدًا.

- أعرف أنك ستنجبين بنتًا ويكون اسمها فدوى، لأنني متأكّد الآن من أنني سأكون شاعرًا، ولي أخت اسمها فدوى، مثل الشاعرة فدوى طوقان أخت الشاعر إبراهيم طوقان.

- وهل تريدها أن تكون شاعرة أيضًا؟ يا فضيحتكِ يا عايشة، ابنك شاعر وبنتك شاعرة. وبدك اشتريلك ربابة، واشتريلها ربابة اليوم، ولّا بعد ما أوْلدها؟

- لسنا بحاجة لربابة، الشعراء هذه الأيام بلا ربابات، ثم إنها قد تصبح شاعرة أو لا تصبح، هي حرّة.

قال أبي، محاولًا حلّ المشكلة:

- كلّ من يراكِ يقول إن هناك توأمًا في رحِمِك، يا ستّي، أنجبي ولدًا وبنتًا، وبهذا يرتاح الجميع.

- ما دمتَ معه، أقولُ لكَ: سأُنجب ولدَين.

- "بل بنتين"، قلتُ لها، وأضفتُ، "تكفي بنتٌ واحدة، لأنني لا أعرف ما الذي يمكن أن أفعله بالثانية، تكفي بنت واحدة اسمها فدوى".

- حتى لو رسبتَ في امتحانات نهاية السّنة، فلن أُنجب لكَ فدوى هذه.

- ستنجبينها.

- لن أنجبها.

- ستَنـ...

- لن...

32

أخبرت بشير وقاسم:

- ما دمتُ سأصبح شاعرًا، على ما يبدو، فيجب أن يكون لي كتاب خاص، كتب خاصة، أن أشتريها.

- "لديك كلّ كتب مكتبة أمانة العاصمة مجانًا"، ذكّرني قاسم.

- أريد كتبًا خاصة.

- لديك كتبك المدرسيّة.

- أريد كتابًا غير مدرسي، ولي، منذ سنين حلمتُ بهذا.

- "ادخرْ، واشترِ الكتاب الذي تريد"، قال بشير.

- أريده بسرعة أكبر.

***

اتّفقنا أن نبحث عن عمل، ولم يكن صعبًا علينا أن نجد صاحب بناء بحاجة لمن يساعده في نقل الطوب إلى سطح بيته، تمهيدًا لبناء طابق ثانٍ، فمع أمثالنا ليس مُضطرًّا لدفع الكثير.

قرب سكة الحديد، كان بيته، خارج المخيم.

بسرور تلقّى عرْضنا. وعدَنا بربع دينار، نقتسمه بيننا كما نريد.

- بل ثلاثين قرشًا.

وافق، ووافقنا.

بجدٍّ عمِلنا، وفي وقت كنت وبشير نحمل طوبتين في كلّ مرّة، كان قاسم يحشر واحدة تحت ذراعه ويصعد بها، محاولًا ما استطاع أن يفعل ذلك بسرعة كي يجارينا.

في ذلك النهار، بعد العصر بقليل، لم يلهث قاسم، ولعل رطوبة جو الشتاء ساعدتْه في ذلك.

مدّ قاسم يده طالبًا أُجرتَنا، وبقيتْ يده ممدودة للحظات خلتُها دقائق طويلة، قبل أن يحشر صاحب البيت يده في جيبه، ويضع عشرين قرشًا في يد

قاسم.
لم يُعِد قاسم يده، في انتظار عشرة قروش أخرى، كما وعَدَنا ذلك الرّجل:
- مع السلامة، لا أظنّ أنكم تستحقّون أكثر، لقد فعلتم ذلك في ربع ساعة.
- "فعلناه بربع ساعة لأننا ثلاثة، ولأننا اشتغلنا بسرعة"، قال بشير.
- لن أدفع لكم أكثر، انصرفوا.
- "ضع المبلغ الذي أعطاك إياه في جيبكَ"، قلتُ لقاسم، وطلبتُ منه ومن بشير أن نذهب.
- "مستحيل"، قال بشير.
جررته من قميصه الملوَّث بآثار الطوب، فتبعني.
حين وصلنا نقطة عالية تبعد عشرين مترًا عن ذلك البيت. توقّفتُ، ونظرتُ إلى صاحب البناية، كان سعيدًا لأنه استطاع أن يخدعنا.
- هل تستطيع أن تصيب هدفكَ، بالحجر، بالدِّقة التي تستطيع أن تصيب فيها الجلول؟
- "وأفضل"، أجاب قاسم.
- لنرَ كيف تستطيع أن تصيب باب ذلك الرّجل، المجاور للشّباك.
تردّد قاسم، لكنه انتقى حجرًا وصوّب نحو الباب فأصابه في منتصفه.
ارتبك الرّجل الذي سمع ارتطام الحجر بالباب، وكان قد استدار ليدخل.
راح يتقدّم نحونا.
- قبل أن تصِلنا سنكسر زجاج الشّباك، ولكي نُثبت لك، سنضرب باب الحديد مرّة أخرى.
طار الحجر طلقةً. كنتُ خائفًا أن يذهب التّهديد هباء، لكن الحجر مرَّ من فوق كتف الرّجل وارتطم بالباب مُصدِرًا صوتًا عاليًا.
توقّف الرجل في مكانه.
- الحجر الثالث في الزجاج.
لم يعرف ماذا يفعل، نادى:
- تعالوا، خذوا ما تبقّى لكم.

قال بشير:

- سأذهب وأحضر البقية، لا أريدكما أن تتحرّكا من هنا، وإذا فعل شيئًا.

- "تَكسِر الشّباك"، قلت لقاسم، قبل أن يُكمل بشير جملته.

***

في مساء اليوم الثاني اشترينا ثلاثة كتب: البؤساء، وكوخ العم توم، وآلام فارتر، بعد أن أضفنا مصروفنا لأوّل مبلغ نحصل عليه بعرق الجبين، لكنني لم أنسَ أن أسأل بائع الكتب: هل هم أحياء؟

- "أحياء؟ أجل، لأنكم ستقرؤون كتبهم، أما هم فلم يبقَ منهم غير كتبهم التي بين أيديكم وأرواحهم التي تحلّق الآن فوق رؤوسكم". قال لنا ذلك بوقار شديد، فنظرنا ثلاثتنا إلى الأعلى.

كلّ واحد منّا حَمَل كتابًا ومضى به نحو بيته، وفي اليوم الثالث، عندما التقينا، اكتشفنا، والواحد منّا ينظر إلى عيني صاحبيه، أن الروايات الثلاث التي اشتريناها لا تقلّ حزنًا عن أحزاننا في المخيم.

لكن القراءة بعثتْ فينا إحساسًا جميلًا، وفيّ تصميمًا جديدًا.

33

في الوقت الذي تواصلتْ فيه المعركة في بيتنا، هدأت الأمور في بيت جدّي وجدّتي. لكن جدّي لم يكن كلَّ جدّي. كنّا نرى نصفه على الأكثر، أما نصفه الثاني فكان غيمةً بجانبه، لا تبتعد ولا تقترب، في مكانها دائمًا، أما حين يمشي فإنها تسبقه.

أصبحتُ أنظر إلى ما سمعتُه من جدّي باعتباره أقرب إلى كلام الأغنيات، أكثر مما هو شعر، فانشغلتُ، بأفكاري، باحثًا عن مُغنٍّ، أو مُغنّية يمكنهما غناء ذلك الكلام، لم أجد أحدًا. كان كلامًا مختلفًا، بل ورأيته صعبًا أحيانًا.

سألتُ جدّتي: هل تعتقدين أن جدّي شاعر؟

- شاعر؟ لماذا تسأل؟

- لأنني أحبّ أن أعرف إن كان الذي نسمعه منه شعرًا أَمْ كلمات أغنيات.

- لا هو شعر ولا هو كلمات أغنيات.

- وما هو؟

- هذه روحه يا ستّي.

- لم أفهم.

- ما الذي يفعله الطائر حين يذبحونه؟

- يُرفرف، ويضربُ جناحيه بالأرض، ورأسه.

- وجدّكَ يفعل الشيء نفسه.

- مثل قصيدة "الحبشي الذبيح" لإبراهيم طوقان، فهمتُ.

- ما هي هذه القصيدة، ومن هو هذا الشاعر؟

- لا عليكِ، ولكن أحبّ أن أسألكِ سؤالًا صعبًا، أرجو أن تجيبي عنه بصراحة، هل كنتِ فعلًا ستسمحين له بالسفر إلى دمشق؟

- الصحيح يا ستّي؟

- الصحيح. أحبّ أن أسمع الصحيح.

– تمنيتُ لو أنه سافر، ربما لأنني أريد أن أعرف النهاية، أما الآن، فيبدو لي أنه يحاول أن يكون أفضل معي، هنا، ولكنني الوحيدة التي تعرف أنه هناك.

لم تكن قد أنهتْ جملتَها، سمعتُ الباب الخارجي يُفتح، فعرفتُ أنه وصَل.

ابتسم لي، فسألتُه: كيف حالك يا جدّي؟

راح يهزّ رأسه حتى ظننتُ أنه لن يجيب، أو أنه يعمل على أن يَنسى السؤال، ثم رفع عينيه وقال:

الحال شبه الرّيش... طاير، وما هو جِنْحان
شو أفرَقَتْ لو كان... لنْسورِ أو غربانْ
الريش هو الأثر... لكن ما في أبدانْ
شو ها الزمن يا خَلِقْ... إللي ما لوشِ مكان؟

***

سجّلتُ ما قاله، وغادرتُ بيتهما في ذلك اليوم، حائرًا كجدّتي...

في الطريق فكّرتُ: يبدو أن ما يقوله جدّي صعب لأنه لا يستطيع الوصول إلى حبيبته.

تذكَّرتُ نور، فارتجف قلبي.

تذكرت زيارتها الأخيرة لنا. لا أعرف كيف حدث وأن توقّفتُ فجأة، كأن الطريق انتهى بهوّة أو جدار.

وقعتْ عيناي على الحائط المقابل، فوجدتُ أن جدول الرّحلات أصبح باهتًا، حتى إن أسماء بعض المدن اختفتْ، فحزنتُ.

– أظنّ أنكَ متوتّر لأننا لم نسافر منذ زمن طويل.

– وإلى أين سنسافر بعد اختفاء المطار؟

– يمكن أن نبني مطارًا جديدًا.

– انظري، لم تبقَ هناك أيّ مساحة تصلح لأن تكون مدْرجًا.

– إذًا، أكتُبْ.

– أَكتُبُ؟

– أكتُبْ.

34

انتشرت أخبار المعركة بيني وبين أُمّي؛ عرفتْ بها عمّتي القريبة وعمّاتي البعيدات، وجدّتي، جدّاي، عليٌّ وإبراهيم، وانقسمت العائلة، بين مؤيّد لي ومؤيد لها، لكن المعارضين لي كانت لديهم أسبابهم الأقوى: بعضهم أحبّ أن تختتم أُمّي مسيرتها بولد، لأنهم يفضّلون الذّكور على الإناث، أما الآخرون منهم، فكانوا يسألون السؤال القاسي:

– ولو افترضنا أنها أنجبتْ بنتًا، وأصبحَ شاعرًا، فما الذي يمكن أن نفعله بشِعره، أو نستفيد؟

عمّتي التي راحت تُرفرف، بين الفريقين، كحمامة سلام، همستْ لي برقّة، بعد أن استضافتْني في بيتها المجاور، وأنا ملتصق بها:

– لا تزعل عليّ، صحيح أنني لم أُخبرْهم برأيي، ولن أُخبرهم، إلّا أن عليّ أن أعترف لك بأنني كان يمكن أن أدعمكَ لو أردتَ أختًا كي تصبح طبيبًا مثلًا، أو مهندسًا، أو طيارًا، أمّا شاعِرًا.

ابتعدتُ عنها، فأعادتْني إلى حيث كنتُ:

– عليكَ ألا تُضحّي بي من أجل شيء لم يحدث بعد، يعني لم يزل في عِلْم الغيب.

– لكنني توقّعتُ أن تكوني معي، لا معها.

– لا تنسَ أنها أمّكَ.

– لم أنسَ، وأنت عمّتي وتعرفين كم أحبّكِ.

– أعرف، والله أعرف، لذا سأعِدُكَ بشيء واحد، على أن يظلَّ الأمرُ سرًّا بيننا، موافق؟

– موافق.

– أعدُكَ أنني سأدعو الله أن يستجيب لكَ فتلِد أُمُّكَ بنتًا، وأدعوه من أجل أمّك لكي تلِد ولدًا؛ يعني سأتركه يقرّر، هل رضيتَ؟

***

معركة كتلك، كانت بالنسبة إليّ، المعركة الأكبر منذ حرب حزيران. لذا، لم أكن سعيدًا بموقف عمّتي، وإن كنت أخشى تهديدها المبطّن (عليك ألا تضحي بي).

أصوات المعركة، التي لم تعُدْ همسات، وصلتْ إلى نور، فجاءت على جناح السّرعة، كما يقال، من سفح جبل النظيف.

- كلّ هذا يحدث من ورائي، وأكون آخر من يعلَم.

اعتذرتُ لها، وطلبتُ منها أن تسامحني.

- ولماذا عليّ أن أسامحكَ؟ لماذا تحتاج فدوى وأنا هنا؟

- وهل أنت أختي واسمك فدوى؟

- لا أختكَ ولا اسمي فدوى، أنا غير.

- من أنتِ؟ عليك أن تقولي لي، لا تتهرّبي كلّما سألتكِ.

لانَتْ نور، في لحظة هدأتْ، كأنها مذياع كان مُنطلقًا، وصمتَ:

- صدِّقْني، وحياة عينيك وعِينَيِّ، حين أعرف سأقول لكَ.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي تحلف فيها نور بعينَي، ولذا أحسستُ بفرح شديد، وبرغبة في الذّهاب إلى المرآة فورًا لأرى عينَيّ اللتين حلفتْ بحياتهما.

لم يسبق أن سمعتُ أحدًا يحلف بحياتهما.

- "وحياة عينيكِ أنكِ الأغلى عليَّ من كلّ الناس"، قلتُ لها.

- مُقلِّد، أنتَ مُقلِّد.

- صافي يا لبَن.

- "صافي. معكَ لازم يظل اللبَن صافي"، وتنهّدتْ فأحسستُ بقلبي يخرج من صدري، يحلّق دقيقتين قبل أن يعود.

أمسكتْني نور من يدي وجرّتْني خلْفها، طرقتْ باب بيتنا، ودخلتْ كأنها فتاة كبيرة تعيد إلى أمّي ابنها الضائع.

قفزتْ أمّي مثل أفضل لاعب مرمى واحتضنتْ نور. كانت الشخص الوحيد الذي تحتضنه غير عابئة بضرورة وجود مسافة أمان بينها وبينه.

يبدو أن أمّي تذكّرتْ فجأة أنها خاطرتْ بعناقها، فتحسستْ خصرَ نور باحثة عن شيء واحد: المسدّس.

لم تجده هناك.

- "لا تؤاخذيني، هناك معركة، على ما في بطني، لا بدّ أنكِ سمعتِ بها، لذا، أردتُ أن أتأكد من أن الأسلحة الحقيقية لن تُستخدم فيها"، وضحكتْ.

***

اسمحوا لي أن أُعيْد أنني كنت معجبًا بكثير من الجُمل التي تقولها أُمي، أحسّ أن كلّ كلمة في مكانها، طبعًا، هذا لا يحدث كلَّ يوم، لكن لنقُلْ كلّ أسبوع مرّة، وتظهر مواهبها أكثر حين يكون الموضوع كبيرًا، أما إذا كان الأمر بسيطًا، فتكتفي بالتثاؤب بعد أن نسألها عن رأيها، وتَزايد هذا، وسيتزايد بعد أن أصبح مولودها القادم أهمّ مشاغلها. وسأعترف هنا، أنني استوحيتُ من تجليات أمّي تلك، كثيرًا من شخصية الجدّة في رواية "أعراس آمنة".

- معكِ حقّ، قالت لها نور، الحقيقة معكِ حقّ. أتخيّل لو أن زوجي جاء إليّ في المستقبل وقال لي إنه يريد ولدًا أو بنتًا، بالتأكيد سأرفض أن ألِدَ له الاثنين.

غضبتُ وأنا أسمع نور تقول ذلك؛ كان موقف عمّتي أفضل بكثير من موقفها، أمّي التي سمعتْ كلام نور، ابتسمتْ:

- والله وكبرت يا نور وأصبحتِ تتحدثين عن زوجكِ.

وثانية غضبتُ، غضبتُ مرّتين، لأن أمّي أكدتْ لها أنها كبرتْ، قبل أن تؤكّد لي أنني كبرتُ، وقبِلتْ بهدوء، أن تتحدّث نور عن زوجها بوجودي، دون أيّ اعتراض.

لكن أمّي نظرت إليّ وفاجأتْني بتوجيهها أصعب سؤال يمكن أن يوجَّه لنور بحضوري:

- كأنكِ لا تفكّرين بهذا الشّاب الحِلو؟ توقّعتُ أنه ذلك الزَّوج، أم أنني مخطئة؟

احمرَّ وجْهي، أما نور فأجابت:

- من يعرف؟ ربما سأقبل به زوجًا إذا أصبح شاعرًا محترمًا.

كانت الإجابة مفاجئة لي ومفاجئة لأمّي، أمّي التي سألتْها غاضبة:

- أنتِ معه إذًا؟

- يا خالتي، تعرفين، إن لم أكن معه، مع مَن سأكون؟

- يعني ضدّي؟

- أبدًا.

- الآن عرفتُ نواياكِ؛ لن أُعانقك مرّة أخرى قبل أن ألِد، الآن سأعاملكِ مثلما أُعامل الجميع؛ بوسة من بعيد، هذا أكثر ما يمكن أن تحصلي عليه منّي.

- تعرفين يا خالتي أنني سأخسر الكثير إذا لم أعانقكِ، ولكن، بذمّتكِ، ألا يستحقّ هذا الشاب الحلو، كما وصفتِه أن أُضحّي من أجله؟

كانت كلمات نور في تلك اللحظات أجمل شمس أضاءت حياتي حتى ذلك اليوم.

***

خرجْنا، تاركين أُمّي مع قرارها الوحيد.

- هل تعتقدُ أن خالتي عايشة ستكون غاضبة عليّ؟ سألتْني.

- "لا أظنّ، فهي طيبة، ثم إنك قلتِ أيضًا كلامًا جميلًا عن ابنها، أعني أنا"، وابتسمتُ.

- يعني جاءتْ سليمة؟

- "أظنّها جاءتْ سليمة"، أكدتُ لها.

35

أخرجتُها من مخبئها: رسالة الأستاذ سليم، أو رأيه في قصيدتي. قرأتها ثانية.

... وبدأتْ مرحلة الصمت الطويل في حياتي، صمتٌ لم تقطعْه أيّ من أخواتي أو إخوتي، أو حتى أمّي التي سمعتُها تُسِرُّ لأبي ذات ليلة: إنه يصمتُ كثيرًا؛ أظنّه اكتشف أنه كان على خطأ حين طلب منّي ما طلَب. هل تعتقد أن عقله عاد إليه؟

أبي أجابها بصوت منخفض عميق:

- لا تقلقي، كلّ ولد في عمره يحلم أن يكون شيئًا ما حين يكبر، ثمّ يُغيِّر رأيه، أو تُغيِّره الحياة، وابنك هذا، لعلْمكِ، مخلوق من التراب نفسه الذي خُلِق منه أطفال هذا الكون الواسع.

لكن صمتي انتهى إلى شيء لم أتوقّعْه، فمرور بعض الوقت جعلني أكثر هدوءًا، وساعدني على أن أقرأ الرّسالة بصورة مختلفة.

أوّل ما اكتشفتُه أنها لم تكن قاسية كما توقَّعتُ؛ إنها تحثّني على أن أبذل جهدًا أكبر، إذا أردتُ أن أُصبح أفضل، وهذا رأي، أحسستُ أن كلَّ مَن يحبُّكَ يمكنُ أن يقوله لكَ، سواء تعلَّق الأمر بالدّراسة، أو بكرة القدم، أو بناء عضلات جيدة، مثل عضلاتي التي أهملتُها، فضعفتْ منذ أن انشغلتُ بشيء واحد لا غير؛ هو كيف أصبح شاعرًا؟

قلتُ لنفسي: لماذا غضبتُ ذلك الغضب، وكلّ ما كتبه الأستاذ كان حوْل قصيدة حملتُها إليه لأسمع رأيه فيها؟ ثم إنني أريد أن أصبح شاعرًا، أي أنني لستُ شاعرًا حتى الآن. ولو كنتُ شاعرًا الآن، لما طلبتُ من أمّي أختًا، ولكانت قصائدي تُدرَّسُ في المدارس مثل قصائد إبراهيم طوقان.

- "أليس هذا صحيحًا؟"، سألتُ نفسي.

فأجابتْني نفسي دون مجاملة:

- صحيح.

طرقتُ باب الأستاذ سليم مساء. خرج بشير، سألني إن كنتُ أريد شيئًا منه، فأخبرته أنني أريد شيئًا من أبيه.

– مرّة أخرى؟ ألا يكفيك ما كتبه لكَ في المرّة الأولى؟

– بل كفاني، ولهذا أريد أن أراه.

– لا تقُل إنك لم تتعلّم الدّرس وكتبتَ قصيدة ثانية؟

– أنا لم أتوقّف عن كتابة الشِّعر أبدًا.

– مُصرٌّ إذًا على أن تراه.

لم أُجِب.

دخل بشير، فرُحتُ أتأمّل شجرة اللوز التي أزهرتْ في منتصف باحتهم؛ جميلة وتستحقّ قصيدة في الحال، لولا أن الزيارة لا تسمح لي بكتابة قصيدة أمام الباب. وضعتُ اللوزة في قلبي، وقلتُ سأكتبُ عنها في ما بعد.

أطلَّ الأستاذ سليم، وبشير خلْفه يشير إليّ أن أبتعد، لكنني أمام الباب تحوّلتُ إلى شجرة صغيرة، متشبّثة بالأرض، مكانها الوحيد. وقبل أن يفتح الأستاذ فمه، مددتُ يدي المختفية خلف ظهري، وقدمتُ له باقة صغيرة من أزهار الخبيزة الحمراء التي تزرعها أمّي في البيت.

فوجئ الأستاذ سليم؛ فآخر ما كان يتوقّعه، على ما بدا من علاماتٍ على ملامحه، أن أحملَ إليه زهورًا.

أخيرًا، ابتسم.

– لماذا الزُّهور؟

– لأشكركَ على رأيكَ في قصيدتي.

– لكنه الرّأي الذي توقّعتُ ألّا أراكَ بعده أبدًا.

– وأنا كنت أعتقد هذا، إلّا أنني حين فكّرتُ فيه، اقتنعتُ أنكَ تنصحني، لا توبِّخني. ولهذا جئتُ لأشكركَ.

– ألم يؤثر رأيي فيكَ؟

– بل أثَّر كثيرًا.

كان يُنقِّل نظره بين الزهور وبين وجهي.

– يمكنني أن أقول لكَ شيئًا، الآن، غير الذي كتبتُه لكَ؛ بعد أن تفهَّمتَ

رأيي. ولكنني أريد أن أسألك أولًا: "هل ستكتب قصائد أخرى غير تلك التي قرأتُها لك؟".

- أنا كتبتُ فعلًا.

- هذا أمرٌ مُهمّ يُثبتُ أنك مُصِرٌّ، كما يُثبتُ أنكَ تحتملُ النّقد، حتى لو كان صعبًا، لذا، يمكنني أن أقول لك الآن، يومًا ما ستكون شاعرًا.

***

فصلًا حاسمًا في حياتي، كان ذلك اليوم الذي ذهبتُ فيه للقاء الأستاذ سليم، ورغم أن إيمانه بي، لم يكن كإيمان نور، وثقتها التي سمعتُها كأمنية، وترسَّخت في داخلي كحقيقة وهي تتصفح "آلام فارتر" وكأنها تحلم:

- شد حيلك، لا تستطيع أن تتخيّل كم سأكون سعيدة إذا سرتُ في أحد الشوارع ذات يوم، ورأيت كتابًا عليه اسمك في مكتبة من المكتبات. لقد اعتدنا دائمًا أن نقول: سقط قلبي، لكنني في كلّ مرّة سمعت فيها اسمك حلّق قلبي، فتخيّل كم سيكون ارتفاعه وأنا أراه على غلاف كتاب.

حلم يقظتِها ذاك، بدا لي أكثر صعوبة من الحلم بلقاء فدوى طوقان الذي استبعدتُه، لاستحالته، لكنني أحببتُ ما قالته. إلّا أن أمورًا كثيرة ستتغير مستقبلًا، مع ميلاد هذه الأمنية من جديد، وقد أصبحت ذات يوم أيضًا، أمنية لفتاة أخرى، غير نور.

36

قررتُ أن أكون جيدًا مع الجميع، بعد تلك الجملة التي قالها الأستاذ سليم؛ تأكيده بأنني سأصبح شاعرًا.

ذهبتُ إلى دكان الحاج رشدي، واشتريتُ عدة حبَّات من حلوى الحلقوم. وضعتُها في جيبي، توجَّهتُ إلى بيتنا. وجدتُ أُمِّي وجدَّتي جالستَين في الشارع على عتبة البيت، ومعهما امرأة أخرى، هي جارتنا سعاد، كانت تُرضِع وليدها الأول. كانت سعاد أجمل امرأة في الحارة، بل في المخيم، وكان ابنها يرضع بنَهَم من ثديها الذي أخرجتْه من فتحة ثوبها المطرّز بالحرير، وبالطبع، لم يكن أحدٌ يندهش من هذا، أو ينظر إليها نظرة غير مؤدبة، فالأمّهات يُرضِعْن أطفالهنّ هكذا، وهنَّ يسِرْن في الشارع، أو يجلسن على مقاعد الحافلة، أو تتحدَّث الواحدة منهن مع جاراتها ويتحدّثن معها أمام البيوت، قبل غروب الشمس، عادة.

يمكنني القول: إن الأم كانت مقدَّسة بكلّ ما فيها.

على مرأى جدّتي وسعاد، أخرجتُ من جيبي حبات حلوى الحلقوم، وأعطيتُها لأمّي. لم تسألني شيئًا، فتحتْ الورقة، وهي ورقةُ دفتر من تلك الدفاتر المدرسية التي كان أصحاب الدكاكين يستخدمون أوراقها لتغليف ما يشتريه الناس من أشياء صغيرة. كانوا يعطون الأولاد، في منتصف السنة الدّراسية، أو في نهايتها، بعض الحلوى مقابلها، فالفصل انتهى، والعطلة الربيعية أو الصيفية بدأت، والدّفاتر الممتلئة بواجبات الفصل الماضي أو السنة الماضية، لن تُستخدم مرّة أخرى.

بصمتٍ تأمّلتْ أمِّي ما في الورقة، ونظرتْ إليّ لتقرأ ما في رأسي؛ تقرأ ما إذا كنتُ أخطط لإرضائها. وزَّعتْ الحلوى على جدّتي وسعاد، ولم تنس ابنها الرَّضيع، حيث كانت العادة في تلك الأيام أن تضع الأمهات الحلقوم في قطعة قماش نظيفة، ويتركن الصِّغار يمتصُّون نكهته وطعمه السّكري.

- "هذه لكَ"، قالت أمّي.

- أنا أكلتُ واحدة.

- لا لم تأكل، فأنا أعرفكَ، وأقرأ ما في رأسك.

تناولتُ حبّة الحلقوم، قضمتُ نصفها، مع أن في استطاعتي أن آكلها كاملة؛ فهي أصغر من لقمة.

أبعدتْ أمّي جسدها، فانفتح أمامي ممرٌّ ضيّق إلى حوش البيت، دخلتُ.

كانت شجرة اللوز، التي في بيت الأستاذ سليم، تتحرّك في قلبي.

كتبتُها.

37

لم يقل لي موظف المكتبة النّحيل، ذو النّظارة السميكة: اذهب إلى مكتبة الأطفال، مكانكَ ليس هنا.

أحببته، وحسدتْه على الجنّة التي يعيش فيها؛ تلك المكتبة العظيمة. وفاجأني حين قال لي: سأُحضِر لك ديوان إبراهيم طوقان.

- كيف عرفتَ أنني أريده؟

- الخبرة. هل أقول لكَ أيّ كتاب ذلك الذي ستطلبه في المرّة القادمة، أمْ أدَعها مفاجأة؟

لم أقل شيئًا، لأنني لا أعرف ذلك الكتاب.

همس لي موظف المكتبة أنه يحبّ إبراهيم طوقان، وسألني: "لماذا تحبّه؟"، فأجبته دفعة واحدة: لأنني سأصبح شاعرًا مثله.

- إذا أردتَ أن تكون شاعرًا، فليس من مصلحتكَ أن تكون مثله، أو مثل غيره.

كان كلامه كبيرًا، لم أسمعْ مثله من قبل، فأصبحتُ على يقين من أنه قرأ كلَّ ما في المكتبة. تجرأتُ وسألتُه هامسًا: ولكنه شاعر رائع، وأنتَ تحبه، فلماذا لا أكون مثله؟

- هل تستطيع أن تعيش إذا تنفّستَ من منخار صديقكَ الذي جاء معك في المرّة الماضية؟

- قاسم؟ لا، لا أستطيع.

- لو فعلتَها ستموت، أليس كذلك؟

- صحيح.

- هل تعرف ورقة الكربون التي توضع فوقها ورقة بيضاء وتحتها ورقة بيضاء، ثم يكتُبُ الشخص على الأولى؟ الشاعر الأصلي، هو الورقة الأولى المكتوبة بالحبر، أما الشاعر الثاني فأنت تعرف ما يكون.

- النسخة الثانية، التي انطبع عليها الكربون.

تركني دون أن يُعلِّق، وبعد قليل عاد يحمل كتابًا كبيرًا، وضعه أمامي، فلم أستطع إخفاء دهشتي: كلّ هذه القصائد كتبها إبراهيم طوقان؟

– "... ومات وعمره 36 سنة؛ أي أصغر منّي الآن"، وبدا موظف المكتبة حزينًا.

تركني مع الديوان الذي رحتُ أتأمّله غير قادر على امتلاك جرأة النظر في صفحاته، وحين فعلتُ أخيرًا، أدركتُ أن الإنسان لا يمكن أن يكون شاعرًا لمجرّد أنه قرر ذلك، وتساءلتُ: كيف يمكن أن يكون هناك، أصلًا، كتاب من تأليفي، بهذا الحجم.

التفَتّ إلى موظف المكتبة، أحسستُ بأنه يقرأ أفكاري بالسهولة التي يقرأ فيها ذلك الكتاب الذي أمامه. أشار إليَّ برأسه، يشجّعني أن أبدأ.

أحببتُ إبراهيم طوقان، أحببتُه أكثر من قبل، وتمنّيتُ لو أن المدرسة تستبدل ديوانه بكِتاب اللغة العربية. سحرني وهو يتحدّث عن "الحبشيّ الذّبيح"، أو "الديك الذبيح"، كما سيلتصق العنوان في ذاكرتي، تلك القصيدة التي وضعوا بعض أبياتها في كتُبنا، وإذا بها طويلة أكثر مما عرفتُها:

بَرقَتْ له مسنونةً تتلهَّبُ
أمضى من القَدرِ المتاح وأغلبُ
حَزَّتْ فلا حدّ الحديدِ مخضَّبٌ
بدمٍ، ولا نحرُ الذبيح مخضَّبُ
وجَرى يصيحُ مصفقاً حيناً فلا
بصرٌ يزوغُ ولا خطىً تتنكَّبُ
حتى غَلَتْ بي ريبة فسألتُهمْ
خانَ السّلاحُ أم المنيَّةُ تكذِبُ
قالوا حلاوةُ روحه رقصتْ به
فأجبتُهم ما كلَّ رقصٍ يُطرِبُ

هزّني موظف المكتبة: عليكَ أن تعود إلى بيتك.

نهضتُ، لكن يدي ظلّت ملتصقة بالديوان.

– هل أعجبك؟

– كثيرًا.

- ولكن عليك أن تتذكّر ما قلته لك، ما يعجبنا يقتُلنا أحيانًا ونحن نركض خلْفه.
- لم أفهم.
- العصفور يعجبه الطُّعْم الذي يُوضَع في الفخ، فماذا يحدث؟
- هذه الإجابة أعرفها، لأنني ماهر في الصّيد. ولكن هل تعتقد أن من الممكن أن أكون شاعرًا، مثله، أعني شاعرًا شاعرًا؟
- تذكّر دائمًا أن إبراهيم طوقان لم يكن يعرف أنه سيكون إبراهيم طوقان الذي نعرف حين كان بعمرك.
وصمتَ قبل أن يضيف:
- عليك أن تعود إلى بيتك، أين يقع؟
- في مخيم الوحدات.
- عليك أن تُسرع.
قبل أن أخطو الخطوة الثانية، مبتعِدًا، قال لي:
- نسيتَ الدّيوان.
حاولتُ أن أقول شيئًا، لكن الكلام لم يخرج من فمي.
- أعرف أنك ستُعيده، ولكن احرص على ألّا يبتلّ؛ في الخارج مطر.
ناوَلني الدّيوان، أمسكتُه بيدين مرتجفتين.
- الشاعر لا يخاف شيئًا، ستعرف هذا حين تقرأ أكثر.
- أنت لا تعرف اسمي، فكيف تعطيني..؟
- الآن أنتَ شخص مثل أيِّ شخص، ولكن حين تُعيد الديوان، سأتعرّف إلى إنسان أفضل من الذي أعرفه الآن، وعندها سأكون سعيدًا بأن أتعرّف إليك أكثر.
- شكرًا.
- لا تشكرني، كلّما أحبَّ قارئ كتابًا ما، فإن الكاتب الذي مات من زمن يبتسم في قبره. إبراهيم طوقان الآن لا يبتسم فقط، بل يضحك لأنك ستقرأ ديوانه، ولأنه سيكون ضيفك، في بيتك، وربما ضيفك الأول، أليس كذلك؟
لم يكن ينتظر إجابتي، فأضاف: وسيكون فرحًا أيضًا لأنني سمحتُ له بالذّهاب معكَ.

38

احتفائي بالدّيوان كان بحجم محبتي لصاحبه، تعاملتُ معه وكأنه إبراهيم طوقان نفسه، واحترتُ كثيرًا وأنا أبحثُ عن مكان أُجلِسه فيه، ولولا خوفي من أن يقال إنني جننتُ، لأنزلتُ فرشة الضّيوف، ووضعتُه عليها.

في الليل، بعد أن تأكّدتُ من أن الجميع نائمون، وجَّهتُ له الكثير من الأسئلة عن الشِّعر، وطلبتُ منه أن يُسدي إليّ بعض النصائح التي لا بدّ منها لفتى يحلم بالشّعر. لكن خيالي الذي حلّق عاليًا ـ طوال وجوده في ضيافتي ـ لم يكن جامحًا بما فيه الكفاية ليحلّق أعلى، بحيث تخطر ببالي فكرة، أو حلم لقاء فدوى طوقان شخصيًّا، ما دامتْ على قيد الحياة.

مغادرتي للبيت أصبحتْ نادرة، لكنني في النهاية خرجتُ.

***

كنّا نتقافز ثلاثتنا، بشير وقاسم وأنا، نلعب كرة السّلة. بفطرتنا اكتشفنا أن علينا العثور على لعبة تُسلِّينا، لا تنتمي لعالم الصغار، مثل لعب الجلول، ولا تنتمي لعالم المجانين الذي ارتوينا منه، وخرجنا منه غير مُصدِّقين أننا لم نزل أحياء.

كنت أطولهم. وضعتُ كرسيًّا من القش تحت قدمَي، ورسمتُ دائرة بحجر جيري على حائط بيتنا من الخارج، وخلفي كان هناك جدول حركة الطائرات الذي اختفى كثير من أحرف مدنه.

لم يكن هناك مجال لأن نملك سلّة أو دائرة معدنيّة لاستخدامها في اللعبة، مع أننا نعرف أن رسم الدائرة يولّد الكثير من الخلافات، إذ من الصعب أن نتحقّق تمامًا من تسجيل الأهداف.

لم نتشاجر تلك الليلة، كما لم نتشاجر من قبل، وهذا يشمل أخواتي وإخوتي، إذ لا أذكر أن شجارًا كبيرًا أدى إلى قطيعة بيننا، ويعود الفضل في ذلك إلى أمّي التي صرختْ في وجهي ووجه أختي نوال ذات يوم، حين تطوّر الشّجار إلى اشتباك بالأيدي: شوفوا... في ناس كثير سيئين يمكن تعاديهم،

قبل ما يفكّر الواحد فيكم يعادي أخوه أو أخته، أو صاحبه، مع إني ضد أي عداوة بين أي إثنين، فهمتوا؟

في ذلك اليوم سمعنا كلنا ما قالته، الأخوة والأصحاب، وأثر فينا، وفهِمْنا.

***

قاسم كان يمرّر لنا الكرة المطاطية بعدْل، مرّة لي ومرّة لبشير.

في تلك المباراة، لاحظنا لأوّل مرّة أن نظر بشير ضعيف، فالكرة تُربكه وهي تتّجه إليه، وكذلك تسديداته إلى قلب الدائرة. يد قاسم الغائبة، ونظر بشير المشوش، كان يلزمهما شيء آخر كي يكتملا، وهذا ما حدث.

كنّا على وشك إنهاء اللعِب، حين ظهرت أُمِّي أمام باب البيت، وقالت لنا: فتحتوا في رأسي طاقة. البيت كلّه يهتزّ مع كلّ كرة تضرب الحائط، ومَا في بطني يُرافس، كأنه يلعب معكم.

... وليتنا توقّفنا بعد أن سمِعنا ما سمعناه منها.

قفزتُ في الهواء عاليًا، لأختم المباراة بهدف، لكنني لم أعد إلى الأرض على قدَمي، بل عدتُ على ركبتي وراحة يدِي اليُسرَيَيْن.

– سليمة إن شاء الله، قال قاسم.

لكنها لم تكن سليمة.

كان مِفصل الكوع قد غدا قطعتين، فعظْمة توجّهت إلى الأسفل وأخرى إلى الأعلى.

بشير الذي اقترب مني بسرعة، ونظر إلى يدي، قال يطمئنني:

– الحمد لله، سليمة، ليس كسْرًا.

تشخيص بشير للإصابة كان صائبًا.

طرَق قاسم باب بيتنا، خرجتْ أمّي، ولم نكن بحاجة لأن نقول لها شيئًا، وقد تدلّى مرفقي المشوّه أمامها.

أفسحتْ لي الطريق لأدخل، مرتبكة، فارتطم كتفي الأيمن بخصْرها، توجّعتْ، لكنها نسيتْ ما في بطنها، وطلبتْ من بشير وقاسم أن يذهبا لاستدعاء ذلك العجوز الذي يمارس الطبَّ العربي، ليُصلِح وضْعَ يدي.

انطلقا، وبعد قليل وصلتْ عمّتي خائفة مرتجفة، فأدركنا أنهما أخبراها،

لكنها حينما نظرتْ إلى يدي ولم ترَ أيّ أثر للدم، عادت تتنفّس بصورة أفضل:
- الحمد لله، سليمة.

***

بعد نصف ساعة على الأقل، وكان الليل قد هبط، سمعنا طرَقَات على الباب. دخل الطبيب الذي كانوا يطلقون عليه اسم "طبيب عربي"، ويقصدون طبيبًا شعبيًا. أمسكَ بيدي ورفعها فصحتُ من الألم. طمأن الجميع:
- سليمة إن شاء الله.
وليتُها كانت كذلك.

طلب ماء ساخنًا، وعلبة سمْن صغيرة مستديرة، متوافرة في البيوت دائمًا، لأن "سمْن الغزالين" كان رائجًا، وهي علبة تكثر استخداماتها، مثل تسخين الماء، أو تحويلها لمغرفة لإخراج الماء من البراميل، أو لزراعة الريحان وزهور الخبيزة سريعة الموت، ولكنها تملك القدرة على الانبعاث من جديد مرّات ومرّات.

سأل الطبيب أمّي إن كان يوجد لدينا بيض، فأشارت لواحدة من أخواتي أن تنطلق للبحث تحت دجاجاتنا، فعادت تحمل ثلاث بيضات. طلب قطعة قماش، فامتدّت يد أُمّي وتناولت قطعة قماش ملونة من تحت حامل الفرشات والأغطية، انقضّتْ عليها عمّتي بأسنانها، وهي تسأل الطبيب إن كان ذلك القَدْر يكفي، فطلب منها أن تجعل القطعة أكبر قليلًا، فنقلتْ أسنانها إلى موقع آخر، وسمعتُه يقول لها إن ذلك يكفي.

أحدثتْ قَطْعًا صغيرًا بأسنانها، وبيديها القويتين أمسكتْ قطعة القماش فسمعنا صوت تمزّقها.

أوّل ما فعله الطبيب العجوز، أن عرَّض كوْعي للبخار السّاخن الصّاعد من علبة السّمن التي كان الماء فيها.

بعد دقيقتين سألني إن كان الألم قد هدأ، فأشرتُ له برأسي مؤكّدًا ذلك. طلب من عمّتي أن تمسكني من كتفي بقوّة، وأمسك هو براحة يدي، وقبل أن أصيح ألـمًا، سَحَب يدي إلى الأمام، مُعيدًا المِفصل إلى وضعه الطبيعي.

كسَرَ البيضات الثلاث، وأنا أصيح، غير قادر على النظر إلى يدي، أو إليه.

شعرتُ بلزوجة البيض على جلدي، ضمّدها بقطعة القماش، وحصّنها بأربع قطع من خشب صناديق الخضار الرقيق، أحضرها معه بمجرّد أن علم بطبيعة الإصابة، وربما بتشخيص بشير لها، وشدّ ذلك كلّه.

- بعد أسبوعين على الأكثر، ستعود يدك أفضل مما كانت.

وعندما خرج، ناولتْه عمّتي أجرته.

قبل أن يصل إلى الباب سمعناه يقول:

- سليمة إن شاء الله.

39

في أسبوعَي الإصابة امتلأ البيت بالزّائرين. أخواتي وإخوتي فرحوا بذلك، فقد أحضر الزّوار حلوى وفواكه، في مقدِّمتها الموز، بعضهم أحضر أرُزًّا وسُكَّرًا كهدايا، حسب العادة السائدة، ولكن أمّي لم تكن فرحة بتدفّق المُحبِّين، فكلّ ما أحضروه ديْن في الحقيقة، علينا تسديده في أقرب مناسبة يتوجّب علينا أن نزورهم فيها؛ فرح أو حزن. كان عليها أن تُقدِّر سعر كلّ فاكهة أحضرها أحدهم، لتشتري سُكّرا أو أرزّا، إن كان الوضع غير مناسب لشراء الفاكهة، كما في حالات الوفاة والأعراس، مع أن الموت شيء والزواج شيء آخر.

لم أكن سعيدًا بالزيارات الكثيرة التي قيّدتْني في البيت، فما دمتُ مصابًا فإن عليّ أن أكون حاضرًا كلّما زارنا أحد مُهنئًا بسلامتي، في زمن لم يكن الناس بحاجة لتحديد مواعيد الزيارات، مهما كان سببها، قبل أن يأتوا.

سجنٌ، تحوّل البيت إلى سجن، ولم يكن هناك ما يُفرحني أفضل من زيارة نور، فقد اختفى بشير وقاسم؛ هما اللذان أحسّا أن هناك من يُحمِّلهما المسؤولية عن إصابتي، ولو بطريقة غير مباشرة، لكن نبيل فاجأني بزيارة غير متوقّعة، حاملًا في يده كيسًا ورقيًّا، تبيّن لنا بعد مغادرته، أنه يحتوي على كيلو ونصف الكيلو من الخوخ الأحمر. فرحتُ بزيارة نبيل كثيرًا، وفرحتْ به أمّي التي احتضنتْه برقّة، مُقبِّلةً رأسه عند وصوله، ومُكرِّرة الأمر عند خروجه، دون أن تُثقل عليه بالأسئلة. اكتفتْ باستراق النظر إلى صمتهِ وحزنه العميقين بدمعتين حرصتْ على حبسهما جيدًا.

***

كانت نور تمضي وقتا طويلًا في بيتنا، وفي كلّ مرّة تحرص على أن تأتي إليّ بهدية صغيرة؛ في إحدى المرّات قرأتْ لي مقالًا جميلًا، كتبتْه، عنوانه "الحرّية"، عن وجودها في معسكرات الزّهرات والأشبال، وعن هتافاتها للحرية في الشوارع، وأمام جدّتها، وكيف تذوّقت طعم الحرية العذْب واحتضنتْ قامة

الحرية الباسقة الخضراء في ذلك المعسكر.

أحببتُ مقالها.

والد نور زارني أيضًا، وسعدتُ بزيارته كثيرًا؛ كانت هديته عبارة عن روايتين، هما "قصّة مدينتين"، و "الآمال الكبيرة". لم يفتْني أن أسأله: "هل هما على قيد الحياة؟".

ضحك كثيرًا وسألني: "لماذا تسأل؟"، ارتبكتُ: "مجرّد سؤال". "لقد ماتا منذ زمن طويل"، فحزنتُ كثيرًا رغم أنني لم أفكّر في أن أكون روائيًّا سوى مرة واحدة، حين حلمت بكتابة قصة حبّ جدّي عليّ وحبيبته التي في الشام.

***

بعد أن خرج سألتْني أمّي:

- ما هو سعر الكتابين في ظنّك؟

- ربما يكون ربع دينار.

- ربع دينار، الله وأكبر. يعني سعر 5 كيلو سُكّر.

بعد قليل، تذكّرتْ ما كان عليها ألّا تنساه: هاتِ الكتابين.

كان وجود أي كتاب لا علاقة له بالكتب المدرسية أمرًا كبيرًا. لم يكن هناك من يتمنّى وجود أبناء قارئين لكتب غير كتب المدرسة، فالكتب خطيرة، في اعتقادهم، تتفجَّر في رؤوس الذين يقرؤونها، ويمكنني الآن أن أتفهم ما كان يدور في رؤوسهم تلك الأيام، هم الغرباء عن وطنهم؛ كانوا يعتقدون أن الكتب تُصبح معرفة، والمعرفة تصبح وعيًا، والوعي يبحث عن واقع أجمل، والواقع الأجمل غير موجود، وهنا يحدث الاصطدام مع أولئك الذين لا يريدون للبشر أن يعيشوا حياة جميلة، وهنا تكون المتاعب التي لا تنتهي للأبناء والأهل.

المدارس أدركتْ هذا، لذا، لم تكن هناك مكتبات فيها. كلّ كتاب خطرٌ، حتى لو كان قصة بوليسية من قصص أرسين لوبين.

في ذلك اليوم، أصرّتْ أمّي أن تخبئ الرّوايتين، لكن ما قلتُه لها عن صعوبة خروجي من البيت، بسبب الألم الذي أعاني منه، جعلها تسمح لي بقراءتهما، وإن كانت اشترطت: تقرؤهما ثم تسلّمهما لي.

وافقتُ على الفور.

لكنها تراجعتْ بعد ذلك واستردتْها، فكلّما مرّت من أمامي رأت دموعي تلمع على خدَّي. في البداية تظاهرتْ بأنها لم تنتبه، لكنها لم تستطع منع نفسها من ذلك حينما رأت دموعي تتساقط على صفحات "الآمال الكبيرة":

- مين إللي مات لا سمح الله من حبايبك حتى تبكي عليه لهذا الحدّ؟

بعد يومين، رأتْني أكثر حزنًا، مثل نبيل، فأعادتها إليّ وهي تحذّرني: أوّل دمعة بشوفها في عينك برجع باخذهم.

ورأت دموعًا كثيرة، وغضّت النظر عنها.

***

.. وجاء اليوم الذي أصبحتُ أدعوه: يوم إطلاق سراحي؛ كنتُ سعيدًا رغم حزن الرّوايتين اللتين قرأتُهما، كما كتبتُ الكثير في الدفتر الذي أحضرتْه نور هديةً، مع أن كلّ ما كتبته فيه متعارضٌ مع ما كتبتْه نور عن الحرية؛ كتبتُ عن الظلام والزّوايا، والقيود، وانهمر الحزن الكبير الذي يغمر الروايتين مُضاعِفًا حسّيَ بالوحدة.

كلّ من هناك كانوا يترقّبون يوم عودتي إلى حالتي الأولى، أخواتي، إخوتي، عمّتي، قاسم، بشير، نور، ونبيل الذي كان يطرق بابنا ليطمئنّ، فيلقي عليَّ نظرة ونصف ابتسامة حزينة من أمام الباب ويغادر، وكان أبي حاضرًا، فهو الذي طلب أن يتمّ تخليصي من الضّمادات بوجوده.

لم يتأخّر الطبيب الشعبيّ العجوز؛ جاء في موعده، لم يجعلني أنتظره على أحرّ من الجمر، كما يقال، مع أنني لم أنم كما يجب في الليلة السابقة، وكلّ غفوة غفوتها حلمتُ بها، إما أنني أركض، أو أنني أطير، ولعلّ الطبيب لم ينم أيضًا لأنه كان بحاجة لمكافأة نجاح العملية.

بعد أن طلب منّي أن أحرّك أصابعي، وحرّكتُها أكثر مما طلَب، كما حركتُ أصابع يدي الأخرى دون أن أنتبه لذلك؛ برفْق أبعد الضّمادات.

- سليمة إن شاء الله، قال وهو ينظر إلى وجه أبي وابتسامة هرمة على طرَفَي شفتيه اللتين يكاد شعر لحيته وشاربيه أن يُخفيهما.

رأيتُ يدي بيضاء كوجوه الميتين، يدي التي لم ترَ الشمس ولم يمرّ عليها الهواء، يدي التي عاشت طوال الوقت مختنقة تحت قطع الخشب الرّقيقة والقماش الملون ورائحة البيض القوية.

تحسسَ مِرفقي بأصابع بدت لي خبيرة، وأعاد:

- سليمة إن شاء الله.

طلب منّي أن أثني يدي، لكن يدي لم تستجب لي، وحاولتُ ثانية وثالثة. كانت قد تحوّلتْ إلى قطعة واحدة كأنها خُلقتْ بلا مِرْفَق.

الطبيب العجوز حاول أن يساعدني، لكنه أدرك أن يدي لا تطاوعه.

- "خير يا شيخ؟"، سأله أبي.

- "سليمة إن شاء الله"، أعاد.

طلب ماءً ساخنًا، فطال الزّمن كثيرًا قبل أن يضعوه أمامه في علبة السّمن التي يتصاعد منها بخار لاهب.

وكما فعل في المرّة الأولى، عرَّض مِرفقي للسّخونة المتصاعدة، حاول أن يثنيها دون جدوى. لم تستجب.

نظرتُ إلى يد قاسم الغائبة، خِفتُ.

طلب الطبيب العجوز من الجميع أن يخرجوا، فخرج نبيل أولًا، وتبعه قاسم وبشير، وذهبت أمّي وأخواتي وإخوتي إلى الغرفة المجاورة، وتلكأتْ نور؛ لم تكن تريد المغادرة، لكن نظرة رافقتها هزّة رأس خفيفة، لطيفة، من أبي، جعلتاها تستدير بهدوء وتخرج.

طلب الطبيب العجوز من عمّتي، التي بقيت هناك، قليلًا من الماء البارد، وضعه فوق الماء السّاخن على مراحل، وهو يتحسّس سخونة الماء. التفتَ إلى أبي وطلب منه أن يساعده، فبدأ فصل عذاب رحتُ معه أصرخ.

بكلّ ما لديه من قوة طوى يدي ببطء، وهو يعمل على أن يُدخِل مِرفَقي المتصلِّبَ في علبة السّمن، داخل الماء السّاخن.

بعد زمن، خلْته سنوات، انثنى مرْفَقي ولامس قعر العلبة، لكن سخونة الماء لم تكن قادرة على تخدير ألمي أبدًا.

بعد زمن أخرج العجوز مِرفَقي، كان متصلِّبًا كرأس حرْبة، حرَّكه قليلًا، ثم جعله في وضع زاوية قائمة، وأنا أصيح، وأعاد تضميد يدي وتعليقها في رقبتي.

وهو يردِّد:

سليمة إن شاء الله.

40

فوجئ موظف المكتبة النَّحيل ما إن رفع رأسه ووجدني أضع ديوان إبراهيم طوقان فوق الحاجز الخشبي الذي يحجب جسمه، إلّا رأسه، عن رواد المكتبة.

- توقعتُ أن تعيده بسرعة أكبر.

أشرتُ إلى يدي المعلّقة في رقبتي، فقال لي بتأثر شديد:

- الآن عرفتُ السبب، ألف سلامة عليك.

- الله يسلّمك.

- هل أحببتَ الديوان؟

- أحببته إلى درجة أنني تمنّيتُ لو كان لي.

- هو لكَ، مثل قصيدتكَ التي تكتبها؛ هي لكَ، ولكنها للناس أيضًا.

لم أفهم كلامه، وإن كنتُ أحسسته.

- هل تعتقد أنك ستكتب قصائد بجودة قصائده في يوم ما؟

- ليس سهلًا.

- ومن قال إن كتابة الشّعر سهلة؟

- هل تعتقد أنني سأستطيع؟

- ألم أقل لك في المرّة السابقة، تذكّر دائمًا أن إبراهيم طوقان لم يكن يعرف أنه سيكون إبراهيم طوقان الذي نعرف، حين كان بعمرك. إذا أردت أن تكون شاعرًا في المستقبل، فإن عليك أن ترى نفسك شاعرًا منذ الآن، وأن تسعى كلّ يوم لذلك.

- هل تعني أن أكتب شِعرًا كلّ يوم، وأن أقرأ أكثر وأكثر؟

- ليس هذا فقط، عليك أن تنتبه، وترى ما حولكَ جيدًا، فهناك شعراء يكتبون الشِّعر، وهناك شعراء يعيشون الشِّعر، وهناك من يروْنه ويكتبونه. هل تعرف أن السّماء شِعر؟ بل مليئة بالشِّعر؟ والمطر قصيدة؟ كلّ شجرة قصيدة؟ وكلّ كائن في هذا العالم قصيدة، بل عشرات القصائد، ولكن هناك

من يستطيعون قراءتها، وهؤلاء يملكون قلوبًا وعيونًا وعقولًا، وهناك من يسمعونها، حتى لو كانوا فاقدين لبصرهم، وهناك من لا يروْنها؛ هؤلاء، لا قلوب لهم ولا عيون.

بهرَني كلامه، رغم أنني لم أُدرك معانيه كلّها، فهمستُ لنفسي: هذا لأنه قرأ المكتبة كلّها، فعلًا.

- "ليس هذا بسبب القراءة وحدها"، قال لي، "فأنا هنا آتي صباحًا وأخرج مساءً، ونادرًا ما أجتمع أنا والشمس أكثر من مرّة في الأسبوع، أي يوم الجمعة، عطلتي".

- ولكن كيف تعرف كلّ هذا وأنت دائمًا هنا؟

- ليس هناك مكان ضيّق في هذا العالم، هناك إنسان ضيّق، حتى الزّاوية ليست ضيّقة. صحيح أنني لا أرى العالم في الخارج كثيرًا، ولكنّ أجمل ما في العالم يأتي إليّ: الكُتّاب الذين يكتبون الكتب، والقراء الذين يحبّونها. كلّ قارئ يعْبُر هذه العتبة هو قصيدة أيضًا، وأنت أفضل مثال.

عاد إلى صمته، قبل أن يعود لهمْسه ثانية:

- الآن أحبُّ أن أعرف اسمك.

41

تكاثرتْ زياراتي لخالي محمود، بيدي المعلّقة. كان يحدثني عن شاب يحبّ فتاة جميلة، رائعة، لكن الصعوبات التي يواجهها تتزايد محطمةً قلبه. ويسرح بخياله للبعيد قبل أن ينفض رأسه مُتذكّرًا أنني أمامه، يسألني:

- "هل تُدّخن؟"، وهو يمدّ يده إليّ بسيجارة من ماركة "كمال".

- لا، لا أدخِّن.

- ممتاز، كنتُ أختبركَ، أنا الآن مطمئن أنك لن تدخِّن أبدًا في حياتك.

- كيف تعرف أنني لن أدخِّن؟

- أنت ترفض السيجارة، مع أنكَ تعلم أنني لن أُخبر أحدًا إذا دخّنتَ.

وصدق خالي، لم أدخّن، ولم يكن لذلك علاقة بأبي، أبي الذي يعمل في شركة السجائر التي كانت تنتج ماركة "كمال" وماركة "ريم" و "فيلادلفيا" أيضًا، وغيرها من الماركات، ولكنه، لا يدخّن، وسنعرف في ما بعد أنه لو دخّن لما تضرّر ربما، كما تضرر من غبار التّبغ نفسه.

امتدتْ يد خالي خلف سريره المعدنيّ، وحين أخرجها، رأيت زجاجة، قرّبها إلى فمه وأخذ جرعة، نفض رأسه، وقال لي:

- أنت تحفظ السِّر، أليس كذلك؟ لا أحد من هذه العائلة يعرف بهذا، إذا عرفوا، فستكون أنت من أخبرهم، ولكنني لا أظنّك ستفعل.

ضحكتُ وأنا أستعيد تحذير خالي بعد سنوات طوال؛ كنت سأسافر لحضور مؤتمر أدبيّ في السّويد حيث يُقيم، يومها قالت لي أمّي:

- أولًا؛ سلِّم لي على خالك كثيرًا. وثانيًا؛ إياك ثم إياك أن تشرب من شايه الأحمر الذي يضعه في القنينة.

ضحكَ خالي حين أخبرته بما أوصتْني به أمِّي، وقال:

- كنت أعتقد أنني أضحكَ عليها، كنت أعتقد أنها كانت تصدّقني.

42

اقتربتُ من أُمي، دون أن أتجاوز حدود مسافة الأمان، وقلتُ لها:
- أريد أن أوشوشكِ.
- وشوشْني من بعيد.
- يجب أن أوشوشكِ من قريب، لا أريد أن يسمعنا أحد.
- تعال، بَسْ خلّيكْ بعيد.
اقتربتُ، حين أصبحتُ على بعد متر منها، قالت:
- عندك. قلْ ما تريد من عندك.
- اسمحي لي أقترب أكثر.
- عندك.
سيسمعنا الجيران.
- "عندك"، قالت بحزم أكبر.
فتحتُ فمي على آخره، وصرختُ بأعلى صوتي:
- لا تتأخَّري يا فدوى، أنا بستناكِ.
وهربتُ.

43

في ذلك المساء وصل خالي الكبير.

في ذلك المساء، لم يكن أبي هناك بالطبع، لأنه يعمل حتى العاشرة ليلًا، وأحيانًا حتى منتصف الليل، لذا، انفرد خالي بأمّي، وبعد مقدّمات كثيرة قال لها:

– مسكين زوجكِ هذا الذي يعمل ليلَ نهار، أظنّ أن على ابنك الكبير أن يساعده.

أمّي التي تفهم الأمور "على الطاير" كما يقال، حسمتِ الأمر بجملة رائعة:

– يساعدُ أباه إذا أكمل دراسته ونجح.

– يا عايشه، ما هذا الحكي؟ تلزمه سنوات من الدّراسة حتى يتخرّج من المدرسة. أنتم بحاجة إليه الآن، أكثر من أيّ وقت، وأنا أتعهّد بأن أجد له عملًا في مؤسسة الاتصالات، في البريد، بعد أن يُنهي سنته الدّراسية هذه، أي بعد شهور، وسأعمل على أن يكون موظفًا دائمًا، وربما نزوِّجه بعد سنتين أو ثلاث، لتفرحي به.

أمِّي التي التقطتْ فكرته "على الطاير" مرّة أخرى، أدركتْ أن العروس ستكون واحدة من بناته، انتفضتْ وقالت: ابني لن يترك المدرسة، وسيذهب إلى الجامعة.

– يا عايشة، لا تضحكي على نفسك، من أين ستحصلون على المال الذي ستدفعين به أقساطَ جامعة؟

في تلك اللحظة، وقفت أمّي، كما أخبرتْني وأخبرتْ أبي، وقالت له، وهي تهزّ حزامها العريض حول خصرها:

– شوف يا أخوي، الذي قال لك إننا فقراء ولا نملك مالًا، خدعَك، إذا هززتُ حزامي هذا سيسقط منه ألف دينار، عدًّا ونقدًا، الآن، على ابني أن يدرُس، وعليَّ أن أدفع تكاليف دراسته. إن كنتَ بحاجة إلى المال، فأنا سأعطيك، أما الولد، فلن أعطيك إياه أبدًا.

***

على الرغم من أن خالي الكبير كان جبّارًا، لا يجرؤ على الوقوف في مواجهته أحد، إلا أنه خضع لأُمي في ذلك المساء، أو ادّعى ذلك، لكنه لم ينسَ الأمر تمامًا، إذ راح يكرر ما قاله عن توظيفي في فترات متباعدة، إلّا أن أمّي لم تعد تُشهر سلاح الألف دينار، بعد أن أشهرتْه في وجهه في المرة الأولى، صارت تكتفي بالصمت، وكأنها مَلِكة، وكلام الملوك لا يُعاد، كما قالوا، وما زالوا يقولون.

خالي الكبير راح يهمس لي، بين حين وحين، بعيدًا عنها: يا خال، أنا أفكِّر في مصلحتك؛ هل هناك شخص يمكن أن يحبك أكثر من شخص يريد أن يعطيك وظيفة ويزوِّجك أيضًا؟

أمّي أعادت تلك الحكاية كثيرًا بحضور أبي، وكأنني حصانها الذي تراهن عليه، أما أبي فكان سعيدًا بكلّ ما قالته، لأن العِلم بالنسبة إليه هو البداية التي لا بدّ منها لكلّ شيء.

نور التي أخبرتها بما حدث، علّقت بأربع كلمات حاسمات:

- أنا لستُ خائفةً عليك.

***

منذ ذلك اليوم، لم يعد حزام أُمّي يغيب عن عينَي، أو خيالي؛ صار الكنز الذي سيفتح لي أبواب الجامعة مستقبلًا، لذا، سأراقبه بانتباه، خائفًا أن يسطو عليه أحد.

وستركض الأيام، ويغدو الحزام المفاجأةَ الأكبر.

44 مكتبة

بعد زيارة خالي الكبير، وعرْضه، أصبحت أمّي أكثر رقّة معي، أو هكذا خيِّل إليّ، هي التي حسمتْ أمر دراستي باعتباره الشيء الأكثر أهمية، وعلى رأي أبي: أكمِلْ تعليمكَ ثم افعل بعد ذلك ما تريد.

أسندتْ أُمِّي ظهرها إلى الحائط، تحتها فرشة إسفنجية بغطاء أخضر، ووراءها حائط دهنّاه بالأزرق السّماوي، إلى ارتفاع متر ونصف المتر، ثم يأتي خطّ أخضر كزنّار فوقه مساحة بيضاء تمتدّ حتى السّقف.

نظرتُ إليها، قويّة رغم نحولها، وجميلة، رغم أن أقارب أبي لم يروْها كذلك، قبل، وبعد زواجها، مقارنة بخالاتي، وليس خالتي آمنة الشقراء، وحسب.

حولها جلس إخوتي وأخواتي، دائرة يُكمِلها جسدُها، ويتوسّط تلك الدائرة بطنُها المندفع إلى الأمام، مثل حصان سباق على وشك الانطلاق.

كنت أجلس في زاوية على يسار الباب، وحدي، غير متنبِّهٍ إلى أن أيَّ شخص يمكن أن يفتح الباب، سيكسر يدي الثانية، ويُلصقني بالحائط.

التفتتْ إليّ أمّي، وقالت:

- اقترب، مع وجود يد معلّقة في رقبتك، لن تسمع حكاية جدِّك "عَليّ"، وأنت بعيد إلى هذا الحدّ.

فكّرتُ: "لعلها لانَتْ، ولا مانع لديها من أن تُحقِّقَ أُمنيتي".

تسلل برقُ يوم ممطر في غير موعده من تحت الباب، وأرعدَتْ، فاهتزّت الغرفة كلّها.

كنّا نخاف الرَّعد في داخل البيت، نتوقّع أن يهدمه فوق رؤوسنا، ونخاف البرق خارج البيت، ونتوقّع أن يحوِّلنا إلى فحم، فالحديث المستمرّ عن موت الناس بسبب صواعقه لم يكن ينقطع طوال الشّتاء.

في تلك الليلة لم نعرف أيّ حكاية شعبية تلك التي سترويها لنا. فقد سبق وأن حدَّثتنا كثيرًا عن: نُص نْصيص، وجبيْنَة، وبقرة اليتامى، والطير

الأخضر، والعنزة العنيزة، وقصص أخرى، ولم يعد لديها ما يمكن أن تقوله، بدليل أنها كانت تعيد القصص مرّة تلو أخرى، دون أن تنسى إدخال تفاصيل جديدة، من خيالها بالتأكيد، تجعل القصص كما لو أنها جديدة.

تلك الليلة قالت:

- سأروي لكم قصَّة لم يسمع بها أحدٌ، قصة لا يعرفها سوى ثلاثة: أنا وأبي وأُمّي، يعني جدّكم "عَلِيّ" وجدّتكم "خَضْرة"، وإذا سألتم لماذا لا يعرفها غيرنا، فسأقول: لأن جدّكم حاول ذات مرّة أن يرويها لخالاتكم وأخوالكم، فضحكوا كلّهم، إلّا أنّا، لذا، رواها لي بعد خروجهم. تلك القصة أكَّدتْها جدَّتكم، التي كانت بطلتَها، كما كان جدّكم بطلها. وعليَّ أن أُنبّهكم إلى أن كلّ من سيشكّ في القصة، عليه أن يذهب إلى الغرفة الأخرى، ويبقى هناك إلى أن أختِمها. هل أنتم موافقون على هذا الشّرط؟

- موافقون، أجبْنا.

لم يضحك أيّ منا، كنّا نتابع القصّة بكلّ ما فيها من أشياء غريبة، عن جدّي الذي كان يملك حقلًا عجيبًا ونخلة أعجب، وجَمَلًا أعجب وأعجب، قبل أن يتزوّج أبوه من أمّه.

لن أبوح بتفاصيل القصة هنا، مع أنني كنتُ أريد أن أكتبها، ليقرأها من يقرأ هذه الفصول، لكنني حين بدأت بكتابتها: قصة أمّي، راحت تطول، حتى تجاوزت المائة صفحة، وهكذا توصّلتُ إلى قرار، أن أكتب حكاية جدّي وحقْله العجيب ونخلته الأعجب، وجَمَله الأعجب الأعجب، في كتاب مستقلّ، فتكون هذه الرواية حكاية الحفيد، الذي هو أنا، وتكون الثانية حكاية الجدّ.[6]

***

في ذلك اليوم أدركتُ، أكثر من أيّ يوم، أن أُمّي مؤلِّفة عظيمة، أُمّي التي كانت تراقبنا طوال الوقت، لمعاقبة من لا يُصدّقها بإرساله إلى الغرفة الصغيرة المجاورة.

أحببتُ تلك القصّة، أحببتها فعلًا، وحين انتهتْ سألتْنا: ما رأيكم في ما

---

[6] – عنوان الرواية "شمس اليوم الثامن".

سمعتم؟ فقلنا بصوت واحد:

- أحببناها.

فسألتْني، بشكل خاص:

- وأنتَ؟

- أحببتها أكثر منهم جميعًا.

- تحاول أن تأكل بعقلي حلاوة؛ تُسمِعُني ما أريد.

- أبدًا، قصّتكِ أحلى من كلّ الأفلام.

- أفلام؟ وماذا تعرف أنتَ عن الأفلام؟

- لا شيء، فقط أسمع عنها.

- أنت لا تذهب إلى السّينما من ورائي؟

- أبدًا.

- قال أفلام، ثم التفتتْ إلينا وقالت: أحذّركم منذ الآن، لا أريد أن تتحوّل قصصي التي أقولها إلى أفلام، السّينما ميوعة، أفهمْتُم؟

- "فهمْنا"، قلنا لها بصوت واحد.

- هيا إلى النوم، كي لا تتأخّروا عن مدارسكم غدًا.

***

تأخّرتُ في النهوض، إلى أن ذهب إخوتي إلى الغرفة الثانية، وتقدَّمتُ منها وهمستُ: لماذا قلتِ إن السّينما ميوعة؟

- ألا تعرف لماذا؟ لأن عليهم أن ينتبهوا إلى دروسهم، فكلّ مَن سمعتُه يتحدّث عنها كان يتمنّى أن تكون السّينما بيته الدّائم.

وقلت في نفسي: "والله معها حقّ".

- ثم إن لعائلتنا مع السّينما ذكريات، الله لا يعيدها.

- أيّ ذكريات؟

- الآن إلى النّوم.

نهضتُ، حريصًا على أن تمرّ تلك الليلة الجميلة بسلام، بخاصة أنني سمعتُ تفاصيل كثيرة من القصة العجيبة الحزينة لخالتي آمنة مع السّينما، والتي لا بدّ أنها تقصدها.

45

كلّ العائلة كانت تنتظر اليوم الذي ستعرف فيه مصير يدي المُعلَّقة.

وصلَ الطبيب العجوز. كلّ القلوب تخفق بشدة. دخل، نظرتُ إلى نور، كانت تغرس أصابع يديها في شعرها الأحمر، وتحدّق إليّ.

الطبيب العجوز أحسّ بقلقنا، فقال:

– إن شاء الله سليمة هذه المرّة.

وبدأ العمل بسرعة، كما لو أنه يهربُ.

أكثر بياضًا بدت يدي، خفتُ، فلسبب ما، بتُّ على يقين من أن يدًا بيضاء إلى هذا الحدّ نصف ميتة على الأقل.

طلب مني أن أحرّك أصابعي، ولم تكن لدي مشكلة في أن أفعل ذلك أصلًا، ثم طلب مني أن أمدّ يدي، حاولت، ولم أستطع، زاوية قائمة عنيدة بقيتْ.

بدأ الخوف يظهر على ملامح الطبيب العجوز، طلب ماء ساخنًا، فأدرك الجميع أن فصل العذاب قادم.

الغريب أن أحدًا لم يعترض، لم يقُل: "هذا يكفي، وإن الوقت حان ليراني طبيب عظام"؛ ربما لأن سمعة ذلك العجوز كانت جيدة، ولم يسبق لأحد أن اشتكى منه.

وثالثة راحت يدي تُحشَر ببطء في علبة السّمن، كنت أريد أن أصرخ، لكن نور كانت هناك. فجأة وقفتْ وخرجتْ، وعندما قدّرتُ أنها تجاوزت عتبة الباب، صرختُ.

عشر دقائق ظلَّتْ يدي في الماء الساخن، وأنا أتساءل هل ستعود نور، أمْ لا.

عادت.

ببطء، أيضًا، بدأ الطبيب العجوز يحرّك يدي إلى أن استقامتْ، فعاد وثناها. خمس مرّات كرّر الأمر كأنّه يدرِّبها، والعرقُ يتصبّب من جبينه

وينحدر على رقبته، فيمسحه بطرف حطتّه.

- سنتركها هذه المرّة دون أن نضع عليها أيّ شيء، ولكن عليك أن تنتبه لما تقوم به.

ما قاله الطبيب جعلني أحسّ أنه يُحمِّلني، أمام الجميع، المسؤولية عن مصير يدي، وهو المسؤول عنها منذ البداية.

خرج دون تلكؤ ، كما لا يفعل عندما يريد أن يقبض أتعابه.

أحسستُ أنه يهرب، في الوقت الذي كنت أريد أن أصرخ:

- أريدُ يدي.

***

طلبتْ عمّتي أن يسمحوا لي بالنوم في بيتها. كانت حجّتها أن بيتنا ضيّق، وتخشى أن يتسبب واحد أو واحدة من إخوتي وأخواتي بضرر ليدي، عن دون قصد أثناء النوم.

لم يقل أيّ منّا إن الضّرر الأكبر سيقع إذا نمتُ بجانبها.

- "سأتركه ينام في فراش خاص به"، قالت.

فهدأت المخاوف كلّها.

بعد يومين تمكّنتُ من تحريك يدي بصورة لا بأس بها، تفحَّصتْها عمّتي، ابتسمتْ، وطلبتْ منّي أن أذهب للنوم في بيتنا، فعرفتُ أن المصريّ سيزورها، وكنّا في تلك الأيام ننتظر ظهور علامات حمْل عليها، لكن ملاحظة شيء كهذا كانت صعبة بسبب سُمنتها.

46

أكثر الأيام حزنًا كان ذلك اليوم الذي علِمْنا فيه، أنا وبشير أن قاسم سيسافر إلى الكويت، بعد السنوات الطويلة التي أمضاها مع جدّته، جدّته التي راحت تبكي وتردّد:

- لماذا تأخذون ابني منّي، لماذا تحرمونني منه؟

لم يكن قاسم فرحًا أيضًا، فهو لا يعرف في الدنيا غير مَن عرَفهم في المخيم.

بعد سنوات سيقول لي:

- إن سفري إلى الكويت كان أسوأ ما حصل لي، صحيح أنني حلمتُ بأن أكون ابنًا حقيقيًّا مع أُمٍّ حقيقيّة وإخوة حقيقيين، لكنني لم أستطع، فلم أتحدّث مع أي واحد منهم داخل البيت. أحيانًا كنت أتحدّث مع أخ أو أخت خارج البيت، حين لا تكون أُمِّي معنا. أصارحك، بعد أقلّ من أسبوعين، أصابني حسّ أنني فقدتُ يدي الثانية، حين فقدتكم.

وعاد وحدّثني عن كون أُمِّه لم تقُل له: يمّه، أو لأي من أخواته وإخوته، بل لم تطلب منه شيئًا، وفسَّر ذلك: ربما لأنها لا تريد أن تقول لي تلك الكلمة.

***

قاسم الذي جعلته الهموم أكبر سنًّا منّا، وهو أصغرنا، قال لي ولبشير قبل أن يسافر:

- أظنّهم سيعيدونني إلى جدّتي وإليكم ثانية، سيملّون مني بسرعة.

لم يعُد قاسم.

في يوم الرّحيل، طلب منّا أن نسمح له بأخذ رواية البؤساء معه، تلك الرواية التي كانت واحدة من بين ثلاث أسّسنا بها مكتبة مشتركة وضِعَتْ فيها الروايتان اللتان أهداهما لي والد نور أيضًا. كنّا سنعطيه كلّ الكتب الأخرى لو طلبها. في ذلك اليوم أهدانا أغلى ما يملك، الجلول، مع أننا كبرنا عليها. كان عددها أكثر مما نتخيّل، لأنه كان الرابح الدائم، هو الذي عاش

بيننا ولا شعور لديه غير أنه الخاسر الأكبر، خاسر يده وخاسر أمّه وجاهز للخسارات التي تنتظره مستقبلًا.

سِرْنا معه، ومع والده، حتى موقف الحافلات، أمام مقرّ "نادي الوحدات". عانَقَنا بيد واحدة، وقال إن هذا نصف وداع.

في تلك الساحة التي تعجّ بالدخان وأصوات باعة الخضار وأعين الجالسين في المقهى المطلّ على كلّ شيء هناك، بقينا نُلوِّح له والحافلة تبتعد، تمامًا كما كنّا نرى ذلك في الأفلام، لكننا لم نكن نمثّل، كنّا ممتلئين قهرًا، وعندما اختفت الحافلة، نظرتُ إلى يدي اليمنى، وكم ارتعبتُ؛ لم أجدها.

***

فراغ كبير أحسسنا به بعد سفر قاسم؛ كلّما التقينا أنا وبشير، صمتْنا. أحيانًا كنتُ أصل باب بيته وأستدير عائدًا.

لم يعد هناك شيء مستقرّ، لا في داخلي ولا حوْلي؛ أعضائي تتعارك، كلّ منها يحاول طرْد الآخر خارج جسدي.

كان عليَّ أن أفعل شيئًا، لا أعرف ما هو، كي أستطيع التّنفس، كي أستطيع إيجاد مخرج للضّيق الذي لا أعرف سببه تمامًا، أنا الذي عادتْ يده المصابة إلى طبيعتها.

47

لم يزرنا المصريّ سوى مرّة واحدة بعد زواجه من عمّتي، في تلك المرّة حرص أبي على أن يُكرمه، فطلب من أمّي أن تشتري لحمًا لـ "المقلوبة" التي ستُعِدّها، لا دجاجًا كما جرت العادة في تلك الأيام، بسبب ضيق اليد.

كانت زيارات الضيوف بالنسبة لنا لا تقلّ أهمية عن عيد الفطر وعيد الأضحى؛ فهي فرصتنا الاستثنائية لتناول قليل من لحم الدجاج، المتبّقي، بعد أن يأكل الضيف.

المصري كان يحاول ما استطاع ألّا يلتقي أحدًا، ولو مصادفة، لذا، كان يأتي إلى بيته كأنه متسلّل، مع أنه ليس مضطرًّا لذلك، فالفدائيون وأسلحتهم أصبحوا جزءًا من حياة المخيم بسرعة، أسلحتهم التي تتأرجح على أكتافهم وتصطدم بخصورهم، بحيث لم يعد أحد يملأ عيون الفتيات غيرهم.

ذلك بالتأكيد دفع كثيرًا منّا للالتحاق بدورة تدريب الأشبال، المخصصة، عادة، لمن أعمارهم أقلّ من خمسة عشر عامًا.

هل وصفتُ المصري؟ أظنّني لم أفعل.

كان شابًّا وسيمًا، متوسّط الطول، مهتمًّا بلباسه، رغم البؤس المحيط به، حريصًا على أن يبدو مثل الممثّلين. أهم ما فيه ابتسامته، لكنها اختفتْ بعد معركة حزيران، فحلّت مكانها مسحة من أسى، شفافة، مثل دمعة عالقة بنهاية قصيدة حزينة.

صحّته التي تدهورتْ، عادت وتحسّنتْ بعد زواجه من عمّتي، وإن كانت عمّتي، مازحةً، تعيد الفضل في استرداده لقوته من جديد إلى مقلوبة اللحم التي أعدَّتها أمّي.

فيه سُمْرة المصريين، لكنّه جادّ لا يضحك، ولا يحبّ النّكات، مثل معظم الفلسطينيين بعد الحرب.

***

عرفنا أنه كان يأتي بسلاحه، فكلّ من أمسك سلاحًا في تلك الأيام تشبّث

به كما يتشبث بروحه، في وقت أصبح فيه السلاح هو الكلام الأكثر وضوحًا كي يقول الإنسان لمن حوله أنه لم يُهزَم، ولن يستسلِم.

ذات ليلة، وأنا نائم، خُيّل إليّ أنني سمعتُ كلامًا باللهجة المصريّة، لم أفتح عينَي، اعتقدتُ أن أبي يستمع لإذاعة "صوت العرب"، الإذاعة المصرية الأشهر عربيًا في تلك الأيام، ولم يكن يلفتُ انتباهنا بعدها غير الـ "بي بي سي"، التي كانت تحتل المرتبة الثانية.

بعد قليل، أحسستُ أن الحوار الدائر فيه لهجة مصرية، ولأن الحديث كلّه هامس، لم أتبين من يكون صاحب الصّوت.

استمرار الهمس وحرارته، دفعاني لأن أفتح عيني.

كان أبي والمصريّ أمام الباب في الخارج. استغربتُ وقوفهما في البرد، مع أنني أعرف أنه من الصعب أن يجد المصريّ مكانًا لقدميه لو أراد الوقوف، وليس الجلوس، في الدّاخل.

- "على موعدنا الأسبوع القادم"، قال أبي للمصريّ.

- على موعدنا.

في ذلك الليل، وقبل أن أعود وأغمض عينَي، لمحت سلاحًا في يد أبي، وهو يسير، محاذرًا ما استطاع، ألّا يدوس على طرف واحد مّنا، مستعينًا بضوء القنديل الخافت.

عندما رفع قدمًا في الهواء ليتجاوزني، سقط حزام البندقية وأصاب وجهي. تجمّد أبي في مكانه، وحين اطمأنَّ إلى أنني لم أصحُ، أكمل طريقه. فتحتُ عينَي قليلًا، فرأيته يخبئ البندقية تحت حامل الفرشات والّلحف.

***

سِرُّ أبي ذاك، سيبقى في بئري العميقة، لأنني لم أكن متأكدًا أن غيري يعرفه. لم أقل لأمّي شيئًا، ولم أقل لنور أيضًا، ولكنني كنت أتحدّث كثيرًا حول هذا الأمر مع نفسي، محاولًا أن أفهم لماذا ينهاني أبي عن حمْل السلاح في وقت لا يتردّد فيه هو في حمْله. أما المصريّ، فلن أراه تحت ضوء الشمس، بعد تلك الليلة، سأراه، أو أرى شبحه عدة مرّات، أمّا وجهه الواضح وابتسامته القديمة فسأراهما، تحت شمس أخرى، مرّة واحدة، بعد شهور.

48

بعد أن باتت أُمّي متأكّدة من أنها حسمت معركتَها مع خالي الكبير، واطمأنتْ لذلك، عادت للتشبّث بقرارها: "ولد يعني ولد".

بتُّ أخشى أن تهزمني في معركتي معها، معركتي التي كنتُ مضطرًّا لخوضها.

جدّتي قالت لي أكثر من مرّة:

– إن أمّك كانت تحدّد اليوم الذي تلِد فيه، وحين يأتي ذلك اليوم فإنها تلِد فعلًا. في البداية، لم نكُن نُصدِّقها، لكننا الآن نُصدِّق كلّ كلام تقوله إذا تعلّق بجنين في رحْمِها.

– هل يعني هذا أنها ستُنجب ولدًا؟

– لا أريد أن أخدعكَ، لقد قلتُ لكَ ما كنتَ تعرفهُ عن مواعيد ولادتها، حتى لا تحزن إذا أنجبتْ ولدًا، أو اثنين.

– ولكن إذا كان ما في بطنها، الآن، بنتًا، فلن تستطيع أن تجعلها ولَدًا.

– لا لن تستطيع، أنا قلتُ لكَ ما قلتُ لأنها تحسّ بما في داخلها، لكن الله وحده يعلَم.

كنت حزينًا، رغم فرحي الكبير بديوان إبراهيم طوقان الذي استعرته مرّة ثانية، الديوان الذي أخفيتُه، كي لا يبتلّ، تحت ملابسي، فوق قلبي، بل في قلبي. كنت متأكدًا من أنني حين أُعيده ستظلّ النسخة الأصلية منه في صدري، أما النسخة التي سأضعها أمام موظف المكتبة، فستكون نسخة الكربون.

موطني
الجَلالُ وَالجَمالُ
السَناءُ وَالبَهاءُ في رُباك

وَالحَياةُ وَالنَجاةُ
وَالهَناءُ وَالرَجاءُ في هَواك
هَل أَراك
سالماً منعَّماً
وَغانِماً مكرَّماً؟
هَل أَراك
في عُلاك
تبلغ السِّماك؟
موطِني
مَوطِني
الشَباب لَن يَكلَّ
همُّهُ أَن تَستقلَّ أَو يَبيد
نَستَقي مِن الرَدى
وَلَن نَكون لِلعِدَى كَالعَبيد
لا نُريد
ذلّنا المُؤبّدا
وَعَيشنا المُنكّدا
لا نُريد
بَل نَعيد
مجدَنا التَليد
مَوطني
موطني
ما إن أنهيتُ قراءة القصيدة، حتى بتُّ على يقين من أنني سأصبح شاعرًا.
نظرتُ إلى السّماء وقلتُ:
- سأكون.
نظرتُ إلى بطن أمّي وقلتُ:
- سأكون.

49

وصلتْني أخبار عن حديث دار بين جدّتي وبين أُمّي. جدّتي كانت ترجوها: "لا تكسري خاطر الولد، لا تنسَي أنه الكبير، وأنكِ عانيتِ الكثير قبل أن يأتي بعد موت أخيه، يا عايشة لديك ستة أولاد، وثلاث بنات، ما الذي يمكن أن يحدث لو أنهنَّ أصبحن أربعًا؟".

وعلمتُ أن أمّي أصرّتْ: "لقد قلتُ إنني سأختتم حمْلي وإنجابي بولد، ورجوتُ الله كثيرًا أن يُساعدني في هذا، فماذا أقول له: "تراجعتُ؟"، هذا لا يجوز، ثم إنني لست طفلة لأطلب شيئًا وأُغيِّر رأيي لمجرّد أن ابني يريد أن أُنجِبَ له أختًا أخرى. يمكن أن تخبريه -وأنا أعرف أنه قُرّةُ عينكِ- أن باستطاعته أن يُطلِق اسم "فدوى" على أيّ من أخواته الثلاث، ولو أدّى الأمر إلى الذّهاب إلى المحكمة لتغيير اسم التي سيختارها.

- ولماذا لا تقولي له هذا بنفسك يا عايشة؟

- لأنني تعبتُ منه ومن إصراره؛ إنه لا يريد إلّا ما في رأسه، ولكن ربما تستطيعين أنتِ إقناعه.

- وما الذي تريدينه أنتِ؟ ألستِ تريدين ما في رأسكِ أيضًا؟

***

- حتى لو نزلَتْ إلى المحكمة وغيّرتْ أسماء أخواتي الثلاث، وأصبحن كلهنّ يحملن اسم "فدوى"، فلن أقبَل. هكذا سأغشُّ الشِّعر، أريد "فدوى" أصليَّة، مش تقليد.

إصراري لم يكن مفاجئًا لجدّتي التي أخبرتْني أنها عرفتْ إجابتي قبل أن تسمعها منّي، ولكن كان عليها أن تحاول، فهي تحبّني، وتحبُّ أُمِّي.

همستْ لي إن موضوع تغيير أسماء أخواتي ليصبحن "فدوى" لم يدخل رأسها، وسألتْني: "أتعرف لماذا؟"، فأجبتُها "لا"، فأخبرتْني أنها سألتْ أخواتي، وأخبرْنها أنهنَّ متمسّكات بأسمائهنّ، ولن يتنازلن عنها، حتى لو تدخّلتِ المحاكم.

كنتُ يائسًا، بحجم حبّي لقصائد إبراهيم طوقان، وفرحي أن هناك شعراء على قيد الحياة.

صمتتْ جدّتي طويلًا، إلى درجة حسبتُ معها أنها لن تتكلَّم بعد ذلك أبدًا. احترمتُ صمتها، وحاولتُ أن أُخفض صوت تنفّسي، فلعلها تُفكِّر في حلٍّ لم يخطر ببالي، فهي تعرف أكثر مني بكثير، أكثر بكثير جدًّا.

عادت من رحلة صمْتها، نظرتْ إليّ، ابتسمتْ بفرح غريب.

- هل وجدتِ الحلّ؟

- وجدتُه. المهم أن يقتَنِعَ جدُّكَ.

- ما هو؟

- سأُخبركَ، ولكن، عليّ أن أرى أُمّكَ قبل أن أرى جدّكَ.

نهضتْ، حشرتْ قدميها في حذائها المطاطيّ الأسود، وقالت:

- دير بالك على البيت، سأذهب مشوارًا قصيرًا وأعود.

***

- شوفي يا عايشة، الولد يقول لك: "حتى لو أعدتِ تسمية أخواته الثلاث كلّهن باسم فدوى، فلن يقبل". وسأقول لكِ بالمُختصر، "إذا لم تُنجبي للولد أختًا وتُسمّيها فدوى، فإنني سأنجِبُ له هذه الأخت، من رحْمي أنا".

- عمرك 75 سنة يا أمّه، وأبي عمره قرّب على الثمانين، والله ها الولد جنّن الجميع.

- لا تُذكِّريني بعمري لأنني أعرفه، ولكن إذا بقيتِ مُصرَّة، فإن عليّ أن أحاول على الأقلّ، حتى لا أَحمِل ذنْبَ هذا الولد الذي تعرفين مَعَزَّتَهُ على قلبي.

***

استهانت أُمّي بتهديد جدّتي، رغم أنني لم أكن أعرف تمامًا، إن كان يمكن لجدّة الشّاعر، لأمّه، أن تلِدَ له أختًا، لأنها في العادة تلِدُ خالةً، إلّا أن أفضل ما حدث أنني أحسستُ للمرّة الأولى أنني لست وحيدًا؛ فعمّتي، موقفها واضح: معي ومع أمّي، كما أن أبي، لا يعارض وجود ابنة رابعة له، إلّا أنه لا يقف معي تمامًا، إذ تركني أحسم معركتي، وحيدًا، مع أمّي، أما أخواتي الثلاث، فكُنّ مع وجود أختٍ رابعة، لأنهنّ أقليّة في ظلّ وجود ستةِ أبناء، كما

أن علاقتهنَّ بإخوتهنَّ تُذَمُّ أكثر مما تُمدَح، مثل علاقة معظم البنات بإخوتهنّ.
موقف نور كان مسألة مختلفة.

لم يَطُل الوقت، يومان لا غير، وإذا بابتسامة جدّتي تنكمش، وعزيمتها تضعف، وجدّي يختفي، وهي تبوح لي بأسى بكلّ ما دار بينها وبين أمّي.

- ما عدتُ أرى جدّي في البيت.

- جدّك، جدّك، جدكَ ذهب لينام في بيت خالتك زينب. قال لي:

لا تخافي يا "خضرة" عليْ... مشواري ما هو بعيد
في بيتِ زينب أنا... وهِيْ ما بتتذمَّر وتزيدْ

وعندما سألتُه: وما مشكلة بيتكَ لتنام عند ابنتك؟

رد عليّ:

بدك تعرفي الأسباب... ليش جوزك يا خضرة غاب؟
ما في عندك إذاعات... فيها سميرة توفيق
بسمعها قبل ما انام... وبسمعها لَمْنْ أفيقْ
إنسيني أكم من يوم... وخلينا يا "خضرة" صحاب.

- باختصار، جدك مُصرّ على إنه راديو زينب، مش مثل الرّاديو إللي عِنّا، الرّاديو بتاعها بيبث أغاني سميرة توفيق على طول.

50

استدار وتقدَّم أكثر فأكثر بطنُ أُمّي.
ومع كلّ يوم يمرُّ، لم أعد أرى غيره.
في الشارع أراه، وفي الصفِّ أراه، أغمِض عينَيَّ فأراه، وأحلم فأراه.
صار كبيرًا كقبة سماء صغيرة، لكنني لم أستطع أن أعرف إن كانت فدوى فيه أمْ "سمير".
أمِّي تقدّمتْ خطوة كبيرة إلى الأمام، لتسدّ الطريق عليَّ، وأطلقتْ ذلك الاسم على جنينها، ما إن أدركتْ أن معركتَها معي ليست لعبة أطفال.
تعارك الاسمان في رأسي، ورأيتهما يتعاركان في رأسها.
مع اقتراب موعد الولادة، لم أعد أكتبُ القصائد، أو ما تُسمّى قصائد وهي أقلّ من هذا بكثير حسب رأي الأستاذ سليم. أصبحتُ مشوَّشًا، مع أنني لم أتوقّف عن الذّهاب إلى مكتبة أمانة العاصمة.

***

كنتُ أختار من المكتبة ما أريد؛ أستعير كتبًا أحبُّ بعضها، ولا أحبّ بعضها، لكن كلّ كتاب كان يعلّمني شيئًا، بعض الكتب كانت مفاجأة لي.
موظف المكتبة قال لي:
- حتى الأشجار لا تقفُ في مكانها طوال الوقت.
بسرعة استعدتُ صورة شجرة التوتِ في بيتنا، كانت هناك دائمًا، وشجرة اللوز في بيت الأستاذ سليم، الأشجار في حرْش مستشفى البشير. كلّها في مكانها، رأيتها هناك أوَّل مرَّة وظلَّتْ هناك.
- أنا ما زلتُ أحتفظُ بعقْلي، عليك أن تتنقَّلْ بين رفوف الكتب، وأن تختار، وأحيانًا أن تتركَ للكِتاب فرصة لكي يختارك. الكتب التي نختارها تختارنا لأنها تعرف أننا نحبّها، تعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا.
- ولكنني لم أفهم كيف أن الشّجر لا يبقى مكانه.
- أنت أفضلُ من أن تسأل سؤالًا كهذا؛ فأنت تعرف أن أوراق الشجر

تطير في الرّيح، وأزهارها تتحوَّل إلى عسل حين تمتصّها النّحلات، وثمارها تذهب إلى الأسواق، وحين يأكلها الناس تتنقّل معهم، وتعيش في داخلهم، وحين تأكل الأمُّ الحامل تفاحةً، مثلًا، فإن جزءًا من التفاحة يذهب إلى الجنين، وحين تلِد جنينها تكون التفاحةُ فيه، وحين يلعب تكون فيه، وحين يمضي إلى المدرسة تكون فيه، وحين يقرأ قصائد إبراهيم طوقان تكون فيه، وحين يكتب قصيدة تكون التفاحة في القصيدة، وحين يقرأها شخص، أو يسمعها، تصبح فيه. وكذلك القمح، والمطر الذي ينزل هنا، يذهب جدولًا إلى آخر الحارة، ونهرًا إلى الحقول وإلى البحر.

تجرأتُ في ذلك اليوم وسألته:

– من أنتَ؟

– أنا من ذلك النوع المختلف من الشُّعراء؛ شاعر، ولكنني لا أكتبُ الشِّعر.

51

عشتُ الأيام التالية للقائي الأخير بالشاعر الذي لا يكتب الشِّعر محاولًا أن أكون مثله، أن أفكّر في كلِّ شيء؛ في الشِّعر الذي في كلِّ شيء، وفي كلّ شجرة أعرفها. صرتُ أرى شجرًا في الناس، وناسًا في الشجر، وأصبحتُ أُطلِق أسماء على كلِّ مَن، وكلِّ ما أراه، كما لو أن كلَّ شيء قصيدة، أنا كتبتُها، ولا بدَّ لي من أن أضع لها عنوانًا.

جدّتي، كقصيدة، صار اسمها: الغزالة الشّجاعة. أبي: الليل المضيء. عمّتي: الشمس الدّائمة. أمّي: القمّة العالية. الأستاذ سليم: النخلة الواثقة. شجرة التوت: القصيدة السّائرة. شجرة اللوز: روح البيت. موظف المكتبة: القلب البصير. خالي محمود: الجدول الرّقراق. بشير: الفارس الشجاع. قاسم: روح القُبّرة.

الشيء الذي استغربته أن "عنوان" أبي الجديد كان أفضل من عنوانه القديم (أبي)، وكذلك عناوين: أُمّي، وعمّتي، وجدّتي، وشجرة التوت، وشجرة اللوز...

حاولتُ أن أجد اسمًا لنور، وكم استغربتُ أنها كانت أجمل من كلّ اسم خطر ببالي، لذا، لم أخبرها عما فعلتُ مع البقية، كي لا تحرجني، كما أُحرجها، فتسألني: ومَن أنا؟

... هكذا أصبحتُ أبذل الكثير من الجهد للعثور على عنوان جديد لكلّ شيء، وأصبحتُ، وأنا صامتٌ، أتحدَّثُ أكثر، مع أن جدّتي قلِقَت عليّ. حتى أُمّي، صرتُ أراها تنظر إليَّ أكثر من قبل، وإن كانت تبقى صامتة. كنتُ أتعلّم وأتعلّم، لأن كلّ شيء حولي يتكلّم، مثل أمِّي التي تتكلّم وهي صامتة أكثر مما تتكلّم حين تتكلّم.

52

خالي الكبير لم يعد يزورنا، فقدْ بدا الأمر وكأنه يُقدِّم ابنته عروسًا لي وأنا أرفضها، وأمّي ترفضها، ويقدّم لي وظيفة تضمن مستقبلي وتخفّف الأعباء الثقيلة عن أبي، وكلّنا نرفضها.

بالنسبة إليّ، كنت أحبّ الحديث مع بنات خالي، فهن لطيفات جدًا ورقيقات، لكن أيًّا منهنّ لم تكن مهتمّة بمحاولاتي الكتابية. في المرّة الأولى، ذهبتُ معهنّ في حديثنا باتجاه إبراهيم طوقان والشِّعر، غيَّرنَ الموضوع بسرعة، فقلتُ لعلهنّ لم يقصدْنَ، فنحن نفعل هذا حين يكون هناك كلام في رؤوسنا أقوى من الكلام الذي نسمعه ممن نتحدّث معه.

جرّبتُ ثانية، فتأكّد لي أن الكلام الذي يدور في رؤوسهنّ أقوى، دائمًا، من كلامي الذي أقوله.

في حالة كهذه، يكون على أحدنا أن يتكلّم وعلى الآخر ألّا يسمع.

لكنهنّ كنّ طيبات، ولا أظنّ أن أيًّا منهنّ؛ أعني الكبيرات، كانت سترفض أن تكون زوجة لي، مع أن الكبيرة تسبقني عامين في المدرسة، بعُمر نور، وستنهي الثانوية العامة، في وقت أكون فيه على مقاعد الدّراسة، مجرّد طالب.

أيام فلسطين، كان يمكن أن يتزوج الولد قبل أن يُصبح شابًا؛ بشير حدّثنا عن أبيه الذي تزوج قبل النكبة وكان في الصف السادس الابتدائي؛ كان الولد الوحيد في الأسرة بين خمس أخوات، وعدَه أبوه أن يتزوّج، إذا أثبت أنه أفضل ولد في صفّه. سليم، الطفل، رأى في العرض جائزة لم يحلم بها من قبل، حبس نفسه في البيت، لا يخرج ولا يلعب مع أحد من أصدقائه، وفي نهاية العام كان الأول.

قبل أن يُطالب أباه بأن يوفي بوعده، أمسك الأب يده، في ثالث أيام العطلة الصّيفيّة، وتوجّه به إلى قرية شرقي مدينة الرّملة. بسريَّة كاملة عُقد الزواج

لأن العريس لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره.

تمّ العرس بهدوء، لكن أحدًا لم يستطع أن يُفسِّر سبب وجود تلك الفتاة، في بيتهم. لم يجد أهل سليم حجّة أفضل من أن يدّعوا أنها ابنة قريب لهم مات، وهم ملزمون برعايتها. لكن والد بشير الذي لم يكن قادرًا بعد على الزّواج، غدا مزهوًّا بالسرِّ، ومع عودته إلى المدرسة في بدايات العام الدراسي، راح يتصرّف بغرور أستاذ يعرف كلّ شيء، مع أنه لم يدخل على عروسه بعد.

لم يكن الفصل الأوّل قد انتهى، حين أدرك أولاد الصفّ أن هناك سرًّا، وأن عليهم أن يعرفوه.

وعرفوه، فأبلغوا المدرسة كلّها، طلابها ومعلميها؛ حسدًا على الأغلب. لذا، تمّ طرد سليم من المدرسة، إذ لا يجوز أن يكون الطالب متزوِّجًا، حسب القوانين.

بعد طرده، أحسّ بأن المدرسة أقرب شيء إلى قلبه، أقرب من عروسه التي لا يعرف لماذا زوّجوه إياها، ما دامت تنام في غرفة وينام في غرفة أخرى.

ذات يوم استيقظ قبل الجميع، أيقظ أباه، وطلب منه أن يبحث له عن مدرسة أخرى. أمام إصراره، أخذه إلى قرية عروسه، فالتحق بمدرستها، وهكذا عاشا زمنا طويلًا، هو في قريتها وهي في قريته، لكن لقاءاتهما المتباعدة أسفرت عن إنجابهما لولد وبنت، قبل أن يتمّ المرحلة الثانوية.

قبل عام من النكبة تخرج، ونال منحة للدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت، لكن ذلك الحلم لم يكتمل، إذ وجد نفسه ملزمًا بإعالة أسرة كبيرة، فتوجّه إلى الكويت معلّما، قبل أن ترسله الكويت، على حسابها، ليدرِّس في صحراء "أبو ظبي".

حكايته تلك تستحقّ رواية مستقلة، أو فيلمًا رقيقًا، أعتذر له أنها حوصرت في كلمات قليلة هنا.

***

تلك القصة كانت أُمِّي تعرفها، لكنها لم تكن في ظنّي سبب إصرارها على أن أكمل دراستي. أما أنا، فقد دفعتْني أشياء كثيرة لأن أرفض ترْك المدرسة: أمّي، نور، وبنات خالي اللواتي لم يسمعن الكلام الذي في رأسي، ولم أسمع الكلام الذي في رؤوسهن. وأظنّ أن السبب الخفيّ الذي لم أفهمه إلّا في ما

بعد، هو أنني كنت أخشى خالي الكبير كما يخشاه الجميع، وكنتُ أكره الخوف، أكره أن أكون خائفًا من أيّ شيء، لستُ وحدي في ذلك، فأكثر ما يكرهه الأولاد أن يقال لأحدهم "خويِّف"، ولعل كثيرًا من المغامرات المجنونة التي قمنا بها، من السَّير بين القبور ليلًا، إلى تسلق أعمدة الكهرباء، كان كثير من الأولاد يقومون بها لكي يثبتوا أنهم عكس تلك الكلمة.

***

ما ضاعف عنادي في وجه عرض خالي الكبير، هو اختفاء خالي محمود المفاجئ، خالي الذي لم يعد يحتمل تحكّم أخيه، بعد أن أجبر ابنته الكبيرة، التي كانت تلعب دور الحمامة الزّاجلة بين خالي محمود وفتاة يحبها، بأن تسلِّم الرسالة لأهل الفتاة، فتحطّم كلّ شيء بسبب هذا، ولم تظهر حبيبته بعد ذلك أبدًا، فانفجر كلّ شيء في داخله دفعة واحدة.

خالي محمود التجأ إلى أمّه، جدّتي خَضْرة، أعطته كلَّ ما تملك وهي تدعو له: "اللهم وسِّع أبواب الدنيا قدَّامه وين ما كان". وسمع الله دعوتها، فوسّع له الطريق لكي يصل إلى الكويت، في زمن لم يكن من السهل الوصول إليها عبر الصحراء التي اختطفتْ أرواح من كانوا يتسللون عبرها، ومن بينهم أولئك الذين كتب عنهم غسان كنفاني روايته الأولى "رجال في الشمس"، فعمل خالي محمود في إذاعة الكويت، مُعدًّا لبرنامج رومانسي، يقرأ فيه قصائده، التي كان كثير منها موجَّهًا إلى الفتاة التي يحبّها، كما اعترف لي.

ووسّع الله أبواب الدنيا في وجهه أكثر، فوصل إلى السّويد، ومع أنه استقرَّ فيها، إلا أنني حين رأيته بعد زمن طويل كان ما زال راحلًا، وإن كان رحيله نحو الاتجاه الذي تركه خلفه.

بعد سنين من هجرته، زارنا مرّة واحدة ، وبعد أيام قليلة فاجأنا بقرار عودته إلى السّويد، بسرعة، لأنه كما سيقول لي بعد زمن: إذا عدت لمكان ولم تجد فيه من تحبَّ، فلن تكون أقلّ من نهر مكسور، كان يتدفّق، ولكن فجأة انتهتْ الأرض.

وكما في كلّ مرّة تتغلب عليه ذكرياته الحزينة، يقاطع نفسه، ويعتذر لي: أتعبتكَ يا خال، أنت قادم إلى هنا لكي تستمتع، لا لأوجعَ رأسك بمشاكلي.

53

استسلَمتْ جدّتي وقد أدركتْ أنها لن تستطيع مساعدتي، استسلمتْ ببقاء جدّي في بيت خالتي زينب. وتحوّل استسلامها إلى حزن عميق بعد سفر خالي محمود، ذلك السفر الذي بقيَ لُغزا، لأن خالي الكبير استمات ليعرف كيف استطاع الوصول إلى الكويت. كان على يقين من أن أحدًا ساعده، لكنه لم يستطع تحديد ذلك الشخص.

في تلك الأيام، كنت أفكّر في تقديم هدية كبيرة لأمّي. لم أصل إلى نتيجة في هذا. سألتُ بشير، قال لي:

- هل تريد نصيحتي؟
- لهذا سألتكَ.
- خذها إلى السّينما.
- أُمّي تذهب إلى السّينما؟
- "سينما الخيام". هناك مكان للعائلات، وهناك فيلم يُعرض فيها لصوفيا لورين. وغمزني: هكذا تُفرح أمّك، وتُفرح نفسَكَ بجمال صوفيا.

***

نظراتُ أُمّي دارتْ حولي كما تدور الكرة الأرضية حول الشمس. توقّعتُ عاصفة، زلزالًا، ولكنها ضحكتْ. خفتُ أكثر. قالت: "لمَ لا؟ منذ أيام فلسطين وأنا أرجو جدّك أن يأخذني إلى السّينما، لكنه كان يرفض، منذ ذلك اليوم المشؤوم الذي أخذ فيه خالتك آمنة إلى السّينما فصادرها الإنجليز، وحبسوه. خالتك آمنة كانت شقراء، بيضاء، ولم تزل بالطبع، حين رآها الجنود الإنجليز ظنّوا أنها طفلة إنجليزية قام جدّك باختطافها".

حبسوه أيامًا، واحتفظوا بها، إلى أن تأكّدوا من أن تلك البنت الشقراء ابنته، فأطلقوا سراحه، واحتفظوا بها يومين حتى يتأكّدوا أكثر، فثار الناس وهاجموا مركز البوليس، لذا، تستطيع أن تقول إن "ثورة آمنة" يمكن اعتبارها

واحدة من ثورات فلسطين.

وتصمتُ أمّي، ثم تضيف: أما أنا فكما تراني، ومع أنني سمراء مُذ خُلِقتُ، إلّا أن جدّك رفض أن يأخذني معه، قال لي: ومَن يعرف؟ ربما نلتقي جنودًا هنودًا يعملون في الجيش الإنجليزي، فيعتقدوا أنكِ طفلة هندية، فيأخذوكِ ويسجنوني أيضًا.

بشير كان كريمًا معي؛ كسرَ حصّالة نقوده، وأعطاني كلّ ما فيها. لم يكن هناك الكثير، ولكنَّ ما فيها كافٍ لشراء تذكرتَي درجة أولى، وشيئًا نتسلّى به.

كانت أمّي تحبُّ الفستق السّوداني.

من "محمص بَسْمان" اشتريتُ لها أوقية فستق، كان ساخنًا، خارجًا للتوِّ من الفُرن. بعد أن أكلتْ عدة حبّات، وهي مغمضة عينيها للاستمتاع بما تتذوّق أكثر. قالت، إذا كان الفيلم جيدًا مثل هذا الفستق، فسأهديكَ الذي في بالك.

- صحيح؟

- صحيح، هل سمعتَ عايشة تَعِدُ في أيّ يوم ولا تفي بوعدها؟

- "لا".

كان صعود الطريق المؤدي إلى السّينما في سفح "جبل اللويْبدة"، المطلّ على الجهة الخلفية لمبنى البريد، هو الأمر الصّعب، إذ كيف ستستطيع الوصول إلى السّينما وهي تحمل في بطنها حلم حياتها الثقيل بولد، وتحمل في رأسها حلمها القديم بالسّينما.

تجاوزتُ المشكلة الأصعب، وأعني المرورَ من أمام مكتب "تاكسيات الرَّشيد" الذي يعمل فيه خالي أحمد؛ حيث اخترتُ يوم عطلته، الاثنين، للذهاب إلى السّينما، لكنني رغم ذلك كنت خائفًا.

خالي أحمد لم يكن هناك. خالي أحمد، الذي يشبه جدّي عليّ كثيرًا، لم يكن يضحك، لكنني اكتشفتُ أنه كان صاحب خطّ جميل للغاية حين أهدانا تخطيطا مؤطَّرًا علّقناه في البيت بعد أن وضعت أُمّي جنينها، مكتوب فيه:

هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي

كما أنني علمتُ بعد ذلك، أنه يحبُّ الغناء، وأن له صوتًا عذبًا، وأنه حاول أن يتعلّم العزف على العود، لكنه لم يُفلِح في ذلك؛ مثلي، مستقبلًا.

في منتصف الصّعود، سمعتُ أمِّي تلهثُ، ورأيتُ امرأة ببطن متكوِّر مثل بطن أمّي، قادمة من أعلى الطريق، تتدحرج في سيرها كأنها كرة، حين اقتربتْ منّا خاطبتْ أمِّي قائلة: "ستلِدين قبل أن تصلي المستشفى"، وكانت تعني مستشفى "لوزميلا"، الذي، إذا انعطفنا إلى اليمين، بدل اليسار، وواصلنا صعودنا، سنصله.

أمّي قالت لتلك المرأة: لم يزل أمامي شهران لألِد. نحن ذاهبان إلى السّينما.

شهقتِ المرأةُ: السّينما؟

لم تُعلِّق أمّي، ابتسمتْ، وواصلْنا صعودنا، ولهاثُها يعلو تدريجيًّا، مثل قطار البخار.

أعجبتْها مقاعد السّينما كما أعجبتني، إذ لم يسبق لي أن جلستُ على مقاعد وثيرة مثلها، فتلك هي المرّة الأولى التي أدخل فيها السّينما وفي يدي تذكرة درجة أولى.

***

في طريق العودة سِرْنا صامتَين، كان هبوط الطريق أسهل، ولكنني كنت خائفًا أن تتزحلق، كنت أمشي بجانبها بحذر كما لو أنني أحمِلُها.

54

- حلمتُ أنني أخذتكِ إلى السّينما، قلتُ لأُمّي، بلا مقدّمات.

- "هل أعجبني الفيلم؟"، سألتْني كطفلة وهي تبتسم، وقد تغيّرتْ ملامحها، بحيث تحوّلتْ إلى أختٍ رابعة لي.

- كثيرًا.

- "هل أخذتْني إلى السّينما لسبب معين؟"، وراحت تهزّ رأسها كأنها اكتشفت حيلتي.

- أبدًا، أظنّ أن عليك أن تذهبي إلى السّينما.

- هل سيقبل أبوك، وأخوالك، وجدّك؟ طوال عمرهم يرفضون أخذنا إلى السّينما، وبخاصة بعد أن حدث ما حدث مع خالتك آمنة، هل أخبرتك بالقصة؟

- "أخبرتِني، سآخذكِ أنا"، قلتُ.

- بشرط؟

- سآخذكِ، بلا شروط.

تفحُّصها لملامحي في ذلك الصباح، أكّد لي أنها لا تثق بي تمامًا.

- على أيّ حال، سأفكّر في دعوتكَ، ولكن ليس قبل أن ألِد.

55

في مساء يوم جمعةٍ، صار بعيدًا الآن، كان باب الغرفة مُشرعًا، وهديل الحَمَام الذي بنيْنا له غرفة صغيرة في واحدة من زوايا الحوش، متصاعدًا، هديل أليف كما لو أن الحمام يجلس فوق صدورنا، متّصل بقلوبنا. في ذلك المساء قررتُ أن أخطو الخطوة التي لم يكن يتوقّعها أحد.

أخرجتُ ديوان إبراهيم طوقان الذي استعرتُه ثالثة أو رابعة من المكتبة.

ارتجفتْ أمّي ما إن رأت الكتاب، وتململ أبي الذي لم يكن من أولئك الذين يتسرَّعون؛ يحبّ أن يناقش الأمور بهدوء، عامل التبغ الذي لم يتعلّم غير كتابة اسمه، بفضل أمّي. أبي الذي لم أره في أيّ يوم من الأيام في حالة شجار مع أيّ إنسان، وضع يده على ركبة أمّي، طالبًا منها ألّا تتكلّم قبل أن تعرف ما يدور.

فتحتُ الكتاب، وعيون أخواتي وإخوتي تراقب ما يدور بفزع، متوقّعين مشكلة كبيرة: "هذه القصيدة عن ثلاثة شهداء فلسطينيين"، أخبرتُهم، وبدأتُ القراءة:

لمّــا تَعَرضَ نَجْمُـكَ المنحوسُ
وترنَّحت بعُرى الحبالِ رؤوسُ
ناح الأَذانُ وأعولَ النــاقوسُ
فالليل أكدرُ، والنَّهارُ عَبوسُ
طَفِقَتْ تثورُ عواصفٌ وعـواطفُ
والموتُ حيناً طائفٌ أو خـاطفُ

استمعوا للقصيدة بصمت، حتى إن هديل الحمام اختفى. استرقتُ نظرة إلى أبي فوجدته متأثرًا، أما أُمّي فتهزّ رأسها، تاركة عينيها تحدّقان في زمان بعيد.

وواصلتُ القراءة:

اليومُ تُنكرهُ اللّيالي الغـابرهْ

وتظلّ تَرْمقُه بعينٍ حـــائرهْ
عجبًا لأَحكام القضاءِ الجـــائرهْ
فأخفّها أمثالُ ظُلم سائـرهْ
وطن يسيرُ إلى الفنّاء بلا رجاءْ
والداءُ ليس لهُ دوا إلاّ الإباءْ
تنهَّدتْ أمِّي.

رفعتُ رأسي أخيرًا، نظرتُ إليهم، وأغلقتُ الديوان مُعلنًا بذلك انتهاء القراءة.

- كأنّ هذا الكلام عن جمجوم والزير وحجازي، والّا لأ؟[7]
- "عنهم"، أكدتُ لها.
- "والله، قلبي كان حاسس إنه عنهم"، ومسحتْ دمعة، "الله يرحمهم".
- "الله يرحمهم"، ردّد أبي، فردّد إخوتي وأخواتي ما قاله.
- "ومَن كتبَ هذا الكلام الذي يحرق القلب؟"، سألتْ أمّي.
- إبراهيم.
- أنتَ؟
- بل إبراهيم طوقان؟
- "أخو فدوى؟"، سألتْ.
- أخو فدوى.
- وهل الشِّعر كلّه مثل هذا الشِّعر هذه الأيام؟
- الشّعر الجميل مثل هذا الشِّعر.
- وهل تنوي أن تكتب شِعرًا كهذا؟

هززتُ رأسي مؤكّدا لها ذلك، فقالت:

7- (قامت قوات البوليس الإنجليزي في تلك الأيام باعتقال 26 شابًّا فلسطينيًّا ممن شاركوا في ثورة الدفاع عن حائط البُراق في القدس، آب 1929، وأصدرت بحقّهم أحكامًا بالإعدام في محاكمة سريعة، ثم خفّفت الحكم عن 23 منهم إلى السجن المؤبد، وأبقت حكم الإعدام بحق كل من: فؤاد حجازي ومحمد جمجوم وكانا خريجين من الجامعة الأمريكية في بيروت، وعطا الزير الذي كان عاملًا، وتمّ إعدامهم في سجن عكا يوم 17/ 6/ 1930).

- اذهب أنت وأخوتك لتطعموا الحمام، سأقول كلمتين لأبيك.

***

تغيرت أُمّي منذ تلك الليلة، وفي الليلة التالية طلبتْ منّي أن أقرأ لها شيئًا آخر من شعر إبراهيم طوقان، ولكنها اشترطتْ:

- أريد أن أسمع شيئًا يُفرح القلب، لا أريد لمن في بطني أن يأتي عابسًا.

- حاضر.

لم أجد أفضل من قصيدة "ملائكة الرحمة"، قرأتُ لها:

بيْضُ الحمائم حسبهنَّه
أني أردِّدُ سجعهنّهْ
رمزُ السلامة والوداعة
منذ بدءِ الخلق هُنَّه

وتخالهنّ بلا رؤوس
حين يُقبلُ ليلهنّه
أخفينها تحت الجناح
ونمن ملءَ جفونهنّه

- كأنه يتحدث عن حَـمَامِنا، قاطعتْني.

وصمتت قبل أن تضيف:

- يبدو أنه يتحدّث عن شيء آخر، يعني: الكلام لكِ واسمعي يا جارة.

أخبرتها أنه يتحدّث عن الممرضات بملابسهنّ البيضاء، لأنهن ملائكة الرّحمة، فقالت باعتزاز:

- أَلَمْ أقل لكَ؟

في ذلك اليوم لـخّصتْ أمّي شيئًا كان عليَّ أن أعيش طويلًا لأقرأ عنه وأفهمه: "الرّمزية".

56

أصبحت أُمّي تخاف على نور أكثر، ما إن بدأ صدرها يظهر، أخذتْها جانبًا، وهي تضع يدها اليمنى على كتفها، وسمعناها تقول لها:

- حبيبتي يا نور، أنتِ كبرتِ، ويجب عليك أن تتنبّهي، باختصار، أنتِ لم تعودي بنتًا صغيرة.

- اطمئني يا خالتي، نور منتبهة.

- أعرف أنكِ منتبهة، ولكن عليّ أن أطلب منكِ هذا، كم نور لديَّ في هذه الدنيا؟

- نور واحدة.

- سمعتُ أنكِ تكتبين جيدًا، وهم يحبونك في المدرسة الجديدة، وربما تصبحين كاتبة؟

- من قال لكِ هذا؟ ليس هناك سواه يعرف.

- هوَ، صحيح، هو الذي قال لي. لا أستطيع أن أكذب عليكِ، تعرفين، يجب أن يعتاد ما في بطني على قوْل الصِّدق، دائمًا فعلتُ ذلك، حتى لا يخرج الجنين من بطني وهو يظنّ أنني لست صادقة.

- أنا لا أريد أن أكون كاتبة، ولو كنت أريد لسجلتُ ما قلتِه الآن، عن الجنين والصّدق، لكنني سأخبره، لعلّه يكتبه ذات يوم.

- لحد هان وبس. صحيح أنني أحبكِ، لكن لا أحبّ أن يعرف الناس كلّ ما يدور في رأسي إذا كتبَ عنّي. لا تخبريه.

هزّت نور رأسها موافقة، ونظرتْ إلينا، كنّا نبتسم، لأننا نعرف؛ لو لم تكن أمّي تريدنا أن نسمع كلامها، لذهبتْ إلى مكان أبعد وتحدّثتْ معها. كانت تريح نفسها من أن تقول ذلك لكلّ واحدة من بناتها اللواتي يكبرن، وأولادها، عن الكذب، وعن الطفولة التي وقفنا جميعنا في الطابور الطويل على وشك مغادرتها، واحدًا بعد الآخر.

في ذلك اليوم طلبت أُمّي من نور أن تُحضر لها نتائج امتحاناتها، لأنها تريد

أن تطمئنّ أن نشاطها مع الفدائيين لم يؤثر سلبًا على دراستها، وذكّرتها بأن اقتراب موعد الولادة لن يمنعها من أن تواصل عملها وزيرةً للتربية والتعليم، وأكدتْ ما نعرفه دائمًا عن كونها لم تأخذ أي إجازة في حياتها، قبل أن تصبح وزيرة وبعد أن أصبحت، ولن تأخذ، مع أنها مرضتْ وتعبتْ وولدتْ عشرة، والآخر في الطريق.

***

سرتُ ونور خارجَين من البيت، أكثر قلقًا من طلبة الثانوية العامة الذين ينتظرون نتائجهم. سألتْني إن كنت أريد أن أسمع ما قالته أمّي لها، فأكدتُ لها أنني سمعتُه كلّه.

– حتى ذلك الذي قالتْه عن أنني كبرتُ ولم أعد صغيرة؟ لقد خيّل إليّ أنها قالتْه همسًا.

– لا، لم يكن همسًا، قالته بأوضح صورة.

– وهل تعتقد، أنتَ، أنني كبرتُ؟

كنت على وشك أن أنظر إلى صدرها لأؤكد أو أنفي، ناسيًا أنني أعرف. تنبّهتُ لذلك في اللحظة الأخيرة، فنظرتُ في الاتجاه الآخر.

– لا أعرف.

– لا تعرف أنني لم أعد صغيرة؟

– بل أعرف، ولكن من غير المناسب أن أقول لكِ.

– بريء، ستبقى بريئًا. هل كتبتَ شيئًا جديدًا؟ منذ مدّة لم أقرأ لكَ.

– أظنّ أنني سأكتب اليوم.

– طبعًا عنّي، وعن كيف كبرتُ، اعترف.

احمرَّ وجهي.

وقفتْ أمامي وجهًا لوجه، فرأيتُها كلّها، فاحمرَّ وجهي أكثر.

ضحكتْ: بريء، وجهكَ أحمر.

– هذا لون شَعرك، الشمس خلفكِ.

– ومتى ستتوقّف عن أن تكون خجولًا؟

***

قبل عام حضرتْ أُمّي مسرحية مدرسيّة شاركتُ فيها، ولأنني لا أعرف

التّمثيل، تحركتُ ببطء وخجل طوال المسرحية.

بعد أن انتهى العرض، ونزلْنا، أمسكتْني أمّي من يدي وأخذتْني بعيدًا:

- بصفتي وزيرة للتربية والتعليم، أستطيع أن أقول إنك كنت خجولًا. وهذا لا يجوز إذا كنتَ مشاركًا في تمثيليّة، عليك في المرّة التالية أن تنسى كلّ خجلكَ، مفهوم؟

- بصراحة، لم أستطع التّخلّي عن كلِّ خجلي.

- ولماذا؟

- لأنني وضعتُ جزءًا منه في جيبي.

- ولماذا؟

- لأنني قد أحتاج إليه في يوم من الأيام.

***

لم تنسَ أُمِّي ما قلتُه في ذلك اليوم، راحت تعيد القصة كلّما وجدتْني خجلًا من قول شيء ما، أو فِعلِ شيء ما.

- قلتَ لي إنكَ وضعتَ قليلًا من الخجل في جيبك لأنكَ ستكون بحاجة إليه، مع أنني والله غسلت ثيابك ألف مرّة، ولم أعثر، في أيّ من جيوبك على ذلك الخجل الذي تحدثتَ عنه.

قلت لنور ذلك، فعلّقت:

- ألم أقل لكَ... بريييء.

وصمتت قليلًا قبل أن تسألني ذلك السؤال المفاجئ:

- بتعرف شو بنفسي؟

- شو؟

- أحمِّمَك.

- ... ...

- مالَكْ احمرِّيت واصفرِّيت؟ فِكرك خالتي عايشة بتسمحْلي؟

وامتدّت يدها وقرصتْ خدّي بلطف، فأحسستُ بالنار تصعد من وجهي وتضيئه، فيصبح بلون شعرها.

57

لم أنم حين سمعتُ أُمِّي تقول لجدّتي ظُهرًا:
- الليلة ليلتي.
- ستلِدين؟
- منذ الصباح وبطني مثل ملعب الفطبول.
- إن شاء الله خير. سأنام عندكم الليلة.
- "وأبي، هل ما زال في بيت أختي زينب؟"، سألتْها أمّي.
- "ولا أظنّ أنه سيعود قبل أن يتأكد من أنني نسيتُ فكرة..."، وقاطعتْ نفسها: "علينا أن نفكّر الآن في الأهمّ، رأيي أن نُخبر الدّاية حتى تكون جاهزة منذ الآن".
- وهذا رأيي.
سمعتُ صوت جدّتي تناديني، ولم تكن بحاجة لذلك، لأنني تابعتُ كلّ كلمة قيلتْ.

***

إلى الجانب الغربيّ للمدارس، انطلقتُ راكضًا، متجاوزًا السّوق، إلى أن وصلتُ باب بيت الدّاية الذي طالما طرقتُه ليلًا ونهارًا.
- خير إن شاء الله؟
- أُمِّي تقول إنها ستلِد الليلة.
- ما دامتْ أمّكَ تقول هذا، فإن عليّ أن أكون جاهزة.
وراحت تُغلق الباب، لكنها لاحظتْ أنني لم أتحرّك.
عادتْ وفتحتِ الباب ثانية:
- هناك كلام على لسانك، أراه ولا أسمعه؛ خبِّرني، شو في؟
- هل أستطيع أن أوصيك بأن يكون المولود بنتًا، يعني، أختًا لي؟
- بتحكي من عقلك، وإلّا من...؟ يا حبيبي إللي صار صار؛ يلّا على بيتك، قبل ما أزعل منك بصحيح، والله لا مجنون ولا جاهل ممكن يطلبوا

هيك طلب.

في طريق عودتي إلى البيت، أدركتُ أنني فقدتُ الأمل تمامًا، لأن يأسي هو الذي جعلني أطلب من الدّاية أمرًا لا يقبله العقل ولا حتى، الأقدام.

58

لم أنم.

نام الجميع، ونامت أُمِّي بهدوء واثقة أنها ستصحو في الساعة التي حدّدتْها. بقيتُ مستندًا إلى الحائط، أغفو أحيانًا، فيسقط رأسي مثل حَجَر على صدري، فأعود وأرفعه، فيسقط من جديد.

قبل شروق الشمس بقليل، سمعتُ صرخات أمّي. كان رأسي بين يدَي في تلك اللحظة، فلم أعرف ماذا أفعل به، إلى أن تذكّرتُ أن عليَّ أن أعيده إلى مكانه بين كتفَي.

واستيقظ أبي، جدّتي، أخواتي وإخوتي، وقبل أن يكلّفني أحد بمهمّتي التي أعرفها، حشرتُ قدمَيّ في حذائي، وانطلقتُ طائرًا إلى بيت الدّاية.

مرّة واحدة طرقتُ بابها، أطلَّتْ، وفي يدها صرَّة وضعتْ فيها كلّ ما تحتاجه في ليلة كتلك.

- تأخَّرتَ، حتى إنني اعتقدتُ أن حسابات أُمّكَ لم تعد دقيقة.

بخطوات قصيرة وبطيئة، تبعتْني، وأنا أحاول ما استطعتُ، أن أجعلها تُسرع، كأنني أنا من يعاني آلام الولادة.

لكنها ظلّت تسير بالسرعة، ذاتها، التي غادرت فيها بيتها.

***

كلّ ما تحتاجه الدَّاية كان جاهزًا، الماء السّاخن، الملاءات البيض النظيفة، والغرفة التي أُخليتْ من الزّوج والبنات والأبناء.

ألقتْ تحية الصباح:

- صباح الخير، وإن شاء الله يكون يوم خير على الجميع.

وأغلقتِ الباب وراءها.

تصاعدت صيحات أمِّي، أعلى فأعلى، ولأن موعد ولادتها متوقَّع، فقد حضرتْ كلُّ مَن سمعتْ صراخها: جاراتنا القريباتُ، وبعض بناتهنّ الشّابات، وبعد عشر دقائق وصلت الجارةُ العاشرة في الشارع.

أما أنا، فرُحتُ أدوْر في الحوش كمروحة، وأبي لا يتوقّف عن ترديد تلك الجملة:

- اهدأ، ما بيصير إلّا كلْ خير، إن شاء الله.

ولم أكن أعرف ما هو الخير الذي يقصده أبي، أبي الذي لم يؤيِّد ولم يعارض قدوم فدوى، تاركًا الأمور لحُكم الغيب.

صاح الدّيك، فصمتتْ أُمّي، وبعد لحظات سمعْنا بكاء مولود. دقائق ثقيلة مرت، ورأينا باب الغرفة يُفتَح، وجدّتي تخرج، ظلّتْ تسير إلى أن وصلتْني.

همستْ في أذني كلمة واحدة، وعادتْ من حيث أتتْ.

سألني أبي:

- ماذا قالتْ لكَ؟

59

بعد أيام دخل أستاذ اللغة العربية الصف، واسمه ربيع، وصاح:

- مَن إبراهيم؟

خفتُ، فلم يكن بين الطلبة أحد غيري يحمل هذا الاسم.

- أنا، قلت بارتباك.

كان يُلوِّح بورقة في يده، كأنه الخريف، وهو يتقدَّم نحو الطاولة المُعدَّة له أمامنا، والآذان تتّسع متلهِّفة لسماع ما سيقول.

بعد زمن طويل، وضع الورقة فوق طاولته، ثم نظر باتجاهي كما ينظر محقِّق لمجرم ضُبط متلبساً بارتكاب جريمته. ظلَّتْ تلك النظرة مُعلَّقة في الهواء، بحيث ظننتُ أنه سينظر إليَّ هكذا إلى الأبد، لذا، لم يكن ثمة مهرب سوى أن أمضي بعينيَ بعيدًا، إلى نقطة لا وجود لها. لكنني وقد فعلتُ، وجدتُ أن نظرات واحد وخمسين طالبًا، محشورين في ذلك الصف المدرسيّ، تحدّق إليّ.

- "لقد انتهيتُ"، همستُ لنفسي.

وقبل أن أعود وأنظر ثانية نحو الأستاذ، أدركتُ أنه قطع نصف المسافة قادمًا نحوي، عبْر الممرِّ الضيق بين صفّيِّ المقاعد.

فأعدتُ: "لقد انتهيتُ تمامًا، أنا الذي تجرّأت على الاقتراب إلى هذا الحدّ، لا من شاطئ الشِّعر، فحسب، بل شمّرتُ وغصتُ في بحوره".

تصبب العرَق من كلّ مكان في جسمي، كما لو أنني داخل بحر حقيقيّ، وصل إليّ، ألقي الورقة فوق مقعدي الذي كان يشاركني فيه ولدان آخران، فما كان منهما إلّا أن ابتعدا إلى الطرف الآخر للمقعد، في حركة شبه غريزيّة أصبحتْ تسكننا وتحتل أعضاءنا، كلّما همَّ الأستاذ بإيقاع عقاب على طالب في المقعد ذاته، خشيةَ أن تُصيبنا صفعةٌ أو ضربة عصا طائشتين.

لكن الأستاذ لم ينحنِ لإيقاع العقوبة المتوقَّعة؛ بقيَ في مكانه محدِّقا في رأس ذلك الكائن الذي تكوّرَ كالقنفذ على نفسه، أعزلَ؛ كلّ ما يملكه انكماشه.

وبعد وقت طويل قال بجفاف:

- طلبتُ منكم أن تكتبوا موضوع إنشاء حول أي شيء تختارون، فما الذي جعلكَ أيها العبقري تُقدِّم إليّ قصيدة؟ ألا تُفرِّق بين النّثر وبين الشِّعر؟ ثم إن هذه قصيدة قصيدة، فمن أين استنسختَها؟ أمِن كتاب؟ أم كتبها لكَ شخص كبير؟

بقيتُ صامتًا، إلى أن صرخ:

- إنني أسألك، أم أنني أتحدّث مع الجدار؟

خائفاً أجبتُ: لم أنقلْها من كتاب.

- مَن كتَبها لكَ إذًا؟

- لا أحد... أنا مَن كتَبها.

- "كذَّاب، خذْ"، وكتب في زاوية ورقتي بخط أحمر كبير: صِفْر.

أوّل ما فكّرتُ فيه أن أهجوه بقصيدة أوزّعها على طلاب المدرسة كلّها، بل المخيم كله، لكنني تراجعت، قلت لنفسي: هذا عيب، فهو أكبر منكَ سنًّا، ويجب أن تحترم من هم أكبر منك دائمًا.

***

أمضيتُ ذلك اليوم الصّعب محاولًا التهرُّب من نظرات زملاء الصفِّ التي يختلط فيها اللوم واللؤم والسّخرية، إلى أن عثرتُ وسط الفراغ على خيط نور جعلني أبتسم، وحين تأكّدتُ من أنه خيط نور فعلًا، أصبحتُ أفضَلَ حالاً بكثير، ولم يعد يهمّني سوى ذلك الذي أحسّه وأبصره في داخلي:

- إنّ عدم تصديق الأستاذ أنني كتبتُها يعني شيئًا واحداً، أنني كتبتُ شيئًا جيدًا، وأن آخذ صفْرًا بسببها، فهذا أجمل صفْر في حياتي.

ذلك الاكتشاف أعادني إلى نفسي ثانية، أيْ إلى الكتابة.

***

عائدًا إلى البيت كنتُ، وأنا أستعيد بفرح غامر حديثَ أبي مع أُمّي في ذلك الفجر الذي وضَعتْ فيه مولودتها:

- ماذا سنسمّيها؟

ردّت أُمِّي:

- هذه سنتركها لإبراهيم.

– وهل اخترتَ اسمًا لها؟ سألني أبي وهو يبتسم أجمل ابتسامة رأيتها في حياتي.

– "تقريبا"، أجبتُ، وخيّل إليَّ أنني أبتسمُ مثله.

– وما هو؟ سألني وكأنه لا يحفظ الاسم أكثر منّي.

قلت:

– فدوى.

– "فدوى... فدوى"، قال وهو يهزّ رأسه مُفكّرًا بعمق، قبل أن يضيف: "فدوى... اسم جميل، أليس كذلك يا عايشة؟".

الرسالة الثانية:

يسعد مساك،

قرأت "طفولتنا الثانية"... ما زالت الأحداث والتفاصيل والشّخصيات التي كنت أظنّ أنني أعرفها تبهرني(... ...) في رأسي أفكار كثيرة تحتاج إلى بعض السّكون... بدأت أشعر بالتوتر مما يجري، العمل المستمر في المستشفى مرهق للغاية، وربما يكون ضاغطًا أكثر من إحساس المريض المحجور.

في انتظار الفصول التالية

نور

ردّ:

أطيب صباح،

كلي أمل أن نتجاوز، ومعنا هذا الكوكب الصغير الجميل، هذه الجائحة سريعًا.

ما يشغلني أين يمكن أن تتوقّف هذه الرواية.. لأن انفتاحها على أحداث ما بعد مرحلة الطفولة الثانية يمكن أن يكون بلا حدود.

محبتي

رسالة ثالثة:

يسعد صباحك،

أنا بخير، وأنتَ؟

أعدتُ قراءة القسمين: الأوّل والثاني... ما زلتُ أقرأ بلهفة.. لعل من أجمل ما يمكن أن يحدث لنا هو أن نتخيّل شيئًا جميلا ونتمناه، ثم نكتشف فجأة أننا عشناه. كم تضيف الكتابة للحياة وهي تأخذ منها؛ تعيد تشكيلها وتقبض على الجوهريّ فيها. لا تنشغل في أين ستنتهي... اكتب، والنهاية ستجد طريقها إليكَ، كما ستجدُ طريقكَ إليها.

دمتَ وسلمتَ

نور

طفولة ثالثة

1

في الخامسة من صباح الحادي والعشرين من آذار اجتازت الدّبابات الإسرائيلية نهر الأردن باتجاه الأراضي الأردنية، بسرعة 60 كم في الساعة، حتى إنها سحقت كثيرًا من الجنود في خنادقهم. وعلى مدى ستّ عشرة ساعة، ظلّت المعركة مستمرة؛ أكبر معركة منذ حرب حزيران.

حين انتهت، كان ثمة فرحٌ ما يغمر الأرجاء، ويؤسِّس لزمن مختلف لم نكن نعرف مثيلًا له، فقد هُزمتْ القوات الإسرائيلية على يد الفدائيين الفلسطينيين، والقوات الأردنية التي لم تنتظر وصول أوامر قيادتها من عمّان[8].

كنت فرحًا بذلك الانتصار وفخورًا به، وكأنني من خاض الحرب، فها هي نور هنا، وها أنا هنا: اندلعتْ حربٌ ولم نفترق.

لكن فرحتي طارت...

في صبيحة الثاني والعشرين من آذار، طرق أربعة من الفدائيين باب بيتنا، بعد أن كانوا قد طرقوا باب عمّتي دون جدوى، فأشار عليهم الجيران أن

---

[8]- "كان للعمليات العسكرية التي تقوم بها الحركة الفدائية ضد الكيان الإسرائيلي الأثر الأهم في استعادة ثقة الجندي العربي، وبأن سلاحه يمكن أن يُرهب العدو ويثنيه عن الاستخفاف بحامله؛ وقد شكّلتْ تلك العمليات نقطة تحول في مسار الصراع العربي الإسرائيلي، فلم يعد قرار الاصطدام مع المغتصب يخرج من مكاتب المسؤولين أصحاب السلطة بل صار هذه المرّة يقفز من أزقة الشوارع المختفية عن الأضواء، أو الجبال البعيدة عن ترف حامل القرار السياسي، تلك التي يقطنها الفدائي الفلسطيني ببساطته وصدق انتمائه... حيث أن التنسيق الكامل والحركة (بين الجيش والمقاومة)، في تلك الفترة كان في أوجه، وكنت بنفسي اشرف على ذلك... وكانت أهم أسباب الهجوم الإسرائيلي في نظري القضاء على العمل الفدائي والقضاء على الروح المعنوية التي بدأت في الجيش العربي، واعتقادي أيضًا أن السبب الثالث هو أن يجعلوا من مرتفعات "السَّلْط" مقرًّا... وبالتالي، يتفاوضون مع الأردن من مرتفعات السَّلط ويساومون على توقيع السّلام من خلال المعطيات الجديدة".
من مخطوط مذكرات قائد الجيش الأردني في معركة الكرامة، الفريق الركن مشهور حديثة الجازي".

يطرقوا باب بيت أخيها، وعندما خرجتُ، طلبوا منّي أن أستدعي أيّ رجل في البيت، دخلتُ، وأخبرتُ أمّي أن هناك فدائيين بالباب.

- استشهد؟

همستْ عمّتي، فلم أعرف إن كانت تسأل أَم تؤكِّد.

خرجتْ أمّي، وبعد قليل، عادت صامتة.

- "استشهد"، أعادت عمّتي.

وأدركتُ أنها تؤكّد حقيقة تعرفها أكثر منّا.

***

حكايات كثيرة تداولها الناس عن المصري، قبل أن يواروه الثرى، وحينما مرّت تلك النعوش الكثيرة، فوق الشاحنات الترابية المخضرَّة، كان المخيم كلّه هناك، وبشرٌ جاؤوا من المدن والقرى والمخيمات، القريبة والبعيدة. تجاوزتْنا الشاحنات، فرُحْنا نركض خلْفها، وآلاف المشيِّعين.

... وتقاطعتْ حكايات الفدائيين الذين استشهدوا مع حكايات الفدائيين الجرحى، مع حكايات الذين لم يُصابوا، مع حكايات جنود الجيش، فلم يعد أيّ منّا يعرف حكاية مَن منهم هي الحكاية التي قيلت. في ذلك اليوم كانت لهم، في آخر النهار، حكاية واحدة، أنهم، مع رفاقهم في الجيش الأردني، قد انتصروا.

أما عمّتي فقد عاشت طوال أيام العزاء في عالم آخر، تسأل أسئلة صعبة مثل تلك التي تسألها نور:

- "لقد أنقذتُ حياتَه، انتزعتُه من بين أنياب الموت، فلماذا يغيب هكذا بسرعة؟ من أيام كان حيًّا هنا، من أيام فقط"، وتشير إلى مكان ما في الفراغ، ثم تشير إلى مكان آخر، وكأنها أخطأت في المرّة الأولى. "أين هو الآن؟ متى سيعود إلينا ثانية؟ هل هو في القبر فعلًا؟ هل مات؟".

2

لم تعد عمّتي ثانية إلى بيتها، فما إن انتهت أيّام العزاء الثلاثة، حتى أتتْ إلى بيتنا، صامتة، أفقدها الحزن نصف جسدها، وكلّ خفّة روحها، فتحوّلت إلى شبح ضامر، يُذكِّرنا بجسد المصري بعد هزيمة حزيران.

خفنا عليها، وما جعلنا نخاف أكثر، أننا صحوْنا ذات ليلة على صوت أبي، عاليًا، كما لم نسمعه نهارًا، وهو يبحث عنها.

لم تكن هناك. خرج أبي للحوْش، وعاد ثانية، ثم تذكّر أن لها بيتًا، لعلها ذهبتْ إليه. ولم تكن هناك.

عاد شبه مجنون.

بحث في المخيم، في الشوارع الضيّقة، والأزقة الأضيق، وعاد أكثر ضياعًا.

وتقدم الفجر نحو التلال الشرقية صامتًا، متلمّسًا طريقه في العتمة مثل أبي.

لم يكن البحث المجنون قابلًا لأن يظلَّ سرًّا، فتجمّع الجيران، وجيران الجيران. اقترح البعض أن نُبلّغ مركز الأمن، واقترح آخرون التريُّث. طلب البعض أن نفكّر جيدًا في مكان محتمل يمكن أن تذهب إليه، وتكون فيه.

وصولها إلى مخيم البقْعَة، حيث بيت جدّي لأبي مستحيل، فالمسافة طويلة بين المخيمين، لا تقطعها الأقدام، وفي الليل الذي اختفتْ فيه، لا تتحرّك حافلات.

عدد من الرجال والنساء افترقوا عن الجمْع، دون أن يستشيروا أحدًا واتجهوا شرقًا، إلى الانحدار المؤدي للسّهل، لعلها ذهبتْ إلى البرِّ.

عادوا والشمس خلْفهم تتسلّق الأفق بصعوبة.

لم يبقَ من حلٍّ غير الذّهاب إلى الشرطة.

في تلك اللحظة لمحْنا عمّتي تُطلّ من آخر الشارع، من جهة المدارس، ظلّت تسير ببطء إلى أن وصلتْنا، شقّت طريقها بيننا، كأنها الهواء، ودخلتْ،

وضعتْ رأسها على المخدّة، ثم ردّت الغطاء على جسدها، فاختفى كلّ شيء فيها.

لوهلة أحسستُ أنها دخلتْ بابًا في الأرض وأغلقتْه خلْفها، فالفراش بدا فارغًا، فارغًا تمامًا، لكنها سعَلتْ، فرأيتُ الغطاء يتحرّك قبل أن يعود إلى سكونه، ويبقى كذلك، حتى ما بعد عودتي من المدرسة.

وهكذا، سيستمرّ الوضْع، سيحاول أبي أن يثنيها، أُمّي، نحن، لكنها لم تكن تسمع كلامنا، لم يكن في أذنيها غير ندائه المجروح، نداء زوجها، عمّتي التي قررت أن تُمضي الليل هناك، في المقبرة، محتضنة قبره.

ارتفاع درجات الحرارة يومًا بعد يوم، كان نعمة؛ تراجع سُعال عمّتي الذي رأيناه وسمعناه يفتتُ أضلاعها ويشقّ صدرها، ليلة بعد ليلة.

صباح ذات يوم، قبل أن يطلب منها أبي التوقّف عن الذّهاب إلى المقبرة، وألّا تواصل تعذيب زوجها بعذابها الذي لا بدّ أنه يعرفه، قالت:

- لن أذهب إليه بعد اليوم ليلًا، سأزوره كما يزور الناس قبور أحبابهم، نهارًا.

- "الحمد لله"، قال أبي، "أخيرًا اقتنعتِ بكلامنا".

- بل أقنعني الخوفُ على ما في بطْني.

3

بين انشغالاتي بفدوى، محبّةً وتنظيفًا، وكتابة قصائد لها كلّما غفتْ، فتنني تأمّل نومها الغزلاني.

كنت أقرأ كتُبي، وأكتب شيئًا لنور أيضًا، وإن لم يسلَم أي حرف كتبته في تلك الأيام من لمسة حزن حفرها عميقًا في داخلي غياب المصري. صحيح أنني لم أعرفه كثيرًا لكن غيابه كان صاعقًا، ولعل حضوره الدّائم في عمّتي، وذلك الجنين الذي في بطنها، أكّدا لي أنه لم يُدفَن، أنه ما زال حيًّا.

***

حاولت أن أفعل شيئًا ما، لأُعبِّر عن حزن لم أستطع تحويله إلى دموع، أو صرخة غضب، أو كلمات مواساة، حاولتُ أن أعبِّر عن فرحي بعمّتي التي لم تعد وحيدة، ولن تكون، ما دامتْ حياةٌ في داخلها، لم يساعدني شيء في ذلك مثلما ساعدتني قصيدة أكتبها لها، لكن الأمر الذي بدا لي أصعب من كتابتها، هو امتلاك الجرأة على قراءتها لها.

اقتربتُ منها خائفًا، فطمأنني صمتُها، وغيابها عن كلّ شيء. كنت على يقين من أنها لن تسمع ما سأقول، لأنها في مكان آخر.

قرأتُ لها دون مقدِّمات.

بعد البيت الثاني، رأيتُها ترفع رأسها وتنظر إليّ. تذكّرتُ أنني منذ زمن بعيد لم أرَ عينيها، وواصلتُ القراءة، فأخذ رأسها يهتزّ دون أن أعرف إن كان ذلك من علامات الرّضى أم التَّحسُّر، فتشجعتُ أكثر، ارتفع صوتي، فصمتتْ أمّي المنشغلة بحديثها مع فدوى، في سريرها الحديديّ، السرير الذي كان ذات يوم سريري وسرير أخواتي وإخوتي، السرير الذي صنعه زوج خالتي زينب، وصمتتْ فدوى أيضًا.

واصلتُ القراءة إلى أن انتهتْ القصيدة، وعمّ الصمتُ؛ صمتٌ عميق، مخيفٌ لي، وسمعتُ صوت عمّتي التي يبدو أنها أحستْ بخوفي: أنتَ كتبتَها؟

هززتُ رأسي مؤكدًا.

- أهيَ عنّي، وعن ذلك الذي في بطني، وعن ذلك الذي في ...؟
هززتُ رأسي ثانية.
- "لم أكن أعتقد أن أحدًا يمكن أن يحسّ بي هكذا"، قالتْ، وبكتْ.
في المساء طلبتْ مني أن أنام بجانبها، مع أن حرصها على ما في رحمها، وحزنها، جعلاها أكثر حرصًا من أمّي، أيام حمْلها بفدوى.
غفوتُ. لم أعرف كم من الوقت مرَّ على نومي. شعرتُ بنكزة تدعوني لأن أفتح عيني، فتحتُها، وفي ضوء القنديل الصغير سمعتُ عمّتي تقول لي هامسة: كان عليَّ أن أكون أكثر جرأة حينما طلبتَ مني أن أساندكَ لكي تصبح شاعرًا، لكن أفضل ما حدث أنكَ انتصرتَ.

***

بقيَ ما باحتْ به لي في الظلام شيئًا من حلم، لا أستطيع أن أؤكِّده ولا أستطيع أن أنفيه، تمنيتُ أن يكون حقيقة. لم أجرؤ أن أسألها، فسؤال كهذا سيُفقدها نصفَ فرحها بما قالتْه من قلبها، إن قالته فعلًا، وسيفقدني كلّ فرحي به إن نفَتْ.
انتظرتُ.

***

بعد شهرين بدأنا نرى تكوّر بطنها، تحسّسها له باستمرار، هي التي أصبح جسدها بحجم جسد أمّي لا أكثر.
... وتحوّل صمتها إلى ما يشبه التأمّل بعد أن كان حزنًا.
فاجأتُها، وقفتُ أمامها وبدأتُ بقراءة قصيدة لها، عنها، لكن ما أخافني أنها لم ترفع رأسها، ولم تنظر إليّ، ولم تهزَّ رأسها، فأدركتُ أنها لم تقلْ لي ما قالته، وأنني تخيلتُ ذلك، حلمتُه.
أنهيتُ القصيدة، فعمّ الصمت ثانية، صمتٌ يشبه المرّة الأولى التي قرأتُ فيها قصيدتي.
سمعتُها تسحبُ الهواء عبر أنفها إلى رئتيها، كتَمَتْه، وكأنها تريد أن تطمئنّ إلى أن جنينها قد أخذ حصته منه. رفعتْ رأسها:
- إذا كنتَ تريدُ أخًا أو أختًا لكي تصبح، إضافة للشاعر، شيئًا آخر أيضًا، قلْ لي، سأنجب لكَ ما تريد.

4

قلة هم أولئك الذين تجرؤوا على اقتناء جهاز تلفزيون، أحيانًا بسبب الخوف على أخلاق أفراد العائلة، أو لأسباب مالية أيضًا. لكن إغواء الجديد غلب القديم دائمًا، ففي داخل كلّ جديد يكمن الفضول، وليس ثمة من يستطيع كبح فضوله إلى النهاية؛ الفضول الذي يتقافز بين أضلعنا كنمر باحثًا عن أي ثقب للخروج.

ماديًّا، كانت رخصة اقتناء الجهاز 6 دنانير، وفقدان الرّخصة سيكلّف المالِك نصف دينار للحصول على رخصة جديدة، إضافة للغرامات التي سيتكبّدها إذا تأخّر عن التجديد. كما أن التفكير ببيعه يقتضي إجراءات لنقل الجهاز إلى المالك الجديد، وتعديل اسمه، أما إذا شُطب الجهاز أو سُرق أو احترق أو تلف، فإن على صاحبه إبلاغ وزارة المالية بالحادث وإلّا..

***

دخل التلفزيون بيت خالتي زينب، فأحسسنا أننا في زمن آخر، ولأيام طويلة، كان على كلٍّ منا أن يحاول الوصول قبل الآخرين، ليجد له مكانًا يجلس فيه. في البداية كان زوج خالتي وأولادها سعيدين، ونحن نؤكّد لهم كلّ ليلة، بأنهم تفوَّقوا على الجميع بشرائهم جهاز تلفزيون. كانوا يعدُّون شايًا للجميع، شايًا طازجًا، وبعد أقل من أسبوع أصبحنا نسمع جملة من مثل: "الشّاي من شوي نزل عن النار"، وهذه جملة تُقال للضيوف غير الأعزاء؛ في حالات وصول ضيوف أعزاء يُرفع الشاي، حتى لو كان، فعلًا، نزل عن النار قبل لحظات، ويُستبدل به شاي آخر للترحيب بالضّيف. ثم أصبحنا نسمع جملة من مثل: "سخْنوا الشّاي لضيوفنا"؛ وهذا لا يقلُّ إهانة للضيف من تجاهل أو تناسي إعداد شاي له.

في المرحلة الأخيرة، لم نعد نرى الشّاي أبدًا، ولولا العيب لأحضرتْ كلّ أسرة قادمة لمشاهدة برامج التلفزيون شايها معها.

أمّي رافقتْنا مرّة واحدة إلى بيت خالتي، ولم تكرّرها، لأنها حدّدت موقفها المضاد للتلفزيون بسرعة، قبل أن نصل عائدين إلى بيتنا، وظلّ هذا الموقف يتطوّر إلى أن دخل السّتلايت حياة كلّ الناس، فكرهتْه أكثر، بعد أن أصبحت تراهم مُسمَّرين أمام التلفزيون لا يتكلّم الواحد منهم مع الآخر، ولا يحسّ به، وأعلنتْ باعتبارها وزيرة دائمة للتربية والتعليم، أن الأولاد فقدوا بسببه نصف عقولهم، على الأقل، فأصبحتْ تدعو السّتلايت: "السَّطَلان".

لحسن الحظّ كان مسلسل "مقالب غوار" لدريد لحّام ونهاد قلعجي يُنسينا الشّاي، مع أن كلّ ما يُعرض على التلفزيون يفتننا، لذا، ننسى أنفسنا في أيام كثيرة، جالسين. وحتى اليوم، حتى اليوم سأضحك حين أتذكر ما كتبه أبو صيّاح، صاحب المقهى خلفه: ممنوع ضرب المطربين بالبندورة. كنّا نسهر إلى أن يتوقّف بثُّ التلفزيون، لحسن حظّ أصحابه، عند منتصف الليل.

راحت التلفزيونات تنتشر بسرعة، لأن رواد اقتناء التلفزيونات بدأوا يضيقون بكلّ زوّارهم، أيا كانت صلة القرابة التي تربطهم بهم، وكانت فتنة سميرة توفيق قد تضاعفت مع دخول التلفزيون إلى بيت جدّي، بعد بيت خالتي، حتى بتنا على يقين من أنه نسي تلك المرأة التي في دمشق، لكن ذلك لم يكن صحيحًا، فكلّما كانت تخطر بباله كان يترك بيته إلى بيت خالتي زينب.

جدتي كانت تقول لنا حين نسأل عنه:

- "جدّكم حنّ، فمضى إلى بيت زينب، وحجته الجديدة أن سميرة توفيق تظهر في تلفزيونها أكثر من تلفزيوني. إنه يفعل ذلك الآن كلّما "تذكّرها"، وتصمتُ قليلًا ثم تقول بأسى: "كلّ شيء في هذه الدنيا يمكن أن تضعه في قفص إلا القلب والروح والأحلام"، ولكي تخفّف من حدّة الأسى تضيف: "من الممكن أن تكون هناك أشياء أخرى، ولكنني الآن لا أتذكر سوى هذه".

5

كما تمنّتْ أن تموتَ، كما يتمنّى كثير من كبار السِّن ذلك، وهم يرفعون الرّجاء إلى السّماء: اللهم لا تُمْتني إلّا وغبار الطريق على قدَمَي.

ماتت جدّتي لأمّي...

ماتتْ سعيدةً بفدوى. قالت لي:

- إياك أن تعتقد أن جدّتك نسيتكَ، فلو لم تُنجب أمُّكَ الأختَ التي تريدُها، لأنجبتُها بنفسي، كنت أنتظر لأعرف، قبل أن أتصرّف.

في ذلك اليوم، عادت إلى بيتها، الرّبيع في أواخره، وثمار التّوت تتساقط على الأرض في بيتنا، وفي البيوت المجاورة.

على قدميها غبار الطريق، وصلتْ البيت، وقفتْ تصلي صلاة العصْر، ركعتْ، سجدتْ، وبقيتْ مكانها، هكذا وجدها جدّي الذي عاد للظهور من جديد في بيته.

بسيطة كانت جنازتها التي انطلقتْ من الجامع الكبير للمخيم، الجامع الملاصق لسوق الخضار.

أبي كان الأكثر حزنًا، دائمًا اعتبرها أُمَّه؛ أُمّه التي فقَدَها قبل النكبة. زوجة أبيه اضطرّته أن يترك البيت. خرج من طريق وخرج أبوه وزوجته وأخته من أمّه، عمّتي، من طريق. زوجة الجدّ أرادت من يساعدها، فقبلتْ بوجود عمّتي معها.

حُزنُ أبي على جدتي لأُمّي فاق حزن أبنائها ربما، أخوالي، لا تفسير لدي سوى أن أبي جرَّب اليُتْم، وعانى منه طويلًا، أما أنا، فظلّتْ ترنّ، في رأسي، جملتُها التي قالتها كثيرًا لي: جدّتك كبرت، تتمنّى أن تموت، ولكنها كلّما أصبحتْ أقرب إلى المقبرة، اكتشفتْ أن المقبرة هربتْ منها. ألّا يكفي أن الحياة، من يوم تهجيرنا، تهربُ منها؟

كلّ شيء تغيّر بسرعة شديدة في تلك الأيام؛ الموت شبه يومي، ولم يكن

الموت الطبيعي وحسب؛ الطائرات الإسرائيلية تُغير على مواقع الفدائيين، في "الأغوار" ومرتفعات "السَّلط" ومنطقة "إرْبِد"، فنرى وجوه شهداء جُدد تُطلّ علينا من الملصقات. لم يكن الزّمان الأصعب قد أتى، عندما راحت وجوه الشهداء الذين استشهدوا حديثًا تُغطي وجوه الذين ماتوا قبلهم، وتصاعدتْ الأمور؛ ضاقت الجدران فلم تعد قادرة على استيعاب مُلصقات جديدة.

في جنازة جدتي ظهر فدائيّون مسلّحون، بعضهم نعرفهم، وبعضهم لم يسبق أن التقوها أو التقيناهم، حضروا تكريمًا لها. المفاجأة الأكبر بالنسبة لكثيرين منّا، كان خالي أحمد الذي وصل قبل لحظات من الدّفن، إلى المقبرة، مُتعرِّقًا، بلباس الفدائيين.

صعقتْنا المفاجأة، تبدّدتْ صورته التي رسمناها له، على مدى سنوات، بأنه آخر من سيلتحق بالفدائيين؛ خطاطًا رائعًا كان، وصاحب صوت جميل، يفتنه من بين المطربين فريد الأطرش. أما محاولاته لتعلّم العزف على العود- كما سبق وذكرتُ- فلم تُسفر عن أيّ تقدّم ملحوظ، أصرّ على تعلُّم العزْف معتمدًا على نفسه، لكنه اعترف لي: اشتريت العود لأعزف عليه، وكلّ ما حصل أن العود تحوّل بين يدَي إلى طبْلة.

أكثر من مرّة أتيح لي أن أسمعه يغني، والعود مقلوب على فخذيه، وهو ينقرُ عليه، كما ينقر ضابط إيقاع على دفوفه أو طبوله.

6

لم يعد جدّي يغادر البيت، ظننّا أنه لن يغادره أبدًا، كلّ شيء حوله حزين؛ طالتْ لحيته البيضاء، التي لم يُرَبِّها من قبل، طال شعره الأبيض، اختلط لونه بلون حطته البيضاء، فغدتِ امتدادًا لخصلات شعره المتدفّقة على كتفيه.

بعد ثلاثة أشهر، رأيناه يقف على باب بيتنا، حليقًا، اختفى شعره الطويل، مرتديا "قمبازًا"[9] نظيفًا، وحطة نظيفة وحذاء أسود جديدًا.

أشار إلى فدوى الصغيرة المتقلّبة بين يدَي، ناولتُه إياها بحذر.

أمّي تركتْ لي، رغمًا عنها، مسؤولية العناية بفدوى لترتاح من رغبتي المستمرة في أن أحملها، ما إن أتـمَّتِ الأسبوع الأوّل من عمرها. قبل ذلك خشيتُ الاقتراب منها أكثر مما يجب، ثمّ أصبحتُ أمَّ فدوى، بطريقة ما، والمشرف عليها. صحيح أن أُمِّي لم تسمح لي أن أحمِّمها خوف انزلاقها من بين يدي، لكنني كنت أنظِّفها، أغسل فوط الأقمشة التي نلفّها بها، أنشرها، وأطويها، كما يطوي جنديٌّ ثيابَ قائده.

هَدْهَدَ جدّي فدوى التي بدتْ مستريحة بين يديه، رغم الغطاء المحكم حول جسدها، والرِّباط الذي يحوّلها إلى ما يشبه مومياء صغيرة.

- عندي كلام ينقال يا بنتي... وبدّي...
أحكيه إلْكم جميعًا... مش إلي وحدي
عايز ولادي وبناتي اليوم مش بكرة
العمر بجْري وفِ قلبي سكنتِ الحسْرة

- خير إن شاء الله؟ سألتْ أمّي.

- خير وما غير الخير عندي... لو اسمعتوا...
معنى كلامي الجريح يا ولادي... وأنصتُّوا

- ألا يمكن أن تقول لي ما تريد وأنا أخبرهم؟

---

[9] - ثوب الرجال التقليدي في فلسطين.

- بدّي كلامي يكون واضح بلا أستارْ
لا هوْ رسايل على لسانٍ... ولا أخبارْ
ولا هوْ معاني مخبَّية في غابة الأشعارْ
- ومتى تحبّ أن تراهم؟
- سْمِعْتي كلامي، قُلِتْ:... اليوم مش بكرةْ
العمر بجْري... وفي قلبي... سكنت الحسْرة

***

ولأن أُمِّي غير قادرة على مغادرة البيت، بسبب وجود طفلة رضيعة، لا تستطيع أن تتركها وهي مطمئنة بين يدي أحد، حتى أنا، إن لم أكن أمام عينيها، تقرر أن يكون الاجتماع في بيتنا.

لم يرْضَ خالي الكبير عن ذلك، اعتبر بيتنا بيتَ زوج أخته، لا بيت أخته، فالأصول تقضي أن يُعقد الاجتماع في بيته هو، لأنه الأكبر؛ لكنه أتى.

كان التّنافرُ قد تصاعد بينه وبين أمِّي، إلّا أنه حاول أن يبدو غير مهتمّ بخلافها معه. لاطفني أكثر مما يجب، ولاطف فدوى بين يدَي، وسأل أمِّي عن صحّتها وما إذا كانت بحاجة لأي شيء، فهي تأمُر، كما قال، وللحقّ كان دائمًا عطوفًا بقدْر ما هو قاسٍ.

حدّق جدّي إلى عيون أبنائه وبناته. فترة الصّمت التي طالتْ، دفعت خالي الكبير لأن يتنحنح، كما لو أنه يقول مُحتجًّا: "وبعدين؟"، أخبرهم جدّي بأنه بات وحيدًا، وأنه رعى أمَّهم حتى اللحظة الأخيرة، وأنه قرر السّفر إلى دمشق، ليرى تلك المرأة التي يعرفون جميعًا عنها.

قصيدة طويلة تلك التي ألقاها، ومفاجئة، حتى إنني لم أستطع حفظ أبياتها كما يجب، ولو دوّنتُها هنا لكانت قصيدة أخرى.

بعد وقت طويل أنهاها ببيت يقول فيه:
البعد قرَّبْ... وهذا القُرْب صار أبعدْ
هذي نهاية كلامي... وصَلْواعَ محَمْد.

خالي الكبير الذي رأيناه يتقلّب على نار، غادر البيت غاضبًا؛ طرَق باب الصفيح خلفه، بعنف، لم يُطرَق به من قبل.

7

في اليوم الذي قرر فيه جدّي التّوجه إلى الشام، أوصى أمّي على بيته؛ أمّي التي لم تحدّد موقفها، معه أو ضده، في رحلته للقاء قلبه. بحثَ عن جواز سفره، أو "جوادَ سفره" كما كان يدعوه، فتّش طويلًا، قَلَّبَ البيتَ رأسًا على عقب، لم يجده، ولولا أنه يعرف أن جدّتي لم تعارض سفره لظنّ أنها أخذتْ الجواز معها إلى القبر.

فقَدَ الأمل.

همساتٌ خفيضة وصلتْ إلى أذنيه، تنصحه بتقديم طلب للحصول على جواز سفر "بدل ضائع".

وجرَّب. بسرعة أدرك أن حصوله على جواز سفر جديد، مسألة ليست سهلة؛ عليه أن يُثبتَ أن الجواز ضاع فعلًا، وهذه رحلة أصعب من رحلته إلى دمشق بكثير؛ عليه الذّهاب إلى مركز أمْني، أن ينشر إعلانًا في الصّحف، أن يذهب إلى المحكمة، وهناك يقرِّر القاضي الخطوة التالية.

أيامًا طويلة أمضاها يتنقّل من مكان إلى مكان، في نهايات ذلك الصيف. بدأ جسده يضعف، لون بشرته مال إلى الرّمادي، ثمَّ إلى السّواد، وأوشك خداه أن يلتقيا داخل فمه. غارتْ عيناه، ووجد نفسه مضطرًّا للاستعانة بعكاز لأوّل مرّة في حياته.

***

أخبرنا: التحقيق معه في مركز الأمن، كان قاسيًا، متشعِّبا، يُضمر الكثير من التُّهم، كأنه المسؤول الأوّل عن هزيمة حزيران. وحينما يعتقد أن الأسئلة انتهت، يُفاجأ بأسئلة جديدة عن السبب الذي يدفعه للحصول على جواز سفر في هذا العُمر. يرتبك من جديد، فيسألونه عمّن سيلتقي هناك، وهل سيذهب مبعوثًا لطرَف مُعادٍ، ليُسلِّم رسالةً ما، في سنوات لم تكن فيها العلاقات السورية الأردنية على ما يرام.

جدّي كره الأسئلة وثار.

- أريد الذّهاب إلى هناك لكي أتزوّج.

ضحكوا كثيرًا، اعتقدوا أنه يسخر، لكنهم تأكدوا بعد قليل أنه لم يكن يسخر، ففاضت الأسئلة المتهكِّمة، الأسئلة المُحرِجة عن عمْره، عُمْر العروس، بل وتمادى أحد رجال الأمن وسأله: وهل هي على قيْد الحياة، أمْ ميتة؟

تركهم يسألون إلى أن انتهتْ الأسئلة كلّها، بقيَ صامتًا، إلى أن قال المسؤول وهو يمسح دموعه لفرط ما ضحك:

- أعطوه ما يريد، فليذهب حيثما يريد، إلى الشام أو إلى جهنّم.

***

وظلّ السؤال الذي لم يفارقْه ولم يفارق أيًّا منّا يدور: "أين اختفى جواز سفره؟"، وتعالى الهمس أكثر فأصبح أصابع خفيَّة تشير إلى خالي الكبير.

أسوأ ما في الأمر، أن ذلك الجدّ المشهود له بالشجاعة لم يستطع أن يقول بصوت عالٍ إن ابنه هو مَن أخفى الجواز. وفي الوقت الذي أصبح خوف بناته وأبنائه عليه أكبر، راقب المتّهمُ بإخفاء الجواز المشهدَ بشماتة ظاهرة، هذا الشّامت الذي سيتبيّن لنا بعد سنوات قليلة، حين مات شابًّا، فجأة، أن له زوجة سريّة، جاءت إلى بيت العزاء، لا لتبكي، بل لتطالب بحصّتها من الميراث، قبل أن يُدفن.

في بيت جدي، كنّا نستعدُّ للذهاب إلى مقر إحدى الصحف لنشر الإعلان الذي كتبتُه مستعينًا بنور، نور التي كانت تبكي. لم أرَها تبكي أبدًا قبل ذلك، حكاية جدي قطّعتْ قلبها؛ كلّما كنّا نسير معًا، صامتَين، في تلك الفترة، لا تقطع صمتنا إلا أسئلتها: "ما الذي يريدونه منه؟ لماذا لا يمنحونه حريته؟"، ثم يرتفع صوت سؤالها أكثر: "لماذا يقتلونه؟ لأنه يُحبّ؟".

لم أكن قادرًا على أن أعلّق، كنت أساعده وحسب، لعل تلك المساعدة هي تعليقي، كلامي، وربما صرختي أيضًا.

قبل ذهابنا إلى الصحيفة، وقف، توقّعتُ أن يسير، طال وقوفه، خطا خطوة واحدة، اتكأ إلى حافّة باب الغرفة، وأغمض عينيه.

لم أعرف إن كان يحاول أن يمنع دمْعه من التدفّق، أو أنه يتذكّر، أو أنه

يجمِّع ما تبقى فيه من قوة ليسير، أو لينظم قصيدة سيسمعُني إياها.
أخبرته أننا تأخّرنا، ولم يتحرّك. ظلَّ واقفًا، في وقت تقبض فيه يده بقوة على العكاز المنغرس في التراب، أمام العتبة.
لم يتحرّك، ولم يفتح عينيه.
خفتُ...
تقدّمتُ منه، برقَّة أمسكتُ طرف قمبازه وهززته.
صمتٌ...
عند ذلك انطلقتُ راكضًا أدقُّ أبواب جيرانه، دون أن أنتظر خروجهم، طرقتُ عشرة أبواب على الأقل، عدتُ، فرأيت الجيران على عتباتهم يراقبونني أركض كالمجنون، دون أن أتوقّف عن البكاء، وصلتُ إلى باب جدّي المشرع، وجدتُ عينَي جدي المغمضتين في انتظاري، وعندها صرخت:
- جدّي مات.

8

كانت المقبرة قريبة من المخيم، المقبرة التي سيتّسع اسمها ليغدو "مقبرة الشهداء". لم يجدوا لجدّي مساحة باتساع قبر، بجانب جدّتي، دفنوه على بعد ثمانية قبور، شمال قبرها، وتلك مفارقة غريبة، لم نلاحظها إلا متأخِّرين، فقد كان موقع القبر إلى الشمال، باتجاه دمشق، لكن المسافة التي تفصله عن جدتي لم تكن كبيرة، وربما هي المسافة الباردة الصامتة نفسها التي فصلتْه عنها في آخر أيامهما.

قبل أن يضعوه في القبر، علّق أبي:

- يا إلهي! لم أحمل نعشًا بهذه الخفّة في أيّ يوم من الأيام، ولولا أنني وضعتُه بيدي فيه، لأقسمتُ أنه فارغ. وصمتَ، وبعد أن وضعوه في القبر، أضاف: لقد كنت أنظر خلفي خائفًا أن يكون جسده قد سقط.

نور التي انتظرت الجنازة عند سور المقبرة، وراقبتْنا من بعيد، باكية، لوَّحت لي، فذهبتُ إليها.

في ذلك اليوم المشمس، السابع عشر من شهر حزيران، سرْنا جميعًا، عائدين، نحو شارع مأدبا، ثم إلى المخيم، وصامتَين، جنبًا إلى جنب، نور وأنا، وبين حين وحين نلمح بعض نظرات الاستغراب من رجال لا يعرفون ماذا تمثّل نور لي ولأهلي، وماذا أمثّل لها.

صامتًا كان بيت العزاء الذي أقيم في بيت جدّي الفارغ، لكن الصمت محتشد، حينًا بنظرات اللوم والاتّهام لمن تسبّب في موته، وحينًا بنظرات مُغمَّسة بالدّموع. أنظر صوب باب الغرفة فأرى جدّي مستندًا إلى حافّة الباب، أبتعد بوجهي قليلًا، فتلاحقني أسئلة نور، أسئلة نور التي لم أجد لها إجابات: "ما الذي يريدونه منه؟ لماذا لا يمنحونه حريته؟ لماذا يقتلونه؟ لأنه يُحب؟".

خفتُ من الحب، من أن يكون مصيري مصيرَ جدّي ذات يوم. هل ستنشب حربٌ كبيرة أخرى فأجد نفسي في بلد، ونور في بلد آخر؟

9

مندفعًا كنتُ أكتب الشعر، لكن كثيرًا من الأشياء التي كتبتُها في دفاتر نور، كانت، أيضًا قصصًا، قصصًا سمعتُها، وقصصًا عشتها، وقصصًا عن العائلة، عن عمّتي والمصريّ.

ما حيرني أنني كلّما كنتُ أبدأ بكتابة قصة أعرفها، تبدأ القصة بالتّغيّر ببطء، حتى تغدو بعيدة عن الأصلية، أو لا تشبهها أبدًا. في ذلك الوقت لم أكن أعرف إن كان ما أفعله هو الصحيح أم أن ذلك لا يحقّ لي.

قررتُ أن أكون أمينًا مع القصة الحقيقية، فكتبتُ بعض القصص، كما هي، لكنني للحقيقة لم أستمتع بها، أحسست بأنني استوليتُ عليها لا أكثر.

قررتُ العودة إلى مكتبة أمانة العاصمة، وبدأت بقراءة رواية اسمها "العبرات" للمنفلوطي، لم أحبّها، مع أنني لم أستطع تركها إلى أن أنهيتها، ظلّتْ دموعي تنهمر إلى أن بلّلت وجهي وصدري، وقرأت رواية محمد عبد الحليم عبد الله "لقيطة" فبكيتُ، ولكن أقلّ.

ذات يوم ذهبت إلى المكتبة وأنا مصمم على قراءة رواية مثل: "قصة مدينتين"، و "الآمال الكبيرة"، مع أنهما حزينتان أيضًا.

سلّمتُ موظف المكتبة رواية "لقيطة"، فقال لي:

- أظنّك بحاجة لشيء أفضل من تلك الكتب التي تستعيرها منذ أسبوعين.

نهض من مكانه، وسبقني إلى رفوف لم أصِلها من قبل، وحين رأيت يده تمتدّ إلى رفٍّ عالٍ، خفق قلبي بشدة، وأدركت أن هذا الرجل يعرف ما في رأسي، مثل أمّي. ناولني رواية اسمها "التّحفة" لكاتب اسمه إميل زولا؛ أعجبني اسمه، وإن كنت أحسستُ أن اسم الرواية غير جذّاب:

- إذا قرأتَ هذه وأحببتَها، أنصحكَ بروايتين أخريين.

***

أحببتُ الرّواية، وإن كانت نهايتها حزينة جدًا، حيث يشنق بطلها الفنان

نفسه، بعد أن أرغمتْه زوجته كريستين أن يقول كلامًا قبيحًا ضدَّ الفنّ، فيتسلل من سريرهما، ويمضي إلى مرسمِه، يُعلِّق الحبْل في العوارض التي تحمل اللوحة الكبيرة، وينتحر.

بقيت لأيام طويلة أفكّر في الصفحات الأخيرة من الرواية، فأحسست أن كلّ من حولي كانوا أرقَّ من تلك الزّوجة، لقد اعترضوا على أن أصبح شاعرًا، لكنهم لم يشتموا الشِّعر، كما فعَلتْ كريستين وهي تجبره على أن يردّد خلفها:

– قل إنك لن ترسم أبدًا، قل إنكَ تحتقرُ الرّسم، قل إنك ستحرق لوحاتك إكرامًا لي...

كلّ ذلك الكلام الصعب، أجبرتْه على أن يردِّده، لذا، كانت نهايته الحزينة تلك.

تلك الرواية فعلتْ ما هو أكثر، إذ للمرّة الأولى أقرأ عن الأصل، الذي هو كريستين، واللوحة المرسومة لها. وفرحتُ بهذا، لأنني كنت مهمومًا أتساءل عن القصة الأصلية، وكيف تتغيّر عندما أكتبها، وإن كان يحقّ لي هذا أم لا.

بطريقة من الطرق كان حبْل الموت الذي التفّ حول عنُق الفنان، كلود، حبْلَ نجاة لي، لأنني فهمت أن الفن مختلف عن الواقع، وأن كريستين كائن بغيض.

حمدت الله أن نور تحبّ ما أكتب وتنتظره، وأن أمّي راضية، حتى بعد أن انتصرتُ عليها، وأن عمّتي مستعدّة لأن تقف معي وهي تخيرني إن كنتُ أريد مولودًا بنتًا أو ذكرًا، لكي أكون ما أريد، رغم أنني أعرف، أنها لا بدّ، تتمنّى أن تُنجب ولدًا يُذكّرها بالمصريّ، ويتحدّث المصريّة أيضًا.

***

بعد أن سألني موظف المكتبة عن "التحفة"، ولم يحظ سوى بصمتي، قال:

– الأعمال الجيدة تجعلنا نفقدُ القدرة على الكلام، إن حدث هذا معك، فأنتَ تملك موهبة أخرى، أهمّ من موهبة الكتابة.

التفتُّ إليه وكأنه شتمَني.

– لا تُسِئ فهمي، لأنكَ إن لم تملك هذه الموهبة، فلن تكون كاتبًا، أعني

كاتبًا حقيقيًّا.

– وما اسم هذه الموهبة؟

– قد يكون اسمها صعبًا عليك، ولكن اسمها "موهبة التّلقّي".

قال ذلك وهو يبتسم، فأخرجتُ الورقة المطويّة في جيبي، وكتبتُ اسم تلك الموهبة الغريبة.

– أعرف أن الأمر يبدو حتى الآن غامضًا بالنسبة إليكَ، لذا، أريد أن أشرح ما أعني، وما أعنيه هو: إذا قرأتَ وأدركتَ قيمةَ ما تقرأ، فهذه موهبة، لأنكَ ستستفيد مما قرأتَ، وإذا قرأتَ وأحسستَ بها قرأته، فذلك يعني أن روحكَ يقظة، وقلبك أخضر، غير متيبّس، لذا، ستصبحُ عيناك أفضل، وسيكون للأشياء التي تراها معنًى آخر. أما إذا قرأت شيئًا رائعًا ولم تُصبْك روعتُه وجماله والطريقة التي كُتِبَ بها، فهذا يعني أنكَ لم تستفِدْ منه، وباعتبارك تملك هذه الموهبة الرائعة، منذ أن رأيتكَ أوّل مرّة في المكتبة، الموهبة التي أفرح كثيرًا حين أعثر على واحد من رواد المكتبة يمتلكها، فأعتبره كنزًا، كالمكتبة نفسها، فسأسمح لنفسي أن أرشّح لك رواية أخرى تتحدّث في الموضوع نفسه الذي جاء في رواية "التّحفة".

سار عدة خطوات، امتدّت يده إلى رفٍّ في المنتصف، وناولني رواية "صورة دوريان غراي"، لكاتب اسمه أوسكار وايلد.

لم أستطع أن أخفي قلقي وأنا أقرأ اسم الرواية، فقد كان صعبًا، ليس كاسم رواية زولا.

وتغيّرت حياتي، فما إن قرأت الرواية حتى أُخِذْتُ بها أكثر مما أُخُذْتُ بالأولى، وحين أعدتُها، كنت على وشك أن أقفز إلى أعلى الحاجز الذي يجلس موظف المكتبة خلْفه، لأعانقه.

كنت ألهث انفعالًا، وكان سعيدًا كما لم أره من قبل.

***

لم أستطع مفارقة رواية وايلد، بحثتُ عنها واشتريتها، واشتريت رواية اسمها "الجوع" لكاتب اسمه كنوت هامسون، وجننتُ بها، ولحسن الحظ، أن هاتين النّسختين القديمتين ما زالتا عندي حتى اليوم؛ انضمّتْ كتبٌ إلى مكتبتي، وخرجتْ كتب منها، ولم أعرْهما لأحد، فسلِمتَا.

كتابتي عنهما هنا، دفعتْني للتوقّف عن الكتابة قليلًا، والنهوض للبحث

عنهما، فوجدتُ أن تاريخ طباعة "الجوع" هو 20 تشرين الثاني، نوفمبر، 1965، أجل باليوم والشهر والسّنة، عن دار الرّوائع، ومن ترجمة محمود حسني العرابي، أما مُراجع الترجمة ومدقّقها، فهو الشاعر اللبناني جورج جرْداق، الذي لم يسبق لي أن لاحظتُ وجود اسمه على صفحتها الثالثة تحت العنوان، مع أنه صاحب أغنية أم كلثوم، الشهيرة، "هذه ليلتي"، التي صدَّرتُ ببيت من أبياتها روايتي "حارس المدينة الضائعة" التي يختفي فيها سكان عمّان، وسكان عواصم العالم، ويعمّ الصمت، إلى أن يبلغ الاختفاء ذروته عام 2020، يقول البيت:

وديارٌ كانت قديمًا ديارا   ستَرانا، كما نراها قِفارا

***

غبتُ أكثر مما يجب عن المكتبة، كنتُ منشغلًا بامتحاناتي وتفكيري في الكتابة ورعايتي لفدوى التي أصبحتْ مهمّتي الأساسية، بحيث أصبحتُ أطلب من أمّي إذا خرجتُ لسبب ضروريّ، أو انشغلتُ بقراءة دروسي أو الكتابة:

– هل يمكنني أن أترك فدوى عندكِ لتعتني بها، عليّ أن أفعل شيئًا ضروريًّا، أو مهمًا؟ فأنا لا أستطيع أن أكون مطمئنًا عليها إذا تركتُها مع أحد غيرك.

أمّي كانت تبتسم دائمًا، وتقول لي:

– لا تقلق ستكون فدوى في بين أيد أمينة.

***

وعدتُ إلى المكتبة، فرأيت الموظف يقفُ بسرعة، وكأنه فقد الأمل بعودتي.

شرحتُ له أنني كنت أقرأ رواية اسمها "الجوع"، فهزّ رأسه:

– أتعرف أن صاحبها أخذ جائزة نوبل؟

– قرأت على غلافها ذلك، ولكنني لم أعرف ما هي هذه الجائزة.

– هذه أكبر جائزة في العالم يمكن أن يحصل عليها كاتب. هل أحببتها؟

صمتُّ طويلًا، ثم قلت:

– أحسستُ أنني لا أريد قراءة شيء بعدها.

– لم أعد أخاف عليكَ. هل تريد أن أختار لك كتابًا؟ أم تذهب وتختار

بنفسك؟

- أرجو أن تختار لي.

- أنت تؤكد لي أنك حريص على الموهبة التي حدَّثتكَ عنها، ما هو اسمها؟

- موهبة التّلقّي، ولكن لماذا تقول إنني حريص عليها؟

- لأنك لم تزل بحاجة لغيركَ كي ينصحك.

***

في ذلك اليوم عدتُ بكتابين: رواية لإميل زولا اسمها "الأرض"، ومجموعة من القصص في كتاب اسمه "الجدار" لكاتب اسمه جان بول سارتر.

رآه بشير في يدي، فقال مندهشًا:

- جان بول سارتر مرّة واحدة؟ وكان قد سبقني إليه، وإلى ألبير كامو.

في تلك الأيام أحسستُ أنني شخص آخر تمامًا، وأن حجم رأسي تضاعف فعلًا بسبب الشّخصيات والأحداث التي باتت في داخله، لدرجة أنني أصبحتُ أرى نفسي في المرآة عشر مرّات على الأقل لأطمئن. تجرّأتُ وسألتُ أمّي إن كان حجم رأسي تضاعف، وسألتُ نور، فضحكتْ كثيرًا، وقالت لي: الحمد لله أنك لاحظتَ ذلك، لأنني خجلتُ من أن أقول لكَ هذا.

- صحيح؟

رفعتُ يدي واحتضنتُ رأسي، فراحتْ تضحك وتضحك، كانت تلك هي المرّة الأولى التي أرى فيها دموع الفرح في عينَي نور، منذ أن رأيت دموع حزنها على جدّي.

في ذلك اليوم، كلّما كانت تتوقّف عن الضحك تعود من جديد، فتضحك أكثر، إلى أن أحسّتْ أنني بدأتُ أغضب، فكتمتْ ضحكة طويلة في منتصفها، وأخذتْ نفسًا، وقالت لي:

- برييييئ، ستبقي بريئًا.

***

لم يتوقّف الأمر عند هؤلاء الكتاب الذين فتنتني كتبهم، فذات يوم، عثرت على كاتب سيتسببُ في نشوب معركة كبيرة مع أمّي.

10

كما تمرَّدت نور على جدّتها وأمّها ومديرة مدرستها، وعلى الأعين التي تنظر إلينا غاضبة كلّما سرتُ وإياها وحيدين، تمرّدت في المعسكر.

- "أنتم تضحكون علينا، تدرِّبوننا، ثم نجلس هنا لا نفعل شيئًا"، قالت لقائد المعسكر.

- نحن ندرّب الزّهرات والأشبال كي يكونوا جاهزين ليوم المعركة.

- منذ شهور ونحن ننتظر يوم المعركة ولم يحدث.

- نحن نُعدّكنَّ لمعركة التّحرير.

- وما الذي علينا أن نفعله من الآن حتى معركة التحرير؟

كانت نور تحدّثني بحماسة، وكأنها فتحت البابَ الذي طالما أغلقوه في وجه تحرير فلسطين.

حدَّثتْني كيف أن القائد لم يجد إجابة مُقنِعة، غير أن يُطمئن الزَّهرات أن فلسطين لن تبقى تحت الاحتلال ما دامت هناك أجيال جديدة وِلِدتْ وتُولد.

"لكنني رفضتُ هذا الكلام، وقلت له: هذا الكلام كان جميلًا ويعجبنا قبل أن نتدرّب، لكن بعد أن تدرَّبنا، نريد أن نسمع كلامًا غيره".

- أيّ كلام تريدون سماعه؟

- أن تقولوا لنا إننا سنذهب لتنفيذ عملية عسكرية.

- عملية عسكرية؟ لسّه بدري.

- نريد أن نشارك في عملية عسكرية.

خرج قائد المعسكر، وعندما عاد، أخبر الجميع أن هناك موافقة على اشتراك عدد من الزّهرات في العملية بعد أسبوعين.

- بل غدًا. ردّدتْ أكثر من زهرة.

- يا أخوات، العملية تحتاج إلى أن نُعاين موقع العدوّ الذي سنهاجمه، وعدد الجنود فيه، ونوع أسلحته، ثم طبيعة المنطقة، ثم نضع خطة تشمل عدد الأخوات اللواتي سيشاركن، والأسلحة التي نحتاجها ونوزّع مهامّ الاقتحام

والحماية وخطة الانسحاب، وتفاصيل كثيرة أخرى.
- "إذًا بعد يومين"، تصاعد أكثر من صوت.
- يومان لا يكفيان لما تحدثتُ عنه.
- ثلاثة.
- لا يكفي.
- أربعة.
- لا يكفي.
- خمسة.
- لا يكفي.
- لن ننتظر أكثر من أسبوع، أسبوع يكفي، حرب حزيران حدثت في ستة أيام، قالت نور.
- لهذا هُزمتْ الجيوش العربية فيها.
- لأنها لم تهاجم، انتظَرتْ حتى هاجموها، والفرق أننا نحن الذين سنهاجم هذه المرّة، ردّت.
"أخذ قائد المعسكر نفَسًا، فأحسستُ بأنني انتصرتُ عليه"، قالت لي نور.
- بعد أسبوع، هذا آخر كلامي، أكّد القائد.
فرحتْ الزّهرات. بدأت تدريباتُ مكثفة، ورُسمتْ خرائط، وتشكَّلتْ المجموعات، وحُدِّدتْ المهام، ولما حان موعد العملية، جاء مطر شديد في غير موعده في ليلة الجمعة تلك، فتدفّقتِ السيول، وتحوّلتِ الأرض إلى مستنقعات من الطين.
توقّعت الزهرات أن العملية ألغيت حين ظهر القائد أمامهنَّ بوجه بدا عابسًا.
- "هل أُلغيتْ العملية، بسبب الأمطار؟"، سألتْه نور.
- لماذا تظنين هذا؟ نحن نرى أن فرصتنا باتتْ أفضل، لأن المطر سيجعل مجال الرؤية لدى الجنود أضعف، كما أن البرد الشّديد، سيجعلهم منشغلين بتدفئة أنفسهم.

***

اثنان كانا يعرفان بأن هناك عمليّة، والدها وأنا.

لا أعرف من كان خائفًا من بيننا أكثر، إلى أن رأيتُ هدوء أبيها، فعرفتُ أنني الأكثر خوفًا عليها.

في التاسعة مساء تحرَّكتِ المجموعةُ، في سيارة عسكرية، وبعد ساعة توقّفت السيارة في منطقة فيها الكثير من الأشجار. كان الصمت رهيبًا، كما وصفتْه لي نور، وصوتُ الماء يتدفق قويًّا، بحيث استغربن أن للنهر صوتًا عاليًا كهذا، هنَّ اللواتي يسمعن صوت النّهر للمرّة الأولى.

- أهذا صوت النهر، نهر الأردن؟

- أجل، ولكن لسلامة الجميع، سنعبر من منطقة يكون فيها ماء النهر غير مرتفع.

في ذلك الليل داروا كثيرًا، ابتعدوا، عبروا بساتين، وقبل النهاية عبروا جدول ماء لم يصل إلى مستوى رُكَب المهاجمات الصغيرات، رغم قِصرهنَّ.

أشار القائد للموقع، ووزّع القوّة، هجومًا وحماية، وبعد دقائق اشتعلتِ المعركة.

إطلاق نار من الجانبين، وصرخات متصاعدة من موقع العدوّ، تشير إلى أنّ هناك إصابات في صفوفه، ثم أمرٌ بالانسحاب لأن المعركة حققتْ هدفها بنجاح.

انسحبتْ المجموعة، زحفًا، حتى وصلتْ إلى منطقة آمنة، والتقتْ بالمقاتلات الأخريات قرب السيارة العسكرية. لا إصابات، كانت الفرحة كبيرة كما قالت نور، ولولا الخشية من أن يسمع العدو الغناء لغنَّين، لكن الغناء لم يتأخّر، فما إن ابتعدت السيارة حتى ارتفع غناء الزّهرات:

أنا يا أخي، أنا يا أخي
آمنتُ بالشعب المُضيَّع والمكبَّل
فحملتُ رشاشي
لتحمل بعدنا الأجيال منجلْ
وجعلتُ جرحي والدماء للسهلِ والوديان جدولْ
ديْنٌ عليكَ دماؤنا
والدَّين حقٌّ لا، لا، لا يؤجلْ.

مكتبة

***

في ذلك الفجر، أوصلتِ السيارةُ كلّ زهرة إلى بيتها. لكن أمرًا ما جعل نور غير مطمئنة حين وجدت أن عائلتها نائمة؛ حتى أبوها الذي يعرف السِّرّ. الزّهرات الأخريات وجدن أهلهن نائمين أيضًا، باستثناء واحدة وجدتْ أخاها الكبير ساهرًا. حاولتْ نور في الصباح أن تعرف شيئًا ما، لكن والدها اكتفى بتهنئتها بالسّلامة، كما يهنئها بعلامات امتحانات الشّهرين.

كنت أنتظرها صباح ذلك اليوم أمام منزلها لتطلّ، وكلّي خوف من أن أطرق الباب.

- "الحمد لله على السلامة"، قلتُ لها.

أخذتْني من يدي، وابتعدتْ بي عن بوابة المنزل.

- قلبي غير مطمئن، لقد ذهبنا، خُضنا معركة وعُدْنا، ولم نُصَب بأي جرح، باستثناء شوكة دخلت في كفّ إحدى الأخوات وهي تزحف أثناء الانسحاب، غريب. ثم إنك أكثر خوفًا عليّ من العائلة كلّها".

- هذا يعني أن الله حماكم.

- "برييييي‌ء"، قالتْ بنبرة مختلفة.

***

بعد يومين رأيتُها مُقبلة نحوي، وقبل أن تصل، سمعتُ صوتها العالي الغاضب: اعترفوا، لقد اعترفوا.

ووصلتْ.

- بماذا؟

التقطتْ أنفاسها بصعوبة، وقالت:

- "حين واجهتُ الأخ جورج عسل[10]، أبو خالد، اعترف. اعترف أن العملية كانت غير حقيقية، أنها تدريب، وقال أنتنَّ لم تعبرن النّهر، عبرتنّ أحد روافده. لقد ضحكوا علينا حتى في هذه، هل تصدّق؟ لقد ضحكوا علينا"، راحت تردّد بغضب.

---

[10] - جورج شفيق عسل (أبو خالد) من مواليد القدس عام 1944، أنهى تعليمه الثانوي من الكلية الإبراهيمية في مدينته، والجامعي في دمشق. وهو شقيق المفكر منير شفيق. أستشهد يوم 3/ 8/ 1976 في مرتفعات جبل صنّين، وهو يتصدى للقوات الانعزالية التي حاولت مهاجمة مواقع القوات اللبنانية الفلسطينية المشتركة على مدى ستة أيام.

11

دون جدوى، راحت أُمِّي تسعى لإنجاب ولد جديد، رغم أن فرحتها بفدوى كانت ظاهرة للجميع؛ كأنها بعد أن منحتْني إياها، قررتْ أن تستردَّها.

لم تعُد تفارقها، في وقت لم أعُد أفارق الشِّعر، لأثبتَ أنني أستحقّ أكبر جائزة حصلتُ عليها، أو يمكن أن أحصل عليها في حياتي: فدوى.

لكنني، كنت أيضًا أشاهد الأفلام، وأواصل قراءة الرّوايات والقصص بافتتان، وتصاعد افتتاني بعد قراءتي لقصة قصيرة اسمها "صوت الرّعد"، وجدتها مترجمة في إحدى المجلات الأدبية التي تحرص مكتبة أمانة العاصمة على وجودها.

تلك القصة، غيَّرتْ، فجأة، كلّ شيء فيّ؛ أحسستُ بعقلي يُصبح بحجم الفضاء بسبب ذلك الخيال العظيم الذي لم يسبق لي أن عرفتُه من قبل، في قصص أو روايات أيِّ كاتب، أو شِعر أيّ شاعر، أما الأهم من ذلك كله فقد أخافتني.

حين وقعتْ عيناي على عنوان القصة تفاءلتُ، لكنني تشاءمتُ حين وقعتا على اسم كاتبها، كما حدثَ مع اسم رِواية أوسكار وايلد.

صوت الرعد

بقلم: راي برادبري[11]

مررتُ بسرعة على المقدمة التي كتبها المترجم عن حياة المؤلف، المقدمة

[11] – ولِد راي برادبري عام 1920، ولاية إلينوي. في الحادية عشرة من عمره بدأ بكتابة قصصه الخاصّة التي تميّزت بالغرائبية الممتزجة بالخيال العلمي. كتب 13 رواية وأكثر من 400 قصة قصيرة، ومسرحيات وسيناريوهات أفلام سينمائية وتلفزيونية خلال حياته الأدبية التي امتدّت منذ أربعينيات القرن الماضي حتى عام 2012. روايته "451 فهرنهايت" أشهر أعماله، ونشرت عام 1953.

لم يزل برادبري واحدًا من أفضل الكتاب العالميين الذين أحبّهم.

المختصرة لسيرته. كان همّي مُنصبًّا على القصة، القصة التي سأكتشف بعد سنوات أن المترجم كان قد لخّصها؛ القصة التي تبدأ بالإعلان التالي: "مؤسسة السياحة عبر الزمن/ رحلات إلى أيّ عام تريد/ اختر الحيوان الذي تريد اصطياده/ نحن سنمضي بك إلى الزمن الذي يعيش فيه/ لكي تقوم بصيده"، وها أنا الآن أُلخصها مثله بعدد كلمات أقل:

تدور الأحداث في عام 2055 ، حيث أصبح السفر عبر الزمن حقيقة، فتنظّم شركة للمغامرين الأثرياء فرصة السّفر عبر الزمن إلى ما قبل ستين مليونًا وألفين وخمس وخمسين سنة، لمطاردة الأنواع المنقرضة مثل الديناصورات. يدفع صياد يُدعى إيكلز 10 آلاف دولار للانضمام إلى الرّحلة. يغادرون في وقت تكون البلاد فيه سعيدة بنتائج الانتخابات التي يفوز فيها "كيث" المرشح الجيد. يطلب (دليلُ الصّيد) من إيكلز والصيادين الآخرين أن يتوخوا الحذر كي لا يكونوا السبب في تغيير شيء موجود (في الماضي) قبل عودتهم، مهما كان هذا الشيء صغيرًا، لأن ذلك سيتسبب في تغييرات كارثية في الطبيعة والتاريخ. ويؤكد لهم ضرورة أن يلتزموا السّير فوق الممرّ المعلّق، الأشبه بجسر، المخصص لسيرهم؛ والذي يخرج من آلة الزمن، حتى لا يُلحِقوا أي ضرر بالبيئة، وأن يكتفوا بقتل حيوان واحد لا مستقبل له، وكلّ من يتسبب بأذى لأي كائن نباتي أو حيواني آخر فسيدفع غرامة كبيرة. فقد تمّ إرسال فرقة كشافة قبل بدء الرّحلة لتحديد ما هو مسموح باصطياده من الكائنات التي لن يكون لاصطيادها أي تأثير على المستقبل.

يكون إيكلز متحمسًا للصيد بتهوّر، ولكن عندما يقترب الديناصور منهم يفقد أعصابه، ويبتعد عن المسار المحدّد ويتعثر في الغابة. وعند العودة إلى عام 2055م، تكون هناك تغيّرات في نطق الكلام لدى الناس، واختلاف في تصرّفاتهم، كما أن المرشح العنصري المتعصب "ليمان" قد فاز في الانتخابات بدلًا من "كيث".

ويكتشف الدليل، حين ينظر إلى طين على حذاء إيكلز أن هناك فراشة مسحوقة، تسبب موتها في حدوث تغييرات في الزمن والطبيعة والحاضر الذي عادوا إليه. ويكتشف الجميع أن الخطأ الذي ارتُكب لا يمكن

إصلاحه، وعند ذلك يوجه الدّليل مسدسه إلى رأس إيكلز ويطلق النار.

***

كتبتُ اسم برادبري على ورقة صغيرة، ولم أكن بحاجة لكتابة اسم القصة التي انحفرت كلّها في داخلي. اتجهتُ إلى موظف المكتبة: "إذا سمحتَ، هل هناك قصص لهذا الكاتب؟".

تأمّل الاسم طويلًا قبل أن يجيب: "للأسف لا، ولكن لماذا تسأل عنه بالذات؟".

- "قرأتُ له قصة أعجبتْني كثيرًا".

- أين؟

- "في مجلة هناك"، وانطلقتُ نحو الطاولة التي تركتُ فوقها المجلة، حملتُها بسرعة وعدتُ إليه، وأنا ألهثُ انفعالًا، لا تعبًا.

ناولتُه إياها.

- هل يمكن أن تتركها لي عشر دقائق لأقرأها، ما دمتَ انتهيتَ منها؟

ارتبكتُ بسبب طلبه، لأنني اعتبرته صاحب المكتبة، لا أمانة العاصمة. ابتسمتُ وابتعدتُ.

بعد قليل رأيتُه يشير إليّ، فتوجَّهتُ إليه، لاهثًا أكثر، بسبب انفعالي الذي تعاظم، وخوفي من رأيه في ما قرأتُ.

- لقد اكتشفتَ بابًا لكنْز لم يسبق لي أن عرفتُ بوجوده، وذلك يدفعني لأن أبحث في الكتب والمجلات، منذ الآن، عن كتابات هذا الكاتب، وإذا وجدتُ شيئًا، اطمئن، ستكون أوّل من يقرأه، لأنه اكتشافك.

شكرته، لكن انفعالي ازداد، فها أنا أكتشف كاتبًا عظيمًا لا يعرفه موظف المكتبة، أو "القلب البصير" كما أدعوه.

- كأنك تُريد أن تقرأ القصة ثانية؟

- بل عشر مرّات، عشرين، سأظلّ أقرأُها إلى أن تغيب الشمس وتُغلق أبواب المكتبة.

***

فكّرت بنسخ القصة، اكتشفت أنها أطول من أن أستطيع ذلك في ما تبقى لي من وقت قبل إغلاق المكتبة، فلخّصتها؛ ما جعلني أحفظ تفاصيلها كلها،

كما نسختُ سيرة الكاتب المختصرة، وأسماء عائلته، بدءًا من زوجته مارغريت ماكلور، وكم أعجبني اسم ابنته الأولى "رامونا"، فتّشتُ عن اسم أخت له، فلم أجد، تحدّث المترجم عن أبيه وأمّه، لكنه لم يذكر إن كان للكاتبِ أخوات أو إخوة.

- "رامونا، رامونا، رامونا"، رحتُ أردّد.

في ذلك اليوم خفق قلبي بشدّة، كما لم يخفق منذ قدوم فدوى إلى هذا العالم.

لم أنتظر غروب الشمس بعد أن أصبح الملخّص في جيبي.

ودّعتُ موظف المكتبة، وما إن وصلت الباب حتى سمعتُ صوته:

- إلى أين؟

- إلى البيت.

- كنت أريد أن أُعلِمك أنني وجدت نسخة من روايته "451 فهرنهايت"، ولكنك للأسف لن تستطيع قراءتها بالإنجليزية.

- "بل أستطيع، أعني أعرف من يستطيع"، قلتُ له وأنا أفكّر في والد نور.

- إذا كان الأمر كذلك، فيمكنكَ أن تستعيرها، ولا مشكلة إن تأخّرتَ قليلًا في إعادتها، لأنني لاحظتُ أن شخصين، لا غير، استعاراها منذ دخولها المكتبة.

راكضًا غادرتُ المكتبة وسط دهشة صديقيَ، "القلب البصير"، وفي الطريق رحتُ أحاول تخيّل ما يمكن أن تكون عليه أحداث روايته، وكم ستكون عظيمة.

لكنني بعد دقائق ارتبكتْ خطواتي، إذ بتّ أنظر أمامي خائفًا من أن أدوس نملة أو حشرة أو حتى صرصورًا. ثم انطلق خيالي بعيدًا باحثًا عن عصافير اصطدتها، ذباب، دود، فأر، عشبة دستها بلا اكتراث، كما في القصة، أفعى، عقرب، سحلية، تسببتُ بموتها، وحين عاد خيالي إلى مكان انطلاقه، أحسستُ بأنني ارتكبت أكبر مجزرة بحقّ الإنسانية والطبيعة والزمن القادم، حتى يوم القيامة.

حزنتُ، لكن ما خفّف من نتائج أفعالي تلك، أنني لم أكن أعرف.

فكّرتُ بالذّهاب إلى بيت نور، أولًا، تراجعتُ عن ذلك، كان من الصعب

أن ألقاها وأنا محمّل بكلّ تلك الخطايا. قررتُ أن أستقل الحافلة لأنني لم أجرؤ على أن أقطع الطريق إلى المخيم على قدمَي.

كنت أهم بوضع قدمي اليمنى على درج الحافلة لأصعد، حين وجدت أنها علقت في الهواء، كما لو أنها علقت في بحر طائر من الطين؛ دفعني أحدهم من خلفي فأوشكت أن أسقط. حين جلست على أوّل مقعد وجدته فارغًا، فتحتُ الورقة التي في جيبي، ورحت أفتش عن إجابة لذلك السؤال الكبير الذي فاجأني: هل برادبري حيّ؟

لم يكن هناك ما يشير إلى أنه ميت في السيرة المختصرة التي بين يديّ، أوشكت أن أصرخ فرحًا.

وجدتُ أُمّي جالسةً على عتبة بيتنا، بجانبها فدوى التي عبرتْ عتبات عامها الثالث، كانت أجمل طفلة في المخيم وضواحيه، والأحياء التي تصل إلى قلب العاصمة؛ الأحياء التي أعرفها جيدًا. فدوى التي تنظر إليّ كما لا تنظر إلى أحد في العائلة، لاحظ الجميع هذا، حتى أن أمّي كانت تقول: كأنكَ أنتَ أمّها، لا أنا.

... وبجانب أمّي، جلستْ عمّتي التي كانت فرحتها بفدوى لا تقلّ اتساعًا عن فرحتها بابنها، وإلى جانبها سعاد جارتنا، سعاد التي يتراكض صغيرها مسابقًا الريح بلا أيّ لباس يستر قفاه.

دون مقدّمات بدأتُ بقراءة ملخص قصة برادبري، وكلّما تذكرتُ حدثًا غائبًا أضفته من الذاكرة.

كم فاجأني أن أُمّي راحتْ تتابع أحداثها بإنصات خاص، حتى إن ابن سعاد توقّف عن الرّكض، وراح يتابعني، وابن عمّتي، بتلهّف من يريد معرفةَ النهاية، ولم تكن فدوى أقلّ اهتمامًا. أنصتَ الصغار بترقّب وكأنهم يريدون معرفة ما سيكون عليه المستقبل الذي سيعيشون فيه.

نظرتُ إلى أمّي لأعرف رأيها في ما قرأتُ:

- بيفهم إللي كتب هالكلام العجيب، والله حكايته ليست أقلّ من حكايات جدّك "عليّ" الله يرحمه، مع جمَله ونخلته وأرضه العجيبة، لكن حكاية جدّك تُفرح القلب، لا كهذه الحكاية؟

دون مقدّمات قلتُ لها:

- أريد أن أصبح كاتب قصص وروايات.

- ألا يكفيكَ الشّعر؟

- لا، لن يكفيني.

- وماذا تريد منّي؟

- أن تُنجبي لي أختًا.

- وماذا ستقول لفدوى؟ لم أعُد بحاجة إليكِ؟

- لا تقلقي، فدوى، سأتفاهم معها، فدوى للشّعر.

- وبعدين معك؟

- لقد اكتشفتُ أن الكاتب الذي قرأتُ لكم قصته، له بنت اسمها "رامونا".

- ما اسمها؟

- رامونا.

- وتريد أن أُنجِب لكَ "رامونا" أيضًا؟

فقدتْ هدوءها فجأة، وصرختْ:

- قال "رامونا"، أغرب من قدَّامي. رامونا؟ ولوْ، مش مكفّيك تكون شاعر؟

- لا.

.. امتدّت يدها تبحث عن شيء ترميني به؛ لمحتُ حجرًا إلى جانبها؛ أصابعها المرتجفة غضبًا، على وشك الوصول إليه، انطلقتُ راكضًا. وما هي إلّا لحظات حتى سمعتُ صوتَ خطى خلْفي. التفتُّ، فرأيتُ فدوى تتبعني راكضة مثل بطة صغيرة، تسبقني ضحكتُها.

12

حملتُ أوّل رواية مكتوبة بالإنجليزية تلمسها يداي، وتوجّهتُ إلى بيت نور. حرصتُ على أن أصِل إلى هناك في الوقت الذي يكون فيه والدها موجودًا.

لم يكن.

سألتُها عنه أكثر من مرّة بارتباك، حتى إنها راحت تضحك بغزارة. وبعد أن استردّت أنفاسها قالت لي: "من يسمعكَ تسأل عن موعد وصوله بهذا الارتباك يظن أنكَ قادم لكي تخطبني منه"، فارتبكتُ أكثر، واحمرَّ وجهي، وتأكّد لي أنني بريء حقّا، رغم عدم إشارتها لهذا.

***

فرحتُ لأن والد نور لم يسمع باسم برادبري، فظهرتُ أمامه بمظهر العارف الذي يجرؤ على استعارة رواية لا يعرف لغتها، لا حقَّ المعرفة، ولا ربع ذلك الحقّ.

قرأ بالإنجليزية بصوت مسموع مطلع الرواية، فاستمعتُ إليه وأنا أهزّ رأسي بإعجاب:

"كان من دواعي غبطتي أن أحرق الأشياء".

- بداية قوية وغريبة. ما الذي دفعك لاستعارة هذه الرواية؟

- قرأتُ قصة مترجمة للكاتب في إحدى المجلات، وأحببتها جدًّا.

- وهل تستطيع قراءة روايته بالإنجليزية؟

هززتُ رأسًا مُعلنًا صعوبة ذلك.

- أحضرتها إليّ لكي أترجمها لك؟

بقيت صامتًا.

- هل تعرف أن ترجمة كتاب مسألة صعبة كالكتابة ربما، لأن على المترجم الحقيقي أن يُنسيكَ أن الكتاب الذي تقرؤه مُترجم، لأنه أعاد كتابته بلغته، ولا أقول أعاد ترجمته. فالترجمة ليست كلمة مقابل كلمة، وجملة مقابل جملة،

الترجمة إعادة خلق للكتاب باللغة المترجم إليها، بحيث تحسّ أنه ابن أصيل للغة الجديدة.

هززتُ رأسي هذه المرّة بحزن ويأس، فليس هناك أفضل من كلام كهذا بديلًا للاعتذار. أحسّ بما فيَّ، فقال:

- هل تتذكّر قصة برادبري التي قرأتها؟

- لم أستطع نسخها فلخّصتها، إنها معي.

أخرجتُ الورقات من جيبي، بارتباك أيضًا، وناولته إياها.

- ممتاز، أنت أحببتَ ما قرأتَ فعلًا، بحيث وصل الأمر بك إلى أن تلخّصه.

راح يقرأ بصمت وهو يهزّ رأسه بإعجاب، أو هكذا خيِّل إليّ.

- هل يمكن أن تترك الكتاب عندي يومين؟ سأقرأُه وأخبرك بما يمكن أن أقدّمه لك.

شكرتُه، ولفرط سعادتي قلت له:

- يومان، ثلاثة، أربعة، كما تريد يا عمّي.

خفق قلبي بشدة؛ فزوج الابنة يُنادي أباها "عمّي" عادة.

***

في مساء اليوم التالي حضرتْ نور إلى بيتنا، أخبرتْني أن والدها يريد أن يراني.

- هل أخبركِ لماذا؟ لم ينتهِ اليومِ الثاني الذي يحتاجه لقراءة الرواية.

- أظنّ أنه أنهاها، مع أنه لم يقلْ لي.

***

شكرني لأنني عرَّفتُه بالكاتب، الجديد عليه، وشكرني ثانية، وهو يناولني الشّاي بيده، لأنني منحتُه فرصة الاستمتاع برواية مختلفة، ما كان يمكن أن يعرفها لولاي.

ذُبتُ خجلًا.

- أظنّ أن من الصعب ترجمتها، لأن هذا سيأخذ الكثير من الوقت.

خفتُ.

- لكن، بما أنك متلهّف لها، وبما أننا في العطلة الصيفية، يمكننا أن نلتقي

يوميًّا، وسأقرأ لك الرواية -ولنور إن أرادتْ- عشر صفحات بعد العصر، ترجمة فورية، إلى أن ننهيها، فما رأيكما؟

أعلنتُ موافقتي بفرح بالغ، حتى إن كوب الشّاي اهتزّ بين يديّ، واندلق جزء منه في الصّحن الصغير الذي وُضِع عليه.

– اتّفقنا إذًا، متى يمكن أن نبدأ؟

– "الآن"، أجابت نور.

– الآن، ولِمَ لا؟

بعد أسبوعين، كان قد أنهى الترجمة الفورية للرواية. لم يكن يتوقّف عند نهاية الصفحات العشر، أمام إلحاحِنا، أو إحساسه بأننا لن نستطيع الصّبر إلى الغد لسماع بقية الحدث.

لم يعذّبنا بالانتظار.

استمعنا لها، منه، كراوٍ شعبي يتحدّث عن المستقبل، في وقت ينشغل، وانشغل الرّواة الشّعبيون بالحديث عن الماضي؛ استمعنا لرواية كلّ ما فيها مختلف عما قرأناه، مختلف عن إميل زولا، وفكتور هوغو، وكنوت هامسون، وجوته، وحتى "جدار" سارتر.

***

مرّت أيام كثيرة قبل أن أعود إلى الكتابة، فقد كنتُ أشبه بإنسان ضائع داخل الرّواية، لا يعرف من أين يخرج.

كلّ يوم، بعد أيام استماعنا للترجمة، كنتُ أعيد ما سمعته، كما تعيد الإذاعة برامجها، على مسامع بشير الذي بدا أكثر انبهارًا منّا بما يسمع، وفي كلّ مرّة، بعد كلّ "حلْقة" كان يمتدح حُسْن اختياري، الذي قد يكون هو نفسه موهبة التلقّي التي حدّثني عنها موظف المكتبة.

ما إن انتهتْ "451 فهرنهايت" حتى وجدتُ نفسي مصابًا بحمّى الكتابة، على نحو لم أعرفْه من قبل.

بعد أن قرأتْ نور قصصًا قصيرة كتبتُها، وقرأها بشير، وإخوتي وأخواتي، وأرسلتُ واحدة منها بالبريد إلى قاسم في الكويت، وتلقيتُ منه

ردًّا جميلًا، بل ردًّا غير عادي، الآن أقول إنه كان أشبه بدراسة مكثفة، وبعد أن فاجأني أخي محمد، الذي بدأت موهبته في الرسم بالتفتّح، برسومات بقلم الرّصاص مستوحاة من القصة، أحسستُ أن عليّ أن أخطو الخطوة الأوسع.

في المؤتمر الصغير الذي عقدتُه في السّهل القريب من السّياج الشائك لمستشفى البشير، قريبًا من معسكر الأشبال، أعلنتُ أنني سأكتب قصة طويلة، وبعد صمت مُتردِّد، قلتُ: رواية.

نور سألت بلهفة: كم صفحة تتوقّع أن تكون؟

- 80 صفحة أجبتُ بثقة، كأنني أرى الرواية التي لم تُكتب بعد، أمامي.

- لديك عندي دفتر من 120 صفحة، فمن يعرف، ربما تطول الرواية. متى ستبدأ الكتابة؟

- يوم الجمعة القادم.

- ممتاز، صباح الجمعة، سيكون الدّفتر بين يديك.

13

أمضيتُ الأيام التالية منشغلًا بفكرة الرواية التي تتقلّب في رأسي، كما تتقلب أمّي في ليالي قلقها، أتحاشى أن تلتقي عينَاي بعينيها، أمّي التي بدا لي أنها لم تسامحني على جرأتي حين طالبتها بإنجاب أخت أخرى.

كنت خائفًا، خائفًا جدًّا، حتى إنني فكّرتُ في الذّهاب إلى نور وإخبارها أنني تراجعتُ عن كتابة رواية، وأنني سأكتفي بكتابة الشِّعر. (الحقيقة، لم أكن أعتبر القصص القصيرة شيئًا كبيرًا، كانت سهلة)، لكن تلك الفكرة الطفولية المتسرِّعة عن القصص القصيرة ستتغيّر في ما بعد.

... وفكّرتُ في أن أبدأ الكتابة، حتى، قبل وصول الدفتر، لأن ذلك سيحسم تردُّدي.

انتظرتُ، ولديّ إحساس عميق يقول لي إن الكتابة على دفتر ستُهديني إياه نور ستكون كتابة أفضل وأجمل.

وانتظرتُ.

***

صباح الجمعة، تناولتْ نور وبشير طعام الإفطار عندنا، تلك الأكلة المفضلة التي لا تنتمي للحلويات ولا تنتمي للطعام: الشْعيريَّة المسلوقة المُحلاة بالسُّكر.

طوال الوقت كنت أراقب الدّفتر الذي أحضرتْه نور، وكأنه شخص آخر مدعوّ لتناول طعام الإفطار، لكننا لم نسمح له بالأكل معنا.

لم تودّعني نور بعد انتهائنا من الأكلِ وشرْب الشّاي، قالت لي:

- سأنتظر ظهور النتائج، أَطمئنُ أولًا، ثم أعود للبيت.

- لن أستطيع الكتابة إن فعلتِ ذلك.

- بل ستستطيع، أريد أن أقرأ القصة، أعني الرواية، وهي ساخنة، مثل شعيريّة خالتي عايشة.

استسلمتُ.

- ولكنني لن أستطيع الكتابة وأنتم تنظرون إليّ.
- سنتركك على راحتك، ونغيب نصف ساعة، بل ساعة، ونعود لنرى النتائج.
خرجوا.
بعد ساعة عادوا؛ في حدود الحادية عشرة قبل الظهر. كنت أجلس في انتظارهم أمام الباب.
- قمحة والّا شعيرة؟ سأل بشير.
- "قمحة بالتأكيد"، قالت نور.
ابتسمتُ.
- مَن أحضر الدّفتر يقرأ أولًا.
تعالت صيحاتُ الاحتجاج.
- "يمكن أن تقرئي لنا بصوتٍ مرتفع"، اقترح بشير.
- "حلٌّ"، ردّت نور.
تركتهم في الخارج وهربتُ إلى الداخل خائفًا.
سمعتُ تنهّداتهم حينًا، وضحكاتهم حينًا، وصوت أخي محمد يُعلن، ببراءة، أنه سيبدأ بتنفيذ الرّسومات منذ الآن.
وسمعتُ صمتًا هائلًا، فأدركتُ أنهم انتهوا من قراءة ما كتبتُ.
دخلتْ نور، وقالت:
- هذا أجمل شيء كتبتَه، كلّنا اتّفقنا على هذا.
أحسستُ بالهواء يعود إلى صدري، وتجرأتُ، وقلت:
- الأسبوع القادم ستقرؤون جزءًا آخر.
- "أيّ أسبوع قادم؟ عليك أن تكتب الآن، لن نغادر قبل أن نعرف ما سيحدث مع الأبطال"، قالت نور.
- "مستحيل"، أجبتُ.
- الآن، ورأيتُ فدوى تتقافز فرحةً، مؤيِّدة لهم، هي التي لا تفهم ما سمعتْه.
أحببتُها أكثر، انحنيتُ وحملتُها، فراحتْ ترفرف بين يديَّ كحمامة بيضاء، قبَّلتها وأعدتُها إلى الأرض، دون أن تكفّ عن التّقافز والتلويح بيديها.

استسلمتُ لرغبتهم. تركتُهم أمام الباب، ودخلتُ.

***

تكرّر الأمر حين عدتُ إليهم بصفحتين جديدتين. طالبوا بالمزيد، وهكذا حتى هبط المساء، وأعتمتِ الدنيا، فانتقلوا إلى الغرفة التي ننام فيها أنا وإخوتي وأخواتي، وذهبتُ إلى الغرفة التي تنام فيها أمّي وأبي.

أمّي التي لم تتابع الأمر من بدايته، أغراها انفعالهم بالقصّة، فالتحقتْ بهم مع عمّتي، بعد أن لخّصوا ما سمعوه لهما. كانتا مسرورتين بما يحدث، حتى إنهما جلستا تستمعان بانفعال طفلتين، فتارة تضحكان وتارة تحزنان، وبكتا عندما بكى الجميع، ولم تكن عمّتي أقلّ فرحًا منهم، ولكنها كانت أكثر بكاء وهي تحتضن صغيرها؛ كلّنا كنّا نعرف السبب.

أما أبي فتصرّف كما لو أننا لسنا هناك، ولعله كان يفكّر أن استماعه إلى الرواية مع الأولاد سيفقده هيبته.

عند الساعة الثامنة مساء، لم أكن قادرًا على تحريك يدي التي تيبّستْ، فأعلنتُ أنني لن أستطيع مواصلة الكتابة.

احتجّتْ أمّي بقوة، فذكَّرتها أن على نور العودة إلى بيتها، ففاجأتني نور وقالت:

- أبي يعرف أنني سأنام عندكم، وأنا وعدْته أنني سأكون في البيت قبل أن يصحو.

أخبرتهم أنني سآخذ استراحة، فوافقوا بصعوبة، لكن أعينهم كانت تتابعني وكأنني جهاز تلفزيون تعرض لعطل في منتصف حلقة مسلسل مثيرة، أو تلفزيون يدخل البيت للمرّة الأولى، توقّف بثُّه عند منتصف الليل، فسهروا في انتظار عودة البثّ حتى اليوم التالي.

***

تعبتُ...

تعبتُ أكثر مما توقعتُ...

لم أستطع إكمال الرواية، وجاءت نحنحة أبي، الذي عليه أن يصحو باكرًا في الغد، كأفضل حجّة لي للتوقّف عن الكتابة.

نظّفْنا أفواهنا بأن تمضمضنا بالملح، كما نفعل دائمًا، قبل النّوم، وذلك أمرٌ لم

تكن أمّي تتهاون فيه أبدًا، في زمن لم يكن شراء معجون أسنان واردًا فيه.

دخلوا إلى الغرفة، فأخذتْني أمّي جانبًا وهمستْ لي:

– مش أنا جبتلك فدوى؟ والّا نسيت؟

– كيف ممكن أنسى؟

– طيّب شو رأيك تحكيلي شو اللي بصير بعد هيك، ووعد، ما بحكي لَحَدَا.[12]

[12] – وبما أن مخطوطة الرّواية "الملتقى" لم تزل عندي حتى اليوم، فيمكنني القول إنها رواية أحلام عالم البراءة: النجاح في الثانوية العامة، الدّراسة في إيطاليا ومصر، قصص الحبّ، الطائرات والقطارات والمدن الكبيرة. ولعل أفضل ما فيها أنها كُتبتْ بلغة جيدة وخطّ حسن، ولا تعاني من أخطاء لغوية وإملائية فادحة، وهذا أمر يعود لدور معلمينا. لكنها تعاني من أخطاء ميكانيكية قاتلة، كلّما وصل الأمر إلى الحديث عن عطل أصاب سيارة أو آلة ما، أو طريقة إصلاحها.

14

واصلتُ العمل لأثبتَ لأمّي -بعد تصدِّيها لخالي الكبير- أنني أفضل مما تظنّ، فحققتُ نتائج جيدة في المدرسة، دفعت أمِّي لأن تفخر بنفسها من جديد بمنصبها وزيرةً للتربية والتعليم، يُستبدل الوزراء ولا تُستبدل، ويرحلون وتبقى راسخة.

لكنها لم تعُد تخفي حزنها بعد تأكّدها من أن إنجاب ولد جديد مسألة باتت صعبة، أو كما وصفَت الأمر بقليل من السخرية وكثير من الحزن: "يبدو أن الطريق أُغلِقتْ"، ولم يخفّف من حدّة حزنها ذاك إعجابها الكبير بروايتي، وبكاؤها الحار في نهايتها.

15

بعد روايتين قصيرتين، انتبهتُ للموسيقى؛ كأنني لم أسمعها من قبل، فأصبحتُ أتنقّل بين محطة وأخرى باحثًا عن الأغنيات الجديدة، وبين حين وحين تستوقفني مقطوعة موسيقيّة، فأنصتُ إليها كما لو أنني أريد سماع ما يقوله قلبي لي، في أمر مهمّ.

بعد فترة أدركتُ أن هذه الموسيقى مُلحِّنين، كما للقصائد شعراء، وللروايات روائيين، فرحتُ أتتبع أعمال الملحِّنين، بعد أن تجاوزت مرحلة التعلّق بالمطربين.

في البداية كنتُ مكتفيًا بالأغاني؛ ومن الغريب أن موقفي تجاه أيّ أغنية أصبح مبنيًّا على شرطين: الأوّل مدى نجاح الأغنية في الالتصاق بذاكرتي بعد سماعها للمرّة الأولى، واكتشافي أنني أردّدها دون أن أنتبه؛ أما الثاني، فهو تلك الانعطافات التي يقوم بها الملحن بين مقطع ومقطع، أو في المقطع نفسه، ففي اللحظة التي ترى فيها اللحن يرقّ كالموجة التي تقترب رويدًا رويدًا من الشاطئ، يعود ويصعد بعذوبة مجنونة تهزّ روحكَ بجمالها من جديد؛ بليغ حمدي كان يفعل هذا كثيرًا، ثم محمد عبد الوهاب في أغنية "اِنتَ عمري" ورياض السنباطي في أغنية "الأطلال". أما في عالم الموسيقيين فقد اكتشفتُ الجذور، وأعني الموسيقى الصافية، في إذاعة البرنامج الثاني، المصرية. أغراني كيف تتحوّل المقطوعات إلى ما يشبه البساط الطائر، تتهادى في الهواء، صاعدة هابطة، ولن أبالغ هنا إن قلت إنّ كلّ مقطوعة موسيقية سمعتها وفتنتْني، كنت أراها في الفضاء، وأتابعها من أفق إلى أفق، وفي مرّات كثيرة كنت، فعلًا، فوق ذلك البساط.

في تلك الفترة أصبحتُ على يقين من أن عظام جدّي عليّ تتقلّب في قبره، لأن غناء سميرة توفيق لم يعد يملأ أذنَيّ، أما شكلها فقد أطاحت به، من قبل، كلوديا كاردينالي، التي باتت المفضلة لي ولنور، ومن بعدها ممثلات ساحرات في مقدمتهن الإيطالية أيضًا: أورنيلا موتي والأمريكية نتالي وود، والمصريات:

سعاد حسني، نادية لطفي، نبيلة عبيد، مديحة كامل، ناهد يسري، وبالطبع فاتن حمامة.

***

لم يقل لي أحد إن الشِّعر بحاجة لأن يُدْرس في الجامعة، ولذا واصلتُ كتابته بحريّة، وكتابة الرّوايات، لكن الموسيقى شيء آخر، فهناك آلات يجب التعلّم عليها، وهناك لغة مختلفة يجب أن يتعلّم الإنسان قراءتها، وكتابتها، اسمها النوتة، وهناك المقامات التي لم يقلقني وجودها، لأنني تخيلتُها لا تختلف عن بحور الشِّعر، وقلت من تعلّم البحور فليس صعبًا عليه تعلّم المقامات.

كلّ شيء حول الموسيقى وجدته في مكتبة أمانة العاصمة، لكن عثورك على كتاب ما، لا يعني، دائمًا، أنك قادر على قراءته.

***

عدم تعلّمي الموسيقى، لم يمنعني من أن أُدندن بيني وبين نفسي، بل وأؤلف مقطوعات موسيقية خالصة؛ حدث ذلك كلّما وجدتُ نفسي أسير وحيدًا في الطريق إلى المكتبة، إلى بيت نور، أو في طريق العودة منهما.

وهذا ما سيتكرّر معي، كثيرًا في ما بعد، وينمو، بحيث تكون نتائجه مفاجأة، لي، ولغيري.

***

بثقة مبالغ فيها أقلقتِ الجميعَ، أعلنتُ أنني سأدرس الموسيقى بعد تخرّجي من المدرسة.

- وماذا ستفعل بالموسيقى التي ستدرُسها، ألا يكفيك الشِّعر؟ هل ستنتهي طبّالًا خلف سميرة توفيق؟ ألهذا نُعلِّمكَ؟

ثم صمتتْ أمّي كما لو أنها نسيت الكلام كلّه، فعرفتُ أنها تفكّر.

لم تصمتْ عمّتي، عمّتي التي كانت محلِّقة بصغيرها الذي أنجبته، وننتظره، مثلها، أن يتكلّم؛ فالتّوقعات البريئة التي تداولناها، أن ذلك الطفل سيتحدّث باللهجة المصرية مثل أبيه، لا باللهجة الفلسطينية، ولذا ترقّبنا بحماسة أوّل كلمة سيلفظها، وبخاصة أن عمّتي واصلت الحديث بها، وفاء لزوجها، وعززتْ معرفتَها تلك بمتابعة كلّ تمثيلية مصرية تبثّها الإذاعات.

- "طب قوليلي إيه هو إللي مش عاجبك في سميرة توفيق؟"، سألتْها عمّتي، "لو كنت مكانك، كان الحاجة الوحيدة إللي ح اتمناها إنه يشتَغَل معاها"، والتفتتْ إليّ وقالت: "شوف يا حبيبي، الحاجة الوحيدة إللي ح اطلبها منك دي الوقتِ، إنك تبلّغها سلامي الخاصّ لما تِشْتَغَل معاها، والّا أقولك، يا ريت تيجيبها معاك لتزوْرنا في البيت". ثم التفتت إلى أمّي معاتبةً: "عجايب يا عايشة، إزاي نسيتِ إن والدِك، الله يرحمه، كان بيحبّها موت؟".

أمّي الخبيرة بي، التي طالما ردّدت: "ابن بطني بِعْرِفْ رطْني، وبعْرف رطْنُه"[13]، قالت بهدوء غريب، كلامًا فاجأ الجميع:

- كلّ ما أطلبه منكَ أن تنجح في امتحان الثانوية العامة، وبعدها فلتفعل ما تريد.

في تلك الليلة حدّثتْ أمّي أبي عن رغبتي الجديدة. لم يقل شيئًا، ظلّ يهزّ رأسه دون غضب، على الأقل، ثم التفتَ إليّ وابتسم.

أحسستُ بجبل يُرفَع عن صدري، وتجرأتُ:

- أريد أن أشتري عودًا لأتعلّم الموسيقى منذ الآن.

- "عود، عود، لا مانع"، فاجأني الأمر كما فاجأ أمّي، ولو كان كلّ سكان المخيم هناك لفوجئوا أيضًا.

- وأن تسمح لي بالذّهاب إلى شخص يعلّمني العزف، أعرف واحدًا يسكن قرب مبنى توزيع المؤن.

صمتَ قليلًا، ونظرات أمّي ترجوه أن يرفض طلبي.

- موافق، ولكن بشرط، إذا بقيتْ علاماتك جيدة في المدرسة سأواصل الدَّفع لمعلم الموسيقى، أما إذا...

- ستكون علاماتي أفضل.

في ذلك اليوم بدا وكأن أبي جلس على كرسي وزيرة التربية والتعليم، واستولى على نصف صلاحيات أمّي على الأقل.

وهكذا دخلتُ مع نفسي في سباقين، في اللحظة ذاتها؛ أن أتعلّم العزف على

---

[13] ـ الرّطن، الكلام الأعجمي الذي لا يفهمه غير المتحدثين به.

العود، وأن أحقق نتائج جيدة في الثانوية العامة التي تفصلني عنها سنتان.

***

الغريب في الأمر، أن الشّغف بكلّ شيء جميل، والذي لا بدّ أنه وُلِد من ذلك الشّغف بكلّ كائن يطير، تجمّع في قصيدة كتبتُها بعد ثلاث عشرة سنة، اسمها الأجنحة:

كلّما أمسكتُ بقصيدةٍ
أمسكتُ بجناحٍ يوصلني إلى ذلكَ الألقِ الدّائم في قلب العالم
وذلك الدّمِ المتدفِّقِ في عروقِ الكائنات
إنني أعرفُ الآن أن للفرح أكثر من جناح
ولذا، أعبر المدينة الليلة بنقودي القليلة
وأصابعي التي لم تعرف غير القصائد
باحثًا عن قيثار
أعبر المدينة باحثًا عن جناح
وفي الصّباح
حين تشرق الشمسُ، ويبدو العالم أكبر من الكلمات
وأكبر من الأوتار التي تظلّلها الأغاني وقناديل الندى
أبحث عن الألوان
أبتاعٍ ريشة... وورقًا
باحثًا عن جناح آخر
ولكن الذي يؤلمني
أن هذا الجسد يتيبَّس الآن ببطء
وأنني لن أستطيع في يوم ما أن أرقص الباليه...
هذا الفرح المُحلّق بآلاف الأجنحةْ

***

من حسن حظّ أبي وأمي، وربما من حسن حظّي، أنني لم أتحدّث عن تعلّم رقص الباليه، لأنني لم أكن أعرفه أصْلًا، ولو حدث ذلك لجعلتْني أمّي أرى نجوم الظُّهر، وأعادتْ فدوى إلى رحمها من جديد، وحرمتْني من الشِّعر ومن كلّ ما تمنيت أن أكونه.

16

مزهوّا كنتُ أحملُ العود، وأمضي إلى معلّمي، مرتين في الأسبوع، في زمن كان يبدو فيه حمْل آلة موسيقية في الشارع، مثل وجود طفل يتشكّل في بطن فتاة عزباء.

الجلوس في المقهى، الذّهاب إلى السّينما، التدخين من وراء ظهْر الأهل، والرّسوب في المدرسة الحكومية لعدة سنوات، والذّهاب، بالتالي، إلى مدرسة خاصة، كانت كلّها من عظائم الأمور. لكن حمْل العزباء أولًا، يليه حمل آلة موسيقية ثانيًا، كانا الأكثر فداحة.

الآن يمكنني أن أقول، إن أبي وأمّي نظرا إلى الوضع السّائد أيامها، فاكتشفا أن مشاوير ذهابي وإيابي من وإلى بيتنا وبيت معلّم الموسيقى، أقل ضررًا بكثير من الرّسوب، فاختارا الصعب لمنع وقوع الأصعب.

اندفعتُ في تعلّمي للعود، بحيث نسيتُ، لتسرُّعي، أن أتعلّم كما ينبغي. تصرفتُ كما لو أنني أحضرُ فيلمًا، وحين سأخرج من قاعة السّينما باستطاعتي أن أسرد حكايته للجميع، وأحفظ وجه البطلة الجميلة، التي أراها لأوّل مرّة في الفيلم، إلى الأبد.

لم يحدث هذا.

مثل طفل لم يتعلّم المشي ويريد أن يكون عدّاء مسافات طويلة، كنتُ.

نور لاحظتْ، لأن حماستي في الحديث عن الموسيقى جعلها تحسّ بأنني على وشك منافسة موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب، ولو كانت تعرف تشايكوفسكي، لقالت: منافسة تشايكوفسكي.

الوحيد الذي سمعنا به قبل جميع الموسيقين، هو بيتهوفن، لكنني لا أعرف السبب.

بهدوء احتملتْ نور رعونتي الموسيقيّة، إلّا أنها بعد زمن طويل ستسرُّ لي أنها لم تكن خائفة عليّ إن فشلتُ، ببساطة لأنني متفوّق في كتابة الشِّعر، وكذلك في كتابة الروايات، بدليل، أنني تفوّقت على دريد لحام ذات ليلة

حينما تبين أن عدد المستمعين الذين تابعوا الفصل الجديد من روايتي الثانية، من أولاد الحارة، كان أكثر من عدد أولئك الذين كانوا يتابعون حلقة مسلسله "حمّام الهنا" التي بُثّتْ في الوقت نفسه أمام دكان "أبو بَلَحَة".

بمحبة وإنصات شديدين كانت تستمع إلى عزْفي، بل وتقول بين حين وآخر، معلنة عن إعجابها: الله، الله عليك.

وهذا كان يدفعني لارتكاب مزيد من الحماقات العزْفيَّة بسعادة غامرة.

أمّي لم تكن تعارض حماسة نور، ولم تشكّك فيها، تكتفي بالدخول إلى الغرفة وإغلاق الباب خلْفها، بحجة أنها لا تريد أن أرتبكَ بسبب وجودها، باعتبارها وزيرة للتربية والتعليم، ولكنني حتى اليوم أحمد الله أنها لم تكن مديرة لمعهد الموسيقى، وإلا لتدخّلتْ إلى حدٍّ قد تحطِّم معه إيماني بقدراتي على العزف.

- الله، الله عليك! ردّدتْ نور للمرّة العاشرة، فذكّرتني بأم كلثوم وهي تغني وتعيد:

الله يا حبيبي على حبّك وهنايا معاك
الله يا حبيبي، يا حبيبي، الله، الله!

بعد أن أنهيتُ العزف بسبب التّعب، قالت لي: لا بأس، فلتسترحْ قليلًا، العزف المنفرد ليس سهلًا.

استرحتُ.

***

- ما رأيك أن تعزف لي أغنية "الأطلال" الآن؟

ولأنني لم أكن أخيِّب أملها في شيء، ولا أقول لها: "لا"، أعلنتُ بفرح:

- شبّيك لبيك، عازفكِ بين إيديكِ.

***

تطوّر إعجاب نور بي إلى درجة أنها قالت: لن يمرّ زمن طويل قبل أن أرى "عبد الحليم حافظ" يغنّي من ألحانك.

تلك الجملة، على جمالها، بدتْ لي غير جميلة لأنها كانت ناقصة؛ كان عليها أن تقول: "لن يمرَّ زمن طويلٌ قبل أن أرى عبد الحليم حافظ يغنّي من ألحانك وكلماتك"، فقد تجاهلتْني كشاعر في ذلك اليوم.

بُحتُ لها بعتبي فورًا كي لا أكون عاتبًا عليها، أو غاضبًا منها، وهذا ما لا أحتمله، فقالت لي: "بريييء، ستبقى بريئًا. هذا تحصيل حاصل، فإذا غنّى من ألحانكَ، فلن يجد كلمات أفضل من الكلمات التي تكتبها، وإن كان لي طلبٌ وحيد، هو أن تكون الأغنية الأولى التي تؤلّفها وتلحّنها مهداة إليّ".

أعجبتني الفكرة كثيرًا، وبثّتْ فيَّ حماسة لم أعرفها من قبل:

- بالطّبع ستكون مهداة إليكِ، لمن تتوقّعين أنها ستُهدى وليس هناك غيركِ في هذا العالم؟

أعجبها ما قلته كثيرًا بحيث نظرتْ في عينَيَّ أولًا، فارتفعت درجة حرارتي، وأحسستُ بنهر الموسيقى يتدفّق عبر أصابعي، ثم نظرتْ إلى الباب، فاطمأنتْ أن أمّي أغلقتْه خلْفها حين دخلتْ، وطبعتْ قُبلة على خدّي الأيسر، الذي لم يحظَ بقُبلة منها من قبل، فلسبب ما، لا أعرفه، كان خدّي الأيمن هو الأوفر حظًّا.

بعد أن تمكنتُ من التقاط أنفاسي بعد القُبلة، وجدتُ أن لديَّ سؤالًا سيساعدني في البوح بما يقلقني:

- لدي سؤال؛ في الأغاني دائمًا يقولون حبيبتي، حبيبي، فماذا تفضّلين أن أصفكِ، حبيبي أم حبيبتي؟

ابتسمت نور، وقد أدركتْ أن السؤال لئيم؛ فأجابت ضاحكة:

- هذا سؤال لئيم. أتريد أن أقول لك من أنتَ بالنسبة إليّ؟ لن أقول لك الآن. حين أجد التعبير المناسب سأخبرك، أما الآن، فيمكنك أن تقول الكلمة التي تريد في الأغنية المهداة لي؛ حبيبي، حبيبتي، صديقتي، ذات الشّعر الأحمر، أميرتي، إذا وجدتَ أن واحدة من هذه الكلمات ترضيكَ، لأنني لا أستطيع أن أقول لكَ اكتبْ هذا أو لا تكتب هذا، فأنتَ حرّ.

***

بعد أقل من أسبوع كانت أغنيتها جاهزة، كلمات ولحنًا:

يا اللي مش عارف أقولّك إيه

والقالِكْ اسم جميل إنتِ

مرّات بقول إنك عيْني

ومرّات حبيبتي وأميرتي

كانت تلك مفاجأة كبيرة لنور، إذ إنني كنت أكتب بالعامية للمرّة الأولى، وباللهجة المصريّة، لتكون ملائمة لعبد الحليم، دون أن أخفي عنها أنني استعنتُ بالخبرات اللغوية لعمّتي.

في ذلك اليوم أكّدَتْ لي أن أغنيتي لا تقلّ عن أي أغنية غناها عبد الحليم حافظ، وأكدتْ لي أنه سيتّصل بي ما إن تصله الأغنية، فذكّرتها أننا لا نملك هاتفًا، فأكدتْ أنه سيرسل برقية يدعونا فيها إلى مصر، أنا وأنت، أي بطلة الأغنية وبطلها.

لا، لم تكن نور ساذجة في تلك الأيام، ولم أكن أظنّ أن المسألة ستكون سهلة بالتأكيد، فقد اعترفتْ لي بعد زمن طويل، أنها كانت تريدني أن أعرف أن الأحلام لا تتحقّق بسهولة، وأن عليّ أن أحاول مرّة أخرى وأخرى لأنجح في الوصول إلى حنجرة عبد الحليم، وأن أهمّ شيء هو ألّا أتوقّف، فهكذا سأتعلّم أكثر، وتتأكّد هي أن لدي إصرارًا، وأنني لا أستسلم بسهولة، رغم وجود ملحِّنين مثل محمد عبد الوهاب، ومحمد الموجي، وبليغ حمدي.

***

لم تكتفِ نور بالتشجيع كلامًا، بل فاجأتْني بخطوة عملية، ذهبتْ فيها إلى آخر الشوط، حين أحضرتْ العنوان البريدي لعبد الحليم، الذي عثرتْ عليه منشورًا في مجلّة الشبكة، المجلّة الشهيرة جدًا في تلك الأيام، بل وذهبت معي إلى صندوق البريد، وأصرّت على أن يكون ثمن طابع البريد مناصفة، بيني وبينها، وحين رفضتُ ذلك، قالت لي: هذه أغنيتنا، لا تنسَ أنك كاتبها وملحّنها، ولكنها مهداة إليّ.

فاقتنعتُ.

طلبتُ طابعًا قادرًا على أن يوصل الرّسالة إلى القاهرة، بللتُ ظهْر الطّابع بلعابي وألصقتُه.

هزّ موظف البريد رأسه بإعجاب، وهو يقرأ العنوان على المظروف، وابتسم لنا. كان شابًّا لحُسن الحظّ، فأدركتُ أنه يحبّ عبد الحليم، وحمدتُ الله على ذلك، لأن موظفَ بريد يحبّ "فريد الأطرش"، قد يُلقي بالرّسالة في سلّة المهملات.

ختمَ الرسالة، ووضعها فوق رُزمَة من الرسائل إلى يمينه. تأملتُ الرسالة

كأن روحي فيها، فرأيتها تتحرّك ببطء، ثم ترفرف، وترتفع قليلًا، وتحلّق في فضاء مكتب البريد للحظات، باحثةً عن الباب، ثم تتوجّه مباشرة من مخيم الوحدات إلى القاهرة.

***

في طريق عودتنا، ضربتُ على رأسي، وقلت:

- أرسلنا كلمات الأغنية، ولكن كيف نسينا أن نُرسل اللحن؟

- أنا لم أنسَ، ولكنني فكرتُ: إذا وافق عبد الحليم على غنائها ستكون لنا شروط؛ سنخبره أننا لن نقبل أن يلحنها سواكَ، وحين يوافق، لأنه لن يقبل لنفسه أن يخسر شِعركَ الجميل، سندفع لمعلِّم الموسيقى ليكتب النوتة، حتى لو كان المبلغ نصف دينار، وبعد ذلك نُرسل له اللحن. ما رأيك؟

17

علّمتني الرِّيح أسرار المحبّةْ
عندما أودتْ بحزني والمخاوفْ
وتلاقينا مع الشّمس أحِبّةْ
نحضنُ الدنيا ونلهو بالعواصفْ

أحبّت نور القصيدة.

- جميلة، ووزنها صحيح، ولغتكَ سليمة.

قررت أن يراها شخص واحد بعد نور، هو الأستاذ ربيع، هل كنت أتحداه بعد رأيه الأوّل في قصيدتي التي قرأها ووشكك في كتابتي إياها؟ أستاذ اللغة العربية، الذي أخبر واحدًا وخمسين طالبًا في الصفّ، أنه من المستحيل أن أكون كاتب تلك القصيدة، لأنها جميلة، ووزنها صحيح، ولغتها سليمة.

قال لي: اخرج إلى اللوح واكتب ما سأُمليه عليك:

إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدرْ

كتبتُ بيت الشِّعر، فقال لي، قطِّع البيت. قطَّعته.

- ما اسم البحر؟

- المتقارب.

- وما وزن القصيدة هذه التي تقول إنها لك؟

- الرَّمَل.

- عُد إلى مقعدك.

عدتُ، وقبل أن ينتهي الدّرس، قال دون مقدّمات:

- ومع ذلك، من المستحيل أن تكون كاتبها، حتى لو كنت تعرف القواعد والعروض، فالقصائد شيء آخر، ليست مجرّد لغة ووزن، وما ادّعيتَ أنها لكَ شيء آخر، أفهمتَ؟

لم أؤكِّد له أنني فهمتُ، حتى لا أخيّب ظنّ نور بي.

***

المعارك الصغيرة المزعجة التي نضطرّ أن نخوضها، نظلّ غاضبين لأننا أُجبرنا على خوضها، حتى لو خرجنا منها منتصرين.

كنت غاضبًا رغم النّصر الذي حققته، لأن شكّه في القصيدة أكّد لي أنني شاعر، وأن فدوى لم تذهب سُدى؛ إنه لا يصدّق أنني كتبتها، لأنه بالتأكيد لا يستطيع أن يكتب مثلها.

لا قلبَ لهْ
لا صدرَ لهْ
لا رقبةْ
أقدامُهُ في المدرسةْ
وعقلُهُ في "العقبةْ"

قرأت لنور القصيدة، فضحكتْ كثيرًا:

- الله ينجِّينا من شِعرك هذا.
- هل أحببتِها؟
- بل خفتُ منها. إياكَ إذا غضبتَ مني أن تكتب عنّي شعرًا كهذا.
- أنا لا أغضب منكِ أصلًا.
- لكن لي ملاحظة على القصيدة، هل تعدني ألّا تغضب؟
- لن أغضب.
- لقد ارتكبتَ خطأً حين قلتَ أقدامه، هذا إن كنت تقصده إنسانًا؛ لأن له قدمين اثنتين، لا أقدام. أما إذا قصدتَ أنه ليس إنسانًا، فأنت تهجوه أكثر مما يجب.
- كنت أهجوه إنسانًا، فغير ذلك لا يجوز.
- "إذًا، عليكَ أن تُصحح الخطأ"، وصمتت، ثم نظرت إليّ مباشرة، "لستُ غاضَبًا مني؟".
- لا.
- الحمد لله، الله نجّاني.

***

أمضينا بقية اللقاء نبحثُ عن الأسباب التي جعلت عبد الحليم حافظ يتأخّر في الردّ على رسالتنا، وتدرّج حُسن ظنِّنا في فناننا المفضّل إلى أن وصل

القمة، مثل انشغالاته بأغنيات جديدة، إلى حفلاته لصالح المجهود الحربي، إلى أفلامه، وكنّا قرأنا عن فيلم جديد له، سيكون قنبلة الموسم المقبل، كما وصفتْه المجلات الفنية، واسمه "أبي فوق الشجرة"، مع ممثلتنا العربية التي باتت مفضلة لنا، نور وأنا، نادية لطفي.

لم نكن نملك جرأة الشكّ في عبد الحليم، فنور والزّهرات، وكذلك الأشبال، يغنّون أغنيته أثناء التدريب، أغنيته التي باتت شهيرة جدًا في المخيمات أكثر مما هي شهيرة في مصر، كنّا نغنّيها في كلّ مناسبة، سواء أكانت وطنية أو عرسًا، أو نجاحًا في المتْرِك، أو الثانوية العامة، أو الجامعة، أو حتى في حفل خِتان.

فدائي فدائي فدائي
أهدي العروبة دمائي
أموت أعيش... ما يهمنيش
وكفاية اشوف علم العروبة باقي
فدائي فدائي

وسيبقى عبد الحليم هكذا، غاليًا علينا، حتى إن أُمي أكدّتْ هذا، حين كنت وإياها، ذات ضحى، نمضي لزيارة خالتي آمنة في منطقة "الرْصَيْفِة"، بعد مذبحة "صبرا وشاتيلا" مباشرة. كان مذياع "الهوندا سيفك" يبثّ أغنيته "أي دمعة حزن لا"، ولاحظتُ أنها تستمع إليه بإنصات شديد لم أحاول أن أُجرِّحه بأي كلمة منّي، وعندما وصل عبد الحليم إلى مقطع:

والسّما بتبكي علينا والنّاي الحزين.

رأيتُ دموعها تنهمر، فسألتُها "لماذا تبكين؟"، فقالت:

- كإنّه بيغنّي عنّا وعن مصايبنا وأحزاننا.

***

بعد ثلاثة أشهر على الأقل تلقينا رسالة من القاهرة، وصلتْ إلى باب بيتنا وتسلّمتْها أمّي بخوف شديد، لكن ما طمأنها أنها موجّهة إليّ، فانتظرتْني حتى عدتُ من المدرسة، وسلَّمتْني إياها، قفزتُ وعانقتُها، ورحتُ أركض، 23 دقيقة على الأقل، حتى وصلتُ بيت نور، طرقتُ الباب ودخلتُ قبل أن يفتح لي أحد.

- خير إن شاء الله؟

أمسكتُ نور من يدها وسحبتُها بعيدًا، ولقمة من طعام الغداء في يدها. بلا أيّ مقدمات، مددتُ يدي إليها بالرسالة، أمسكتْها وقلَّبتْها بفرح، ونبض قلبها المتصاعد يختلط بنبض قلبي.

- افتحيها.

- لا افتحها أنتَ.

- بل أنتِ.

فتحتْها برفق شديد، فأطلتْ علينا عينا عبد الحليم حافظ. سحبتْ نور الصورة بهدوء، خائفة عليها، صورة بالأبيض والأسود، نظرتْ في داخل المظروف باحثةً عن شيء آخر، فلم تجد، قلَبتْه وهزَّتْه قليلًا لعلّ شيئًا يسقط منه. تأكّد لنا أن ليس هناك غير الصورة. نظرتْ نور إلى خلف الصورة، فغابت عينا عبد الحليم وابتسامته الحزينة، وقرأنا معًا تلك الجملة، دون أن نُحرِّك شفاهنا:

إلى الأستاذ الشاعر ... محبة لكَ واعتزازًا بقصيدتكَ الجميلة.

اختلطتِ المشاعر، فها أنا أصبح أستاذًا وشاعرًا وصاحب قصيدة جميلة، بشهادة عبد الحليم، رغم أنف أستاذ اللغة العربية، إلى درجة أنني أوشكتُ أن أقول لنور إنني كنت قصدتُ أن أقول "أقدامه"، في هجائي له. وحسنًا أنني لم أفعل، لأنني لو قلت ذلك لأصبح حزني أكبر وندمي، بعد أقلّ من عام، وقد حدَثَ للأستاذ ربيع ما حدَث.

***

بعد أن التقطنا أنفاسنا، وهدأنا بما يكفي لأن نُحلل تجاهله لمصير أغنيتنا، وغنائه لها من عدمه، وصلْنا إلى قرار يمكن أن ألخصه الآن كالتالي: لقد فعلنا ما علينا حين أرسلنا إليه الأغنية، فإرسالها إليه يعني أننا نحبّه أكثر من أيّ فنان آخر، وإلّا لكنّا أرسلناها لغيره من المنافسين: محرّم فؤاد، أو محمد رشدي، أو حتى نجاة الصغيرة. سننتظر منه رسالة أوضح من صورته، وإن لم يُرسلها، فإن كرامتنا تمنعنا من أن نرسل إليه أغنية أخرى في المستقبل.

وهذا ما كان...

***

بعد شهور فقدنا الأمل تمامًا، فقلتُ لنور: "هذه آخر مرّة نتحدّث فيها عن الأغنية. لا تحزني، لأنه لم يغنِّ أغنية مهداة إليكِ. الأغنية لدينا، ولحنها جاهز، فلماذا لا أغنيها لكِ؟"، وقبل أن تعترض أمسكتُ بالعود وبدأتُ بغنائها. كنت خائفًا في البداية ومرتبكًا، ولكن حينما سمعتُها تقول بعد المقطع الأول: الله، الله عليك! أدركتُ أنني ارتكبتُ خطأ لا يُغتفر، حين تنازلتُ عنها، في لحظة حماسة، لعبد الحليم.

الرسالة الرابعة:

يسعد صباحك،

طفولتنا الثالثة؟ آه...! ضحكتُ وانفعلتُ وبكيت أيضًا؛ الأحداث؟ جمالها؟ قسوتها؟ لا أدري ... ربما لأنكَ حوّلت العادي إلى غير عادي .. مؤثرة ألماً وفرحاً ولم يُخطئ من جعل رمز المسرح بوجهين، عابسًا وضاحكًا. أنصفتَ عايشة، العمَّة، فدوى البطة، هل أقول: وأنصفتني؟...

ممتلئة بما قرأتُ، وأتشوَّق للتالي...

أعيد قراءة بعض الجُمل والفقرات، غالباً لاتساع دلالاتها... ونادراً لأنني لم أفهمها تمامًا.

أعرف أن الرواية لن تنتهي قبل عام، وأنني أقرأ المسودة الأولى الآن، لكن هذا ذنْبي، لأنني طلبت منكَ السَّماح لي بقراءتها أولا بأول، قبل أن تنتهي، وهذا ما لم تسمح لي به من قبل، (لعلها فضيلة كورونا الوحيدة)...

أنت تدري كم أتشوّق لقراءة الجزء التالي... لا تتأخّر.

دمتَ وسلمتَ

نور

طفولة رابعة

1

لم نكن قد سمعنا بـ "جان لوك غودار"[14]، هذا المخرج الذي بزغ من عالم السِّحر وجلس بيننا، يأكل ويشرب ويُطلق الطرّف بالفرنسية، فيضحك مرافقوه الفرنسيون قبْلنا، ثم يُترجِم أحدُهم الطرْفة لنا، الطرفة الممزوجة بدموع ضحكاته.

أفضل ما في الأمر أننا كنّا نضحك مرّتين على النكتة الواحدة.

في الثامنة والثلاثين من عمره كان، ومع أننا كنّا من مشاهدي السّينما، إلا أننا لم نكن شاهدنا أيّا من أفلامه حتى تلك اللحظة، مع أن بعض الكبار قالوا إنهم شاهدوا فيلمه الشهير "بيرو المجنون" من بطولة جان بول بلموندو، حين عُرض في سينما الرينبو، بجبل عمّان.

شكَّكنا في كلامهم، فبولموندو من المفضَّلين لدينا، ولا يمكن أن يكون قد مثّل في فيلم لم نرَه.

أحسّ غودار بارتباكنا ما إن ذُكِر اسم الفيلم، فاستفسر، وعندها هتف بفرح:

- Pierrot Le Fou، هل شاهدتموه في عمّان؟ هذا أمر غير معقول.

في تلك الليلة تبين لنا، نحن الصغار، أننا الوحيدون في ما يبدو، الذين لم نشاهد الفيلم، فرُحتُ ألوم بشير، وبشير يهمس: هل تعتقد أنني كنت سأخفي عنك فيلما لبلموندو؟

بشَعْره المنحسر، ونظارته الكبيرة ذات الإطار الأسود، ولحيته التي نبتتْ قليلًا، ولم يجد وقتًا لحلاقتها، أو أنه تعمّد إطلاقها لتكون ملائمة للمهمّة القادم من أجلها، كنّا نتابعه بشغفٍ من يُتقن الفرنسية، خائفين أن تفوتنا كلمة. كنت أنظر إلى نور فأجدها تهزّ رأسها كما لو أنها تؤيد كلامه، فأهزّ

---

[14] - واحد من أكبر المخرجين السينمائيين العالميين، ولد عام 1930، ومن أكثرهم تمرُّدًا على المستوى السياسي والفنّي منذ نهاية الخمسينيات من القرن الماضي، ومن المناصرين الدّائمين للشعب الفلسطيني.

رأسي تأييدًا لهزّة رأسها.

أخبرتْنا نور أنه قادم لتصوير فيلم عن الفدائيين، وأن خالها صديقه، وتلك كانت مفاجأة كبرى، إذ لم يسبق لها أن أخبرتْنا أن لها خالًا مقيمًا في بلاد أجنبيّة، وتضاعفتْ دهشتي لأنها لم تخبرني، حين زُرْنا باريس معًا، عبر المطار الخاصّ قبل ثلاثة أعوام؛ لم تقل لي إن تلك الرّحلة فرصة لزيارة خالها.

كان من الصعب عليَّ أن أعيد تشغيل المطار مرّة ثانية لآخذها إلى هناك، لأن بيوت الصفيح، التي كانت تطير مع الريح، كلّما هبّت، أخفت المطار تحتها، كما قلتُ، ثم إن نور كبرتْ بحيث أصبحتْ جاهزة للذهاب في رحلات غير تلك.

أمّ نور وجدتْ أن أفضل تكريم للمخرج، أن تُعدّ له طبخة ورق دوالٍ، ويمكنني القول إنها أطيب طبخة ورق دوال أكلتُها حتى اليوم. نور أوضحتْ لي السبب: هذا لأنها طبخة بطعم السّينما.

راقبْنا غودار وهو يأكل الدّوالي، كما نتابع فيلمًا حافلًا بالمفاجآت.

عدّلْنا جلساتنا، وأشرعْنا أعيننا على آخرها تمهيدًا لمشهد البداية.

اللقمة الأولى كانت أشبه بالمشهد الأول، بعد أن ينتهي ظهور الأسماء على الشاشة في مقدمة الفيلم.

غودار الذي لاحظ ترقُّبنا، لم يخيِّب أملَنا، صغارًا وكبارًا، وعلى رأسنا أمُّ نور التي أمضتْ كثيرًا من الوقت في إعداد الوجبة الصّعبة وطهوها برقّة، مستخدمة؛ وتلك كانت المرّة الأولى التي نشهدها؛ رِيَشَ اللحم في قعر الطنجرة.

بهدوء تذوّقَ الطعام، فأحسسنا أننا أمام مشهد بالتّصوير البطيء، كان يتلذّذ، مُغمضًا عينيه، في الوقت الذي راحت فيها أعيننا تتّسع، وترقرق دمع في عينَي أمّ نور التي أطلقتْ تنهيدة عميقة أعقبتها بأن قالت: "الحمد لله"، بعد أن هزَّ غودار رأسه بطرَب من يستمع إلى أم كلثوم وهي تغني:

هل رأى الحب سُكارى مثلَنا؟

أم نور كانت تفكّر بأخيها، كما أخبرتنا في ما بعد، ولذا بذلتْ قصارى جهدها حتى لا يقال إنها لم تكرِّم الضيف الذي أرسله بأفضل صورة. أو كما نقول، كانت الأكثر حرصًا على تبييض وجه أخيها، وتبييض وجه الشعب

الفلسطيني كلّه، فالرّجل قادم من أجلنا.
أخبرَنا غودار، أنّا ونور وبشير، وأقول أخبرَنا، لأننا أحسسنا أن تلك اللحظات كانت لنا وحدنا، فها نحن نلتقي مع السّينما وجهًا لوجه، ونلمسها بعد أن كنّا نشاهدها عن بُعد.
أخبرَنا غودار أنه باعتباره فرنسيًّا، كان يحبُّ أن يخرج فيلمًا عن الجزائر التي استعمرتْها فرنسا طويلًا، لكن ذلك لم يحدث للأسف. ولحسن الحظّ - قال موجهًا كلامه إلى أمّ نور- أن معرفتي بفلسطينيين، من بينهم شقيقكِ الذي أعتبره صديقًا عزيزًا، ومعرفتي بفرنسيين يدافعون عن حقوق الفلسطينيين، وكذلك وجود تمويل من اللجنة المركزية للثورة الفلسطينية، كلّ ذلك جعل الأمر ممكنًا.
نور تجرأتْ وسألتْه: ولكن ما الذي ستقوله في الفيلم عن الفلسطينيين؟
انقطعتْ أنفاسي، فهذه جرأة كبيرة أن تَسأل المخرجَ، وكأنه معلمكَ في المدرسة.
ضحك غودار: "أشكركِ أيتها الفتاة الجميلة صاحبة الشعر الأحمر على السؤال؟"، فانقطعتْ أنفاسي، وأنا أراه وأسمعه يغازلها أمامي، وكأنني غير موجود.
- "اسمكِ نوار أليس كذلك؟
تدخلتُ أُصحِّحه:
- بل نور.
- أوكي، نور، صحيح هذا؟
بنظراتهم التي انصبّتْ عليّ، طلبوا منّي أن أصمتَ، ففعلتُ.
- الفيلم سيكون سياسيًّا، إذا صحّ التّعبير، وناطقًا بالعربية، ولكننا سنُدبلجه ليغدو ناطقًا بالفرنسية، حتى نستطيع توزيعه بشكل سهْل. إنه فيلم عن الفدائيين، عن فلسطين والفلسطينيين، لكن أحبُّ أن أقول إنني لم آتِ إلى هنا لإعطاء الدّروس، بل جئت إلى هنا لكي أتلقّى الدّروس، وأتعلم من أناس هم متقدِّمون علينا، فالذي يُقاتل من أجل حريته مُتقدِّم عن ذلك الذي يحبُّ الحرية فقط. كلّ ما أريده أن أستخدم خبرتي السّينمائية كمخرج، للتعبير عن أفكار الثورة الفلسطينية. نريد؛ أنا والفريق الذي معي؛ أن نساعد الناس

الذين يناضلون بطريقة أو بأخرى ضد الاستعمار والإمبريالية، لكي تصل أفكارهم وقضاياهم إلى البشر في كلّ مكان.

رغم ذهولي بكلامه الكبير، استطعت أن أتذكر أن عليَّ أن أكتب كلمة جديدة: الإمبريالية، كتبتُها وأعدتُ الورقة إلى جيب قميصي. لاحظ غودار ذلك، فوجدته يوجّه حديثه إليّ:

– كأنك لم تكتب سوى كلمة وحيدة من كلّ ما قلت؟

– صحيح.

– لماذا؟

– هذه كلمة أسمعها لأوّل مرّة: الإمبريالية.

– وبقية كلامي، ألم يعجبك؟

– أعجبني كثيرًا، لأنني أعرفه، أعني أحسّه.

– وهل تسمح لي أن أضع حديثك هذا في الفيلم، فهناكَ من يُصوِّرنا الآن.

في تلك اللحظة استدرنا جميعًا نحو الجهة التي نظر إليها، فرأينا مصوِّرًا يجلس في الزاوية موجِّهًا الكاميرا إلينا.

سمحتُ لغودار أن يستخدم حوارنا، وتذكرتُ أن نور تحدَّثتْ وسألتْ:

– وهل ستستخدم ما قالتْه نور؟

– بالطبع، يمكن أن نستخدم ما قالته الفتاة الجميلة ذات الشعر الأحمر، لا أظنّ أن فيلمنا سيحظى بفتاة أروع منها.

ومرّة ثانية ضايقني غزله الواضح، لكن ما جعلني أهدأ هو فرحي بأنني سأكون ونور من أبطال الفيلم، وأننا سننتقل من أمام الشاشة لنكون داخلها.

***

تأخّر غودار تلك الليلة، وكان يتحدّث بالإنجليزية بين حين وحين مع والد نور، فنلتقط بعض الكلمات، لكن، كان عليَّ آخر الأمر أن أخرج، فقد تجاوزتِ الساعة التاسعة.

نظرت إلى بشير وأشرتُ له برأسي نحو الباب، ونكزتُ نور وهمستُ لها بأننا تأخّرنا. التفتتْ إلى ساعة الحائط، وهزّت رأسها موافقة. صافحْنا، بشير وأنا، غودار بحرارة، وخرجنا.

سرنا مسحورين في طريق عودتنا، صامتين.

وكنت سعيدًا، إلى حدّ توبيخ نفسي، لأنني لم أنتبه من قبل إلى أن السّينما أجمل فن في الدنيا، ولولا خوفي من أن تزجرني أمّي، لأخبرتها أنني أريد أن أصبح مخرجًا، فقد أتعبتُها كثيرًا حتى أصبحت شاعرًا، وأتعبتها أقلّ، حين أصبحتُ روائيًّا، وأتعبتها كثيرًا جدًا، لأنها دفعت أقساط تعلُّمي العزف على العود لأصبح موسيقيًّا، لذا، لا أتخيّل ردَّ فعلها إذا أخبرتها بأنني سأكون سينمائيًّا.

خطر لي أن أدعو أمّي إلى فيلم تمثّل فيه كلوديا كاردينالي، حتى إذا ما قررتْ أن تزجر رغبتي وتزجرني فإنها، تحت كلّ الظروف، لن تتجرأ أن تقول لي: وما الذي ستفعله في السّينما، أن تمضي حياتك رايح جاي مع كلوديا؟ فكلوديا لا تُعاب، ولذا ستوافق أمّي.

لا أذكر المكان الذي ودَّعتُ فيه بشير.

وصلتُ البيت، وجدتُ أمّي في انتظاري على العتبة، بدأتْ هجومها، ولكنني حين طلبتُ منها أن تسمع مني سبب تأخّري، هدأتْ.

أعدتُ ما حدث في بيت نور بالتفصيل، فنسيتْ نفسها، واستمعتْ شبه مسحورة لحديثي عن السّينما، وعن فيلم "بيرو المجنون" الذي لم أكن شاهدته، ولا سمعتُ قصته. كنت مضطرًا أن أخبرها بالقصة، واستفضتُ، إلى درجة أنها بكتْ تأثرًا بأحداثه، وفي النهاية سألتْني:

- هذا الـ "كدار" الذي تحدثتَ عنه، من لحم ودم؟
- لقد صافحتُه، هل تريدين دليلًا أكبر من هذا؟
- يعني لحم ودم، لحم ودم؟

***

بعد اليوم الثاني وصلت نور؛ كانت على عجل؛ أخبرتْني أنها جاءت لتودّعني، وأن ما ستقوله لي قالتْه لأبيها وحسب.

2

المفاجأة الأولى التي حملتْها نور، أن غودار ومن معه ناموا في بيتهم، وأن ذلك أتاح لها أن تتحدّث معه كثيرًا في الليل، وعندما كانوا يتناولون طعام الفطور في الصباح التالي؛ فقدْ كان يريد أن يسمع كلّ شيء يتعلق بحياة الفلسطينيين، وتهجيرهم.

قالت لي إنها سألته عن بلموندو وعن برجيت باردو وإن كانا صديقين له أيضًا.

غودار أكّد لها ذلك.

فقلتُ لها: ليتكِ سألتِه عن ألان ديلون.

ابتسمت نور:

- أظنّ أن هذا هو السؤال التي كنتَ تحبّ أن تسأله له.

كنت أحب ألان ديلون بشكل كبير.

- "سألتُه"، وصمتتْ.

- ماذا قال؟

- قال إنه لم يعمل معه بعد، وسألني: "لماذا تسألين عنه بالذات؟".

- لأننا نحبّه.

- ولماذا تحبونه؟

- لأنه يموت في آخر أفلامه عمومًا، ولذلك لا نستطيع أن ننساه.

- هذا نقد جديد للأفلام لم أسمع به من قبل، ولكن أعدكِ، إن عملتُ معه في فيلم قادم، سأحرص على أن يموت في نهاية الفيلم.

- قال لكِ ذلك؟

- بالحرف الواحد، "سأحرص على أن يموت في نهاية الفيلم".

***

وصمتتْ نور، حتى أحسستُ أنها تكتبُ سيناريو الفيلم القادم لغودار، الذي سيموت فيه ألان ديلون، لكنها فاجأتني وقالت:

– جئت لأخبركَ بما يعرفه أبي.
– ما هو؟
– لقد علمتُ أن غودار سيقوم بتصوير عملية فدائية حقيقية.
– حقيقية، حقيقية، مش تمثيل؟
– مش تمثيل.
– لم أكن أتخيّل أن يفعل هذا، أنا سعيد أنكِ أخبرتِني.
– ليس هذا هو السِّر الذي أريدُ أن أخبرك به.
– وما هو السّر؟
– سأكون واحدة ممن سينفّذون العمليّة.
– مع الفدائيين؟ وهل وافق غودار على هذا؟
– غودار لا يعرف.

***

على مدى نصف ساعة راحت تتحدّث هامسة بانفعال، حتى إن وجهها النحاسي احمرَّ وغدا شعرها أكثر احمرارًا.

أخبرتْني: أن الأخ جورج عسل، أبو خالد، دون أن تضيف أكثر، يُرتّب تفاصيل العملية، وأنها طلبتْ منه أن تكون ضمن المقاتلين، لكنه لم يعِدها بالموافقة؛ قال لها لن أتحدّث في الأمر قبل أن أسمع موافقة أبيكِ، فأخبرتُه أن أباها موافق، وأنها أقنعتْه، حين قالت له: إنني أتدرب منذ سنتين، وإذا لم أشارك في عملية حقيقية فمتى يمكن أن أشارك؟

أبو خالد أخبرها: يبقى عليك أن تُقنعي شخصًا لن يقتنع بسهولة، إنه الأخ كمال ناصر[15]، وتستطيعين أن تجديه في مكاتب "جريدة فتح". وأوصاني أن أحضِر بدلتي العسكرية، الفوتيك، معي.

وضعتُ البدلة في حقيبتي المدرسية، فتضاعف حجم الحقيبة ثلاث مرّات، بحيث لم تبْق جارة، في طريقي إلى المدرسة، ولا طالبة فيها، إلّا وسألتْني عن

[15]– شاعر وسياسي، من قياديي الثورة الفلسطينية. ولد في "بير زيت"، قرب "رام الله" عام 1924، واستُشهد في بيروت عام 1973 في عملية اغتيال إسرائيلية استهدفته وقائدين فلسطينيين آخرين، هما الشاعر كمال عدوان ومحمد يوسف النجار.

سرّ الحقيبة، التي وصفتْها إحداهنّ بالحامل. أضحكُ، وكان هذا يكفي.
بعد الدوام المدرسيّ ذهبت إلى مكاتب الجريدة في بركسات بمحاذاة مخيم الحسين.
التقيتُ أبو خالد، فسألني:
- أين البدلة العسكرية؟
- في الحقيبة.
- تعالي معي.
أدخلني إلى مكتب وأغلق الباب، بعد أن طلب منّي ارتداءها.
أمام كمال ناصر وقفتُ مرتبكة قليلًا؛ قائد له حضوره وهيبته. تأمّلني دون أن يتوقّف عن هزّ رأسه:
- سمعتُ من الأخ أبو خالد أنكِ تريدين المشاركة في العملية التي سيصوِّرها صديقنا غودار؟
- صحيح.
- ولكنكِ صغيرة.
- لست صغيرة، تدربتُ سنتين، أكثر. وفزتُ بمسابقة الرّماية ستّ مرّات. يمكن أن تختبرني الآن. وفي المرّة الماضية خدعوني أنا والزّهرات، حين أوهمونا أننا نفّذنا عملية، وتبين لنا أنها عملية مزيّفة. أنا تدرّبتُ لكي أساهم في تحرير فلسطين.
- لا أظنّكِ قادرة على المشاركة.
- جرّبني ولن تندم.
التفتَ إلى أبو خالد وقال له:
- على مسؤوليتك؟
- "على مسؤوليتي، إنها أفضل زهرة في إصابة الأهداف"، أجاب.
وصمتتْ نور كعادتها، وهي تحدّق إليّ مباشرة.
- "والآن؟"، سألتُها وقلبي يخفق انفعالًا.
- العملية ستكون غدًا، جئت لأخبركَ بهذا، وكما قلت لك، اثنان فقط يعرفان: أنتَ وأبي. مضطرة لأن أودّعك الآن، فمن الصعب أن أودّعك غدًا.
وقفتْ، فوقفتُ، وكنّا طوال الوقت نجلس أمام العتبة:

- سأدخل أولًا لأودِّع خالتي عايشة.

-إن ودعْتِها ستعرف أننا نخفي عليها شيئًا، ودّعيها من هنا، ستسمعكِ.

- اطمئن، لن تعرف.

تبعتُها إلى الدّاخل.

دعَتْها أمّي للجلوس، لكن نور أخبرتْها أن عليها الذّهاب، وانحنتْ وعانقتْ أُمّي وهي جالسة، وطال العناق أكثر من المعتاد.

خرجْنا، نور وأنا.

قبل أن افتح باب البيت الخارجي المطلِّ على الشارع، اقتربتْ منّي وعانقتْني، وطال العناق أكثر من المعتاد أيضًا.

خفتُ...

كنتُ أريد أن أقول لها شيئًا، لا أعرف ما هو، أشارتْ إليّ أن أصمت.

- نتحدّث حين أراكَ يوم الجمعة، بعد العملية.

***

رغم معرفتي أن نور تجاوزت مرحلة الزّهرات، إلا أن ذلك لم يُخفّف من حدّة قلقي. في تلك الفترة كانت تزور بيت الفدائيات وتمدّهنَّ بالكثير من الأشياء، البيت الذي لم يكن أكثر من شقّة في جبل عمان، قرب دوار الحاووز، تجمّعتْ فيه كثير من المتطوّعات اللواتي تسلّلن من الضفة الغربية وغزة، ليلتحقنَ بالمقاومة الفلسطينية، ومن بينهنَّ المناضلة التي سيذيع صيتها في ما بعد، فاطمة برناوي.

نور التي التحقتْ بدورة تدريب لا تشبه تلك الدّورات المعدّة للصغار، كلّ ما فيها كان يشير إلى أنها قررتْ أن تحرر فلسطين وحدها، إذا اضطُرتْ لذلك.

حدثتْني عن صعوبة الدّورات المتقدّمة، وشدّة المدرّب، القائد" أبو الفوارس"، والرّصاص الذي يتناثر حولهنّ وهنَّ يزحفنَ، والحيوانات البرية التي عليهن أكْلها، من الأفاعي حتى القنافذ. هي نفسها أكلت قنفذًا كما أخبرتْني، بعد أن تمّ تجفيفه، لتكون القدوة للمتدرِّبات، فالالتجاء لما توفره الطبيعة، في الأوقات التي يفقد فيها المقاتلون والمقاتلات فرص الوصول إلى الطعام، أمرٌ ضروري للبقاء على قيد الحياة.

المدرّبون العائدون من دورات تدريبية في بعض الدول البعيدة، كانوا يحدثونهنَّ عن حيوانات غريبة أكلوها، مضطرّين، لذا، فليحمدن الله أنها غير موجودة في الأردن وفلسطين.

لم يكن أمر هذه الوجبات الكريهة يخفى عليَّ، إذ سبق وأن شاهدتُ ذلك في عديد من الأفلام، لكن تناول نور لقنفذ بدا لي أنه صعب عليَّ أكثر مما هو صعب عليها، إلا أن عدم التهامها لحيوانات أخرى، لا أعرفها، أراحني كثيرًا.

***

- "يهيأ إليّ أن نور أخفتْ عني شيئًا حين عانقتْني، لو كان عناقها أطول بقليل لعرفتُه"، قالت لي أمّي.

- إنها تعانقكَ دائمًا.

- لا، هذا العناق غير، هل تخفي عنّي ما تعرفه؟

- أنا؟ أنا لا أعرف أيّ شيء.

- معنى ذلك أنك تعرف، ولكنكَ لا تريد أن تقول لي. نحن في أيّ يوم؟

- الأربعاء.

- "الأربعاء، الأربعاء"، وراحت تهزّ رأسها، ثم أضافت: "يوم الجمعة سأعرف كلّ شيء".

خفتُ أكثر.

3

في ذلك اليوم الذي ودّعتْني فيه، بدت لي نور نحيفة أكثر من أيّ يوم مضى، لكن نحول جسمها تحوّل إلى ضوء ساحر في ملامحها وعينيها؛ كانت تشعّ، لكنني لم أقل لها ذلك، قلت لنفسي سأكتبه، وأعطيها إياه بعد عودتها.

اخترعتُ ألف حجة للذهاب إلى بيت نور والمبيت هناك، ليلة الجمعة، أمّي لم تعارض، بخاصة أن علاماتي في صعود، كما أن عزفي على العود بدأ يعجبها، مع أنه لم يكن يعجب أستاذ الموسيقى، الأستاذ الذي كان في كلّ مرّة يقول لي: تريد أن تكون عازفًا جيدًا، فلا بدّ أن تُمضي ساعتين على الأقل، كلّ يوم، مع عودك، حتى تعرفه ويعرفكَ.

تلك الجملة أعجبتني كثيرًا، حتى إنني سجّلتُها، ولكنني، دائمًا، أحببتُ أن أسمعها منه ثالثة ورابعة وخامسة.

سألني أستاذ الموسيقى عن وقتي، وكيف أقضيه، فشرحتُ له أنني أدرس وأكتب شعرًا وأكتب رواية. أحببتُ أن أقول له وأرى نور، لكنني اعتقدتُ أنه لن يفهم الأمر إذا جمعتُ الشعر والرواية والموسيقى ونور معًا. في الحقيقة، بعد أن عرفتُ أن الفنون سبعة، اعتبرتُ نور الفنَّ الثامن. أحببتُ أن أقول له أيضًا إن نور تفهمني كثيرًا؛ لستُ مضطرًا لأن أفسّر لها شيئًا، تفهمني عندما أتكلّم، وتفهمني عندما أصمتُ. مرّة قلت لها كلامًا أعجبها كثيرًا، ولستُ أعرف كيف قلتُه: أحيانًا أبحثُ عنكِ لأصمتَ معك فقط.

كان الصمتُ مع نور مختلفًا، كلّه كلام وأفكار، وفي بعض المرّات يصبح حكايات، ومرّات موسيقى، ولما يأتي وقت وداعنا ونضطرّ أن نتكلّم أقول لها: "ليتني أستطيع الكتابة بسرعة أفكاري"، أو، "ليت أستاذ الموسيقى يسمع ما في رأسي من ألحان ويكتُبها".

مع بداية تعلّمي للموسيقى أخبرتها: "أتمنى أن أُتقن العزف مثل أفضل العازفين". يومها سألتني: "لماذا؟"، فأجبتها "لكي أعزف للطيور، أحسّ أنها تغنّي لنا كلّ يوم، دون توقّف، لكنها لا تسمع غير صراخنا وكلامنا

وشتائمنا. حين أتعلم العزف جيدًا سأعزف لها". في ذلك اليوم اختتمتُ كلامي بأن ذكّرتها: "لا تنسي أنني أحبّ كلّ شيء يطير".

- لا تحبني إذًا.

- كلّ طائر له جناحان، وأنت لك عشرون جناحًا على الأقل.

***

لم أنسَ فكرة العزْف للطيور، فبعد أن استطعت، بصعوبة، أن أعزف شيئًا قريبًا من لحن أغنية "البنت الشَّلبية" و "قمرة يا قمرة لا تطلعي ع الشّجرة"، طلبتُ منها أن ترافقني إلى حرش مستشفى البشير لأعزف للطيور.

لم تعترض، سارت تسبقني، تاركة أذنَيها تعملان على التقاط أخفض صوت صادر عن عصفور.

بعد مسيرة استمرتْ عشر دقائق، وصلْنا إلى عدد من أشجار الكينا، أو الأوكالبتوس؛ هي الأضخم في الحرش، ويجري تحتها الماء المتدفّق من المستشفى، بعد استخدامه.

عصافير كثيرة كانت هناك، حساسين وطيور خُضَّر، وهذان النوعان يكونان معًا دائمًا، بلا أي خلاف، كأنهما أخوان، يطيران معًا ويشربان معًا، ويحطّان على الأشجار نفسها، ويتداخل تغريدهما، ويتشابه أحيانًا. جلسنا بهدوء، وبدأتُ العزف، لكنها لم تقل لي: "الله، الله عليك"، كعادتها، فقد كانت تخشى، كما أخبرتْني، أن تسمعها الطيور فتفرّ.

تركتْني في ذلك اليوم وحيدًا على المسرح، لكن الجمهور كان فوق رأسي، وليس أمامي.

للحقّ، أستطيع القول، لقد عزفتُ أفضل من أيّ مرّة عزفتُ فيها من قبل، حتى أحسستُ أنني أضفتُ نغمات جديدة لكلّ لحن، لم تكن متعارضة معه، أو مُفسِدة له، وطوال الوقت، كنت أنظر إلى أعالي الأشجار والفضاء المحيط بها، لأعرف تأثير عزْفي.

بدأت الطيور بالابتعاد واحدًا تلوَ الآخر، لكنني أرجعتُ ذلك إلى أنها لم تسمع أحدًا يعزف خصيصًا لها من قبل.

صمتَ العود أخيرًا، فنظرتُ إلى أعالي الأشجار، لعلّ عصفورًا بقيَ هناك في الأعلى، ويحب أن يقول رأيه في ما سمِع.

كان هناك عصفور فعلًا، عصفور أخير، غنّى قليلًا، فأجبتُه، بأن قلَّدتُ صوته، وهذا أمر أُتقِنه تمامًا.

تبادلنا التغريد دقيقتين على الأقل، قبل أن أراه يبتعد، فسألتْني نور:

– ماذا قال لكَ؟

– يبدو أنه مرتاح لما سمعه، وقد اعتذر لي عن مغادرتها قبل انتهاء العزْف، فهي تتناول العشاء مبكرًا قبل مغيب الشمس، أما هو فقدْ بقي ليُفسِّر لي، بناء على طلب الطيور الأخرى، مسألة ذهابها قبل أن أُنهي.

هزّت نور رأسَها، ولم تعلّق.

***

تذكرتُ ما حدث في ذلك اليوم، حين أخبرني صديق عزيز في إيطاليا بعد خمسة وأربعين عامًا من ذلك الحفل، وهو أستاذ جامعي ومترجم رائع ومؤلف وباحث، أنه دُعي مع ثلاثة أساتذة معروفين ذات مرّة، لتقديم محاضرة في لقاء يُعقد في الشمال الإيطالي، جاء الأوّل بالطائرة، والثاني بالقطار، والثالث سيرًا على قدميه، لحسن حظّه، لأن بيته قريب من المسرح.

انتظروا طويلًا، لكن أحدًا لم يأتِ، باستثناء رجل وقور كان يجلس في الصفّ الأول، وينظر إلى ساعته بين لحظة وأخرى وكأنه يطلب منهم أن يبدؤوا، لأن لحظة البداية تأخّرت نصف ساعة.

ذلك الصّديق قال لي إنه تشاور مع زملائه المحاضرين، وتفاوتت آراؤهم؛ هل يقومون بما جاؤوا من أجله؟ أم يعتذرون للرجل الوحيد في القاعة؟

كانوا نبلاء، وقدّموا أوراقهم بمنتهى الجدّية، احترامًا لجمهورهم المكون من شخص واحد، ولما انتهوا سألوه إن كانت لديه أيّ أسئلة، فشكرهم على لطفهم وقال: لدي سؤال واحد: متى ستنتهي المحاضرة، لأنني حارس المسرح وعلي أن أغلقه بعد انتهائها؟

دائمًا نضحكُ حين أستعيد تلك المأساة الثقافية، وفي كلّ مرّة أتذكر العصفور الأخير فوق الشجرة وحواري معه، وأتساءل، ضاحكًا بالطبع، هل فهمتُ حقًا ما قاله لي في ذلك اليوم البعيد حين تبادلنا التّغريد؟

***

كلّما ضحكتُ تمنيتُها معي...

***

لم تستطع أمّ نور أن تفهم ما يدور حينما جلستُ مع زوجها في الشرفة، ننتظر نور. كان الأمر يحيّرها، وهذا ما باحتْ لنا به:

لو أن شيئًا سيئًا حدث لنور _لا سمح الله_ فإننا لن نجلس في انتظارها، بل لخرجنا للبحث عنها، لكننا نجلس في انتظارها، وهذا يعني أننا نعرف أين هي، وأنها ستعود في أيّ لحظة.

لكن انتظارنا طال، وقلَقُنا تضاعف؛ صرْنا نقف بين حين وحين، محاولين أن نرى الشارع بوضوح أكثر، ومن يتفاءل منّا كان ينظر إلى أسفل الشّرفة، إلى عتبة الباب.

ولم يأتِ أحد.

أمّ نور دخلتْ وعادت مائة مرّة على الأقل، وفي النهاية صرختْ في ظهْرنا، لأنها كانت خلْفنا:

- أريد أن أعرف، أين هي ابنتي؟
- لو كنّا نعرف لقلنا لكِ.
- بل تعرفان.
- لا نعرف.

في تلك اللحظة، وقد بدأتِ الشمس تُشرق، سمعْنا صوت سيارة تصعد السّفح، ورأينا أضواءها، فهوتْ قلوبنا جميعًا. ظلّت تسير إلى أن توقّفتْ تحت الشّرفة، فانطلقْنا جميعًا هابطين الدّرج نحو الشارع، وقلوبنا تسبقنا.

4

في السادسة من مساء الخميس، في أواخر شهر أيار، مايو، 1969، تحرّكت عدة سيارات عسكرية من عمّان باتجاه منطقة الأغوار. كان جورج عسل، المقاتل الشّاب، قد طلب من نور، التي ترتدي لباسها العسكري، أن تخفي وجهها، بأن تتلثّم، قبل أن يتجمّع المقاتلون.

– لا أريد أن يعرفوا من أنتِ، تصرّفي وكأنكِ أحد مقاتلينا، ويفضّل ألّا تتكلّمي حتى لا يكتشفوا أنكِ فتاة.

في ذلك اليوم، قبل غياب الشمس، اختفى وجه نور خلف الحطّة المرقّطة بالأبيض والأسود. سحبتْ صدرها إلى الداخل، ونفختْ كتفيها ورفعتهما لتبدو أكبر حجمًا، وشدّتْ قامتها لتبدو أطول؛ وكلّها مهمّات من الصعب القيام بها معًا لزمن طويل.

بدأت حرارة الطقس ترتفع مع انحدار العربات نحو الأغوار، النقطة الأكثر انخفاضًا في العالم. قلبُ نور ينبض بقوة، خائفة أن يكتشفوا شخصيتها، والحرارة تتزايد، دون أن تكون قادرة على تحرير فمها وأنفها من لثامها المُحْكَم.

في معسكر الفدائيين قرب قرية الشّونة، تجمّعوا، فرقة الحماية وفرقة الاقتحام.

بصعوبة استطاعت أن تشرب الشّايَ الذي قُدِّم للمقاتلين في لقاء وداعهم، قبل بدء تنفيذ العملية.

غادروا المعسكر، توقّفتِ السيارات وسط بيّارات البرتقال، ترجَّل المقاتلون، وغودار، وفريق التّصوير الذي يرافقه، وبدؤوا السّير حتى وصلوا إلى مواقع الجيش الأردني، الذي كانوا يُنسِّقون معه عملياتهم القتالية.

وثانية، شربوا الشّاي مع الضباط والجنود، وتكررت مخاطبتهم لنور: يا أخ.

الخطة واضحة، بعد أن حدّدوا ساعة الصِّفر: مع بدء تنفيذ العملية هناك

طلقة تنوير، ومع بدء الانسحاب طلقة تنوير ثانية، وهنا يبدأ الجيش الأردني بقصف القوات الإسرائيلية بمدافع الهاون، على الجانب الآخر من النهر، لتغطية انسحاب الفدائيين؛ هذا ما كان يحدث في تلك الأيام.

بين ضفتَي النّهر امتدّ حبْل متين، ليُمسكَ المقاتلون به وهم يعبرون، حتى لا تجرفهم المياه.

اجتازت فرقتا الحماية والهجوم النّهر، وعلى كتف أحد المقاتلين رشاش دوشكا، تمّ نصْبه على تلّ مرتفع. نور كمنتْ برشاشها الكلاشينكوف فوق ذلك التلّ.

انطلقتْ رصاصة التنوير الأولى وبدأ الاشتباك، في الوقت الذي باشرتْ فيه كاميرا غودار، في الخلف، تعمل على تصوير المعركة.

الشيء الذي لم تنتبه له وحدةُ الحماية أن المرتفع الذي اختارتْه، يقع تحت صخور عالية، لذا، ما إن أتمتْ فرقة الهجوم تنفيذ العملية، وباشرتْ فرقة الحماية تغطية الانسحاب، حتى بدأ رصاصُ القوات الإسرائيلية ينطلق باتجاه موقع نيران الدّوشكا، يصطدم بالصخر خلف مقاتلي الحماية، ويرتدّ نحوهم.

الشّاب الذي كان مُكلّفًا بالدّوشكا، أصابتْه رصاصة في كتفه، فصمتَ كلّ شيء، سوى رصاص الجنود الإسرائيليين، فصاح: "يا أخ، استلم الرشاش". وهو يقصد ذلك المقاتل الملثّم الذي لم يسمعوا صوته أبدًا.

وضعتْ نور رشّاشها جانبًا واستلمتْ الدّوشكا، أمسكتْ بمقبضَي ذلك الرشاش، لكن السيطرة على سلاح ثقيل مثله لم تكن سهلة، فمع كلّ طلقة ارتدّ الرشاش وضرب جبينها، إلى أن أحستْ بأنها غير قادرة على أن ترى. مسحتْ عينيها. سائل لزجٌ كان يغطيها.

جورج عسل انتبه لذلك، فراح يزحف حتى وصل حيث نور، طالبًا منها الابتعاد ليستلم الرّشاش، وهذا ما كان.

وهنا، تمّ إطلاق رصاصة التنوير الثانية، مع بدء عملية انسحاب القوّتين: الهجوم والحماية، فراحتْ قذائف مدافع الجيش الأردني تنهال على المواقع الإسرائيلية.

بعد انتهاء تلك العملية، ووصول المقاتلين إلى القاعدة، تبين أن هناك ثلاثة جرحى، من بينهم نور التي شاهدوا الدّماء تسيل من جبهتها، ولكنهم حين

فحصوها، عصفتْ بهم مفاجأتان، الأولى أنها فتاة، والثانية أنها ليست مصابة بأيّ رصاص.

نسوا الجريحين وانشغلوا بها، أدهشهم أنها كانت معهم طوال الوقت ولم يكتشفوا أمرها.

أما جبين نور فراح ينتفخ أكثر وأكثر مع مرور كلّ دقيقة.

غودار الذي رأى تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر أمامه، الفتاة التي تركها خلْفه تسأل عن إمكانية أن يعمل مستقبلًا مع ألان ديلون، كان الأكثر دهشًا.

في ذلك اليوم، سيُهديها هدية لم يتوقّعْها أحد.

5

كانت أم نور تستمع لجورج وهي ترتجف، كما لو أن ابنتها لم تعُد بعد، وكنتُ ووالدها، نسترق النظر بين لحظة وأخرى إلى جبينها الذي غدا امتدادًا هابطًا لشعرها الأحمر في ذلك الفجر. أما هي، فكانت تنظر إليّ ناسية أمَّها، كما لو أنني أرسمها، أو لعلها ترسمني.

سأل والد نور عن غودار، فأخبرنا جورج أنهم أمَّنوا له ولمن معه شُقّة في "جبل اللويبدة"، لأنه يريد أن يتجوّل ويرى عمّان، ويصوّر بعض المشاهد التي قد تكون ضروريّة لفيلمه.

- هل عرف أن نور ستكون معكم؟ سألتِ الأمّ.

- لا، لم يكن يعرف أبدًا، لقد فوجئ أكثر من الجميع، وأعلَمني أنه سيهدي نور شيئًا ما، لم يوضّح لي ما هو.

شيء ما في داخلي قال لي إنه يعرف.

بعد أن انتهى جورج من سرد مسار العملية، تمنيتُ أن أسمع التفاصيل من نور نفسها، أحسستُ أنه قد يكون أخفى بعض التفاصيل المخيفة كي لا يصدم أمّها.

نور بقيتْ هادئة، وفي لحظةٍ صمتَ فيها كلّ شيء، وقف الأخ جورج وودّعنا، فوقفتُ وغادرتُ البيت معه. كنت أعرف أن كلامًا كثيرًا سيقال بعد خروجنا.

سألني جورج إلى أين ستذهب، فأخبرته إلى البيت، في الوحدات.

- سأوصلكَ إذًا، أظنّكَ أمضيتَ الليل ساهرًا في انتظارها.

هززتُ رأسي مؤكّدًا ذلك، فعلّق:

- لكَ مكانة خاصة عند نور، لتكونَ أنتَ ووالدها الوحيدَين اللذين يعرفان بأمر العملية.

- نور تعرفني منذ أن كنتُ رضيعًا في اللّفة.

ضحك جورج، فاهتزّ شاربه الأسود الكثّ:

- هذه هي المرّة الأولى التي أسمع شخصًا يقول ذلك، عادة يقولون العكس: أعرفها منذ أن كانت رضيعةً في اللّفة.
- هل أخبرْتَنا كلَّ شيء عن العملية؟
- كلّ شيء.

بعد أن تحركت العربة، أخبرتُ جورج بلا مقدمات، أنني أكتبُ الشِّعر، وأن نور أوّل من يقرأ قصائدي، أما فصول روايتي فهي تقرأُها أولًا بأول.

- هذه مفاجأة جميلة، فشعبنا بحاجة لأن يكون لديه شعراء وروائيون، ورسّامون، ومخرجون. هل تعرف أن الزّعيمة الصهيونية غولدا مائير تقول: لو كان الفلسطينيون شعبًا لكان لهم أدب؟
- لا أعرف ذلك.
- طبعًا هي كاذبة، لأن لدينا كتّابًا وشعراء رائعين قبل النكبة وبعدها.

وصمت قبل أن يضيف.

- هل يزعجك لو أن أحدًا كتب قصيدة لنور؟
- أبدًا، أبدًا؛ كلّ ما أتمناه أن تكون قصيدة جيدة.

عاد جورج ليضحك من جديد:

- هذه أفضل إجابة يمكن أن أسمعها من أيّ إنسان، مع أنني لا أصدّقها كثيرًا. الآن، وقبل أن أسمع أيًا من قصائدك، يمكنني أن أؤكد أنكَ شاعر جيد.

في تلك اللحظة أدركتُ أن الهدية التي سيقدمها غودار لنور ستكون قصيدة.

- أشكركَ، قلتُها بثقة لم أحسّها أبدًا من قبل. ولكن هل تسمح لي أن أسألكَ سؤالًا.
- تفضل.
- الهدية التي سيقدِّمها غودار لنور ستكون قصيدة، أليس كذلك؟
- كيف عرفت؟
- لم أعرف، أحسستُ.
- لكنك لم تستغرب أنه شاعر؟

- لا لم أستغرب، أنا أكتب الشعر وأكتب القصص أيضًا، وهو مخرج وشاعر.

- وأنا أريد أن أسألكَ سؤالًا.

- تفضّل.

- هل يمكن أن تكتب لنا بعض الأناشيد للأشبال؟

- بالتأكيد.

- أنت تعرف المعسكر الذي بجانب مستشفى البشير.

- أعرفه منذ اليوم الأوّل الذي نصبتم فيه الخيام.

- اليوم هو الجمعة، ما رأيك أن تزورنا، في المعسكر، يوم الجمعة القادم، سأكون هناك في العاشرة صباحًا؛ أظنّ أن أسبوعًا فترة مناسبة لكي تُنجز نشيدًا.

***

في ساحة موقف الباصات أمام نادي الوحدات ودّعني، بعد أن سألني إن كان بيتنا بعيدًا، وأجبته: "أبدًا، لقد وصلْنا"، وشكرتُه، وبعد أن نزلتُ، خجلتُ لأنني نسيت أن أدعوه لتناول طعام الفطور معنا في البيت.

بقيتُ واقفًا في مكاني أراقبُ السيارة إلى أن اختفتْ، ولكنني اكتشفت أنني لم أكن أودّع جورج وحسب، بل أفكّر في تلك القصيدة التي يمكن أن يكتبها واحد غيري لنور.

فجأة، ومع الخطوة الأولى، شعرتُ بأنني منهكٌ تمامًا، وأن سهرًا حتى الفجر ليس بالأمر الهيّن، وبدأتُ أسير.

في الطريق فكّرتُ: نور عبرت النّهر وقاتلتْ، ورجعتْ بجبين متورّم وجروح في اليدين، ولعل هناك جروحًا في قدميها أيضًا، جروحًا من الصّعب أن أراها، ولكنها رغم ذلك لم يبدُ عليها التّعب، وتوصلتُ إلى أن التّعب الحقيقيّ هو أن تجلس تنتظر وتنتظر دون أن تفعل شيئًا؛ هذا أمر يحدث لي حين اكتبُ، فبعد الكتابة أحسّ بنشاط كبير، ربما هو الفرح بما كتبتُ، لكنني حين أجلس دون أن أفعل شيئًا، وأحاول النهوض، يتصاعد الألم من كلّ أعضاء جسمي.

وجدتُ نفسي أُدندِن لحنًا ما، حتى قبل أن أنتبه، ولّما انتبهتُ، أحببتُ ذلك

اللحن الذي لا يسمعه أحد في العالم غيري.

- سأهديها مقطوعة موسيقية هذه المرّة، دون أن يعني ذلك أنني لن أكتب لها قصيدة، أو ربما رواية كاملة ذات يوم.

قبل أن أصل إلى البيت كانت المقطوعة الموسيقية قد ملأت رأسي، فرُحتُ أردّدها مرّاتٍ ومرّات حتى بتُّ على يقينٍ من أنني لن أنساها.

دخلتُ شارعنا، وبعد قليل توقّفتُ، وبدل أن أتّجه إلى بيتنا، قررتُ الذّهاب إلى بيت مُعلّم الموسيقى، مع أن الوقت لم يكن مناسبًا. وصلتُ بابه. لم أجرؤ على طرْق الباب.

قلتُ سأدوْر في المخيم قليلًا وأعود.

كانت تلك الجولة التي لم أعرف كم طالت، ضرورية، لأنني أضفتُ إلى المقطوعة نغمات جديدة.

عدتُ ثانية، وقفتُ بباب الأستاذ، لكن يدي تجمّدت في الهواء. تخيّلته يخرج إليّ بعينين نصف مُغمضتين؛ فاليوم يوم استراحته، والوقت لم يكن وقت الدّرس، وأنا لستُ من أقربائه لأفعل ذلك.

استعدتُ ما قاله لي الأستاذ ربيع عن قصيدتي: من أين استنسختَها؟ مِن كتاب؟ أم كتبها لكَ شخص كبير؟

ارتبكتُ:

سمعت حركة خلف الباب، سقط قلبي، استجمعتُ نفسي، ورحتُ أركض مبتعدًا، وأنا أرى فتات اللحن يتطاير من رأسي ويسقط على التراب ويختفي فيه.

هدأتُ أخيرًا حين التفتُ ورائي ولم أرَ أحدًا يلاحقني.

بعد دقائق استجمعتُ نفسي محاولًا استعادة اللحن.

لم أستطع.

فكرة أقرب إلى الجنون طرقتْ رأسي: أن أعود لالتقاط اللحن وتجميعه نغمة نغمة.

- "أنت انهبلتْ"، خاطبتُ نفسي.

6

غابت نور، ولم أكن قادرًا على زيارتها، لأن غضب أمّها على أبيها وعليّ، كان أكثر وضوحًا من ذلك الجبين المتورِّم.

لكن ذلك لم يمنعني من أن أحاول رؤيتها ولو عن بُعد.

مضيتُ إلى أوّل شارعِ بيتهم، وانتظرتُ هناك ما بعد ظهر يوم الأحد. لكن نور لم تظهر، فقررتُ أن أمضي إليها قبل بدء الدّوام المدرسيّ صباح الاثنين، مع معرفتي أنني أخاطر كثيرًا؛ فتأخّري عن المدرسة سيؤدّي إلى استدعاء أمي لمقابلة المدير. نهضتُ مبكرًا، وخرجتُ. وصلتُ إلى مقرِّ شرطة البادية، مقابل الزاوية الشمالية الغربية للمخيم، تراجعتُ.

أقنعتُ نفسي بأن أدع نور تظهر عندما تريد أن تظهر، وقدّرتُ أن جبينها المتورّم هو السبب في عدم ظهورها، فما الذي يمكن أن تقوله لأمّي، أيضًا، لو رأتها على ذلك الحال. لن يكون غضب أمّي أقلّ من غضب أمّها.

تراجعتُ عن الذّهاب إلى هناك، وانشغلتُ بكتابة ذلك النشيد الذي طلبه الأخ جورج، كما أصبحتُ أدعوه، مثل نور. وفي الوقت نفسه أسعى، دون جدوى، لإعادة تجميع مقطوعتي الموسيقية الضائعة. في كلّ مرّة كانت هناك نتائج مختلفة، معزوفات أقلّ جمالًا، متعثرة، كأن أوتار الآلة الموسيقية التي تُعزف عليها تتقطع واحدًا بعد الآخر كلّما أطلّتْ نغمة برأسها.

قدّرتُ أن نور لن تظهر قبل أسبوعٍ على الأقلّ، وهكذا، سيُتاح لي أن أؤلف معزوفة أخرى، لن تكون أقلّ جمالًا من الأولى.

للخروج من كلّ تلك الدوامات، ألقيتُ بنفسي في فكرة النّشيد، وكيف سيكون، ولم يمضِ الكثير من الوقت، قبل أن أصل إلى أن فكرته يجب أن تكون باعثة للأمل والإصرار على العودة إلى فلسطين.

قبل أن تُشرق شمس صباح يوم الثلاثاء، صحوتُ وأنا أدندن بكلمات أغنية، أدركتُ فورًا أنها الأغنية المنشودة.

نهضتُ، رغم العتمة، تحسستُ حقيبتي، أخرجتُ دفترًا، وكتبتُ بيتها

الأوّل على الورقة الأخيرة فيه.

كِبْر الأمل يا بلادي
وكِبْروا معاه اولادي

للحظات انتابني الشكّ، إذ كيف سيغني الأشبال أغنية فيها كلمة "أولادي"، مع أنهم صغار ولم يتزوّجوا ولم بعد. بعد قليل توصّلت لفكرة أعجبتْني، تتمثل في أن يغنّي هذا البيت، الذي سيتكرّر، المدرِّبون، ويغنّي الأشبال المقاطع الأخرى. وقبل شروق الشمس تضاعف إعجابي بفكرة مشاركة المدرِّبين.

نهضتُ، أفطرنا على عجَل، بعض الخبز، شايًا، زعترًا، وزيت زيتون، دون أن أتوقّف عن ترديد ذلك البيت الذي تطوّر فأصبح لحنًا، وعند ذلك أدركتُ أن الأغنية ولِدتْ فعلًا، ولا شيء يمكن أن يوقف تقدّمَها.

قبل أن أصلَ إلى المدرسة، توقّفتُ مرّتين، وفي كلّ مرّة كنتُ أكتب مقطعًا آخر، كان الأول:

الغربةْ ما تغرِّبنا
واحنا نحارب بيدنا
بكرة بنحمل عيدنا
ونرجع لأرض بلادي
كِبْر الأمل يا بلادي
وكِبروا معاه اولادي

قبل أن أدخل باب المدرسة باتجاه ساحتِها، توقّفتُ مرّة أخرى، وكتبتُ بتأُثر شديد المقطع الثاني:

راجعين احنا راجعين
نِمْلا الدروب ياسمين
نُحضن رُبى فلسطين
والسَّهل وزهر الوادي
كِبْر الأمل يا بلادي
وكِبروا معاه اولادي

تنفستُ بسعادة من يملك الفضاء كلّه، وأغلقتُ الدّفتر.

***

انتهى اليوم الدّراسيّ دون أن أعرف كيف انتهى، أو أتذكّر ما الذي فعلتُه في استراحة ما بين الدّروس، في السّاحة. لكن الشيء الوحيد الذي أصبح حقيقة هو أن الأغنية اكتملتْ، لا كلمات فقط، بل لحنًا.

في طريق العودة إلى البيت انتابني إحساس بأن الأغنية قصيرة، فرحتُ أُحصي كلماتها، كان عددها ثلاثين كلمة، إلى درجة أنني اعتبرتُ أن عددًا كهذا لا يمكن أن يكون كافيًا لتكون الأغنيةُ أغنيةً.

هبط عليَّ بعض اليأس، في الوقت الذي انهمكتْ ذاكرتي في البحث عن أغنيات أحبّها، مستثنيًا من ذلك أغاني أم كلثوم الطويلة جدًا.

من الأغاني التي كنت مولعًا بها، أغنية عبد الحليم حافظ، التي بحثتُ لنور ذات يوم أنني كنت أتمنى لو أنني كاتبها، وأعني: "أَحْلِفْ بسماها وبترابها".

أحلف بسماها وبترابها
أحلف بدروبها وأبوابها
أحلف بالقمح وبالمصنع
أحلف بالمبنى وبالمدفع
بأولادى بأيامى الجايّة
ما تغيب الشمس العربيّة
طول ما أنا عايش فوق الدنيا

وكم فوجئت أن عدد كلماتها خمس وعشرون كلمة فقط؛ لم أصدّق ذلك، فعدتُ من جديد أحصي عدد كلماتها وكانت النتيجة نفسها.

طمأنني هذا قليلًا.

الأغنية الأخرى التي كنت مفتونًا بها، أكثر من أيّ أغنية أخرى من أغاني المقاومة الفلسطينية: "أنا يا أخي":

أنا يا أخي
آمنت بالشعب المضيَّع والمكبّل
فحملتُ رشاشي
لتحمل بعدنا الأجيال منجلْ

كان عدد كلماتها تسعًا وعشرين كلمة، هذا إذا استثنينا أن "لا" تتكرّر أربع

مرّات في نهايتها، فتكون بحجم الأغنية الأولى.

عادتْ إليّ الثقة بأغنيتي، ورحت أردّدها عشرات المرّات، خائفًا أن تتطاير من رأسي كما تطاير ذلك اللحن.

بدا لي أخيرًا أنني حفظتها، كما لو أنني أسمعها منذ مولدي عبر أثير الإذاعات، لكنني لم أفكّر بعرضها على أستاذ الموسيقى، فالأشبال سيغنونها أصلًا بلا موسيقى، وهم يتدرّبون؛ هذا إن أحبّها الأخ جورج.

***

تأخَّر الجمعةُ القادم، مع أنني أشغلتُ نفسي بأغنية الأشبال التي لم أتوقّف عن ترديدها على مسامع إخوتي وأخواتي، باعتبارها أغنية سمعتُها عبر أثير الإذاعات، إلى أن لاحظتُ أن بعضهم راح يدندنها، وعندها أدركتُ أن الأغنية نجحتْ.

كان لا بدّ من الخطوة الثانية لكي أتأكّد من نجاحها؛ أعددتُ أربع نسخ منها، وبعد أن قرأتها لهم، بحضور أمّي وعمّتي، دعوتهم لأن يغنّوها.

وكما توقعتُ، غنّوها بسهولة، بعد تمنّع سببه الخجل، أبداه بعضهم، لكن المفاجأة الأجمل أن فدوى بدتِ الأكثر حماسة، وقد وقفتْ أمامهم كأنها المغنّية الأولى، تُدندن، دون أن أستطيع التقاط أيّ كلمة صادرة عنها.

في التجربة الرّابعة دعوتُ بشير، ودعوتُ نبيل الذي تمنّع قليلًا، ثم وافق وأنا أخبره أن أمّي مشتاقة له، ولم أكن أكذب.

فوجئتُ بالنتيجة؛ غنّوها أفضل من أيّ فرقة إذاعية.

إذا اعتبرتُ نفسي واحدًا من الجمهور إضافة لأمّي وعمّتي ونبيل وبشير، فإن نجاح الأغنية كان كاسحًا، فقد صفّق ثلاثة من الجمهور بحرارة وإعجاب كبيرين، في وقتٍ منَعَ الخجل والحزن العميق نبيل من أن يصفّق مثلهم، لكنني حين سرتُ وإياه إلى الباب، وخرجنا نتمشّى قليلًا، سمعتُهُ يُدندن اللحن، فتظاهرتُ بأنني لم أسمعْه، واكتفينا أنا وبشير بتبادل النظرات، فتلك، أوّل مرّة نسمعه فيها يقترب من أغنية إلى هذا الحدّ.

***

ما إن وضعتُ رأسي على المخدّة ليلًا، حتى خطرتْ ببالي فكرةٌ أجرأ.

7

كانوا يركضون أمامي، تسبقهم فدوى التي تعثّرتْ أكثر من خمس مرّات قبل أن نصل إلى المعسكر، أخواتي وإخوتي. أما نبيل الذي قبِلَ الدّعوة بعد إلحاح، وبشير وأنا، فمشينا بخطى واسعة خلفهم.

فوجئ الشّبل، حارس بوابة المعسكر، صاح: مَن هناك؟ كما لو أن هناك عتمة لا تتيح له أن يرانا.

– نحن، صحتُ بصوت مرتفع.

– من أنتم؟

– الفرقة الغنائية.

أشار لنا أن نتقدّم ببطء، لكن فدوى انطلقتْ نحوه وكأنه شخص تعرفه أحضر لها هدية، وغالبًا ما تفعل ذلك، حتى إن أمي بدأت تخشى عليها، في زمن ملأت فيه شائعاتُ اختطاف الأولاد الصغار المخيّمَ، وهي في الحقيقة شائعات أطلقها الأهل لردْع الأبناء عن الابتعاد كثيرًا عن منازلهم، ولفرط ما ردّدوها، صدّقوها.

ارتبك الشِّبل حين رأى فدوى تطوّقه بذراعيها وهي تشدّ حزام بندقيته وتضحك.

ما فعلتْه الصغيرة أتاح لنا أن نصِل، دون أن نكون مضطرين للإجابة على أسئلة جديدة. لكنه أبعدَها برفق وسأل:

– فرقة موسيقية؟ أين آلاتكم؟

عندها اكتشفتُ أنني ارتكبتُ خطأ كبيرًا بعدم إحضار العود، مع أنه لن يكون مفيدًا في العزْف، بقدر ما هو مفيد في إقناع مَن في المعسكر بأنه يتعامل مع فرقة محترمة.

من بعيد سمعتُ صوتًا يناديني، التفتُّ، والتفتَ الشّبل الحارس إلى مصدر الصوت، وأدّى التحية. أفسحَ الطريق، وهو يرى يد الأخ جورج تمنحنا تصريحًا للدخول.

قبل أن أمسِك بيد فدوى، انطلقتْ. اعترضها الشّبل.

- أنتَ فقط.

خلْفي وقفتْ الفرقة تنتظر أمام البوابة المحميّة.

صافحتُ الأخ جورج كما لو أنني صديقه الوحيد. ابتسم بلطف بحيث ظهرتْ أسنانه البِيْض تحت شاربه الأسود، وأشار إلى إخوتي:

- من أولئك؟

- "الفرقة. لقد كتبتُ الأغنية التي طلبتَها"، وصمتُّ قليلًا قبل أن أضيف، "ولّحنتها".

- هذه مفاجأة أخرى، أعني أنكَ ملحِّن. علينا أن نجمع الأشبال ليسمعوها.

- وأظنّ أننا بحاجة للمدرّبين، لأنهم سيغنون أيضًا، وأنتَ، إذا سمحتَ.

- هذه لم تخطر ببالي؛ أغنّي؟

- إذا لم تعجبكَ الأغنية، يمكن أن تنسحب، أما إذا أعجبتكَ، فسيكون ضروريًّا أن تُواصل الغناء، لأن هناك مقطعًا لا تصبح الأغنية مفهومة بشكل صحيح إن لم يُغنِّه الكبار.

طلب الأخ جورج من أحد الأشبال أن يدعو المدرِّبين، ثم طلبَ منّي أن أُسمِعَه كلماتها.

قرأتُ الأغنية التي أحفظها غيبًا، بهدوء، وأنا أراه يهزّ رأسه برضى ظاهر، وأضفت: "لن نستطيع غناءها إن لم تشارك الفرقة"، وأشرتُ إلى باب المعسكر.

رفع الأخ جورج يده، وأشار للشّبل الحارس أن يسمح لأخواتي وإخوتي ونبيل وبشير بالدخول، فانطلقتْ فدوى تعدو. لكن نبيل بقيَ على بعد خمس خطوات خارج البوابة. طلبتُ الإذن، وذهبتُ لإقناعه بالدّخول، رفض، وهو يؤكّد لي أنه سيتمكّن من سماعنا بوضوح وهو في مكانه.

لم ألحّ، تركتُه، عدتُ، وعندما استدرتُ وجدتُه جالسًا على صخرة صغيرة يتابع ما يدور.

***

تجمّع كلّ من في المعسكر، بمن فيهم قائده، أبو الفوارس.

رتَّبتُ الفرقة، طوال القامة في الخلف، والأقصر في الأمام، وطلبتُ من فدوى أن تجلس على الأرض وتستمع. أطاعتْ. وطلبتُ من بشير أن يشارك، فلم يعترض. وزَّعتُ كلمات الأغنية على فرقتي، وبدأتُ أعدّ: واحد، اثنان، ثلاثة. فبدأتْ ترنيمات اللحن، ثم بدأ الغناء.

بسرعة قفزتْ فدوى، وإذا بها أمامهم جميعًا، وبدأتْ تغني. تقدّمتُ لأُبعدها، فطلب مني الأخ جورج أن أتركها.

لعبتُ دور المايسترو، كانت شفتاي تتحرّكان كما لو أنني أغنّي معهم، دون أن يصدر عني أيّ صوت.

للحظة تمنيتُ لو أنني أستطيع رؤية وجه الأخ جورج، لأعرف تأثير أغنيتنا عليه، لكنني رغم ذلك لم أستدر، قررتُ أن أمضي إلى النهاية.

لم تكن الأغنية طويلة والحمد لله، بسرعة وصلت الفرقة إلى ختامها، وقبل أن أستدير سمعتُ تصفيقًا حارًا من الأشبال، التفتُّ، كان الأخ جورج، والأخ أبو الفوارس وبقية المدرِّبين يصفّقون بحرارة، ومن البعيد جاء تصفيق نبيل خافتًا وعميقًا كأحزانه.

- "فاجأتَني"، علّق الأخ جورج، "لم أتخيّل أبدًا أنك ستؤلف أغنية جميلة إلى هذا الحدّ".

- هذا يعني أنك ستشارك في غنائها؟

- إذا سمحتَ لي، وأرجو أن يكون صوتي جميلًا، لكنني أخبرك منذ الآن، إن لم يكن كذلك، يمكنك أن تطلب منّي التوقّف عن الغناء.

وزعّتُ الحضور إلى قسمين، أخواتي وإخوتي والأشبال في المقدمة، وطلبتُ منهم أن يغنّوا المقطع الثاني والثالث، والكبار خلفهم، لغناء اللازمة التي ستتكرر ثلاث مرّات، في البداية والوسط والختام.

الأخ جورج، أشار عليّ أن يَسمعها الجميع مرّة أخرى من الفرقة الأصلية، كي يسهُل حفظها، فأخبرته أنني أفكّر في أن تغنيها "الفرقة" مقطعًا مقطعًا، ثم يردّد الأشبال والمدرِّبون بعدهم.

لم يعترض، فبدأ التدريب وقد أصبحتْ نسخ الأغنية بين أيديهم.

أعدْنا المقطع الأوّل أربع مرّات:

كِبْر الأمل يا بلادي... وكبروا معاه اولادي

أجمل ما حدث في ذلك اليوم، أنني رأيت أبو الفوارس وبقية المدربين فرحين، وهم يغنّون، ويبتسمون أيضًا، في حين خصصتُ واحدة من أذنَي لالتقاط صوت الأخ جورج بشكل خاص، واستطعت أن أعزله في عقلي عن بقية الأصوات، وكم كان جميلًا.

ابتسمتُ له أشجّعه، فاتّسعتِ ابتسامتُه، وتخيلتُ شاربه يرفرف مثل جناحَي طائر على وشك التّحليق.

حين بدأ دوْر الأشبال، أحسستُ أنهم يتحدّون مدرِّبيهم، كما لو أنهم يعرفون الأغنية منذ زمن طويل.

أما فدوى فكانت تتمايل كفراشة راقصة.

بعد ساعتين، أصبح باستطاعة الأشبال ومدرِّبيهم أن يغنّوا دون مساعدة مني ومن الفرقة، وفي التجربة الأخيرة أغمضتُ عينَي، فسمعتهم بوضوح أفضل، وحين انهوا الإنشاد صفقتُ لهم، فصفّق كلّ من هناك فرَحًا.

أصرّ الأخ جورج أن نتناول طعام الغداء مع مَن في المعسكر، وكنت أحبّ أن أفعل ذلك.

لم يعارض أحد ممن جاؤوا معي، في حين راحت فدوى تركض باتجاه ساحة التدريب. تركناها تلعب إلى أن تعبتْ، أو أن رائحة الطعام نادتها، فجاعتْ فجأة، وأتتْ مهرولة مثل بطّة.

كان لا بدّ لي من إحضار نبيل، أنا الذي أعرف أنه لن يدخل بسهولة، فطلبتُ من الأخ جورج أن يرافقني في تلك المهمّة الصعبة. بعد أن رأى نبيل إلحاحنا، سار خلفنا بهدوء، وكأنه يبتعد.

***

أخبرني الأخ جورج أن فكرة إشراك المدرِّبين في الغناء ممتازة، وأنه لاحظ أن ذلك أسعدَ الجميع. وسألني إن كنتُ أعتقد أن الأغنية تحتاج إلى آلات موسيقية حين تؤدّى، فأخبرته أن ذلك ليس ضروريًا، لأنها بسيطة، وقد تعمّدتُ أن يكون لحنها بسيطًا لتُغنّى في أي مكان.

التفتَ إليَّ وهو يهزّ رأسه بإعجاب، وأنا أتمنى: "ليت نور هنا".

- أنت فكّرتَ في كلّ شيء إذن؟

كنّا قد ابتعدنا إلى نهاية المعسكر الشرقية، أنا وهو، وخطوات فدوى

الصغيرة تلاحقنا على بعد أمتار قليلة.

وقفتُ، فتوقّفتِ الخطى الصغيرة ورائي.

- كأنك تريد أن تقول شيئًا ما، لم تقلْه في الأغنية.

- صحيح.

- بعد هذه الأغنية الجميلة باستطاعتك أن تطلب ما تريد.

- أريد أن أشارك في عملية فدائية.

- كما شاركتْ نور؟

- كما شاركتْ نور.

- ولكنها تدرّبت لمدة عامين قبل أن نسمح لها بذلك.

- يمكن أن أتدرّب، ولكن ليس عامين.

- وهل تعتقد أنني سأسمح لك أن تموت هكذا، بسهولة، بعد أن عثرتُ عليك؟

- لم أفهم.

- إذا كانت هذه أغنيتكَ الأولى، فإنني أنتظر منكَ الثانية أكثر مما أنتظر أي شيء آخر. ولكن لديَّ حلّ، سأعتبركَ شاعرَ المعسكر، وهذا شيء لم يحدث من قبل.

- والتدريب؟

- سأكون مدرِّبكَ الخاصّ، كلّما رأيتكَ سأُعلِّمك شيئًا، وارتباطك منذ اليوم سيكون معي فقط. اتّفقنا؟

- وستسمح لي أن أشارك في عملية فدائية بعد ذلك؟

- بعد أن أرى مهارتكَ العسكرية سأقرر، أما الآن فبإمكانك أن تحمل الكلاشنكوف عنّي ونحن عائدان إلى الساحة.

تأملتْني فدوى قليلًا، وبدل أن تنتظر لتسير خلْفي كما تفعل عادة، انطلقتْ تركض أمامنا.

- ثقيل؟ سألني.

- تعني الكلاشن؟ لا، مثل الرّيشة.

8

مع أن ظهيرة وعصر الجمعة مرَّا بسرعة، تاركَين سعادة أَحسَّ بها كلّ من في بيتنا، وصولًا إلى أمّي وعمّتي وأبي الذين رأوا أن ما حدث في المعسكر يعتبر حدًثا كبيرًا يدعو للفرح، إلّا أن الساعات التالية من النهار مرّت ببطء قاتل بالنسبة لي؛ كلّ كلمة قالوها قابلتْها نظرةٌ منّي إلى الباب، نظرة تحلم أن تطلّ نور فجأة.

وهبط المساء ثقيلًا جدًا، بحيث سحق ابتسامات الصباح وبهجته، بعد أن جعلتُ المدربين يغنّون، هم الذين لا نراهم يبتسمون إلا خلسة، كي يظلّوا محافظين على هيبتهم.

لم تكن عمّتي أقلّ دهشًا منّي وهي تسألني:

- أبو الفوارس، أبو الفوارس غنّى؟

- اسألي فدوى.

وسألتْها، مع أنها تعرف أنها لن تسمع منها إجابة موثوقة، فراحت فدوى تحرّك خصرها كبطة سعيدة.

... ولم تأت نور.

خطرتْ لي فكرة أن أذهب بنفسي لأطمئن عليها، تراجعتُ، سأتركها، كما قررتُ، حرّة تأتي متى شاءت، وحرّة تذهب متى شاءت، فأنا أعرفها، تلك التي هتفتْ ذات يوم:

الحرية مثل المَيّ

من غيرها ما في شي حيّ

تقلّبتُ في فراشي تلك الليلة مثل كرة تتدرج على منحدر، وفي الصباح وجدتُ نفسي خارج الفراش، قربَ الباب.

وبدأ السبت... سبت طويل، تحوّل فيه كلّ درْس في ذلك النهار إلى شهر، على الأقل. وثالثة فكّرتُ بالذّهاب إليها بعد انتهاء الدوام، فسمعتُ ذلك الصوت يهتف:

مكتبة

الحرية مثل المَيّ
من غيرها ما في شي حيّ

توجهتُ إلى البيت.

عمّتي لاحظتْ شرودي وحزني، فقالت لي دون مقدمات:

- أيّ شخص حقّق ما حققته أمس، له الحقّ في أن يطير، لا أن يكتفي بالسّير على قدميه.

عمتّي أكّدت ما قالته بأن غنّت المقطع الأوّل من أغنية "كِبر الأمل" بصوت جميل أدهشني.

- لم أسمعكِ تُغنين بهذا الجمال من قبل، أعني صوتكِ.

- هذا لأن الأغنية جميلة، كم مرّة عليّ أن أقول لك ذلك؟ ثمّ إن من رافق أم كلثوم أربعين يومًا صار صوته كصوتها. فما بالكَ وأنا أرافقها منذ سنين؟

وجدتُ نفسي أبتسم رغمًا عن قلقي، فقالت:

- الحمد لله، منذ يومين وأنا أنتظر هذه الضحكة التي أرى فيها سِنّكَ؛ خذْها مني، قلبي يقول لي أنها ستأتي اليوم.

***

تأخّر وصول نور، لكنها في النهاية وصلتْ، ومعها أمّها.

خفتُ، قلتُ، إنها لم تأتِ معها إلّا لتُقدِّم شكوى رسميَّة ضدي بسبب إخفائي سرَّ العمليّة عنها.

وعادت الدّقائق تسير ثقيلة.

طوال الوقت كانت نور تنظر إلى الأرض، ولم يكن صعبًا عليَّ أن أعرف السبب. أمّها قالت لها: كأنّ خالتك عايشة لم تلحظ ما أصاب جبينكِ.

رفعتْ نور الشَّعر الذي يغطي جبينها فشهقتْ أمّي:

- من الذي فعلَ بكِ هذا؟

- اطمئني، ليس هناك ما يخيف، نور قطعت النّهر وشاركتْ في عملية فدائية.

- عملية؟ عملية؟ ردّدت عمّتي وأمّي معًا.

- عملية، عملية. لكن الحمد لله عملية ناجحة، والإصابة كما ترين بسيطة.

وانتظرتُ أن تستدير أُمّ نور نحوي وتقول:
- لكن عتَبي كبير على مَن أخفى الأمر عليّ.
لم تقل، ولم تلتفتْ:
- المخرج الفرنسي الذي صوّر العملية كتب لنور قصيدة، لأنها شجاعة. هل تعرفون أنها كانت متخفّية كشاب، ولم يعرفوا أنها فتاة إلّا بعد أن عادوا؟
تقافزتْ عباراتُ التَّعجب فملأت الغرفة، وهذا ما أتاح لنور أن تنهض وتجرّني من يدي إلى الخارج. امتدتْ يدها إلى جيبها، وناولتْني ورقة مسطرة كُتِبتْ عليها كلماتٌ لم أفهمها، بحبر أحمر.
- هذه هي قصيدة غودار التي أهداها إليّ.
- وهل تعرفين ما جاء فيها؟
- إنها مديح بالحبر الأحمر للفتاة صاحبة الشعر الأحمر، الشجاعة التي تحبّ وطنها.
- فقط؟
- أظنّ، فما الذي يريد أن يقوله أكثر من ذلك، ترجموا ليَ القصيدة من الفرنسية إلى الإنجليزية، إلى العربية، حين جاء غودار لوداعنا، وهذا كلّ ما بقي في رأسي من معانيها. هناك حديث أيضًا عن النهر الذي يتعمَّد بقدميها، والأشجار التي تتجمّع كي تحميها، والسّماء التي بكتْ في البداية حين رأت جراحها، ورقصتْ وغنَّتْ حين تبين لها أن إصابتها طفيفة. الفتاة التي ستتحسسُ جبهتها طوال حياتها، وتبتسم كلّما لمست أصابعُها الشمسَ الصغيرة وسط جبينها.
- أهذا كلّ ما قاله؟
- كما ترى القصيدة قصيرة، وأخشى أنني أضفتُ أشياء غير موجودة فيها، من عندي، لكن هذا هو المعنى الذي بقيَ في ذهني.
- "أنا أهديتكِ شيئًا لا يمكن أن تتوقعيه".
- ما هو؟
بلا مقدّمات، رحتُ أغنّي لها "كِبْر الأمل يا بلادي"، فاستمعتْ إليَّ بحماسة، وعلّقت: جميلة.
حدّثتها عن عودتي مع الأخ جورج، حين أوصلني للمخيم، وما دار بيننا،

وطلبه منّي أن أكتب للأشبال، إلى أن وصلتُ إلى غناء الأشبال والمدرِّبين، والأخ جورج و "أبو الفوارس" لها.

- "أبو الفوارس غنّى؟ أبو الفوارس؟" سألتْ غير مُصدِّقة.

- أبو الفوارس نفسه، لكن صوت الأخ جورج أحلى.

- تعرف، أظنّ أن العملية الفنيّة التي نفذتَها في المعسكر، أكثر جرأة من عملية عبور النهر؛ أبو الفوارس يغني؟

***

كنّا قد وصلنا إلى الرّصيف المقابل لمقر شرطة البادية، جوار محطة الوقود، وأمها تحاول عبثًا اللحاق بنا. رفعتْ نور رأسَها، فبدا لي أن جروح جبينها ستشفى في أقلِّ من أسبوع.

- فعلًا، أنت كائن آخر، لا يشبه الآخرين. لا تسألني من تكون، كعادتكَ، أعدكَ أنني سأبذل جهدًا أكبر لأجد تلك الكلمة. وأعدكَ، سأطير إليك لأخبركَ بها، حتى لو خطرتْ ببالي في منتصف الليل.

9

انتشرتْ أغنية "كبر الأمل يا بلادي"، لا لأن مطربًا شهيرًا غنّاها، بل لأن الأشبال حفظوها، وكذلك المدرِّبين؛ كلُّ شبل ردّدها في بيته، مدرسته، مع أصدقائه في الحارة، وكلّ مدرّب حملها لمدرِّبين آخرين، وزهْرات، وكم فوجئتُ حين طلب أستاذ اللغة العربية، ربيع، الذي هجوته، من أحد الطلاب أن يغنّي شيئًا، فاختارها، مع أنني أعرف أنه لم يكن يومًا في معسكر الأشبال.

أوشكتُ أن أقول إنني كاتب تلك الأغنية، بل ورفعتُ يدي طالبًا من الأستاذ الكلام، لإخباره والتلاميذ بذلك. طلب منّي أن أتكلّم وهو ينشر ابتسامةً لئيمة بين أذنيه، ذكَّرتْني بما قاله لي عندما سمع قصيدتي: "من المستحيل أن تكون كاتبها".

حاولتُ أن أفتح فمي، لكنه انطبق أكثر، وكأن لساني أكثر ذكاء من عقلي.

- تكلّم، أم أكلتْ القطةُ لسانكَ.

أوشك لساني أن ينفلتَ، بعد الإهانة التي تلقّاها، ليقول: "بل أنتَ الذي أكلني، لا القطة". وحسنًا أنه لم ينفلت في ذلك الاتجاه، بل وجدتني أقول: إنها أغنية جميلة.

- ومن تكون حضرتكَ حتى تُصدر أحكامًا على شعراء وملحّنين مشهورين أمضوا الليل والنهار لتأليف وتلحين أغنية جميلة كهذه؟

وثانية أوشك لساني أن ينفلتَ، ليقول إنها كُتبتْ ولُحِّنتْ في أقل من ساعتين.

بشير، الذي أخبرته بما حدث في فسحة ما بين الدروس، غضب كثيرًا منّي؛ أمسكني من يدي، وظلّ يسير بي إلى أن وصل إلى غرفة المدرِّسين، ودون مقدماتٍ، قال بصوت مرتفع:

- "أحب أن أخبركم أن الذي كتب ولحن أغنية "كِبْر الأمل يا بلادي" يقف أمامكم هنا"، وأشار إليّ.

لم يوجّه في ذلك اليوم كلامه إلى أستاذ اللغة العربية، بل إلى الجميع، لكن أستاذ العربية نهض وقال: "لا تعودا إلى هنا، إلّا ومعكما وليّا أمرَيكما، قلّة أدب وكذب"، وقبل أن نصل الباب خارجين، جاء صوته: "مكانكما".

توقّفتُ، فشدني بشير من يدي، وقال: تريد أن تضربنا لن نسمح لك، تريد وليَّي أمرينا؟ غدًا سيكونون هنا.

- "ما الذي فعلتَه؟"، قلتُ لبشير.
- فعلتُ ما يجب عليكَ أن تفعله.
- وكيف سأحضر أمّي غدًا؟ ماذا أقول لها؟
- قل لها ما قاله لكَ؟

شرحتُ لأمّي ما حدث بالتفصيل، وهي تهزّ رأسها، باحثة عن حلٍّ ما كما بدا لي. نظرتْ إليّ وسألتْني:

- أنت الذي ألّفتَ الأغنيّة، أليس كذلك؟
- أنتِ أوّل من سمِعَها، هل سبق وأن سمعتِها قبل أن تسمعيها منّي؟
- لا.
- هذه الأغنية أغنيتي.
- الصباح رباح. نمْ، مع أنني غير راضية عنكَ أبدًا.
- لماذا؟
- لأنك صمتَّ، وتركتَ الآخرين يدافعون عن حقكَ، ما يهوِّن عليَّ أن صاحبك بشير هو الذي دافع عنكَ، لا غيره.

***

كعادتها، استيقظتْ قبْلنا، تناولنا طعام الإفطار مع أبي، وقبل أن نخرج باتجاه مدارسنا، نهض واتجه إلى عمله.

لم تقلْ له أمّي شيئًا، لا عن الأغنية، ولا عن استدعائها من قِبل إدارة المدرسة، وهذا ما حدث دائمًا، عَزْلُهُ عن مشاكلنا وهمومنا. أمّي كانت تقول دائمًا:

- "إللي فيه بيكفّيه"، في إشارة إلى أن همومه أكبر منه.

***

بعد أن فرغتْ الدّار، إلّا من فدوى وعمّتي وصغيرها الذي تأخّر مشيه؛ فلم يتقن شيئًا مثلما أتقن الحبْو والرّكض على أربع؛ أشارت إليّ أن أتبعها.

شبه راكضة اتجهتْ إلى المدرسة، غير قادر على اللحاق بها، وهذا ما أخافني، فقد تناسب حجم غضبها، دائمًا، طرديًا، مع سرعة خطواتها.

عبَرَتْ بوابة الساحة الخارجية وشقّت طريقها إلى غرفة الإدارة. رأيتُ بشير، فأمسكتُ به من يده، وتبعناها، فقد كنتُ أخبرته أن أمّي ستكون وليّة أمرنا في الغد.

– يعني الولد لمّا يعمل إشي غلط بيتبهدل، ولما بيعمل إشي مليح بيتبهدل، في عاقل بيقول هذا الحكي؟

مدير المدرسة ظهر فجأة بباب غرفة المعلمين ما إن سمع صوتها، سأل بغضب عما يحدث، فأعادتْ ما قالته في البداية، وواصلت. الكلب، حاشاكم، لما بيعمل إشي مليح بنطبطبْ على ظهره، البِسّ. الولد لما يكون شاطر بنعطيه جائزة ما بنبهدله وبنبهدل أهله، وبنتعامل معه إنه كذاب، ولما صاحبه بيدافع عنه بنتْهِمْ صاحبه بإنه قليل أدب؛ صاحبه مش قليل أدب؛ صاحبه شجاع، وابني لما يقول إنه هو اللي عمل الأغنية، مع إنه ما قال، بصدْقه، بقوله ع فارم عليك، مش بكسِّر مجاديفه.

طلب المدير منها أن تهدأ، فكلّ شيء سيُحلّ، لكنها واصلتْ:

– بدكم شهود كلّ ما سمعتوا إنه في ولد شاطر أو ذكي، أو عمل إشي مليح ما حدا من الأولاد عمله قَبله؟ بجيبلكم شهود. إحمدوا الله إنه في عندكم أولاد شاطرين، الأستاذ اللي ما بدّه يصدّق هذا لازم يقول إنه بعلِّم الأولاد حتى يكونوا حمير، وإللي ما بده يكون الولد شجاع، لازم يقول إلنا اليوم إنه بعلِّم أولادنا حتى يكونوا جُبنا، مش ع شان هيك بنبعت ولادنا على المدارس، مش ع شان هيك أبدًا.

ثم التفتتْ إليَّ وإلى بشير:

– يلا، كل واحد فيكم يروح على صفه، وأنا رايحة على بيتي.

بُهتَ المدير الذي لم تُتِحْ له الكلام، لكنه طلب منها أن تنتظر ليتكلّم معها ويحل المشكلة.

– المشكلة بتحلْها مع معلمينك اللي عملوا المشكلة، أنا جيت أقول الحقّ

هان، ما جيت أتحاكم.

***

أصعب لحظتين عشناهما في المدرسة، بشير وأنا، حين دخل مدرّس اللغة العربية، ربيع، صفَّ كلٍّ منا؛ كنّا نتوقّع ألّا نرى غير شيء واحد، سبابته تشير إلى الباب طالبًا منّا الخروج.

لم يفعل.

فرِحْنا بذلك، لكن فرحتنا طارت حين جاء أحد المدرسين وطلب من كلّ منّا الذَّهاب إلى غرفة المدير بعد انتهاء الدوام.

كنتُ قلقًا مثل بشير الذي أخبرني بذلك، وإن كان صمتُ أستاذ اللغة العربية وحرْصه على ألّا تلتقي عيناه بأعيننا، جعلانا مطمئنين.

المدير سمع منّي كلّ ما حدث بيني وبين الأستاذ ربيع، في المرّة الأولى حينما قرأت الشِّعر، وفي المرّة الثانية في ما تعلّق بالأغنية، وما قام به بشير.

- الأغنية لك إذًا، أنت كتبتَها وأنتَ لحّنتها.

- صحيح.

وكنت على وشك أن أقول له: كلّ أصدقائي في الحارة يعرفون، و...

همس لي بشير: أظنّ يكفي، لا تقلْ أكثر من ذلك.

اختصر المدير الأمر بأن طلب منّا الخروج:

- مع السلامة.

توجّهنا إلى الباب.

- ولكنني أتمنى ألّا يحدث ما حدث مرّة أخرى.

توقّف بشير فجأة، مُصدرًا زفيرًا كاللهب، فأدركتُ أنه إذا تكلّم سنُفْصَل. أمسكتُ بيده، جررْته، أصبح أمامي، فدفعتُه إلى الخارج.

10

خرجنا راكضين من صفوفنا المدرسيّة، والأساتذة يصرخون بنا: "أسرعوا". عند بوابات ساحات مجمّع المدارس تزاحمْنا. صيحات الطالبات في الخارج تملأ آذاننا، تزيدنا خوفًا. باعة الحلويات والتّرمس والسندويشات الذين ينتظرون خروج الطلاب، يتفرّقون كلّ في اتجاه، وهم يقودون عرباتهم ثلاثية العجلات التي يتناثر ما عليها من بضاعة.

ركضنا بعيدًا عن كلّ اتجاه تأتي منه أصوات الرصاص. لم نسأل، ركضنا فقط، خائفين، دون أن نعرف ما يدور. سمعْنا بكاء أمهات قادمات إلى المدارس مذعورات، يفتّشن عن أبنائهن الصّغار.

طويلًا بقيت أصوات الرّصاص مهيمنة. فكّرتُ في أبي، في ما إذا سمِع أخبار الاشتباكات التي تدور في المخيم، ولا نعرف بين مَن ومَن.

لم يكن صعبًا عليّ الوصول إلى البيت، كان في الجهة الآمنة.

وجاء العصر...

ولم تتوقّف أصوات الرّصاص، رصاص رشاشاتٍ خفيفة، وأخرى ثقيلة، وبين حين وحين نسمع دويّ انفجارات يهدأ بعده كلّ شيء، قبل أن يتواصل من جديد.

واقتربتْ خطوات المعركة أكثر، فبعد أن كانت في أطراف المخيم، الجنوبية والغربية، بدا أنها وصلت إلى سوق الخضار، حوله، ساحات المدارس.

وثقيلًا مرّ الوقت، مُقنبْلًا، يشير إلى قادم أسوأ.

لم يستطع أحد أن يشرح للآخرين ما يدور، آلاف الأسئلة تطوف في الأزقة الضيقة، وليس هناك من عين قادرة على أن تُطل من شباك أو شقّ باب لتتأكّد مما يدور.

وهبط الليل، فأصبح صوت الرّصاص أعلى، ويأتي من كلّ الجهات.

أمّي جمعتْنا تحت ذراعيها، في حضنها، مثلما تخبئ دجاجة صيصانها،

وعمّتي التي وصلت راكضة في تلك الظهيرة تسألنا عمّا يدور، فوجئْت أننا لا نعرف، حتى نحن الذين غادرنا مدارسنا فزعين، من طلاب ومعلمين ومعلمات، لم نعرف ما يدور. عمّتي وضعتْ صغيرها بين يدَي أمّي الممتلئتين بأصغر بناتها وأبنائها، وتوجّهت إلى الباب الخارجي غير عابئة برجاء أمّي لها أن تعود. لم تعد، فتحتِ البابَ، وسمعنا أزيز الرّصاص بعد أن كنّا نسمع صوته، ارتدّتْ عمّتي مذعورةً، سقطتْ على الأرض. كانت المرّة الأولى التي نراها فيها تسقط. امتلكتْ شجاعة أن تسند الباب بقوة، مستخدمة ظهرها، كأنها تحاول منْع الموت من الدّخول.

بعد عشر دقائق، اطمأنتْ خلالها أن لا خطر، تحرّكتْ ببطء، إلى أنْ أصبحتْ على يقين من أن ذلك الموت ابتعد، ونهضتْ بصعوبة من يريد النهوض في لحظات لا يعرف فيها إن كان ظهره مكسورًا أمْ لا.

وانتظرنا.

في آخر الليل كانت المعركة قد توقّفت تقريبًا، باستثناء رصاصات تُطلَق هنا وهناك، قد تكون رصاصات قنّاصين. راح بابنا يُطرَق بقوّة. الخوف جعلنا على يقين من أن هناك من يُطلق النار على الباب مباشرة. خرجنا من ذعرنا حين سمِعْنا من يطلب منّا أن نفتح له الباب؛ كان أبي، فتحْنا، دخل، كان مرتبكًا. سألتْه أمي كيف استطاع الوصول، لم يُجب. هل شاهدتَ أناسًا يُقتَلون؟ لم يُجب. بين مَن ومَن تدور المعركة؟ لم يُجب. اطمأّن علينا بأن تحسس رؤوسنا جميعًا، كلّ من هناك؛ رأس أمّي، رأس عمتي، رأس ابنها، ورؤوسنا، كما لو أنه كان على يقين من أن كلّ الرّصاص الذي أُطلِق قد أطلِق باتجاه هذه الرؤوس.

أشار لنا أن ننام. لم يذهب إلى الغرفة المجاورة التي ينام فيها مع أمّي، أسند ظهره إلى الحائط، تحت الشّباك الصغير المغلق، الشّباك الذي يطلّ على الشارع. أدركنا أن أبي يخشى علينا إن ابتعدنا، ولو كان هذا البعد هو الغرفة الملاصقة المتّصلة بالغرفة المجاورة عبر ما يشبه الباب.

... ونمنا.

لكن أبي لم ينم، ولم تنم أمّي، ولا عمّتي.

في الصباح حين صحونا، وجدنا رأس أبي على صدره، ورأس عمّتي في

الزّاوية، أما أمّي فقد مالت كلّها إلى اليسار، مُلتصقة بالأرض بزاوية قائمة.

لم تكن هناك أصوات انفجارات ولا أصوات مدافع رشاشة من أيّ نوع، لكننا لم نعرف ما الذي علينا أن نفعله؛ هل نبقى في البيت، أم نذهب إلى المدرسة؟ أبي لم يغامر بعمله؛ قال سأذهب إلى عملي، مع أن أمّي طلبتْ منه ألّا يفعل ذلك، ردَّ: لا أحد سيطلب منكَ أن تفسّر كيفَ مُتَّ، ومَن قتلكَ، ولكن هناك دائمًا مَن سيسألك لماذا غبتَ عن عملك.

تناول قليلًا من الطعام، ذاك الذي نام جائعًا، مثلنا، وقبل أن ينهض، سمعْنا أصواتًا في الخارج، أصواتًا مألوفة، فأدركنا أن الحياة بدأتْ تعود من جديد.

كان الذهول وحده من يحتلّ ساحات المدارس، وعتباتها التي خلتْ من البائعين تقريبًا، باستثناء أولئك الذين قالوا، ربما، لأُسَرِهم، ما قاله لنا أبي عن الموت والغياب عن العمل.

في الصّفوف، لم يكن الذهول أقلّ، بدا وكأن المعلمين يحاولون إعطاءنا الدّروس بسرعة شديدة، كي نتمكّن من العودة إلى بيوتنا.

لم يحدث شيء، لم يدوِّ رصاص.

بدأنا نهدأ، والمعلمون أيضًا، وتصاعدتْ نداءاتُ بعض البائعين تدعو الطلاب لشراء ما يحتاجون.

.. وقُرِع جرس مغادرة المدرسة، خرجنا بفوضى أقلّ، ذعر أقلّ، وهمسات كثيرة تملأ الشوارع، كما لو أن الناس يهمسون لأنهم لا يريدون أن يسمَعوا أنفسهم، أو يسمعهم غيرهم وهم يتحدّثون عما جرى.

بعد ثلاثة أيام هدأ كلّ شيء؛ عادت الحركة إلى الشوارع، وصلتْ نور، لم تدخل بيتنا، كما كانت تفعل عادة لتُعانق أمّي، كانت ترتدي لباسها المدرسي وتحمل حقيبتها المُعلَّقة بكتفها. ما إن خرجتُ حتى أمسكتْ يدي وسحبتْني إلى الخارج. لم يكن صعبًا عليَّ أن أعرف أنها مُنهكة، مُنهكة أكثر مما رأيتها في أيّ يوم مضى.

سارت صامتة. سألتُها إن كان صحيحًا ذلك الذي يردِّده الناس حول

الاشتباكات وعدد الذين قُتِلوا فيها. ظلّت صامتة، إلى أن وصلنا شارع النادي بامتداده من شمال المخيم إلى جنوبه.

كان المشهد مُرعبًا؛ آثار الاشتباكات انحفرتْ في أماكن كثيرة، وملصقات الشهداء؛ الشهداء الذين عرفنا بعضهم أحياء، وعرفناهم كلّهم شهداء، الملصقات التي احتضنتْ صورهم، الملصقات التي طالما تأمّلناها على الحيطان، لشهداء من كلّ التنظيمات، كان الرصاص قد اخترقها واستقرَّ عميقًا فيها؛ رصاص في جباههم، في أفواههم، صدورهم، أكتافهم، أيديهم، رصاص في قلوبهم، ورصاص في أسمائهم وأسماء تنظيماتهم.

كان من الصعب على أي إنسان أن يرمّم تلك الملصقات من جديد.

سمعتُ نشيجًا مكتومًا، نظرتُ إلى نور، وجدتها تبكي.

11

كان ذلك أوّل اشتباك يحدث بين التّنظيمات الفلسطينية، يرى الناس آثاره، دون أن يستطيعوا تصديق ما تراه أعينهم، وحين قيل إن هناك جنازات رُتّبتْ على عجل، لم نعرف إن كان الذين قُتلوا سيُدفَنون جوار بعضهم بعضًا في مقبرة واحدة، هي مقبرة الشهداء، أمْ سيكون لدينا مقبرتان للشهداء، منذ الآن.

تكاثرتِ التنظيماتُ الفلسطينية، ومع تكاثرها، صرنا نشهد اشتباكات أكثر وانشقاقاتٍ، وبدأنا للمرّة الأولى نسمع عن تنظيمات تحمل اسم فلسطين لكنها تتلقى أوامرها من هذه الدّولة أو تلك.

الدول العربية التي لم تكن حقّقت أيّ نصر على الإطلاق، إذا ما استثنينا النّصر الذي حققته وحدات الجيش الأردني والفدائيين في "الكرامة"، هذه الدّول بدأت تتسلّل داخل التنظيمات الفلسطينية. ويومًا بعد يوم ستتّسع المعارك بينها. ثم سيأتي وقت سيتمّ فيه اختطاف العمليات الفدائية التي تُنفَّذ ضد الجيش الصهيوني، بادعاء كلٍّ منها أنه هو الذي نفّذ العملية، ثم ستَخطف شهداءَ بعضها بعضًا، بادعاء كلّ واحد منها أن ذلك الشهيد كان ينتمي إليه، وسنرى بعد ذلك ملصقات كثيرة للشهيد الواحد، لتنظيمات كلّها تدّعيه.

كان المشهد الأكثر حزنًا، الذي سبق الاشتباكات الداخلية، المشهد الذي لم يدركْه الناس في حينه تمامًا، هو قيام التنظيمات التي لا تجد مكانا فوق الجدران لملصقات شهدائها، بإلصاق هذه الملصقات فوق صور شهداء آخرين، لتنظيمات أخرى؛ وكأن على الشهيد الجديد أن يمحو الشّهيد الذي سبقه. هذا الأمر كان يحزن أمّهاتٍ وآباءَ وإخوةً وأخواتٍ وأبناءَ وزوجاتٍ، ويحزننا نحن الفِتْية الذين كنّا نحبُّ الفدائيين؛ الفتية الذين لم يعودوا قادرين على أن يحفظوا أسماء التنظيمات المتناسلة من انشقاقاتها، وتلك التي نصْحُو فنجد أنها ولِدتْ أثناء نومنا.

نحزن، لكن ذلك كلّه يختفي ما إن نسمع بتنفيذ عملية ناجحة عبر نهر الأردن، أو نشارك في جنازة شهيد من تنظيم كبير لا يجرؤ أيّ من التنظيمات الصغيرة على اختطافه.

***

الحادثة التي عاشها بشير في تلك الفترة، كانت واحدة من الحكايات التي لم نزل نستعيدها حتى اليوم.

ذات مساء، طلب منه التنظيم الذي انضمّ إليه شِبْلًا، أن يوزع منشورات، في صباح اليوم التالي، على الطلاب والناس في الشوارع.

بشير الذي راح نظره يضعفُ أكثر فأكثر، طلبَ منهم أن يعفوه من المهمة، قال شبه مازح:

- أخاف أن أذهب وأوزّعه في قاعدة لتنظيم آخر.

- "لا عليك، نظركَ أفضل منّا جميعًا"، قال له ذلك المدرّب الذي كان بشير يحبه كثيرًا، ولذا وافق على أداء مَهمّته.

صبيحة اليوم التالي، وأثناء توزيع المنشور، وجد بشير نفسه وجهًا لوجه مع ذلك المدرّب، جفل، حين سمعه يصرخ به:

- ما الذي تفعله؟

عرف بشير صوته قبل أن يراه.

- أنتَ طلبتَ مني أن أوزّع المنشور اليوم.

- مزّقْه فورًا.

- لماذا؟

- ألم تعرف بأن انشقاقًا حدث، وأننا ضدّ كلّ ما ورد في البيان؟

- لا، لم أعرف.

- ها قد عرفتَ، التنظيم الآن أصبح تنظيمين.

- وأنا الآن معكم أم معهم؟

- أنت معنا بالطبع.

12

أفضل ما حدث لي شخصيًّا، في ذلك الوقت، أن أغنية "كِبر الأمل يا بلادي" أصبحت تتردّد على أَلْسِنة كثير من الفتيان، دون أن يعرفوا أنني صاحبها.

حدث هذا معي بعد سنوات طويلة، في عرس واحد من إخوتي، إذ كانت أمّي وأخواتي وقريباتنا، يُغنّين أغنية لي، كتبتُها لـ "فرقة بلدنا"، دون أن تعرف أيّ منهنّ أنني كاتبها، وعندما صارحتُ أمّي بأنها لي، ردّت: "مستحيل، هذه نغنيها من أيام البلاد"، فلم أستطع أن أقول لها ما ينفي إحساسها بما غنّته، وللحظة انتابني شعورٌ بأنني قد أكون كتبتها قبل النكبة، إلى أن عاد إليّ عقلي، وأكّد لي أن أمّي لم تتزوج من أبي إلّا بعد التّهجير بسنوات.

بشير، كان يردد أغنية "كبر الأمل" في كلّ تنظيم وجد نفسه فيه، إذ يبدو أن مدربيه سمعُوها، فحفظوها، فحفّظوها لأشبالهم.

أرسلتُ كلماتها إلى قاسم في الكويت، فكتبَ إليّ: هناك من لحّنها، كما أن أشبال التنظيم الذي ينتمي إليه، في الكويت، يغنّونها في معسكر التدريب.

لم أكن راضيًا عن قيام موسيقيٍّ آخر بوضع لحن لها، كان بودي لو أطير إلى هناك لأسمعها، لكن مدْرَج مطاري الخاصّ تحوّل إلى حارة، فبتُّ أحنّ لزمن براءتنا سرًّا؛ ذلك المطار كان منبعًا هائلًا لكثير من لحظات سعادتنا ورحابة تخيّلاتنا.

بصراحة، أراحني شيء واحد: على الرغم مما خلَّفتْه اشتباكات التّنظيمات وانشقاقاتها من أحزان في داخلي، لم تزل أغنيتي توحِّدها. في تلك الفترة ملأني يقين أنني أكبر من عُمري بكثير، لأن من لا يستمعون لكلام بعضهم بعضًا، فيتقاتلون، يستمعون إلى كلامي ويردّدونه.

ذلك كان انطباع نور أيضًا، نور التي قالت جملة أكبر من عمرها _ربما لأنها شاركتْ في تلك العملية_: أنت لن تستطيع الابتعاد عن التنظيمات، ولا يجوز أن تبتعد، لكن احرصْ على ألّا تلتصقَ بأيٍّ منها.

نور قالت جملتها صبيحة يوم جمعة، بحضور أبي وأمّي وعمّتي وإخوتي، ونحن على وشك أن نأكل الشْعيرية المحلّاة بالسُّكر. فعلّق أبي على ما قالته: والله يا نور نصيحتكِ هذه هي الوجبة الرّئيسية اليوم، أما الشعيرية، فليستْ أكثر من الحلوى التي تُقدَّمُ بعدها.

لم أناقشْهما في ما قالاه، لكن جملة نور جسّدت أمامي ما في داخلي، ومكّنتني، فجأة، من أن أراه.

***

أشياء كثيرة ستتغيّر بعد ذلك، لكن تلك الأغنية ستظلّ تسكنني؛ إذ إنني بعد أن أنهيت الثانوية العامة، تمّ الإعلان في المعهد الذي التحقتُ به عن مشروع لتقديم مسرحية، بمشاركة الطالبات والطلاب، وطلبوا ممن لديهم مواهب تمثيل، ويرغبون في المشاركة، أن يراجعوا الأستاذة هيفاء جمال لتسجيل أسمائهم.

رأيتُ الإعلان، فلم يخطر ببالي أيّ شيء، باستثناء رغبتي في حضور المسرحية عندما تُقدّم، فالتّمثيل، رغم محبّتي لممثلين وممثلات، من ألان ديلون ولي مارفن، حتى آفا غاردنر، وكلوديا كاردينالي، وأورنيلّا مُوتي، وشكري سرحان، ونادية لطفي، لم أتخيّل نفسي، في أيّ يوم من الأيام، أمارسه.

بعد شهر من التدريبات، فوجئتُ بأحد زملائي الطلاب يخبرني أن الأستاذة هيفاء، مخرجة المسرحية، بالاشتراك مع الفنان التشكيلي عبد الرؤوف شمْعون، الذي سيغدو صديقي في ما بعد، تريدني في أمر ضروريّ.

دخلتُ قاعة المسرح، رأيتها جالسة في الصف الثالث تراقب أداء ممثلاتها وممثّليها، وتوجِّههم. أشارتْ إليَّ أن أقترب، وقبل أن أصلها أعلَنتْ:

- استراحة قصيرة.

صافحتْني بابتسامة عريضة أقرب لضحكة. كانت ترتدي قميصًا أبيض بلا كُمّين، وتنّورة سوداء.

- سمعتُ أنك تكتب شِعرًا.

- أظنّ.

- تظنّ؟

- لأنني في الحقيقة لم أسمع حتى الآن أيّ رأي نقديٍّ لشعري،

باستثناء...، وأوشكتُ أن أستفيض فأتحدث عن المعلمين وخالي محمود.

- اعتبرني ناقدة، فأنا مخرجة المسرحية، وقد أحببتُ أن أراك لأطلب منك أن تكتب لنا أغنية يقدّمها الممثلون والممثلات.

- وما هو موضوع الأغنية؟

- سأعطيكَ نص المسرحية، لتعرف أحداثها، وأُحدِّد لك موقع الأغنية، ما رأيك؟

***

قرأت المسرحية، لم تكن طويلة، كان اسمها "خوازيق"، وهي من تأليف فرقة مسرحية فلسطينية اسمها "فرقة دبابيس"، ومقرها الضّفة الغربية، هكذا كُتب على صفحتها الأولى.

الغريب أن تلك المسرحية أوقعتْني، فورًا، في حبِّ المسرح، كما وقعتُ في حبّ الشعر بعد إبراهيم طوقان، وحبّ الرواية بعد برادبري، وحبّ السّينما بعد غودار، وحب الموسيقى بعد بليغ حمدي. لم أكن قد قرأتُ أيّ مسرحية حتى ذلك الحين، كلّ اهتمامي كان مُنصبًّا على قراءة الشعر والروايات والقصص القصيرة، وحضور الأفلام بكلّ أنواعها.

حينما وصلتُ إلى النقطة التي ستُقدَّم فيها الأغنية، أغلقتُ المسرحية، وأغلقتُ عينَي أيضًا، وبقيت دقائق على تلك الحال، وقبل أن أفتحهما من جديد، وجدتُ نفسي أغني: "كِبْر الأمل يا بلادي".

وقفتُ، نظرتُ حولي، وللحظة أوشكتُ أن أعود إلى المخرجة، لأخبرها أن الأغنية جاهزة، لكنني خفتُ أن تسخر منّي مثل أستاذ اللغة العربية الذي هجوته، ثم كتبتُ قصيدة رثاء له في ما بعد.

انتظرتُ حتى ظهيرة اليوم التالي، كنت قد أنهيتُ قراءة المسرحية، فتضاعفتْ محبّتي للمسرح، واكتشفتُ أن تجاهُلي له قد يكون سببه تلك المسرحية التي شاركتُ فيها بخجلي، أكثر مما شاركتُ فيها بتمثيلي، أيام المدرسة، وحضرتْها أمّي.

- بصفتي وزيرة للتربية والتعليم، أستطيع أن أقول إنك كنت خجولًا. وهذا لا يجوز إذا كنت مشاركًا في تمثيلية. عليك في المرّة التالية أن تنسى كلّ خجلكَ، مفهوم؟

- بصراحة لم أستطع التخلي عن كلّ خجلي.

- ولماذا؟

- لأنني وضعتُ جزءًا منه في جيبي؟

- ولماذا؟

- لأنني قد أحتاج إليه في يوم ما.

***

قرأتُ لها كلمات الأغنية، لم يكن صعبًا عليَّ أن أعرف أن المخرجة أحبّتها، قبل أن أُنهيها. صفّقتْ لي، وبذلك كانت الأستاذة هيفاء هي أوّل أستاذة أو أستاذ يصفّق لي في حياتي.

- "كأنها كتُبتْ حينما كتبوا المسرحية"، علّقتْ بسعادة.

شكرتُها، فقالت لي:

- والآن إلى المرحلة الثانية، نحتاج لموسيقيٍّ ممتاز لكي يلحّنها.

أحسستُ بخجلي الذي ادّخرته ليوم أحتاجه فيه يتحرّك في جيبي، وفي الوقت نفسه سمعتُ ما قالتْه أمّي لي.

تأرجحتُ، غير قادر على أن أخبرها، وغير قادر على أن أصمت.

- "لحنُها جاهز"، قلت لها بلا مقدّمات.

- ومن لحّنها بهذه السرعة؟

- أنا، الحقيقة كنت قد لحنتُها قبل سنوات.

- أنت لحّنتها؟ معقول؟

هززتُ رأسي مؤكّدًا.

هل يمكن أن تُسمعني اللحن.

وهنا بدأ خجلي يتقافز في جيبي، إلى أن وصل إلى ملامحي، احمرَّ وجهي، وارتبكتُ، فلا فرقة غنائية لديّ، ولا آلة موسيقية أختبئ وراءها.

وثانية جاء صوت أمّي.

بصعوبة أسمعتها اللحن، وهي تهزّ رأسها، مُغمضة عينيها.

انهيتُ الغناء.

- "هل من الممكن أن تُغنيها مرّة أخرى. أرجو ألا تظنّ أنني أريد أن أتأكّد ما إذا كان اللحن جميلًا أم لا، أحبّ أن أسمعها مرّة أخرى، فقط، لأنني

أحببتُها"، قالت لي دون أن تفتح عينيها.

بجرأة أكبر غنّيتها؛ فتحتْ عينيها، ونظرتْ إليَّ مباشرة:

- شكرًا لك، اختصرتَ الكثير من الجهد علينا، لا أظنّ أن هناك أغنية يمكن أن تكون أفضل منها، بصراحة لم أتوقّع أن تحظى المسرحيّة بأغنية جميلة مثلها.

شكرتها. كنت على وشك أن أنهض، فسألتْني:

- إلى أين؟ ومن سيدرِّب الممثلات والممثلين على غنائها؟

***

في اليوم التالي ذهبتُ لحضور البروفات، سعيدًا لأكثر من سبب. وقبل تقديم المسرحية بأيام، قالت لي المخرجة:

- أنت تعرف الآن المسرحية جيدًا، وتعرف أننا نعيش مأساة مذبحة "تلِّ الزعتر"، والمسرحية لا تتحدّث عن هذا، فما رأيك أن تقرأ واحدة من قصائدك قبل بدء المسرحية، كي لا يكون العرض في مكان، وما نعيشه من أحزان تلّ الزعتر في مكان؟

- الصحيح أنني كتبت قصيدة عن "تلِّ الزعتر".

- معقول؟ هل تلاحظ أنني كلّما طلبتُ منك شيئًا تكون قد جهّزته قبل أن أطلبه؟

- هي صدفة.

ضحكتْ الأستاذة هيفاء:

- بل هما صدفتان. هل لديك أشياء جاهزة، أريدها، ولم أطلبْها حتى الآن؟

***

الغريب في الأمر أن تلك القصيدة، التي كُتبت يوم 23 أيار 1976، كما هو مدوّن في الدّفتر الذي ضمّها، كانت تدور حول القضية الفلسطينية باعتبارها مسرحية تُزوِّر الحكايةَ الفلسطينية على يد المخرج الأول، وكيف يأتي المخرج الثاني من بين الناس ويسرد الحقيقة لهم، بعد أن يطرد المخرج الأوّل وممثليه.

القصة تعرض باستهتار

في العرض الثامن والعشرينْ
والمسرح خالٍ يا شعبي والمخرج طرد الأبطال
قبض الأموال وخبأها ويعد ليوم الترحالْ
إلى أن تصل القصيدة إلى:
اليوم سنُخرج قصَّتنا كطبيعة زيتون بلادي
كأصالة زيتون بلادي
ويكون المخرج مجموعةْ
من خيرى أبطال بلادي
سمعتها الأستاذة هيفاء، وأعادت ما قالته حينما سمعتِ الأغنية:
- معقول؟

***

كانت تلك هي المرّة الأولى التي أصعد فيها إلى المسرح، لقراءة ما أكتب. وليس أيّ مسرح؛ مسرح حقيقيّ بمقاعد حمراء وستارة، وشرفة علوية. حدث ذلك قبل أن أنشر أي شيء في الصُّحف.

كبيرًا كان نجاح المسرحية، والقصيدة، والأغنية.

***

بعد انتهاء العرض، في تلك اللحظات التي انشغلتُ فيها بتقبّل التّهاني بالنجاح؛ التهاني التي تحلّق كالطيور فوق رأسي؛ صافحني ذلك الدكتور الناقد الذي كنتُ أسمع باسمه، ولم أقرأ له بعد، عبد الرحمن ياغي، شدّ على يدي وسألني: هل تكتب الشِّعر منذ وقت طويل؟

- منذ المرحلة الإعدادية.
- رائع.
- هل يمكن أن أقرأ بقية أشعاركَ التي كتبتَها؟
- يسعدني.
- لقد أحببتُ شعرك، في انتظار أن تزورني، أنت تعرف البيت؟
- أعرفه.

كان الدكتور ياغي هو زوج مديرة المعهد الأستاذة حياة ياغي، وبيتُهم داخل أسوار المعهد، على بُعد أقلّ من مائة متر عن بوابة المسرح.

كنتُ سأكتفي بذلك النجاح، وفرحي بالعثور على أستاذ آخر، بعد الأستاذة هيفاء، يُصدِّق أنني كتبتُ الشِّعر الذي سمعه منّي، لكن فرحتي طارت.

سمعتُ اسمي، ورأيتُ يدًا تلوِّح لي، لم تكن غير يد المُخرجة. من بين الجمهور عثرتُ على طريقي بصعوبة، إلى أن وصلتُها. كانت تقف مع رجل قصير سمين، صافحني بيد غليظة.

- "أُحبُّ أن أُعرِّفكَ إلى أستاذ الموسيقى... سألني عمّن كتب ولَحَّن لنا الأغنية، سأتركك معه"، وابتعدتْ الأستاذة هيفاء.

- قالوا لي إنكَ كتبتَ الأغنية؟

- صحيح.

- وقالوا لي إنكَ لحّنتها؟

- صحيح.

- أمرٌ نادر أن يُتقن الإنسان الكتابة والتلحين.

- شكرًا لكَ.. أستاذ.

- أينَ تعلمت الموسيقى؟

- لم أتعلّم حقيقة.

- وهل تعزف على آلة موسيقية؟

- قبل سنوات حاولت أن أتعلّم العزف على العود، وللأسف، فشلتُ.

- تريد أن تقول لي إنك لم تتعلّم الموسيقى، ولا تعزف على آلة موسيقية، ولحّنتَ هذه الأغنية؟

- صحيح.

- "وكيف يمكنني أن أصدقك؟"، ارتفع صوته في وجهي.

- لا أعرف.

- "ليس هناك خطأ واحد في اللحن، أتريد أن تُقنعني أنك من لَحَّنها؟"، كان صوته قد غطى على كثير من الأصوات، فرحتُ أنظر حولي بخجل شديد وقد بدأ العرَق يتصبّب منّي.

ضرب قدمه في الأرض بغضب وابتعد، وكم أراحني اختفاؤه.

***

كنت أحكي لصديقي الفنان كمال خليل[16] القصّة، فطلب أن أُسمِعه الأغنية. أسمعتُه إياها، فالتفتَ إليّ عابسًا وقال: "ليس هناك خطأ واحد في اللحن، أتريد أن تُقنعني أنكَ من لحنها؟"، ثم ضحك كثيرًا، فضحكتُ أكثر؛ مرَّة لأنني لم أضحك قديمًا حين سمعتُ الجملة أوّل مرَّة، فقد كانت مأساة، ومرّة حين قالها كمال وقد تحوّلت إلى طُرْفة.

– "سأكتبُ نوتة الأغنية، من الجيد أن تكون موثّقة عندكَ"، قال لي.
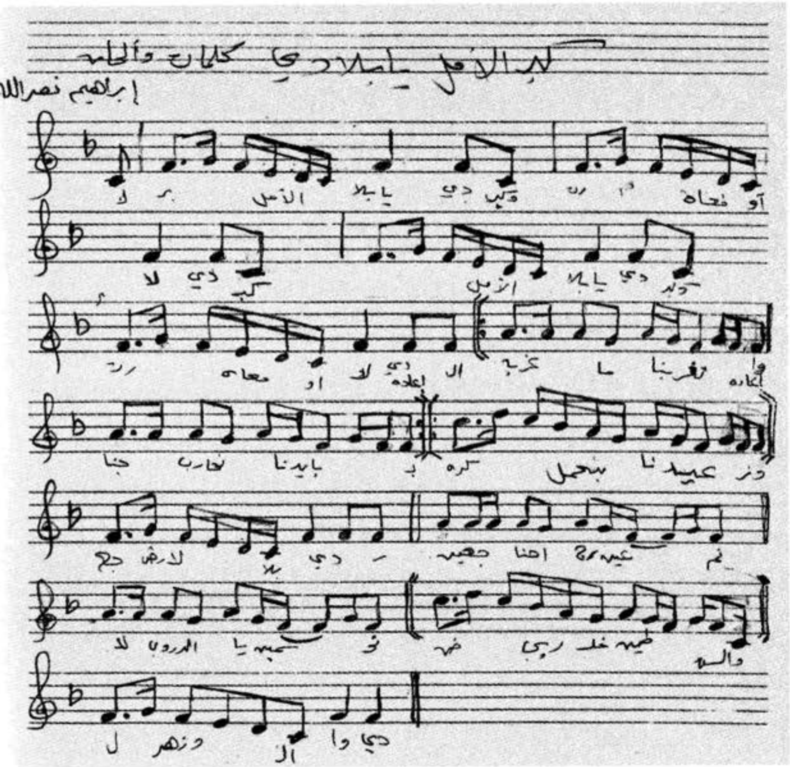
***

أما أجمل ما حدث، فهو أن تلك الأمسية كانت تُخفي بين جمهور المسرحيّة فتاةَ حَضَرَتْها، لم أرها فيها، ولكنها ستكتبُ الكثير من فصول حياتي.

ولأننا لم نصل إلى ذلك المستقبل، سأعود إلى نور لأكمل حكايتنا..

---

[16] - ملحن ومغنّ وقائد "فرقة بلدنا"، كتبتُ لها أكثر من أربعين أغنية، ووضع ألحانها.

13

طرَق واحدٌ من أبناء جيران أهل نور الباب، فتحوا له، دعوه للدخول، لكنه اعتذر، هناك مكالمة لكم.

ارتدى والد نور ملابسه على عجل، مستغربًا؛ إذ نادرًا جدًا ما يتلقّون مكالمات عبر بيت الجيران الذي وضع والد نور رقمهم في ملف عمله، للحالات الطارئة، في زمن كان فيه الحصول على هاتف أرضي قادرًا على نقل العائلة التي تملكه إلى مرتبة اجتماعية أعلى، مع أن أوضاعها الاقتصادية قد تكون أكثر تواضعًا ممّن حولها.

نظر كلّ مَن في البيت إلى بعضهم بعضًا، متسائلين في سرِّهم عن اسم مَن مات، إذ إن مكالمات كهذه مثل نشرات الأخبار، لا تحمل عادة إلا الأنباء السيئة.

بعد أقلّ من خمس دقائق عاد والد نور، لم يكن نفسه الشخص الذي خرَج؛ مرتبكًا قليلًا محاولًا ما استطاع ألّا يلاحظ أهل بيته ذلك.

أخبرتْني نور، أنه كان ينظر إليها وحدها، ولم يكن صعبًا عليها أن تعرف أن المكالمة مُتعلّقة بها.

استبعدتْ أن يتّصل غودار من فرنسا ليقول لها شيئًا جديدًا عن الفيلم، أو عن ضرورة تصوير مشهد فاته تصويره. فلو كان الأمر كذلك، لرأتْ ابتسامة على وجه أبيها، ولو صغيرة.

طلب من زوجته أن تُـخرج فساتين نور وتضعها على الفراش أمامه، لأنه يريد أن ينتقي واحدًا منها.

خفقَ قلبُ نور بشدّة: هل هناك من يريد التقدّم لخطبتي، وأبي حدَّد معه موعدًا، ربما، ليتخلّص من متاعبي ومن مخاوفه المتعلقة بامتحانات الثانوية العامة المقبلة، هو الذي لم يكن مرتاحًا لنتائجي المدرسية؟

استبعدتْ نور الأمر، فهي تعرف أن والدها، لا يمكن أن يفاجئها بشخص يأتي لخطبتها بهذه الطريقة.

والد نور استعرض الفساتين بسرعة، كما لو أنه يُلقي نظرة على قصة قصيرة قبل أن يبدأ بترجمتها.

أشار إلى فستان قصير، وصغير نسبيًّا، لم تلبسْه منذ عامين على الأقل، ولكنها رفضت التّخلي عنه لأنها تحبّه.

طلب من زوجته أن تذهب إلى الغرفة الأخرى وتُلبسها إياه. نهضتْ نور، وسط دهشة الجميع، كمن يمشي في نومه، فمحبتُها لأبيها فاقتْ دائمًا ضرورة طرح أي سؤال مُلحٍّ يريد جوابًا عاجلًا.

بعد قليل عادت ترتديه، ضحكتْ أخواتها وإخوتها. بدتْ كطالبة في المرحلة الإعدادية، لا أكثر.

وابتسم أبوها، فاطمأنتْ هي، لكن عقلها ظلَّ مشغولًا في السبب وراء هذا كلّه.

طلب من أمها أن تُمشط لها شعرها، وبعد أن انتهتْ، قال "أريد أن تُضفِّريه في جديلتين".

تأكّدتْ نور أكثر أنه ليس هناك عُرس ولا عرسان؛ فحين يكونون، يُتْرَكُ الشَّعرُ منسابًا على الكتفين.

وأضاف والدها: لا أريد أن تكون هناك غُرّة.

تأكدتْ نور أكثر وأكثر من نجاتِها.

لم يكن والدها متعجّلا؛ راقب شكل ابنته وهو يتغيّر بهدوء، ووجهه يصفو، وملامحه تغدو أكثر انشراحًا؛ مثل ملامح كلِّ مَن في البيت.

ما إن انتهت أمّها من تضفير الجديلتين، حتى تحوّلتِ الابتسامات المكتومة إلى ضحكات. وقبل أن يطلب أحد من نور أن ترى نفسها في المرآة، توجّهت إليها، تجمّدت للحظات وهي تنظر إلى صورتها، كأنها ترى فتاة تشبهها، ولا تعرف صِلة القرابة التي تربطهما.

- أريد لها حذاء ملائمًا لفستانها.

- "البُسْطار العسكري"، قالت إحدى أخواتها، فضحكوا.

بدأت العائلة تهدأ، فلو أن الأمر خطير لما سارت الأمور هكذا، ولكان التوتّر قد حرَق أعصاب الجميع.

تبرّعت لها أختها الصغيرة بحذائها، لكنهم اكتشفوا أنه أصغر مما يجب.

حذاء أختها الوسطى كان ضيقًا قليلًا، فأخبرها والدها أنها لن تكون مضطرة للسير فيه، وطلب منها أن تخلعه إلى أن يصل الضّيف.

لم يَطُلْ ترقّبهم، أخبرهم والدها مَن يكون الضيف، وسبب زيارته، فانكمشتْ الابتسامات، وبدأ القلقُ بنَخْر أعصابهم.

- يمكنك أن تخرجي الآن، وتجلسي على درجات البيت الخارجية، لأنني أريدك أن تستقبلي الضيف بنفسكِ.

وقتٌ طويل، ثقيلٌ، مرَّ، قبل أن ترى عربة تتوقّف أمامها، يُطلُّ من نافذتها رجلٌ، ويسألها عن البيت الذي يسكن فيه أبوها، أشارت إلى الباب خلْفها.

ترجّل من العربة، طويلًا كان، له هيبة، ونظرة قوية.

دون أن تتحرّك من مكانها، لأن أي حركة ستجعل الحذاء يضغط أكثر على قدميها، أفسحتْ له الطريق ليمرّ.

- أبي في المنزل، ينتظركَ.

تجاوزها الرّجل، طرَق الباب. لم يتركوه ينتظر طويلًا، فتحوا له، ودعاه والد نور للدخول.

بعد نصف ساعة سمعتْ الباب يُفتَح، ورأت الرّجل يخرج، ووالدها يودّعه، هابطًا معه الدّرج.

وقف الرجل بجانبها وسألها:

- ما اسمكِ عمّو؟

- "نور"، ببراءة أجابتْ وهي تعبث بإحدى ضفيرتيها كفتاة صغيرة.

- يعني أنتِ نور، أليس هناك أخت غيرك اسمها نور؟

حرّكتْ رأسها ببراءة أكثر مؤكّدة كلامه.

ابتسم الرجل لها، وواصل طريقه هابطًا باتجاه العربة التي تنتظره.

أطلّ من النافذة مُلوِّحًا لها ولوالدها، فلوَّحتْ له، وهي لم تزل تعبث بإحدى ضفيرتيها.

***

كانت هذه إحدى مشكلاتي الدائمة مع نور، فإذا أرادت أن تخبرني بقصة تقلِبها، رأسًا على عقب، كما يُقال، وتتركني أترقّب النهاية خائفًا.

- هل ستقولين لي ماذا حصل في الدّاخل؟

- على مهلكَ، لماذا أنت مستعجل دائمًا؟

ارتفعتْ يدها كأنها تريد أن تعبث بجديلةٍ لم تعد هناك، فلم تجد شيئًا. التفتتْ إليَّ وقالت، ما حدث باختصار هو التالي.

قاطعتُها: يعني المقدِّمات بالتصوير البطيء جدًا، وما حدث فعلًا بالتصوير السريع.

- الرّجل الذي وصلَ، بعد أن شرب الشّاي، سأل عنّي، بالاسم، فقال له أبي، إنها البنت التي رأيتَها على الدّرج ودلّتكَ على البيت.

- هي؟ لا يُعقل هذا، لا يعقل أن تكون نور التي أخبرونا عنها.

- "إنها بذاتها، وها بناتي الأخريات، وكما ترى، إنهن أصغرُ منها. ولكن، لماذا كلّ الاهتمام بطفلة بهذا العمر؟"، سأل أبي.

- بصراحة، هناك من كتب أشياء كثيرة عنها، وأردْنا أن نتأكَّد من صِدْق التقرير.

- وهل تأكدتَ؟

- تأكدتُ.

- إذًا، لا بأس أن نشرب القهوة معًا بعد أن ارتاح بالك.

- نشربها، لمَ لا؟

***

سألتُ نور وقد أحسستُ بأنها بالغت أكثر مما يجب هذه المرّة أيضًا:

- من هو هذا الرجل؟

- يا سيدي، شرب الرَّجل القهوة، وتحدَّث مع أبي في مواضيع كثيرة، وطلبَ منه أن ينصحه في مسألة مهمّة، وهي أن لديه ابنًا يريد أن يدرس اللغة الإنجليزية في الجامعة، ويريد أن يحصل على علامات تساعده في ذلك، فبماذا ينصحه. طبعًا، أبي وجدها فرصة لكي يجعل الرّجل مطمئنًا أكثر، فشرح له ما هو ضروري وأكثر.

لكن، لنعُد إلى القصة، فهذا أفضل. سمعتُ الباب يُفتح خلْفي، فنظرتُ، فإذا بالرجل الطويل ذي الهيبة، والنظرة القوية يخرج، ووراءه أبي. هبط الدّرجات إلى أن وصل إليّ. كنت قد أفسحتُ له المجال ليمرَّ، ولكن، بدل أن يواصل طريقه، توقّف وسألني مبتسمًا كما أخبرتك.

- "المهم، من هو؟"، قلتُ وقد نفد صبري.
- يا سيدي، الرجل من الجيش.
- من الجيش؟
- يبدو أن هناك من أوصل أخبارًا حول عملي مع الفدائيين، ولأن أبي يعمل في الجيش، أرسلوا، بصمت، ضابطًا ليتأكّد من هذا، فقط.
- وتقولين فقط.

14

والد نور، الذي طالما وصفتْه ابنته لي بفخر: "كتفُ أبي أعلى سوْر في الحارة، حتى لو كنّا نسكن بجانب سور الصين العظيم"، تأكّد أنه أفضل مُناصر لها في العائلة، وكاتم أسرارها، والقابل أن يَقسم خوفه وحرصه عليها، عليّ وعليه.

بدأ الشّك يراوده في إمكانية نجاحها في الثانوية العامة. سرعة الأحداث في تلك الأيام وانصهار الجميع في لهبها، والخوف من صدام قادم بين المقاومة الفلسطينية والنظام الأردني، أمور باتت تؤرّق الجميع، وقد أصابت نور كما أصابتنا، لأن امتحانات الثانوية العامة هي مفْصَل بوابة الحياة الذي لا يحتمل أيّ عطب. صحيح أنه ليس بأهمية تحرير فلسطين، لكنه كذلك بالنسبة لآباء وأمهات طلاب السنة التعليمية الحاسمة تلك.

اختلى بنور، وطلب منها أن تؤجّل التقدّم للامتحان في ذلك العام. بعناد المصرَّة على المشاركة في تنفيذ عملية فدائية رفضتْ.

طمأنتْه ضاحكة:

- في النهاية لن تكون أصعب، من عبور النّهر.

- قد لا تكون أصعب، ولكنها ليست أقلّ أهمية، لأنها تعني العبور إلى الضفة الأخرى للحياة.

كتبتُ ما قاله والدها، وشرحتْ لي كلّ ما دار بينهما، فعلّقتُ: أظنّ أن والدكِ ليس أقلّ من كاتب.

***

بجرأة من ينفّذ عملية عبور ثانية، بعد أن اختبر الماء والليل والرّصاص، تقدّمتْ نور لامتحان الثانوية العامة، وكنّا جميعًا ننتظر النتائج كما تنتظر الأمهات عودة أبنائهن بعد الحرب.

مفاجأةً كان نجاحها، حتى إن والدها حاول التنصّل من بعض ما أبداه من مخاوف، حين صوّر الأمر على أن ما دار بينه وبينها لم يكن أكثر من نقاش.

أمّي أصرَّتْ أن تقيم احتفالًا بنجاحها، أشبه بعرس، بعد أن طلبتِ الإذن من عمّتي، عمّتي التي لم تزل ترتدي ثوب الحزن الطويل الذي تجرجره خلفها منذ استشهاد زوجها.

عمّتي حسمت الأمر بسرعة:

– لو لم تفكري بهذا، لأقمتُ لها احتفالًا بنفسي.

أحببتُ عمّتي أكثر، وأحسستُ أنها تحبّني أكثر مما أحبّتْني في ذلك اليوم الذي نامت فيه نور في بيتنا، فوضعتْني إلى يسارها ووضعت نور إلى يمينها، تلك الليلة لم أنم أبدًا، ولم أجرؤ على أن أتحرّك، أو أن أمدّ يدي لأكتب شيئًا، مع أنني امتلأتُ بآلاف الكلمات والأفكار، وبالسّعادة.

أبي أيضًا لم يعترض، كان نجاحها نجاحًا لأبنائه كلّهم، أعلن فرحه، كما لو أن نجاح نور المفتاح الذي سيفتح الأبواب كلّها لنجاحات أبنائه.

رقصْنا وغنّينا، ورقصتُ أيضًا، ورقصتْ نور، واختتمنا السّهرة بعشاء لم أرَ مثله من قبل في بيتنا، سدْرين كبيرين ممتلئين بأكلة "المقلوبة"، مع بطاطا ولحم ضأن؛ وقد استعرنا معظم الأوعية التي سكبْنا فيها الطعام، وكثيرًا من الملاعق، من جيران قريبين وبعيدين، لأننا لم نكن نملك ما يكفي لوليمة بهذا الحجم.

أبي سأل نور في ذلك المساء عن خططها للدراسة، فأخبرته أنها لم تزل تفكّر في الأمر. أما والدها فعلّق قائلًا "إنه ينتظر قرارها، فالأمر متروك لها، لتدرس في عمّان أو خارج الأردن".

سقطتْ قلوبنا في ذلك المساء، حين سمعناه يقول "خارج الأردن"، لسببين على الأقل؛ الأوّل يعنيني، إذ إنني لم أتخيّلْها بعيدة عنّي، أما الثاني فيعني الجميع: أسرتها، باستثناء أبيها، وأسرتنا جميعها، إذ كيف يمكن لفتاة أن تسافر بعيدًا عن أهلها، لتسكن وحدها، وتعيش في الخارج؟

أما نور فبدتْ مطمئنة، وقد وجدتْ أن أبواب السّفر وأبواب البقاء مشرعة أمامها على اتّساعها.

والد نور قال: النبي، عليه السلام، يقول اطلبوا العلم ولو في الصّين، ولحسن الحظ أن نور لن تطلبه هناك، ستطلبه هنا، في مدينة أقرب بكثير، لعلها دمشق، لعلها القاهرة، بيروت، وهذا ما يسمح به وضْعنا المالي الذي لو

كان أفضل لأضفتُ نيويورك غربًا وبكّين، أي الصّين شرقًا.

طال النقاش بعد ما قاله، حتى أحسستُ بأننا هضمنا كلَّ ما أكلناه وبدأنا نجوع، فقد بدا لي نقاشنا أقرب للركض، دون أن يتمكن أيّ منّا من تجاوز الآخرين.

***

- هل يمكن أن تبتعدي فعلًا.

- "أسافر، ممكن، أما أن أبتعد، فلا؛ أنت تعرف كم تعني لي"، قالت نور بعد يومين من احتفالنا بنجاحها، وهي تمسك عودًا صغيرًا، وتستخدمه في كتابة اسمي على التراب.

رحتُ أتأمل اسمي وكأنني أراه للمرّة الأولى في حياتي، بل كأنني أرى صورتي للمرّة الأولى في حياتي.

في ذلك اليوم، قررتُ ألا أرتكب حماقة أن أسألها: "وما الذي أعنيه لكِ؟"، لا لأنني لا أرغب في معرفة ذلك، بل ليقيني أنها لو وجدتِ الكلمة التي تعبّر عمّا تحسّه، لقالتْها لي، لا سيما أنها على عتبة مرحلة جديدة من حياتها، قد يكون السّفر بابها.

15

لم يكن رصاصًا ما سمعناه، كان انفجارات. صحوْنا فَزعين، وقبل أن ننهض من فراشنا، كان أبي فوق رؤوسنا.

بخبرة قائد خاض الحرب مرارًا، نقَلَنا إلى الغرفة المجاورة، هو الذي لم يتحدّث لنا عن أيّ حرب، إذا ما استثنيا دفاعه عن قريتنا في فلسطين، وردّ الهجوم الذي قامت به مستعمرة صهيونية، وملاحقة المهاجمين، واقتحام المستعمرة. تلك الغرفة كانت أفضل ملجأ، في زمن لم يخطر ببال أحد أن ما سيحدث سيتطلّب وجود ملاجئ.

ملاجئ قليلة لا تكفي، حُفرتْ على عجل، لكنها أقلّ من أن تستوعب سكان البيوت المجاورة لبيتنا.

ووصلت عمّتي لاهثة تحمل صغيرها وهي تسألنا بصوت عالٍ:

- شو اللي صار، شو اللي صار؟

ولم يطل الوقت قبل أن نكتشف حكمةَ القرار الذي اتخذه أبي، فأمام الغرفة هناك المطبخ، وأمام المطبخ هناك الحمّام، وفوقه برميل ماء. كان على أي قذيفة تُطلق نحونا أن تهدم الحمام ثم المطبخ قبل الوصول إلينا.

صحيح أن ما حدثَ لم يكن مفاجأة، فقد سبقتْ ذلك مناوشات كثيرة بين الفدائيين والقوات الأردنية، لكن الحرب مُفاجئة دائمًا.

.. وتواصل القصْف، وعلى بعد مائتي متر، رأيت القذائف تسقط قرب بيت الأستاذ ربيع، أستاذ اللغة العربية الذي أتعبني وهجوته.

وازداد عدد القذائف، انفجاراتها، حتى لم نعد نعرف إن كانت تنفجرُ خلْفنا أو أمامنا، أو إلى جانبينا، في البعيد هناك، أو في القريب هنا.

لكن القذيفة الأخيرة التي سمعنا انفجارها كانت قريبة إلى ذلك الحدّ الذي اندفع فيه غبارها، وملأ الغرفة التي تجمَّعنا فيها.

في تلك اللحظة اختفتْ كلّ الأصوات، تلاشت. تجمّدنا في مكاننا كأننا مُتْنا، أو كأن الواحد منّا على يقين بأنه الناجي الوحيد؛ الوحيد الذي يخشى أن

ينادي ولا يجد جوابًا أو صدًى لصوته.

كما انتقل كثير من سكان المخيم إلى المناطق المحيطة به، باحثين عن بيوت أوسع، بعد أن تزايد عددهم عامًا بعد عام، بل يومًا بعد يوم، انتقلنا للبيت الجديد؛ من الطرف الشمالي المخيم، إلى الطرف الجنوبي، بعد أن غدتِ الغرفتان الصغيرتان لا تتّسعان لنا. أغرب ما في الأمر، أننا لم ننتقل إلى بيت بثلاث غرف أو أربع؛ انتقلنا إلى بيت بغرفتين أوسع، ومطبخ أوسع، وحمّام ملاصق للمطبخ، بدل أن يكون في زاوية الحوش.

خلْفنا، على بعد خمسين مترًا، مخازن إسمنتية وبيوت أعلى، وخلْفها حفرة بمثابة ملجأ، اندفعنا إليها.

حين غادرنا البيت، رأت أمّي غرفتنا التي هدمتِ القذيفة واجهتها، فبدأتْ تبكي، وتتفلتْ نحوها لتحضنها، ربما، كما لو أنها فقدتْ إحدى بناتها، أو أحد أولادْها؛ هي التي ظلّ شعارها الدائم "في المال ولا في العيال".

- "برموش عينَي جمعتُ ثمن هذا البيت، قرشًا قرشًا، جوَّعتكم، وجوَّعتُ نفسي لكي يكون لكم بيت أوسع". أمّي التي كانت تراقبنا نكبر يومًا بعد يوم خائفة، ويدها على قلبها.

برموش عينيها جمعتْ ثمن البيت، وفي اللحظة التي قال فيها أبي: "ومن أين لنا المال الكافي لشراء بيت أكبر؟"، أخرجتْ ما ادّخرتْ من مصروف وقالت: "تفضّل". أمّي التي ستمضي أيامها في البيت الأوسع الذي اتّسع أكثر، مراقِبَة أولادها يكبرون ويتزوّجون، ويغدو لهم أولاد يحوِّلونها إلى جدّة.

لكنها لم تكن تنام أبدًا، قبل أن ترى آخر أولادها، الذين أصبحوا آباء، يعود إلى البيت، حتى لو اضطرتْ أن تسهر حتى الصباح.

لم تستطع النوم يومًا وفي قلبها خوف علينا.

***

تذكّرنا طعام فدوى، وكان علينا أن نحضره، أمّي رفضتْ السّماح لي بالعودة إلى البيت المُصاب، ورفضتُ أن يحضره أحد غيري.

- "أنتَ طويل، وسيرونك، ويقصفونك"، صرختْ بي.

غافلتُها، تسللتُ وأحضرتُه من بين الأنقاض؛ كانت قذيفة، أو قذائف أخرى قد سقطتْ على الحمام وهدمتْه، وطوّحتْ ببرميل الماء إلى الحوش،

وقذيفة ثانية سقطت على المطبخ، وثالثة اخترقتْه.

وتزايد القصف، فلم نعد نثق بالمخازن والمباني العالية التي أمامنا ونحن نرى سطوحها وجدرانها تتطاير، على وشك أن تحوِّل الحفرة التي التجأنا إليها إلى قبر.

انتظرنا لحظة يهدأ فيها القصف، وتسللنا عبرها إلى ما يشبه ملجأً آخر.

***

طوال الوقت انشغلتُ بالتفكير في إنسان واحد: نور، وأنا أعرف أن الوصول إليها هو المستحيل، فأخطر طريق هو ذاك المؤدي إلى بيتها؛ في أولّه مقرّ قوات شرطة البادية، وتكشف منحدره قوات الجيش في منطقة جبل عمّان.

لكن نور جاءتْ، عثرتْ علينا في تلك المساحة الضيقة تحت البناية العالية، وكم أدهشنا أنها قطعتْ كلّ تلك المسافة المميتة بلا سلاح. على كتفها حقيبة إسعاف لا غير، وقلقٌ في عينيها، وشحوب في ملامحها. نور أخبرتْنا أنها عرفت أن هناك ملجأً بسبب بكاء الأطفال. لم يظهر عليها الخوف، ربما لأنها اعتادت صوت القذائف في الخارج، كما يعتادها كلّ من يخوضون الحرب، ولا يعتادها من ينتظرون نتائجها.

هبط الليل: أريدكَ أن تساعدني في إحضار بعض الطعام لكم، وبعض الحليب لفدوى.

مجرّد أن سمعتُ من نور اسم فدوى، هوى قلبي، إذ كنت على استعداد أن أموت ألف مرّة على ألا يصيبها مكروه.

لم تمسكني من يدي حينما ذكرتْ اسم فدوى، بل امسكتْني من قلبي وقادتني إلى الخارج.

بكتْ فدوى وهي تراني أبتعد، ونهضتْ أمّي محاولة الإمساك بي، لكن أبي اعترض طريقها: ابنك كِبر يا عايشة، إلى متى ستبقينه في حضنكِ؟

***

في الخارج...

بدا الوضع أكثر أمانًا، فهنا في هذا الاتساع، يمكن أن تسقط القذيفة في أيّ مكان، بعيدًا عنك، أو قريبًا، أما إذا سقطت على الملجأ فسيموت الجميع.

هنا لن تختنق بدخانها، سيتبدّد، هناك ستختنق به، هنا ستتناثر شظاياها، وهناك ستتناثر الأجساد.

رغم كلّ الموت، كنّا نسير ونتحدّث، رغم القصف، الذي كلّما تجدّد، التصقنا بالجدران، أو للركض هاربين من الشوارع الضيقة نحو الأزقة الأضيق.

حدّثتْني عن الليلة التي أمضتْها مع المتطوعات من النساء والفتيات وهن يطبخن الأسلحة.

- أسلحة؟ طبخ؟

- لا، ليس كما تظنّ، كانت هناك أسلحة جديدة، وكنّا مضطرّين لتفكيكها وطبخها، كي نذيب الشّحم الذي يغطيها، ومن ثم نعيد تركيبها. وكم فاجأني أن نور كانت تضحك.

سرنا طويلًا، محاولَين، ما أمكن، حماية أنفسنا، كلّما رأينا قذيفة تنوير تُطلَق، محيلة المخيم إلى نهار؛ قذيفة تتوسّط السّماء، ثم تهبط ببطء شديد كاشفة كلّ شيء، كأنها عين القذائف التي ستنطلق نحو المخيم بعد قليل.

***

من مخزن للمقاومة، حصلنا على ما نريد، ولم يكن كثيرًا، معلّبات فول وحمص وبازيلاء، وعلبة تَـمْر وعلبة حليب نيدو بحجم كبير. كانت نور معروفة لكثير من المقاتلين، أما أنا فلم يعرفني أحد. وصلنا الباب خارجين، وقبل أن أخطو أوّل خطوة في الشارع، سمعت صوتًا يقول: "كِبْر الأمل يا بلادي"، تجمّدتُ مكاني للحظة، استدرتُ، كان الأخ جورج عسل، وضعتُ كلّ ما بين يدَي على الأرض، وعدتُ وعانقته.

- سأقول لك سرًّا، كنت أخطط لتسجيل الأغنية مع فرقة موسيقية، وبثّها في الإذاعة، لكن ما حدث لم يمنحْنا الفرصة للقيام بذلك، ولكن اطمئن، سأحرص على أن نسجّلها. أما الآن، فسأسألكَ: هل أعطاكم الشباب ما تريدون؟

هززتُ رأسي مؤكّدًا، فالتفتَ إلى نور وقال لي: لن أوصيكَ، عليكَ أن تنتبه للأخت "نداء" فهي أفضل مُسعِفة لدينا هذه الأيام.

التفتُّ إلى نور، فوجدتها تبتسم.

في طريق العودة، رأتْ أن نذهب في الطريق الذي جئنا منه، لكنني اقترحتُ طريقًا آخر، أقصر، وأكثر أمانًا.

- "ما دمت اخترتَ هذا الطريق، فأنا موافقة، لم أنسَ أنكَ، وبأمر من القيادة، مسؤول عن سلامتي"، وابتسمتْ بسعادة.

16

يومًا بعد يوم، خلال الأيام الصّعبة تلك، بدأتْ نور تكتشف أنها تحبُّ التمريض أكثر من حبّها لأي شيء آخر، ولأنها رأتِ الكثير من الجراح والأجساد المتشبّثة بالحياة، صغارًا وكبارًا، كي لا تفارقها أرواحُها، تولّدتْ عندها عادة جديدة، هي أن تبعد أيّ قطعة سلاح توضع إلى جانبها، تبعدها عن الطاولة، عن الطعام إن وجِد، عن أجساد الجرحى الممدّدين على الأرض أو على الأسِرَّة.

لم تكن نور تتخيّل في أي يوم من الأيام أن تملك الشجاعة للنظر إلى جرح كبير، فما بالك أن تحدّق فيه وتخيطه، هي التي خشيتْ الإبر دائمًا؛ من إبرة التطعيم إلى إبرة خفض الحرارة.

- "كنت أرى الإبرة كالمدفعية الموجّهة إلى ذراعي"، أخبرتْني.

لكن الإبرة لم تعد مخيفة.

ستضحك نور بعد زمن طويلٍ وهي تتذكّر كيف بدأت رحلة التمريض: وجدوا أن أفضل طريقة لتعلّم الحَقْن، تكمن في استخدام حبات البندورة، للتدرّب عليها، كما لو أنها ذراع أو أَلْيَة إنسان. كان يمكن أن أنزعج من كلامها لو كنتُ أحبّ البندورة، ولكن لحسن حظّي لم أكن أحبّها، وإن كنت سألتها: هل تعتقدين أن حبات البندورة تتألم حين تنغرس فيها الإبرة.

- برييييء، ستبقى بريئًا.

ولكي أثبتَ لها أنني لست بريئًا كما تظنّ، أضفتُ:

- أظنّ أنكِ تعلمتِ بسرعة، لأن حبة البندورة كلّها قفا.

في ذلك اليوم ضحكتْ نور من كلّ قلبها، وهي تردِّد:

- حلووووة، حلووة، نكتة جديدة.

***

مع تزايد عدد الجرحى، تناقصتْ وسائل العلاج ووسائل تأمين راحتهم. انطلقتْ نور إلى بيتهم ذات ليل، بسيارة أضواؤها مطفأة، وحملتْ فرشات

وأغطية وأواني طعام، ولأن الوضع بات أصعب، التجأت إلى بيوت الجيران وجمعتْ ما لديهم من طاولات وأَسرَّة وأغطية لا يحتاجونها.

ذات يوم كنّا نسير معًا، وأنا أساعدها في حمْل الأشياء، سألتني:

- كيف نسيتُ أن بيتكم قد دُمِّر بكل ما فيه؟

- بيتنا دُمِّر، لكنه لم يحترق، أنقذْنا بعض ما نحتاجه، والآن نستخدمه.

- والطعام؟

- لا عليكِ. اطمئني.

حفنة عدس، أو فريكة، أو حمص، أو فول، أو فاصولياء، كانت تكفي لعائلة، كما لو أن أمعاءنا باتت تشعر بالخجل، فلم يعد الطعام يُغريها.

***

كلّما لقيتُها وجدتُها أكثر نحوّلا من اليوم الذي سبقه، أخبرتْني أنهم تعرّضوا للقصف أثناء نزولهم من شارع "المُصْدَار" ليلًا، فالتجأوا إلى المقبرة، انتظروا. كانت مُتعبة. هدأ القصف، توقّف، تحرّكوا، وبعد وصولهم إلى مقرّ العيادة في أسفل جبل "اللويبدة"، اكتشفوا أن نور لم تكن معهم. كان من الصعب عليهم العودةَ ثانية، انتظروا، إلى أن أتتْ فجْر اليوم التالي. لقد غلبها النوم، فنامتْ بين القبور.

***

ذات يوم أوقفتْ مجموعة من الفدائيين السيارة التي تجمع فيها نور الأشياء الضرورية من الحارة، أخذها قائد المجموعة جانبًا، وفي اللحظة التي وصلتْ فيه الكلمات إلى لسانه، صمت.

- قل ما عندكَ، وباختصار، طلبتْ منه بعصبية مَن لا يملك وقتًا.

- لاحظنا أن هناك قصفًا متواصلًا، وبدقّة، يأتي من جبل عمان نحو مواقعنا في الجبل هنا.

- وما الذي يعنيه هذا؟

- يعني أن هناك من يُرشِد المدافع إلى مواقعنا، وهو موجود هنا.

- ماذا تريد أن تقول؟

- سامحيني، ولكن الشباب يشكّون في أن والدكِ، الذي يعمل في الجيش، يفعل ذلك؟

- أبي؟
- أعتذرُ لكِ، لم نُرد أن ندخل بيتكم، قررنا أن نخبركِ لكي تتصرّفي.
- سأتصرف.
- كيف؟
- سأحجزه بنفسي، هل لديكم غرفة فارغة في أيّ مكان بعيد عن هنا؟ تعرف أنه مريض.
- لدينا.

بخجل يفوق خجل قائد المجموعة، تحدَّثتْ نور مع أبيها، وفوجئتْ أنه لم يعترض، بل أطاعها وكأنها وليَّةُ أمْره؛ لم يقل كلمة، أيّ كلمة، كان حزينًا فقط.

غاب عن الحارة أيامًا، ولكن القصف الذي كانت تتعرّض له مواقع الفدائيين الجديدة ازداد دقّة، فطلبوا منها أن تعيده إلى البيت وهم يعتذرون لها.

قائد المجموعة ذهب مع نور، وأعاداه.

في الطريق بقيَ والد نور صامتًا، وهي أيضًا، لكن القائد ظلَّ يعتذر طوال الوقت.

وصلوا إلى البيت، في تلك العتمة، ومع أنه منذ فترة، كما أخبرتْني، لم يشْكُ من آلام في كليتيه، إلا أنهما بدأتا تؤلمانه بصورة شديدة. كانت المرّة الأولى التي تراه يتألم بصوت مرتفع.

- أتعرفين يا نور؟ ليتني استشهدتُ عام 48 وأنا أدافع عن قريتنا في ذلك الخندق الذي كان الماء قد وصل حتى مُنتصفه، دون أن نستطيع مغادرته لأيام. أنتِ تعرفين؛ كلّ مشاكلي مع الكِلَى بدأتْ هناك.

وتزايد ألمه، فتحتْ حقيبتَها، أخرجتْ إبرة مهدئ، لكن يدها تيبّستْ، لم تستطع حقْنه.

17

... بدأنا نسمع عن محاولات لعقد اتفاق هُدْنة.

اختفتْ أصوات القذائف والرّصاص، خرج البشر نحو الشوارع يتفقّدون ما ظلّ حيًّا فيهم، ومنهم. لم يكن هناك غير الدّمار؛ دمار في كلّ مكان، وسيارات تجمع الجثث، جرافات تحفر قبورًا جماعية، ومقاتلون بأعين مرتبكة لا يعرفون الجهة التي سيمضونَ إليها.

وكما لو أن الوقت الثقيل الذي عشناه في المخابئ كان يبحث عن فتحة يندفع منها، بات يمرُّ سريعًا، لا نستطيع مجاراته، ونحن نتابع أخبار مؤتمر القمّة الذي عُقِد في القاهرة لإنهاء الاشتباكات.

في الشارع كنتُ، بين مظاريف الرّصاص الفارغة والشظايا وآثارها في الجدران، أسيرُ، حين سمعتُ ذلك الخبر: وفاة الرئيس جمال عبد الناصر، بعد انتهاء مؤتمر القمة مباشرة.

بسرعة رحتُ أركض نحو البيت، لأبلغ أبي بالخبر، أبي الذي صفعَني بعد حرب حزيران عندما أخبرته أن عبد الناصر استقال، وصرخ بي: ولماذا لا يستقيل؟

كنتُ أركضُ وكأنّ أحد أقرب أقاربي مات، وصلتُ الباب، وما إن وضعت قدمي على العتبة حتى سمعتُ نشرة الأخبار التي تُعلن مرّة أخرى وفاته.

نظرتُ إلى أبي، رفع رأسه ونظر إليّ:

كان يبكي.

18

عدنا لبيتٍ لم يَعُد بيتًا

عدنا إلى حجارة تحوّلتْ إلى تراب.

عدنا إلى أنفسِنا أغراب.

عدنا إلى أوانٍ، إن لم يملأها الحزن بسبب الفراغ، ملأتها الثقوب، وأعمدة كهرباء تحوّلت إلى نايات.

أسوأ ما يمكن أن يحدث أن تعود إلى بيتك الفارغ، فلا تجدَ لك مكانًا فيه.

وتحوّلنا جميعنا إلى عمّال، لا يعملون لكي يأكلوا، أو حتى ليتمّوا العمل، بل ليجد كلّ منهم فسحة ضيقة تتّسع لجسده، كما لو أنه يحفر قبرًا ليعيش فيه.

أمّي كانت تبكي في الليل، لم تبكِ في النهار أبدًا؛ تردّد جملة واحدة، وكأنها ساهرة فوق جثة قتيل، تردّدها بلا توقّف، ونشيجها المكتوم يبتلع كلّ ما، ومَن حوله: "يا تَعبْنا ويا شقانا، ويا شماتةِ اِعْدانا".

ومن الخارج يأتي صفير الرّيح عبر ثقوب عمود الكهرباء في الشارع، العمود النّاي، العمود الذي سأكتب عنه الكثير بعد واحد وعشرين عامًا، حين يستيقظ صوتُه فيَّ ذات ذكرى مذبحة.

في كلّ ليلة، كنّا ننتظر الشّمس أن تطلّ، ننظفُ منهمكين الدّمار المحيط بالبيت، دون أن نجرؤ على رفع رؤوسنا لمشاهدة حجْمه.

قبل أن تطلّ شمس اليوم الرابع، وصلَنا خبر استشهاد الأستاذ ربيع، بل وصلَني وحدي. صحيح أن الجميع سمعوا الخبر في اللحظة ذاتها، لكن واحدًا فقط، كان الخبر مُزلزلًا له، هو أنا.

لم أفهم كيف يمكن لإنسان عمل المستحيل كي يصبح شاعرًا، أن يبدأ حياته بهجاء إنسان سيستشهد بعد فترة وجيزة.

كلّ ذلك الدّمار الذي ألقيناه خارج البيت، في الساحة، تحتَ عريش دالية العنب الذي تكسّرتْ أعمدته التي تسنده، كلّ تلك الثقوب في الجدران، الفتحات الواسعة التي خلّفتها القذائف، أوانينا التي مزّقتها الشظايا، قطّتنا

التي وجدتْها ميتة وصغارها يرضعون من أثدائها... كلّ تلك الجراح المفتوحة، وروح "أبو الفوارس" الذي أستشهد بقذيفة مباشرة في طلعة "جبل التّاج"، وأرواح سواه، وروح عبد الناصر الذي مات بعد أن وقْف الاشتباكات، كلّ ذلك ألقى به العالم كلّه في داخلي.

صرتُ أحسّ بخجل شديد ممن أقابلهم، مع أن قلّة قليلة تعرف أنني هجوتُ الأستاذ ربيع.

... وحاولتُ ألّا أرى نور، ثلاث مرّات أتتْ تبحث فيها عني؛ في المرّات الثلاث، كنت أقفز من فوق السّور المهدّم ما إن يَفتح لها واحد منّا الباب، الباب الذي تحوّل إلى ما يشبه الغربال بفعل الرّصاص.

نور أدركتْ أن تكرار اختفائي أكبر من مصادفة. لم يكن هناك من أحد يفهمني مثلها.

واختفتْ، اختفتْ حتى بتُّ أشتهي أن تأتي وتطرُق الباب.

كلّ يوم أجلس فوق الحطام، وأراقب بيت الأستاذ ربيع. أحيانًا أرى طيفه يخرج من البيت، وكأنه ذاهب إلى المدرسة؛ المدرسة التي أصابها ما أصابَ بيتنا. كنت أريد أن أقطع الطريق عليه، وأعتذر له عن شيء لا يعرفه، عن قصيدة لم يسمعْها، ولن يسمعَها.

... واختفت نور أكثر، كما اختفيتُ أنا، إلى ذلك الحدّ الذي بتّ فيه على يقين من أنني غير مرئي.

ذات ليلة، فتحتُ عينَي، أسندتُ ظهري إلى جدار العتمة، وكتبتُها:

سلام إلى روح كلّ شهيدْ
إلى شعلة النّور في كلّ عيدْ
"ربيع" وفيك الربيع تجلى
ووسّعتَ بالشمسِ حلْم القصيدْ
إذا قلتَ للطير هيا أعدْ
غناءكَ، ثانية، سيُعيد
فأنت الشهيد وأنتِ الصباح
وأنت الندى إذ يفلُّ الحديدْ

ظلّت القصيدة تتدفّق حتى جرفتْ كلّ ما فيَّ من حزن عليه، لكنها لم

تجرف رغم اندفاعها خجلي لأنني هجوته.

***

- "كنتُ أنتظركَ"، قالت لي نور.

على الشرفة هناك وجدتُها، مرتبكة بغيابي، وبجانبها والدها الذي لم أعرف إن كان ينتظرني أم ينتظر اللحظة التي سيتبدّد فيها حزن ابنته.

فتحتُ ورقة وقرأتُ القصيدة دون مقدّمات. استمعتْ ووالدها، ولمحتُ أمَّها في الدّاخل تُصغي، إخوتها وأخواتها.

انتهيتُ فعمّ الصمت وطال، كأننا لم نعد هناك. أنا الذي أحببتُ العودة إلى نفسي وإليهم، لم أجد أفضل من أن أبوح لأُسرتها بأمر قصيدة الهجاء، وباستشهاد الأستاذ ربيع، وبخجلي.

لم يعلّقوا، وشعرتُ بأن بعض الرّكام الذي فيّ قد انزاح.

- "اقرأ لنا القصيدة مرّة أخرى"، طلب منّي والدها.

قرأتها، وثانية طلب إعادتها، ثالثة، رابعة، خامسة، سادسة، دون أن أعترض، وسابعة قرأتُها، دون أن أنظر إلى الورقة، قرأتها غيبًا.

- "أتعرف؟"، سألني والدها، وقبل أن أجيب أضاف: "ستظلّ هذه القصيدة واحدة من أقرب القصائد إلى قلبك، لن تنساها، بعد اليوم أبدًا".

***

عدتُ للقاء نور؛ تطرقُ بابنا فأفتح لها، وأسير معها.

أصبحتْ أطولَ، وأصبحتُ.

كان الفدائيون قد انسحبوا، وكذلك دبابات الجيش، وحطّ حزن كثيف على كلّ شيء وقد أدرك الجميع أن فلسطين باتتْ أبعد.

في تلك الأيام كتبتُ قصيدة طويلة عن قبر جماعي، كما لو أنني أريد أن أرثي الشهداء كلّهم دفعة واحدة. قرأتها لأبي وأمّي، فبكتْ عمّتي، وعندما قرأتها لنور بكيتُ.

الرسالة الخامسة:

يسعد مساك،

طفولة مصابة بأكثر من جرح، لا أعرف إن كنتُ استطعتُ أن أداويها، أو أن تداويها بعد مرور كلّ هذا الوقت، أم لا. لكن ما يخفّف من قسوة تلك الأيام أنها لا تخلو من ذلك الشيء الذي ربما يكون أقوى من الحزن، وأقوى من الفرح، ذلك الشي الذي نسميه "قوّة الحياة".

لا أريد أن أكتب كثيرًا.

أريد أن أنتظر القادم.

لا أظنّ أن هناك شيئًا يمكن أن أنتظره أجمل من أن أنتظر طفولتنا الخامسة، على عتبات هذا الفراغ.

لماذا أحسّ أن هناك أكثر من حظر تجوال مفروض علينا في اللحظة ذاتها؟

هل لأن عدد الإصابات في تزايد؟ أم لأننا نعيش عزلة غير مسبوقة؟ هل لأن التوابيت في هذا العالم تتكاثر؟ هل لأن الواحد منا بدأ يراهن على قوة جسده أكثر مما يراهن على قوة روحه في هذه الكارثة الكونية؟ أي معادلة هذه؟ هل لأن البشر لا يريدون تصديق ما يرونه من موت بأعينهم، أم لأنهم، في داخلهم، يرفضون أن يُهزموا بعدو، على صغره، تبين لهم أنه أكبر من غرورهم بكثير؟

أعرف أن البشرية ستنتصر في النهاية، لكن ذلك لن يمنعنا من أن نعيش لحظتنا هذه بكلّ ما فيها، لأنها نحن في الحاضر، نحن في الحياة، لكي نستحق أن نكون نحن في الغد.

دمتَ وسلمتَ

نور

طفولة خامسة

1 مكتبة

قفزت نور من حلمها في عمّان، فإذا بها في القاهرة، طالبة طبّ.

تجربتها القاسية في معارك أيلول الأسود، 1970،غيّرتْها؛ وجدتْ في الطبْ مهنة نادرة تتيح لها أن تقول إنني أنقذتُ إنسانًا، فعلًا، وإنني أراه يعود إلى الحياة بعد أن اخترقت رصاصة أو شظية جسده، باحثتين عن روحه. وحتى حين يُغافل الموتُ الإنسان، ويحتلّ مساحة تحت جلده، فإن باستطاعتك أن تفتح أنتَ، كطبيب، بابًا، وتدخل، وتقطع أصابع الموت من الأعماق.

... والتحق قاسم بجامعة الكويت. كتبَ لي بسعادة كبيرة عن الدراسة المجانية، والأكل المجّاني، والجامعة الرائعة، والأساتذة الرائعين، وأنهى رسالته: لا الدّراسة هنا، ولا التخصص حلمي، لكنهما خطوتان إليه.

أما بشير فالتحقَ بالجامعة الأردنية. كانت أحلامه واضحةً دائمًا، ومختلفةً: "سأزور الحياة التي عشتُها في الكتب"، ومثل قاسم أكّد لي: "الدّراسة هنا، خطوة إلى هناك".

من الغريب أنه في كلّ مرّة وردت كلمة "هناك" على لسان بشير، رفع يده اليمنى وأشْهر سبّابة يُمناه، وأقنعكَ أنه يشير بدقّة إلى ذلك المكان، وكأنه يراه.

بقاء بشير في عمّان خفّف من ثِقَلِ غياب نور. حديثه عن الجامعة والدراسة فيها وزميلاته الطالبات، وعن وقوعه في حبّ واحدة منهن. جعلني أشعر أنني لم أزل في المرحلة الابتدائية، فالفرق كبير بين حياة طالب جامعي وطالب مدرسة.

لكن بشير لم يُظهر لي أنني أصغر، أو أنه يفوقني عِلْما؛ تصرّف كما لو أننا خارجَان في رحلة، وهو أسرع منّي، وفي كلّ مرّة اكتشف فيها أنه ابتعد، توقّف، وجلس ينتظرني على صخرة، إلى أن أصِل.

2

بعد ركضيَ المتواصل في ستِّ جهات، أصبحتُ أركض في اتجاه واحد...

تخلّيتُ عن دروس الموسيقى، وتدريباتي على العود، وطردتُ كلّ قصيدة أو فكرة رواية. كنت أريد علامات تؤهّلني لأن أكون طالب موسيقى، "هناك"، في القاهرة، بجوار نور.

قبل الفجر أصحو، أحملُ كتبي وأذهبُ إلى الممرّات الضيقة بين أشجار الصّنوبر في حرش مستشفى البشير، جوار قسم التّوليد، تشرق الشمس فتجدني في انتظارها. وتبدأ الدراسة؛ أمشي وأنا أقرأ كتبي حتى اقتراب موعد المدرسة.

بعد أسابيع كانت قدماي قد حفرَتا طريقًا لي وحدي، في ذلك الممرّ.

يحلّ المساء، وتشتعل أضواء أعمدة الكهرباء في شارع "مأدبا"، المحاذي للمخيم، أنطلق إلى هناك، وأقرأ على طول جزيرة ضيقة تقع بين جناحَي الشارع، بين عمودي كهرباء.

لم أكن أتأثر بمرور السيارات عن اليمين وعن الشمال مُسرعةً، أسهمًا عملاقة؛ كان عددها قليلًا في تلك الأيام، وبعد أن أستغرِقَ في القراءة، لا أعود أحسّ بوجود شيء سوى رأسي والكتاب.

حتى ساعة متأخّرة أبقى، رائحًا غاديًا، وفي بعض الأحيان ألمح طيف أمّي، أمّي التي تُطلّ وتختفي، لتطمئنّ عليّ. أما إذا واصلتُ القراءة ناسيًا نفسي، فإنني أفاجأ بأبي يربّتُ على كتفي، وهو يقول لي:

- يعطيك العافية، عليكَ أن ترتاح.

***

لكنني كنتُ خائفًا أيضًا، لذا، تسللتُ إلى السّينما مرّتين أو ثلاثًا لمشاهدة فيلم، أيّ فيلم، ذاك ساعدني على التّخفيف من قلقي؛ قلقي من أن تكون النتائج أقلّ من أن تسمح لي بالدراسة في الجامعة.

***

في ذلك اليوم الذي سمعتُ فيه اسمي في إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية، بين قوائم الناجحين، وسمعتُ معدّلي العام، وسمعه معي كلّ من في البيت، وعانقتْني أُمّي، غادرتُ البيت في وقت بدأ المهنئون والمهنئات التّوافد عليه. ذهبتُ إلى السّينما، ربما خوفًا على مصير دراستي للموسيقى.

بمجرّد أن ترجّلتُ من الحافلة، وجدتُ نفسي وجهًا لوجه مع أستاذ اللغة الإنجليزية مصادفة، سألني:

- هل نجحتَ في امتحان الإنجليزي؟

- نجحتُ.

سألني عن علامتي، أخبرته، فانتفض كأنني كذبتُ عليه.

- "حتى سمير لم يحصل على هذه العلامة"، قال لي غاضبًا.

كنت أعرف أن سمير أفضل مَن يتحدّث الإنجليزية في المدرسة، وهو الوحيد الذي يجرؤ على مصادقة السّائحات.

مرّة أخرى، كرهتُ المدرّسين، لكنني تذكّرت الأستاذ ربيع، فحاولتُ السيطرة على غضبي، إذ ربما يغدو أستاذ اللغة الإنجليزية ذات يوم شهيدًا مثل أستاذ اللغة العربية، فمن هو الفلسطيني الذي يستطيع أن يعرف مصيره أو مصير غيره حينما يتعلق الأمر بالموت.

***

عدتُ بعد التاسعة مساء إلى البيت. وجدتُ جموع المهنئين في انتظاري، تريد أن تراني. أحسستُ أن أمّي تحاول كبْتَ غضبها بسبب اختفائي؛ لم تكن تريد أن تفسد الفرح بشجار معي، أنا الذي وعَدْتُ وأوفيتُ وحصلتُ على معدّل محترم.

في صبيحة اليوم التالي، قلتُ لها:

- طلبتم منّي أن أنجح ونجحتُ، معدَّل، وحصلتُ على المعدل الضّروري للدراسة في الجامعة، الآن عليكم أن توفوا بوعدكم لي، إرسالي إلى مصر لدراسة الموسيقى.

نظرتْ إليّ مباشرة وقالتْ بحزن شديد: انتظرني هنا، لأُحضرَ لك أموالنا كلّها.

نهضتْ، وبدل أن تدخل إلى البيت، ذهبتْ إلى الحوش.

شِبه خريف.

انحنتْ وبدأتْ تجمع أوراق الدّالية التي سقطت على الأرض وتضعها في مقدِّمة ثوبها التي رفعتْها فتحوّلتْ مقدمته إلى ما يشبه الكيس. طويلًا ظلّتْ تجمع الأوراق الصفراء، دون أن أعرف ما الذي تريده.

عندما راحت تتقدّم نحوي، أبصرتُ ما هو أكثر وضوحًا من قامتها ويديها وما في ثنية ثوبها؛ ظلّت تتقدّم باتجاهي، ودموعها تتّقد، إلى أن وصلتْني. أرْخَتْ يديها، فسقطت الأوراق أمامي، ومعها سقطتْ دموعها:

- هذا هو المال الوحيد الذي نملكه، ليتنا كنّا نملك مالًا غيره لأرسلكَ إلى أفضل جامعات الدنيا.

وجلستْ، فرأيتها تطفو وسط بحيرة صغيرة من دموعها.

3

وجلستُ حبيسًا في قبو، داخليْ، قبل أن أتذكّر أن بقائي في العتمة سيحرمني من الضوء إلى الأبد. استجمعتُ نفسي، وبدأتُ البحث عن أيّ ثغرة جانبية تتيح لي الخروج، بعد أن فقدتُ الطريق إلى الباب.

ربما كان ذلك هو أسوأ ما حصل لي، ربما كان أفضل ما حصل لي في حياتي، إذ لم أعد أؤمن بأن هناك أبوابًا مُغلقة، آمنتُ أن هناك دائمًا فتحة خفية، مهما كانت ضيقة، ستتّسع لمرورك إن كنت تملك هدفًا.

***

قبل وصولي بأشهر إلى عتبات محطتي التّالية، مرغمًا، بدأتُ البحث عن أي وسيلة توصلني إلى الموسيقى. تقدّمتُ لبعثة تموِّلها وزارة التربية والتعليم، للدراسة في القاهرة، وأجريتُ امتحان قدرات.

غنّيت ودندنتُ، وأطلقتُ حنجرتي بـ "كِبر الأمل يا بلادي".

– سيعرف المتقدِّمون النتائج من الإعلان الذي سننشره بعد أسبوعين.

انتظرتُ...

قرأتُ قرار اللجنة، ازداد غضبي على العالم أكثر.

لم أرَ نور بعيدة مثلما رأيتُها بعيدة في ذلك اليوم، بعد أن كنتُ على يقين من أننا سنلتقي في القاهرة، طالبة للطبِّ، وطالبًا للموسيقى.

ذلك الاسم الذي لم أعثر عليه في الإعلان _اسمي_ حيّرني، أعادني للقبو أيامًا. بغيابه لم أعُد موجودًا، ليس في الموسيقى وحدها، بل في الواقع أيضًا. وحده اليقين بوجود نور في هذا العالم جعلني ألاحظ أنني لم أزل أتذكّر، وهذا يعني أنني "هنا"، لا لشيء إلّا لأنها "هناك"، وأنها استطاعت القفز بنجاح من سماء حلمها إلى أرضه، في حين أنني لم أزل أحاول.

قرأتُ إعلانًا في صحيفة أردنية نشرته "الأكاديمية الكويتية للعلوم البحرية" عن بعثات، تطلب فيه من خريجي الثانوية العامة الناجحين، الراغبين بالتقدّم للالتحاق بها، إرسال طلباتهم.

قفزَ البحر إلى مخيلتي، كأن المكان الذي ترَكْتُهُ في قلبي للموسيقى لن يملأه شيء، في غيابها، إلّا البحر.

دون أن أخبر أحدًا أو أستشير، أرسلتُ كلّ ما يلزم من وثائق إلى الكويت، وانتظرتُ.

تأخّر الردّ.

***

في كلّ ليلة، تلك الفترة، حلمتُ أنني أركض. كلّ أحلامي كانت ركضًا، فقط أركض، وفي النهاية لا أعرف إن وصلتُ أم لا. في الحلم السعيد أركض، أو الذي يمكن أن أعتبره سعيدًا؛ أرى نور إلى جانبي، لكنني أتجاوزها، مع أن لديّ رغبة هائلة للتوقّف بجانبها، السَّير معها، لم تكن قدماي تستجيبان لرغبتي، لتوسّلي لهما أن تستريحا للحظة، فأستريح.

مُرهَقاً أنهضُ، والرّغبة الوحيدة التي تتملّكني هي مواصلة الرّكض للوصول إلى مكان.

وتضاعف ابتعادي.

***

لم أعرفْ إن كان حزن نبيل يعزّيني أم يضاعف ألمي، هو الذي بتُّ أصادفه كثيرًا، بل في معظم الأماكن التي أذهب إليها. نتيجته في الثانوية العامة فاقتْ نتيجتي بعشر علامات، لكن حزنه كان يفوق حزني ألفَ مرّة.

لم يخطر ببالنا أن نسأل نبيل ماذا يريد أن يدرس، ربما لأننا لم نتوقّع أن يجيب عن سؤالنا، فاحترمنا مسافة الصمت التي بيننا، ولم نُعكِّرها بسؤال أو حديث إلّا إذا كنّا مضطرّين.

وصلتْنا أخبار عن والده الذي يرفض السّماح له بالسفر، لإكمال دراسته، وهو والدٌ مُتْعَب بغياب امرأة لم يتزوّج بعدها، وخمسة أولاد، وعمل لا يُدرُّ له الكثير، ولولا أن ابنته الكبرى، راحت تعتني بأولاده، بعد أن اعتنت بهم طويلًا شقيقة زوجته، لكانت المأساة أكبر.

كلّما مرّ الوقت تضاعف قلقي وقلق نبيل؛ من يرَنا يدركْ أننا نركض بلا توقّف.

ذات يوم لم أرَ نبيل، ومرَّ يومان آخران ولم أرَه. في اليوم الرابع قررتُ

الذّهاب إلى بيته، فتحتُ الباب، وقبل أن أخطو الخطوة الأولى في الشارع، وجدت نفسي أمام جدار حركة الطائرات، وقد ظهرتْ عليه بخط كبير تفاصيل رحلة واحدة، بعد أن تلاشى الجدول القديم تمامًا: الاثنين: عمّان: المغادرة: 11.45 ـ روما: الوصول: 14:50 .

تذكرتُ أن اليوم هو يوم الاثنين، رحتُ أركض نحو بيته، طرقتُ الباب، خرجتْ أخته الكبرى مبتسمة.

- أين نبيل؟

- نبيل؟ وصّاني أسلِّم عليك.

4

في معهد المعلمين، التابع لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، وجدتُ نفسي أخيرًا؛ طعام مجاني، وإقامة مجانية، لكنها أشبه بسجن، ودراسة مجانية لا ترهق حزام أمّي المرهَق بعشرة أبناء متعلّقين به: نوال، سهام، محمد، وليد، عوني، عمر، هاني، مها، فدوى آخر العنقود، وأنا.

في ذلك الإغلاق الحديدي، بدل أن أجد فتحة، وجدتُ اثنتين، الأولى مصيرية، وهي عبور عتبة الكتابة اللازمة لشابّ أدرك أن الكتابة حياته، أما الثانية، فخطرة.

لم أقتنع بالمعهد، والسبب واضح: حلْمي بدراسة الموسيقى؛ الحلم الذي رحتُ أحاصره بالتركيز على الكتابة كي لا أجنّ. لكن حلم الموسيقى كان مثلي، مثلي تمامًا، كلّما أُغلِقتِ الأبواب الرئيسية في وجهه، وجدَ فتحة للتّسلل منها.

ناقمًا كنتُ على نتائج الاتفاق الذي عقدْتُه مع أهلي: انجحْ في الثانوية العامة وادرسْ ما تشاء. لم أعد متسامحًا مع إلهائي بدروس العزف على العود، التي لم تكن كافية لأتعلّم حقًّا، لم أعد متسامحًا مع مسألة المال الذي يملأ حزام أمّي، وتبين في النهاية أنه أوراق دالية صفراء في أسوأ خريف مرّ عليّ.

***

أمام بوابة معهد المعلمين التي تتّسع لدخول شاحنة، وقفتُ؛ ألفُ يد تشدّني إلى الوراء، ويد واحدة، ربما هيَ يد الفرصة الأخيرة، تتمسّك بي، وتدعوني للدخول.

على اليمين درجات بوابة المسرح، وفي الجهة المقابلة يبدأ قسم البنات، نزولًا إلى أماكن مبيتهنَّ. أواصل السَّير، أجد نفسي أمام الدّرج الملاصق للمسرح، (سأكتب عنه قصيدة بعد سنوات)، وعلى يساري بيوت، سأعرف في ما بعد أنها بيوت بعض الإداريين ومدير أو مديرة المعهد. وبين البيوت والمسرح ساحة مهيأة موقفًا لسيارات الأساتذة والعاملين والزوّار.

أمامي مباشرة غُرف التدريس، ودرج متدفّق على السّفح، يمرُّ من تحت جسر يربط مبنيين. في الأسفل مبنى تعلّم الحِرَف اليدوية، فالمطعم، فمساكن الطلبة، والصالة الرياضية المغلقة، التي تبين في ما بعد أن لها بابين، أحدهما يُفتح على قسم الطالبات، والآخر على قسم الطلاب، وحين يكون أحد البابين مُشرعًا يكون الثاني مُغلقًا، وهكذا، لا يلتقي الطلاب بالطالبات أبدًا.

عزْلٌ كامل، في مكان معزول أصلًا، حوله سهول لا غير. غرف مشتركة تضمّ أسِرَّة بطابقين، يصل عدد الطلاب في الغرفة الواحدة إلى اثني عشر طالبًا، ستة من طلبة السنة الدراسية الأولى ومثلهم من طلبة السنة الثانية.

سجن حقيقي، وعزلة تزداد قسوتها كلّما التقيتُ بشير مساء الخميس، أو يوم الجمعة، خلال الإجازة الأسبوعية التي تمتدّ حتى صباح السبت. أنصتُ إليه يحدّثني عن الدراسة في الجامعة، عن الطالبات اللواتي لم يسبق لنا أن رأينا مثلهنّ، وبخاصة من يملكْنَ سيارات خاصة.

صديقته، أو تلك التي اختطفتْ قلبه، واحدة منهن.

بؤس.

***

زيارة بيت نور، وحديثي المتواصل الجميل مع أبيها، كانا أجمل شيء يحدث، إذا ما أضفنا رسائلها التي لم تنقطع.

أمّها غدتْ محايدة بشأني، ومع مرور الوقت ستُبدي امتعاضها بأشكال مختلفة، من حضوري المتكرّر، إلا أن رقّة الأب كانت تُغلق عينَي، فأعزل نفسي تمامًا بحيث تختفي الأمّ، الأمُّ التي، لا بدَّ، أصبحتْ ترى فيّ ذلك الشخص الذي مهما ارتفع سيبقى مُعلّمًا، في وقت ستعود فيه ابنتها من القاهرة طبيبة.

بعد زمن طويل، سأتذكر، مع نور، أمّها، وتربُّصها بي، وسأُحصي عدد المرّات التي دفعتْني فيها من الشّرفة، بنظراتها، لأسقط على الرصيف الضيّق تحت منزلهم، وسنتذكرها أكثر بعد أن غنّت فيروز أغنيها الجميلة "كيفكْ إنتَ" ونحسُّ أنها كُتِبَتْ لنا خصيصًا.

لذا، سأعتبر تلك الأغنية هي الفصل التالي، وأضعها كاملة، وكأنني كاتبها، مع يقيني أن ملايين البشر يعتبرونها أيضًا أغنيتهم الخاصّة.

5

بتُذْكر آخر مرّة شفتكْ سِنتا
بتذكر وقتا آخر كلمة قِلتا
وما عِدتْ شفتكْ
وهلّق شفتكْ
كيفك اِنت، ملّا إِنت؟

بتذكر آخر سهرة سهرتا عنّا؟
بتذكر كان في وحْدِة مضايق منّا؟
هيدي إمّي
بتعتل همّي
منّك اِنت ملّا الإنت

كيفك؟ قال عم بيقولوا صار عندك ولاد
أنا والله كنت مفكّرتكْ برّات البلاد
شو بدّي بالبلاد
الله يخلّي الولاد
إي... كيفك إنت ملّا إنت؟

بيطلع عبالي
إرجع أنا ويّاك
إنت حلالي
إرجع أنا ويّاك
أنا وإنت.. ملّا إنت

بتذكر آخر مرة شو قلتلّي؟
بدِّك ضلّي بدّك فيكي تفلّي
زعلت بوقتا
وما حلّلتا
إنو إنتَ هيدا إنت
بترجع ع راسي
رغم العِيَل والناس
إنتا الأساسي
وبحبّك بالأساس
بحبك إنت.. ملّا إنت.

***

في كلّ مرّة سمعنا فيها الأغنية معًا، لاحظت أن يد نور امتدّت وخفّضت صوت الأغنية عند وصول فيروز إلى المقطع الأخير: بتذكر آخر مرّة شو قلتلّي.

***

يمكنني القول إن أمّها تغيّرت بعد ذلك، بل وصل بها الأمر أن تدعو نور لأن تتزوّجني.

6

في إجازات أسبوعية كثيرة، ذهبتُ إلى بيت نور قبل أن أذهب إلى بيتنا، أمّي وأبي عَرفا، ولم يعترضا؛ كانا يحسّان بذنْب عظيم لأنهما خدعاني، بخاصة أن أصدقائي كلّهم التحقوا بالجامعات. أما خالي الكبير الذي أصادفه بين حين وحين، فبدا شامتًا بي طوال الوقت:

- "لو طاوعتَني وعملتَ معي، لأصبح وضعكَ الآن فوق الرّيح"، قال لي ذات مرّة؛ دلالة على أنني خسرت وضعًا وظيفيًّا ومعيشيًّا، وبالتأكيد عائليًّا، أفضل بكثير مما أنا عليه.

ما أقلقني أن نور لم تعد خلال العطلات الصيفية؛ وجودها كان سيريحني من تخبّطي، بعد أن فقدتُ الأمل.

سألتُ والدها بعد أن تأكدتُ من أن أمّها لا تسمعنا.

تلفّتَ حوله، وقف، أمسكني من يدي وقال بصوت مرتفع:

- سنخرجُ لنتمشّى قليلًا.

في الشارع الطويل الذي يُطلُّ على ثلاثة جبال: جبل الأشرفية، وجبل عمان، وجبل نزّال، وتحت أقدامنا الجبل الرابع: جبل النّظيف، سِرْنا، فشعرتُ أنني في أدنى نقطة في العالم، ولا أعني الأغوار.

توقعتُ كلامًا كبيرًا على وشك أن يقال.

لم يعرف والدها من أين يبدأ، مرّتين نظر خلْفه، وفي المرّة الثانية نظرتُ لاإراديًّا، فرأيت أمّ نور في الشرفة الصغيرة واقفة تنظر نحونا.

في المرّة الثالثة، استدرنا معًا فلم نرها، ولم نرَ الشّرفة.

في الأسفل رأينا سيْل عمّان يجري، رائقًا وصافيًا، فتذكرتُ رحلات صيد السّمك التي قمنا بها، في المكان المقام عليه الآن مبنى أمانة عمّان، ومركز الحسين الثقافي، بمسرحه ومكاتبه.

- نور لن تأتيَ هذا العام أيضًا، لا أريدكَ أن تنتظر أكثر.

فوجئتُ بما قاله؛ انزلق جبل النّظيف من تحت قدمَي فوجدتُ نفسي في الوادي.

- بعد سفرها داهموا البيت. صحيح أننا علِمْنا بالمداهمة قبل وقوعها، إلّا أننا لم نستطع أن ننقذ كلّ شيء.

- لم أفهم.

- أعرف أن نور أخبرتكَ بأمر ذلك الضابط الذي جاء ذات يوم في مهمّة ليتأكد من مسألة التحاقها بالفدائيين، وكيف خدعتْه بأن مثّلتْ دوْر الطفلة. هذا الضابط نفسه، طلبَ منّي، في ما بعد، أن أُعلِّمه الإنجليزية، وعلّمته، وذات مرّة أسرَّ لي أنه كان يعرف أننا خدعناه يوم جاء للتّحقيق، لكنه أخبرهم بما رأى؛ فتاة صغيرة بجديلتين وفستان قصير، لا خوف منها. فسألتُ الضابط عن سبب إخباري بذلك، فأسرَّ لي: يبدو أن هناك من سيأتي لمداهمة البيت، لا أعرف متى، ولكن ذلك سيكون في وقت قريب، فانتبهوا؛ في النهاية أنت تعمل في الجيش، ولن يقبلوا ببقاء نقطة غامضة، كهذه، في مِلفكَ.

- وهل جاؤوا؟

- جاؤوا. كنّا قد أخفينا كلّ ما يمكن أن يعتبروه تُهمة، بما في ذلك الكتب والرّوايات والقصص القصيرة والأشعار، كلّ شيء، فكما تعرف وجود الكتب تهمة جاهزة تُشير إلى شخص يريد أن يعرف، وهذا أمر غير مسموح به.

حدّثني يومها، كما يتحدّث مع رجل ناضج، وليس مُجرَّدَ طالبٍ مُجرَّدٍ من حلمه يغمره الضّيق والارتباك.

- المهم، جاءت الأمور سليمة، وإن أصبحنا الآن على يقين من أن عودة نور إلى عمّان ثانية لم تعد آمنة، لأنها إن أتتْ، فقد لا يسمحون لها بالعودة لإكمال دراستها، فهذا أمر يحدث كثيرًا للطلاب الذين يدرسون في الخارج، لذا، لا أظنّ أننا سنراها إلّا إذا سافرْنا إليها، والأفضل ألّا نسافر إلى القاهرة، لأنهم ربما سيمنعوننا. سنبحثُ عن فرصة للقائها في دمشق، فالوصول إليها أسهل.

مع كلّ كلمة سمعتُها تزايد انزلاق الأرض تحتي، حتى أصبحتُ في

القاع، تحت ماء السّيل.

في طريق عودتنا، صامتَين، كشبحين عائدين من مقبرة دفَنَا فيها جسديهما، قال لي: ثمة شيء واحد نسينا أن نُخفيه.

وقف والد نور، ووقفتُ، نظرتُ إليه أنتظرُ ما سيقوله، وطال صمتُه، طال أكثر مما يجب، وفي النهاية سمعت صوتًا منخفضًا مجروحًا:

- لقد وجدوا أثناء بحثهم قصيدة غودار، فصادروها مع أوراق أخرى.

استغربتُ كثيرًا كيف تركتْ نور قصيدة بتلك الأهمية خلْفها، هي التي ربّتتْ يوم السفر على حقيبة صغيرة ستسافرُ معها، وقالت لي:

- لا تقلق، كلّ دفاترِكَ هنا، أنتَ هنا، كلّ ما هو غالٍ عليّ هنا.

7

أصبحتُ على يقين من أن بشير تجاوزني، وكنت سأعذره لو قرّر التهرّب من اللقاء بي.

كنّا نسير قبل الغروب خارج المخيم، في الشارع المؤدي إلى متنزه جبل الأشرفية، حدّثني عن زميلته، فادية، ورغم أنني لا أشكّ في كلامه أبدًا، لا من قبْل ولا من بعد، إلّا أنّ حديثه عن سيارتها المكشوفة وتنورتها القصيرة جعلني أسمعه بفتور؛ ربما بسبب حَسد ما تسلّل إلى نفسي.

عمِل بشير الكثير، دائمًا، ليوّفر المال لشراء الكتب. فتَنَتْه بشكل خاص ثلاثة من كتب أدب الرّحلات: عصفور من الشرق، لتوفيق الحكيم، أبو الهول يطير، لمحمود تيمور، وأديب، لطه حسين.

– يومًا ما سأكون في نيويورك، وباريس.

الطريقة التي كان يقول فيها تلك الجملة، جعلتني دائمًا أصدّقه، مع إحساسي بخجل ما؛ إذ إنني عندما أنشأتُ مطاري لم أجرؤ أن أسافر إلى نيويورك، مع أنني ذهبت إلى باريس، وبرلين، وأثينا، وروما، والقاهرة وبيروت...، وإن بقيتْ باريس محطة دائمة بالنسبة إلى ولنور.

حرصه على توفير المال من أجل الكتب، دفعه لأن يقتصِد في شراء أيّ شيء غيرها، حتى إنه، كما أكّد لي أكثر من مرّة، لم يشترِ طوال وجوده في الجامعة، من الطعام، إلا صحن فول دفع ثمنه قرشين ونصف القرش. أما اعتماده على قدميه في التّنقل بين الجامعة وجبل الحسين فكان هو الأساس، ومن هناك، يستقلّ حافلة إلى وسط عمان، ومنها إلى الوحدات.

كلّ أسرَة كبيرة في المخيم، لديها بحر من الفقر، تتقاذفها أمواجه، حتى لو كان رب تلك الأسرة مُعلّما في الخليج؛ فقد كانت امرأته تحمل بطفل جديد بعد كلّ زيارة سنوية له، إلى عمّان، كما شهدتْ تلك السنوات بدايات انهيار مكانة المعلمين، ومستواهم المعيشي، ولن يمضي زمن طويل قبل أن يبدأ كثيرون منهم العمل كسائقي سيارات تاكسي إضافة لعملهم.

لم يكن بشير يبدي أيّ حزن وهو يتحدّث عن ذلك، ربما لأنه يعلم أن وجهه سيشعّ بعد قليل، حينما يبدأ بالحديث عن فادية.

***

بدأت علاقته بها باكتشافه حبّها للشِّعر؛ بدأ بتبادل الدواوين الشعرية معها، ولأنه قارئ مختلف، حدّثها عن شعراء لم تسمع بهم من قبل، هي المفتونة بنزار قباني، وتعرف أسماء شعراء المقاومة. حدّثها عن إليوت، لوركا، شلي، رامبو، وسان جون بيرس، إيف بونفوا، والت ويتمان، وجون ميلتون، وبدر شاكر السياب، وأنسي الحاج، وخليل حاوي.

باختصار، يقول بشير: جعلتها تحسّ أنها فقيرة للغاية، وأنني الغنيّ، دون أن أقصد هذا.

في البداية راحت تبتعد عنه، وبعد أيام وجدها بجانبه جالِسة على درجات المكتبة، كان مستغرقاً في قراءة رواية "الطاعون" لألبير كامو، إلى درجة أنه لم ينتبه لوجودها.

تنحنحتْ في النهاية:

- نحنُ هنا.

في ذلك اليوم، بعد انتهاء محاضراته، انطلق ماشيًا باتجاه جبل الحسين كما كلّ يوم يكون فيه الطقس ملائمًا لذلك.

قبل أن يصل إلى مبنى شركة "كاتربيلر" الذي ينتصب على الجهة الأخرى من الشارع قريبًا من المدخل الشرقي لجسر جريدة الرأي اليوم، توقّفتْ سيارة مكشوفة إلى جانبه. أشارت له فادية إلى الباب بعينيها تدعوه للرّكوب.

كثير من الطالبات كنّ يملكن سيارات، ويتوقّفن له باعتباره زميلهنّ، لكنه طالما اعتذر.

فادية عرفتْ بذلك، سألتْه بشقاوة، بعد أن أصبح إلى جانبها:

- هل تخاف من البنات، أم أنكَ مخلص لي إلى درجة أنك مصممٌ ألّا تركب إلّا معي؟

- مخلص لكِ بالطبع.

فادية التي فوجئتْ بجوابه الصّريح، أوقفتْ السيارة جانبًا، ومالت نحوه وقبلته على خدّه. لم تتكلّم طوال الرّحلة، كانت تبتسم، أما هو فكان

مسحورًا.

طوال أسبوع، أكّد لي بشير، أنه حرص على ألّا يمسّ الماء موقع قُبلَتها كلّما غسل وجهه، وبعد سنوات سيحصل معه شيء من هذا القبيل، بعد أن أنهى دراسته وذهب لزيارة القاهرة، موطن توفيق الحكيم وطه حسين ومحمود تيمور، قبل أن يزور باريس ونيويورك، موطِنَي كتبهم، وموطن أحلامه. وجد أن في زيارة هاتين المدينتين، قبل زيارة القاهرة، تنكّرًا لأجنحة الخيال التي منحتْها له القاهرة ليحلّق، في زمن لم يكن يملك فيه سعر تذكرة حافلة، ولا نقول تذكرة طائرة.

في القاهرة مضى إلى مقهى ريش، ما إن وضع حقيبته في الفندق. لم يفتحْها، كان يعرف أن عليه أن يُسرع، ألّا يتأخّر عن لقاء نجيب محفوظ. وصلَ، وكان محفوظ هناك، صافحه بشير، وفي قلبه كلام كثير يريد أن يقوله له؛ عن الفتى الصغير القادم من مخيم الوحدات الذي قرأ ثلاثيّته، ورواياته: السمّان والخريف، المرايا، عبث الأقدار...، بل وفكر أن يحدّثه عن المصري زوج عمّتي، فلعله يكتب عنه رواية، لكنه أحسّ أنه مقيّد، وأن لسانه مقيّد؛ كانت ضحكة نجيب محفوظ تحلّق في الجو طوال الوقت، وفي لحظة خاطفة اختفتْ، وعمَّ الصمتُ؛ التفتَ محفوظ إلى بشير، وقال إنه يرى وجهًا جديدًا لم يره من قبل في المقهى، ولاحظ محفوظ كتاب "الجنس الآخر" لسيمون دي بفوار، الذي اشتراه بشير في طريقه إلى المقهى، فطلب منه أن يُعرّف بنفسه. في تلك اللحظة تدفّق بشير، ومحفوظ يهزّ رأسه برضى، ثم نظر إلى ساعته وقال: "جاء موعد العودة إلى البيت". ونهض، اقترب من بشير وصافحه، صافحه بحرارة مدهشة، وعندما خرج، وضع بشير يده في جيبه، خشية أن يكون مضطرًّا لمصافحة أحد بعد مصافحة محفوظ له، وهكذا، ولمدّة أسبوع، أمضاه في القاهرة لم يصافح أحدًا، ولم يغسل يده.

***

تذكرتُ ذلك عندما وجدت نفسي لأوّل مرّة في القاهرة، بعد سنوات، في كانون الثاني، يناير، عام 1985. ذهبتُ لزيارة نجيب محفوظ في مكتبه بجريدة الأهرام، وحدّثته بجرأة عن بشير والمصافحة، وبخجل عن دواويني الأربعة التي أصدرتُها، وروايتي الأولى التي تأخّر صدورها كثيرًا، وكانت

أيامها في المطبعة.

التقط أحد الأصدقاء لنا صورتين، وبقيت تلك اللحظات هي حصّتي التي استطعتُ الحصول عليها من كاتب قرأتُ له الكثير، وأحببتُ تواضعه، ومع أنني لم أسمعه يضحك في ذلك اليوم، إلا أن ابتسامته الطيبة، العميقة، لم تغب عني أبدًا.

مددتُ يدي لأصافحه، فضحك: إياك تقوم تعمل زي صاحبك بشير، وإلا والله مش رح اغسل إيديا، أنا كمان، من هِنا لأسبوع.

بعد ثلاث سنوات سينال جائزة نوبل، وسيبقى، مع قلة قليلة جدًا، من أطيب الكبار الذين قابلتهم في ما بعد.

وما دام الحديث يجرّ الحديث، فإن حديثي عن لقاء محفوظ يذكّرني بخالي محمود، الذي تبادل الرسائل مع غسّان كنفاني، وحدّدا موعدًا للقاء في بيروت، فاستقل خالي الطائرة من ستوكهولم. وضع حقائبه في الفندق وانطلق إلى مكاتب مجلة الهدف مساء ذلك اليوم. سأل عنه، وهو يخبرهم أنه قادم من السّويد خصيصًا للقائه، وكم فوجئ أن مَن هناك، الذين لاحظ احمرار أعينهم، راحوا يبكون، وقبل أن يسأل، أخبروه أنه تمَّ اغتيال غسان صباح ذلك اليوم.

عندما رأيت خالي محمود بعد ستة وثلاثين عامًا في بيته، في السويد، وحدثني عن ذلك، بكى كما لو أنه يسمع الخبر للمرّة الأولى.

8

بعد الجامعة، سافر بشير إلى السعودية، ليعمل مُدرّسًا. استقرّ في قرية "الخفْجي"، التي كانت تضمّ، حسب وصفه، ثلاث بنايات كبيرة: المسجد، شركة البترول، والمدرسة، أما الباقي فلم يكن أكثر من بيوت صفيح تتحوّل إلى أفران، معظم أيام السنة. بعدها انتقـل إلى "الخُبَر" التي، حسب وصفه أيضًا، كانت مكونة من شارع واحد.

"هناك، تذكرتُ فادية كما لم أتذكّر إنسانًا في حياتي، تذكّرتُ ذهابي وإياها لمشاهدة الأفلام مساء كلّ خميس في سينما الرينبو، في جبل عمان، مع زملائنا أيضًا، بعد أن أصبحتُ المرشد السّينمائي العام، كما باتوا يدعونني في تلك الأيام".

كلّ شيء حيّ كان بعيدًا عنه، في تلك الصحراء التي سأذهب إليها بنفسي، بعد أن يكون بشير غادرها. ما كان يعزّيه، في "الخُبَر"، تلك الأفلام التي تعرضها شركة أرامكو مساء كلّ يوم، فيسهرون معها، مُفضّلين النوم في الخارج على النوم في غرف الصّفيح التي لا تنخفض درجات الحرارة فيها، حتى في الليل.

- "لكلِّ جنةٍ عتبةٌ اسمُها الجحيم"، كان بشير يكتب لي دائمًا في كلّ رسالة يرسلها، طالبًا منّي أن أحتمل وضعي في المعهد.

9

قبل السفر إلى أمريكا، اجتمع ثلاثة أولاد وبنت، يترقّبون ما سيُطلب منهم في مركز أمِيْد إيست بعمّان، لتقديم امتحان اللغة الذي لا بدّ منه ليكتمل قبول الجامعة. سعادة بشير كانت الأعظم، وهو يسمع ذلك المسؤول الذي دخل القاعة وألقى نظرة عليهم بهدوء، دون أن يبتسم:

- ليكتب كلّ منكم عن أحبِّ فيلم إليه.

وخرج.

سبع صفحات كتبها بشير في ذلك اليوم عن فيلم كلود ليلوش "رجل وامرأة"، الفيلم الذي حضره خمس مرّات، بعد مقدمة امتدتْ نصف صفحة عن سينما الموجة الجديدة، وأعمال ليلوش السابقة.

في اليوم التالي، ذهب لمعرفة النتيجة قبل الموعد بساعة، لكنه لم يدخل إلّا بعد أن رأى الذين تقدّموا معه للامتحان يصلون.

- من منكم بشير؟ سأل المسؤول.

رفع يده، مؤكدًا وجوده، وخائفًا أيضًا.

تقدّم من بشير وناوله النتيجة، وهو يقول:

- أعترفُ، أذهلتَنا.

***

أمّه التي كانت تدعو له أن تتحقق أحلامه، وأن يفتح الله كلّ طريق يسلكه، أحسّتْ يوم ذهابه إلى السفارة الأمريكية، للحصول على تأشيرة، أنه بحاجة لدعواتها أكثر من أيّ وقت مضى:

- الله يحنِّن قلب الأمريكان عليك، مش زي ما بيعملوا معانا، ويسهِّل طريقك، ويبعد عنك في بلاد الغربة بنات الحرام.

بشير الذي ابتعد عدة خطوات عن البيت، توقّف مكانه، كأنه تجمّد. التقط أنفاسه بصعوبة، وعاد إلى أمّه:

- إذا ما بتسحبي دعوتك ما راح أروح على السفارة، أي أنا من يوم ما

قررت أسافر ما بحلم إلا ببنات الحرام إللي بدِّك تحرميني مِنْهِنْ.

ارتبكت أمّه، اسودّ وجهها، وتعرَّقتْ، أدركَ ذلك.

- بمزح معكِ، ولو! صدَّقتِ؟

في الطريق إلى السفارة الأمريكية بعمان، أخبرني: كنتُ أطير؛ كلّ شيء كان لدي، جواز السفر، الكفالة، التذكرة، قبول جامعة كولومبيا، ونجاحي في امتحان اللغة الإنجليزية بتفوّق، ونيويورك أيضًا، نيويورك التي أصبحت في جيبي.

***

ذات ليلة حلمٍ أنه يسير في شوارع نيويورك، استيقظ، وكم أدهشه أنه وصل إلى هناك فعلًا، ولكن عبر القاهرة.

10

غريبًا في مدينة كبيرة وجد نفسه، ومتعبًا، ولكنه سعيد بغربته وفخور بتعبه، فهما جناحا جسده وروحه اللذان حملاه وأوصلاه إلى حيث يريد.

في يده، مفتوحةً، الطبعة الثانية من كتاب "أبو الهول يطير" التي صدرت عام 1949، وكُتِب في صفحتها: "مزيدة ومنقحة بما يتّفق ومشارب الطلاب والطالبات".

كلّ كلمة في الكتاب كانت جزءًا من بشير؛ من حديث محمود تيمور عن النّفس الحبيسة وأحلامها، وموعد الطائرة المتوجّهة إلى نيويورك، إلى تسجيل اسمه في القنصلية الأمريكية في القاهرة، ليضمن أنه سيكون من أوائل الصاعدين إلى الطائرة، إلى حقيبة وزنها خمسة وعشرون كغم.

حمل بشير حقيبة وزنها سبعة كغم، ذلك جعله يحسّ أنه سيصل إلى نيويورك بصورة أسرع؛ في جيبه شيك بألف دولار، هي ما تبقى من ثروته التي شقيَ كثيرًا ليحصِّلها في تلك الصحراء، ومائة دولار في جيبه.

انشغل بشير بأشياء كثيرة، لم ينشغل بها تيمور، مثل قبول جامعة كولومبيا، الذي لا بدّ سيسألونه عنه في المطار، وسيسألونه عنه ما إن يعبر بوابة الجامعة؛ ربما.

قدّم طلباتٍ لعشر جامعات، ووصله منها عشر موافقات.

من بينها اختار كولومبيا.

- ذاهبٌ لتدرُس إذًا؟ سألتهُ.

- بل ذاهب لأعيش.

***

فوجئ بأضواء مطار نيويورك، كما لم يُفاجأ بشيء من قبل، أضواء تكفي لإنارة مخيم الوحدات، وربما مدينة عمّان بكاملها، ربما الأردن بكامله.

اقترب منه سائق تاكسي وسأله: "إلى أين؟"، وحمل الحقيبة، فتبعه بشير، الذي أجاب: "إلى الفندق".

- أي فندق؟
- لا أعرف.
- ماذا تعمل؟
- أعمل أستاذًا.
- عظيم، وإلى أيّ جامعة ستذهب؟
- جامعة كولومبيا.
- عظيم.

توقّفت السيارة أمام فندق فخم، قفز السائق وناوله الحقيبة. اكتشف بشير أن الرحلة من المطار إلى الفندق أعلى من كلفة ركوب الطائرة من عمّان إلى بيروت التي فكّر بزيارتها.

كلّ ما حدث له في ليلة نيويورك الأولى، بُني على سوء فهم بينه وبين السائق، فكلمة أستاذ، التي تعني مُعلّم عندنا، فهمها السائق دكتورًا، وجامعة كولومبيا جعلته يفهم أن هذا الدكتور يعمل فيها، لا طالبًا قادمًا للالتحاق بها، لذا، عمل السائق على أن تكون إقامته في فندق يليق به.

لا يتوقّف بشير عن إعادة سرد الحكاية، ومأزق الشّيك الذي في جيبه، الشيك الذي لا يستطيع أن يصرفه لأنه وصل مساء الجمعة، وهناك عطلة ستمتدّ يومين، لن يستطيع خلالهما العثور على بنك مشرعة أبوابه.

معرفته بسعر المبيت في الغرفة، ضاعفت ضياعه في المدينة التي وجد فيها لزمن طويل عنوان حلمه.

لم يكن قادرًا على المغادرة، بقي في الفندق محاذرًا أن يطلب أيّ شيء، أو يشرب أي شيء فيه، حتى من الحنفية الموجودة في الحمّام.

لكنه تجاوز مأزقه وهو يتذكّر حلمه، وما بقيَ معه من دولارات قليلة. حمل كتاب "أبو الهول يطير"، واندفع عبر شوارع نيويورك.

كأن نيويورك ليست في نيويورك، كأنها في الكتاب فقط.

هدوء السبت وموت الأحد، ضاعفا ضياعه.

عاد إلى الفندق، نام من الساعة الخامسة مساء الأحد حتى السابعة من صباح الاثنين. نهض، بحث عن بنك، وجده، عاد إلى الفندق، دفع ما عليه، تبخّرتْ ثروته. جمّع نفسه من جديد كمحارب في الدقائق الأخيرة من

المعركة؛ ترك الحقيبة لدى استعلامات الفندق وخرج ليلتقي بحلمه.

أفضل اكتشافاته في اليومين الضائعين، معرفته أن نيويورك مدينة يسهل التنقّل فيها، شوارع كبيرة متوازية، تربط بينها، وتعبرها، شوارع أخرى. كلّ شيء مرقّم.

وبدأت رحلته:

هنا مشى محمود تيمور، هنا توقّف، هنا تناول طعام الغداء، هنا اخترق الشارع السادس إلى الخامس، هنا طوفان البشر، هنا الارتفاعات، اللوحات، المجلات. خذني أيها السائق إلى بارك أفينيو، هنا تلتقي نظراتك بنظرات فتاة فتبتسم لك، ما أسهل الابتسامة هنا، هنا دور السّينما، الأفلام الجديدة جدًّا، التي كان عليه أن ينتظرها شهورًا قبل أن تُعرَض في صالات عمّان، هنا فندق "ولدورف أستريا"، هل يضم حقًّا ثلاثة آلاف غرفة كما قال الدّليل لتيمور؟

"ليت فادية هنا".

تعب بشير، لكنه كان منتشيًا بكلّ شيء، كمن يمشي في حلم رائع. جلس في مقهى صادفه، اقترب منه النادل، سأله بلطف شديد عما يودّ أن يشرب:

- شاي.
- للأسف لا نقدم الشايّ، أنصحك بالكونياك.
- كونياك إذًا.
- "ولكن، هذه الطاولة مخصصة لستة أشخاص"، نبّهه النّادل.

نظر بشير حوله، كان مفتونًا بالمشهد، لو استبدَلها، سيخرج من حلمه. نظر إلى النّادل:

- لا بأس، أريد ستَّ كؤوس كونياك.

مضى النادل صوب الدّاخل مترنحًا، إذ يبدو أن تلك هي المرّة الأولى التي يصادف فيها شخصًا كهذا.

تأمله بشير عائدًا يحمل الكؤوس الستَّ، وأقسم لي في ما بعد: أنه كان على يقين من أن النادل تقدّم متأرجحًا وكـأنه احتسى الكؤوس التي أحضرها.

11

أوّل ما قرأته كان رواية آنا كارنينا، يقول بشير، ونشهد له بذلك، أعني ثلاثتنا: قاسم ونور، وأنا، ويضيف بفخر: لم أقبل في ما بعد كتابًا أقلّ من هذا المستوى. في بعض الأحيان كان يجاملنا بقراءة بعض صفحات من رواية أو كتاب، فقط، كي لا يُظهر أيّ ترفّع عن أقرب أصدقائه.

لم يكن يحبّ السّينما أكثر منّا، لكنه كان يرى أفلامًا أفضل. لن ننسى، نور وأنا، عندما أخطأت نور وسألت غودار عن فيلمه "رجل وامرأة"، الذي لم نكن رأيناه، ورآه بشير، وإذا كان صحيحًا أنه سيخرج الجزء الثاني قريبًا، كما قرأنا. التفتْنا يومها إلى بشير معتقدين أننا سألنا السؤال الأهم، فوجدناه يشدّ شَعره. لم نعرف سبب ذلك إلّا حين قال غودار بلطف شديد: "على أيّ حال الفيلم من إخراج صديقي كلود ليلوش، لكنني سعيد أنكم شاهدتموه، لأنني أعتبر أفلامي أفلامه، وأفلامه أفلامي، ومن يعرف؟ فقد يسمح لي بإخراج الجزء الثاني، وعندها ستكونون على حقّ".

- فضحتونا. ظلّ بشير يردّد لأسبوع.

***

أوّل شيء فعله بعد أن عاد إلى عمّان من السعودية، أن ذهب واشترى لأهله كلّ ما يلزمهم: ثلاجة، غسالة، فرن غاز، مقاعد وخزانة وتلفزيونًا جديدًا، وبعد أن تأكّد أنه أحضر لهم كلّ ما يلزمهم، مضى للبحث عن فادية، لم يجد لها أثرًا، إلى درجة اعتقد معها أنها لم تكن حقيقة، أنها حلم راوده في صحراء السعودية، فأذكّره بأنه حدّثني عنها قبل سفره إلى الصحراء، وأؤكد له أنني شاهِد على وجودها في هذا العالم، فيسألني:

- وهل رأيتها؟

أنفي ذلك، فيقول:

- "أرأيتَ إنها حلم"، ويعود للبحث عنها.

لم تسفر جولاته عن شيء، سوى العثور على صورة جماعية للطلبة، يظهر

فيها بشير، وتظهر فيها فتاة لفتتْ انتباهي كثيرًا..

كم تشبه نور.

كنتُ على وشك أن أقول له ذلك، لكنه سبقني ووضع يده على صورتها وقال: ها هي فادية، لم تكن حلمًا إذًا، معكَ حقّ.

من جديد بدأ بحثه عنها. لم يصل إلّا إلى إجابة راحت تتكرّر: "فادية الآن في باريس".

- هل تزوّجتْ؟

- ربما. لم يرها أحد منّا، أعني أصدقاءها، ولم تكتب لأحد.

***

اعتقدتُ أن احتمال وجود فادية في باريس، سيدفع بشير لتحويل مسار رحلته إليها. لم يفعل.

حلم بشير بنيويورك هزم حلمه بفادية.

"على يقين من أنني سأعثر عليها في مكان ما، ذات يوم"، كتب إليّ، لكنه ضعُف وقد بدأ الزمن يمرّ، فكتب إلى قاسم "ابحث لي عنها"؛ قاسم الذي عمل في وكالة الأنباء الكويتية، بعد تخرّجه، وادّخر ما يكفي لشراء تذكرة إلى حلمه، باريس؛ لقد عاش دائمًا للحلم نفسه الذي عاش من أجله بشير.

درس قاسم الأدب الفرنسي، إذ يبدو أن أعمال هوجو وزولا وكتابات هنري ميلر عن باريس، وأعمال سارتر وكامو كانت أجنحة حلمه أيضًا.

"إنني أبحث عنها، ولكن تذكّر أنني أبحث عن اسمها، اسمها فقط، ولو صادفتها في الشارع، أو جلستُ على بعد مترين منها، في مقهى، فلن أعرفها، فالاسم لا يكفي لتعرف إنسانًا أيّ إنسان، حتى لو كنت تعرفه فعلًا"، كتب قاسم لبشير الذي طلب منه العثور على فادية.

12

ثلاثتنا قرأنا غسان كنفاني، في الوقت نفسه تقريبًا، لكننا قرأناه في ثلاثة أماكن مختلفة، واحد قرأه في الكويت، قاسم، وواحد في السعودية، المنطقة الشرقية، مدينة الخُبَر، بشير، وواحد في عمّان، في معهد المعلمين، هو أنا، وإن كان من الصعب عليَّ أن أقول إنني قرأته حقًا في المعهد، لأنني لم أقرأ إلا بعض قصصه القصيرة. بعد عام سأقرأه في المكان الذي يكون فيه لكتب غسان مفعول مختلف؛ الصحراء أيضًا، ولكن في المنطقة الغربية من السعودية.

كلنا بُهرنا بغسان، إلى ذلك الحدّ الذي ترك فينا آثارًا متباينة جدًا: أحبّه بشير إلى درجة أنه قرر أن يواصل حياته قارئًا وحسب، ولم يمنع نفسه، وهو الرافض لأي إطار، من أن ينتمي إلى الجبهة الشعبية التي انتمى إليها غسان، لكن بشير، في ما بعد، راح يطرح عليّ بعضَ أفكاره المجنونة؛ أفكار روايات يكفي أحد فصولها لقتلي عشر مرّات. كان محبًّا للعالم وغاضبًا عليه، لأنه لن يستطيع أن يراه كلّه، هو الذي لا يستطيع أن يشبع حين يتعلّق الأمر بالجمال.

نهر الأفكار المتدفّق منه، جعلني على يقين من أن بشير لم يكن صادقًا معنا حينما تشبث بالقراءة كخيار، بل كان يخشى الكتابة نفسها. بعد سنوات سيصدق ظنّي وأنا أسمعه يبوح: "بالنسبة إليّ الكتابة معجزة، شكل من أشكال السِّحر، لا يجوز لنا أن نجرّحها بكتب أقلّ من عَظَمَتِها".

تلك كانت وجهة نظر نور إلى حدٍّ بعيد، وإن ادّعتْ أن ذاكرتها غير كافية لفرز ما قرأته وأحبته وأصبح جزءًا منها، عن أفكار ولِدتْ في داخلها وعاشتها.

بعد سنوات، سيتأكد لي أن الكتابة عندها، أيضًا، نمط من السِّحر، فذات يوم فاجأتني وقرصتْ يدي بصورة مباغتة، مؤلمة، سألتُها لماذا فعلتِ ذلك؟ فردّت: أريد أن أتأكد من أن الذي كتبَ هذا الكتاب الجميل، واحد مثلنا، يُمكن لمسه.

تلك كانت، ولم تزل أروع جملة مديح قيلتْ لي.

***

قاسم تفتّحتْ فيه مبكّرًا موهبة الناقد، ولم يمِلْ للكتابة، لأنه كما قال لي بعد عشرين سنة: هل لاحظت أن معظم الكتّاب يبدؤون حياتهم بكتابة تجاربهم أو جزءًا منها؟ حتى أنتَ. بالنسبة إليّ لستُ مستعدّا لأن أعيش في الكتابة، مرّة ثانية، ما عشته حقيقة. لماذا؟ لأنني لست من هواة التلذّذ بأحزان كان عليّ أن أفعل المستحيل للخروج من بحرها.

- اكتبْ عن أشياء لم تعشها إذًا.

- أن تكتب عن أشياء لم تعشها، أنت الذي عشتَ ما عشتَ، فمعنى ذلك أنك تخون حياتك التي جعلتكَ ما أنت عليه اليوم.

- حيّرتني.

- أترى؟ الكتابة مسألة معقّدة، النقد أقرب إليّ، يجعلني متأمِّلًا لكلّ ما يدور في رأسك ورؤوس زملائك الكتّاب في هذا العالم، ودعني أعترف؛ إنه متعة أيضًا، حيث يتيح لي النقد، كعاشق لكرة القدم، أن أجلس في مدرّجات كلِّ واحد منكم، وأرى أفكاركم تتصارع:

حين يحقق أحدكم هدفًا أفرح، وحين يُضيِّعه أحزن. بعضكم يقدّم مباراة ولا أجمل، وبعضكم يخذلنا. بعضكم يفاجئنا بما لم يخطر ببالنا، وبعضكم يلعب مباراة مثل مبارياته السابقة. بعضكم يفاجئنا بلاعبين كنّا نحسّ أنهم سيبقون خارج الملعب، مُهمَلين، فيُخْرِجُ المدربون، أي أنتم، أهم اللاعبين في فرقهم، ويدفعون بهؤلاء الثانويين إلى بؤرة الحدث فيُغيِّروا مسار اللعبة. بعضكم يغيّر أساليبه، وبعضكم يقلّد نفسه، وبعضكم يقلّد أسلوب الفريق الخصم في الملعب نفسه، أو خارجه. بعضكم يتسلل في اللحظة الخطأ خارج نصِّه، فيخسر هدفًا، بعضكم يبدأ رائعًا، ثم يأخذه التّعب في آخر الكتاب. بعضكم يرتبك في البداية، فيواصل ارتباكه حتى النهاية. بعضكم يدخل الملعب مغرورًا، واثقًا بإنجازاته السابقة، فيتحطّم. بعضكم جاء ليكسب، ويكسب إلى حين فعلًا. بعضكم يلعب بسلاسة ساحرة، وبعضكم يلعب بتبسيط قاتل. بعضكم يلعب بحنكة مركّبة، ولكنها ممتعة، وبعضكم يحاول

أن يفعل ذلك فيبدو مُلفّقا.

هل أنتقل إلى لاعبيكم؟ أعني شخصيات كتاباتكم: بعضهم تكون العلاقات بينهم وبين "زملائهم" في الملعب، أعني النصّ، مفككة، وغالبًا ما يكون هؤلاء مفككين على مستوى بنيتهم الفكّرية والنفسية. بعضهم يتسلل للعب دوْرٍ غير مُعَدٍّ له، فيتسبب بكارثة. بعضهم يتحلّى بحسّ عميق بالمسؤولية، يتألق، ولكن يترك الآخرين يتألقون. بعضهم أنانيّ، وبعضهم كريم معطاء. بعضهم متهوّر، وبعضهم يعرف أين يضع قدمه تمامًا. بعضهم تناحُري مع نفسه ومع الآخرين، من هم بجانبه، ومن هم في الجهة الأخرى من الملعب. بعضهم ثأري، عنيف حيث لا يستوجب العنف، وبعضهم دموي حقًّا، يلعب ليسحق. بعضهم يلعب ليسمو. بعضهم لا يعترف بجمال خصمه، لأنه يحسّ أن هذا الجمال كاشف لمواطن قبحه. بعضهم يلعب بشرف، وبعضهم يختلس كلّ فرصة سانحة ليحقق النصر بأي ثمن. بعضهم يدافع عن مستوى المحيطين به، وحقهم في النصر، وبعضهم يريد النصر كله له. بعضهم يعمل بجهد لأنه مؤمن بالعمل، وبعضهم لا يفكر في شيء مثلما يفكر في تحويل جهده إلى سلعة. بعضهم يلعب ليحصد ما أمامه، وبعضهم يتعلّم من كلّ نجاح يحققه منافسه. بعضهم يسعده أنه يسعدنا، نحن الذين نتابع أدقّ التفاصيل من خارج الملعب، وبعضهم يرى أنه أكبر من الملعب نفسه. بعضهم يعطيك طاقة إيجابية، وبعضهم يعطيك طاقة سلبية. بعضهم يعلّمك أن تكون إنسانًا، وبعضهم يوقظ أسوأ ما فيك من غرائز متوحشة. بعضهم يُبكيك فرحًا لفرط رقَّته، وبعضهم يبكيك ألما لفرط قسوته...

وهكذا أنتم، أعني الكتّاب، بعضكم ينسى أن الكتابة فن، كما هي كرة القدم فنّ، وبعضكم لا ينتبه إلى حقيقة أن الكرة ليست مجرّد شيء يتدحرج على أرضية الملعب، لذا، لا ينتبه إلى أن الكتابة ليست مجرّد كلمات تتوالى فوق الصفحات البيضاء. ويصمت قليلًا، ويسألني: هل أواصل؟

- لا، أظنّ أن هذا يكفي.

- بصراحة، أحسّ بأنني أستمتع أكثر حين أتفرّج عليكم، أكثر بكثير مما لو كنت منكم.

***

بالنسبة إليّ، كانت قراءة غسان أشبه ببوصلة أشارت عكس الصحراء التي كانت الملاريا تطحنني فيها، ولولا تجاربي السابقة في الكتابة، التي نمَتْ طوال سنوات وسنوات، لما تجرأتُ بعد قراءة غسان أن أكتب. لكن السبب الأكبر لاستمراري، في ظنّي، أنني كنت ملتصقًا بالكتابة إلى درجة أن أحدًا لا يستطيع أن يفصلني عنها، مثل توأم ملتصق، في انفصاله موتٌ مُحتّم.

13

لا أعرف متى يبدأ العُمْرُ بتغيير سرعتِه، هل من اللحظة التي نولد فيها؟ بالتأكيد، لكن إدراكنا لسرعته هي لحظة وجودنا الحقيقية، أو لعل ذلك إدراكنا لبداية رحلة غيابنا.

في الطفولة نستميت لنبدو أكبر، ونغضب حينما يُخطئ شخص ما، بعمرنا، فنصحّحه بغضب لأنه نسيَ سنة أو اثنتين، وربما نقاطعه، إذا نسي سنوات أكثر. هوس التّخفّف من الطفولة يسيطر على كلّ شيء فينا، ولكنه في الحقيقة هوس الوصول إلى ما هو أجمل منها: فتاة نحبّها، رجال يسمحون لنا بالجلوس معهم ونحن نتحسس شاربين من زغب، فنجان قهوة نشربه علنًا، بدل التسلّل لشرب ما تبقّى في الفناجين من قهوة، _القهوة بأسطورة غوايتها، وأعني قدرتها على إنبات الشّاربين بسرعة_ الجلوس في مقعد الحافلة بجانب الأمّ أو الأب، بدل الجلوس في حضن أحدهما والرّكاب يحدّقون إليك، باعتبارك الطفل الرّضيع.

أربعتنا عشنا ذلك، وكلّ لأسبابه. بالنسبة إليّ كان السبب الأقوى هو اللحاق بنور، تلك التي تركض بصباها، لصباها، مثل مُهْرة، أما بالنسبة لبشير فكان السّفر ورؤية العالم، أما قاسم فلكي يكون خارج وصاية جدته، ومِن بعدُ خارج وصاية عزلته.

ربما بدأنا نحسّ بسرعة العمر حين أنهينا تعليمنا، إذ انفتح أمامنا مضمار جديد علينا الرّكض فيه، أو زيادة سرعتنا للحاق بما حلمنا به.

بعد زمن طويل، حينما التقينا أربعتنا لأوّل مرّة، كنّا نحنُّ إلى طفولتنا أكثر من أيّ شيء آخر، لأننا لم نشبع منها؛ أصبحتْ أجمل من نيويورك لبشير، ومن باريس لقاسم، وربما، منّي لنور، ومن نور لي.

صحيح أن رسائلها القادمة من القاهرة لم تنقطع، ولم ينقطع انتظارها لكلّ جديد أكتبه، لكن المسافة التي بيننا بدت قاتلة. أخبرتها عن أوّل قراءة شعرية لي على المسرح، وأرسلتُ إليها قصيدة "العرض الثامن والعشرون" ولم أنس

الحديث عن أغنية "كبر الأمل يا بلادي" التي وجدتْ مكانًا جديدًا لها، مثاليًّا، في مسار مسرحية. وموقف أستاذ الموسيقى، وتقريعه لي؛ الموقف الذي أخبرتُ بشير بتفاصيله أيضًا، فكتبَ إليّ: أرأيت؟ ليس هناك معلّم يمكن أن يحبّ.

أخبرتْني نور أنها لن ترسل إليّ دفاتر جديدة، لأنها تعرف أن المرحلة صعبة الآن، "عليك أن تنجح في المعهد لنرى ما الذي سنفعله بعده". أخبرتْني أنها رغم ذلك، كلّما وجدتْ دفترًا جميلًا، ابتاعته، وأنها تدّخر عددًا من الدفاتر التي ستغريني بكتابة ملاحم.

مثل بندول السّاعة، تأرجحتُ في تلك الأيام، بين البيت والمعهد، مُفرغًا من الفرح، رغم أنني كنت أتقدّم في الكتابة، فالجلسات المستمرة مع الدكتور عبد الرحمن ياغي في بيته، فتَّحتِ الكثير من النوافذ في عقلي وهو يحدّثني عن الأدب وتنوّعه، ويبدي ملاحظاته الدقيقة حول كلّ كلمة أكتبها بلطف يجعلني أفرح لوجودي معه. لم يجرِّح قصيدة لي، بحيث أحسستُ لو أنه كان أستاذي منذ الطفولة لكنت الآن شاعرًا شاعرًا.

***

بعد عام من عودتي من الصحراء السعودية، سأخبر الدكتور ياغي أنّ نادي الوحدات يريدُ أن يقيم أمسية له، ليتحدّث فيها عن غسان كنفاني، تردّد في البداية، لكنه وافق، فأخبرته أنني سأقدّمه في الأمسية، فأعلن فرحًا عميقًا بذلك.

فوجئ بالحضور والتفاعل، فقد كانت المرّة الأولى، على ما يبدو، التي يُقدِّم فيها أمسية في مخيم، أما بالنسبة إليّ فأصبحتْ تلك المناسبة ثاني ظهور لي على المسرح.

بعد عام ستجمعنا ثانية أمسيةٌ شعرية في رابطة الكتاب الأردنيين، وأقرأ فيها قصيدة "الرحلة الثانية"، ويقدّم دراسة عنها.

قبل اللقاء، أمسك بيدي وسحبني، فتبعتُه إلى الشرفة، أخرجَ قصيدتي من ملف يحمله، وطلب منّي أن أقرأ وهو يشير إلى المكان.

قرأت:

ونسأل هل عذبوك طويلًا؟

تقول انظروا لجراحي تجيب.

- "هل تلاحظ خطأ هنا؟"، سألني.

- لا.

- عليك أن تقول "تُجِبْ" فهذا جواب الشَّرط، والأمر يتكرّر في بيت آخر، أشار إليه.

صححتُ الخطأين، وقرأت القصيدة وعلّق عليها بمحبة شديدة.

منذ ذلك اليوم لا أحبّ أولئك النقاد الذين يبحثون عن ضحايا لهم، بتصيُّدٍ مُرْعب، ضحايا من الكتّاب، أو ضحايا من النصوص.

***

ذات يوم كتبتْ لي نور، أنها تتحدّث باستمرار عنّي لزميل لها، وأنها تسمح له بقراءة أشعاري أولًا بأوّل، وأخبرتْني: "رغم دراسته للطب، فإنه أديب أيضًا، ويعتبر نفسه من سلالة الأطباء الأدباء، مثل إبراهيم ناجي صاحب قصيدة "الأطلال"، ويوسف إدريس صاحب "بيت من لحم" وتشيخوف أستاذ القصة القصيرة، و ...".

في البداية شعرتُ بالضيق، وكأنّ نور فتحتْ نافذتي المغلقة، تاركة لشخص لا أعرفه حرية التّلصص عليّ. ثم محوتُ ذلك الإحساس وأنا أذكّر نفسي بأنني إذا أصبحتُ كاتبًا، فإن أفضل ما يمكن أن يحدث لي، كما لكلّ كاتب، أن يقرأ أناس لا أعرفهم ما أكتب، بدل أن تظلّ تلك الكتابات في الدائرة الصغيرة للأصدقاء. لقد سبق لي أن قرأتُ لثلاث ليالٍ، على المسرح، قصيدة "العرض الثامن والعشرون" بحضور أناس لا أعرف إلّا القليل منهم.

فاجأتني نور بسؤال عن الطالبات، في ليالي قراءتي للشعر: "لا بدّ أن هناك واحدة جميلة من بينهنّ اختطفتْ قلبك؟"

سقط قلبي ما إن أتممتُ القراءة، وعندما أفقتُ من صدمة السؤال لم أجرؤ على الانحناء لالتقاط قلبي عن الأرض وإعادته إلى صدري.

جلستُ بجانبه. هذا كلّ ما استطعتُ القيام به، إذ خشيتُ إن ابتعدتُ عنه أن أموت.

***

"ما الذي أعنيه لكِ؟"، كتبتُ لها، ولم يتأخّر الرّد؛ تحدّثتْ في أشياء كثيرة،

عن القاهرة التي لم تعُد كذلك منذ رحيل أم كلثوم وفريد الأطرش، وتزايد حدّة مرض عبد الحليم حافظ، ودعت الله أن يطيل في عُمْر محمد عبد الوهاب، وبليغ حمدي الذي كان أقرب موسيقيٍّ إلى قلبها منذ أن لحن أغنية "ألف ليلة وليلة" لأم كلثوم، و "زي الهوا" لعبد الحليم.

حديثها ذاك عن الموسيقى والمغنين والملحّنين، استحضر أحزانًا ظننتُ أنني نسيتها، ويبدو أن نور تعمَّدت فعل ذلك قبل أن تجيب على سؤالي.

"أمّا الإجابة عن سؤالك، فأنت تعرفها: "حين أعرف ما تعنيه إليّ، سأخبرك، لذا، عليك أن تعيش الآن، ما لم أعشه أنا بعد: الحبّ؛ عليك أن تحبّ. مَن يقُلْ لك إن الحبَّ في الأغاني أجمل منه في الواقع، فهو يكذب عليك. بصراحة، حاولتُ أن أحِبّ، فلم أستطع، بل الأدقّ: حاول بعض الشباب الرائعين، وأنت تعرف خفّة دم شباب مصر، حاولوا أن يوقعوني في الحبّ، لكنهم فشلوا. إن أحببتُ ستكون أوّل من يعرف، وإن أحببتَ أنت، فأرجو أن أكون أوّل من يعرف، اتّفقنا؟".

في ذلك اليوم كتبتُ لها أقصر رسالة أكتبها لها في حياتي: نور... انتظاري الصعب لكِ ثمن سعادتي حينما تَصِلين.

14

كانت "هالة" أجمل فتاة في المعهد، رغم أنها ليست من طالباته.

كلّ منّا أحبّها بطريقة ما، لكن أحدًا لم يجرؤ على أن يحلم بها.

أما بالنسبة للطالبات، فكانت أشبه بلعبة، بأوسع عينين خضراوين في الدّنيا. في ابتسامتها سحر قادر على الاستحواذ على الجميع، وفوق ذلك، كانت تستطيع الخروج من المعهد والعودة، في وقت لا تغادر فيه الطالبات أسواره إلّا مرّة في الأسبوع، مثلنا.

أن تكون هالة صديقةً قريبة لواحدة منهنَّ، فهذا امتياز، لذا، كنّا جميعًا نخشاها، ببساطة لأن آخر شيء يمكن أن يتخيّله أحدنا هو أن تكون حبيبته.

بالنسبة إليّ كانت المساحة التي تحتلّها نور، تُغلق نصفَ عينَيّ، كلّما صدف ولمحتُ هالة من بعيد، في باحة بيت أبيها الذي يعمل في المعهد، وفي أحيان كثيرة أراها يوم الخميس عند المغادرة، لقُرب بيتها من بوابة الخروج. إلّا أنني بدأت ألاحظ أنها تحرص على أن تكون هناك كلّ خميس.

لسبب ما ذات يوم، غادرتُ متأخّرًا، كنتُ الوحيد، على ما يبدو الذي بقي في المعهد إلى ذلك الوقت.

وجدتُها أيضًا هناك.

في طريقي إلى الباب لم أستطع منْع نفسي من أن أُدير رأسي وأنظر إليها.

الوصول إلى الشارع الرئيسي، للوصول إلى حافلة أو سيارة أجرة تقلّنا إلى عمّان، كان يحتِّم علينا أن نسير مائتي متر على الأقل. بعد خمسين مترًا سمعت صوتًا يناديني، صوتًا لم أسمعْه من قبل. التفتُّ، كانت هي. توقّفتُ مذهولًا، وصلتْ: هل تعرف أنك تأخّرتَ اليوم؟ هل تعرف أنك تركتني أنتظر كلّ هذا الوقت؟ هل تقصَّدتَ ذلك؟

كانت المرّة الأولى التي تُعنّفني فيها فتاة بهذا العُمْر.

مذهولا وقفتُ، لا أعرف ماذا أقول، في وقت كانت تواصل فيه النظر خلْفها خشية أن يأتي أحد، في ما بدا لي؛ مُدرِّس بسيارته، أو حارس البوابة.

- "لم أقصد أن أتأخّر"، أكدتُ لها، وكأنني أعتذر عن موعد متّفق عليه بيننا.

- لا تكرر ذلك في المرّة القادمة، إلا إذا كنّا متّفقين.

هززتُ رأسي موافقًا، ونظرتُ إليها، وكم هالني أن عينيها كانتا ممتلئتين بدمع عزيز يرفض أن يُذرَف.

- هل تعرف أنكَ أوّل شاعر حيّ أراه أمامي، في حياتي؟

- أنا؟

- وأسمعه أيضًا يُلقي قصيدة؟

- أنا؟

- قصيدتكَ التي قرأتَها على خشبة المسرح جميلة، واثقة من هذا، لأنني سمعتُها ثلاث مرّات، لا لأنك أوّل شاعر حيّ أراه، وكذلك الأغنية.

حشرتْ يدها في جيبها، أخرجتْ ورقة مطوية، ناولتْني إياها، رفعتُ رأسي ونظرتُ إلى بوابة المعهد، وضْعٌ آمن، أخذتُ الورقة.

- لا تتأخّر عليّ، إذا عدتَ غدًا، مساء الجمعة، فذلك أفضل من أن تعود صباح السبت، لا أريد أن أنتظرك أكثر، لأنني انتظرك دائمًا أكثر مما تتأخّر.

واستدارت عائدة.

في مكاني بقيتُ متجمِّدًا، إلى إن رأيتُها تستدير على بعد خطوات، وتقول لي:

- هيا، ماذا تنتظر؟ أنت تتأخّر عليّ منذ الآن. اذهب بسرعة لتعُدْ بسرعة.

***

في ذلك الخريف الحارّ، الذي أعقب صيفًا ملتهبًا لم يستطع التوقّف على بوابات أيلول، فتواصل اتقاد ناره إلى منتصف تشرين الثاني، نوفمبر، جلستُ على صخرة صغيرة تحت شجرة صنوبر، ما إن بلغت الشارع الرئيسي. بصعوبة استطعتُ إبعاد أصابعي المطبقة على الرّسالة، الرسالة التي لم أفكّر في وضعها داخل جيبي، حتى بعد أن سرتُ مائة وخمسين مترًا وأنا أحملها.

بوضوح، ودون أيّ ارتباك أخبرتْني أنني أعمى، فهي منذ أن سمعتْني أقرأ الشِّعر على خشبة المسرح قررتْ أنني أنا، لا غيري، من سيكون حبيبها، وأخبرتْني أنها مستاءة لأنني لم أكتب لها، بعْدُ، أيّ قصيدة، وأنها لا تستطيع أن

تسامحني على ذلك حتى لو لم أكن أعلم بأن بيننا علاقة حبّ.

وكتبتْ أنها مطمئنة رغم ذلك، لأن من يحبّ وطنه بهذه الطريقة الجميلة، سيحبّ حبيبته بطريقة لا تقلّ جمالًا، وطالبتْني بأن أُثبِتَ لها، منذ اليوم، أنني أرى، أنني رأيتها، وعن قرب، فبعد هذا اللقاء لستُ مضطرًا لأن أتخيّلها.

قبل نهاية الرسالة تراجعتْ نقمتُها، قليلًا، وهي تخبرني بأنها تتحمّل جزءًا من المسؤولية عن تأخُّرِ ميلاد هذا الحبّ، بسبب خوفها الذي كبّل قدميها، لكنه لم يُعْمِها.

واختتمت رسالتها: من الآن يمكنكَ أن ترتكب أخطاء كثيرة، سأسمح لكَ بذلك، على ألّا تبالغ باطمئنانكَ إلى سِعة قلبي، أما أن تتأخّر عنّي، فلن أسمح لك. هيا، انهض، فقد قرأتَ الرّسالة ثلاث مرّات حتى الآن، وعليكَ أن تذهب إلى البيت كي لا تتأخّر عودتك إليّ.

لكنني تأخّرتُ.

15

شيء ما، كرائحة وقتٍ جميل تسلّلَ مبتعدًا، باغتَني، بعد وصولي إلى ساحة نادي الوحدات، أنا الذي لم أعرف، أصلًا، كيف وصلتُ، لأن جسدي كان طوال الطريق خلْفي، في حين ظلتْ صورة نور تلوْح لي، فأراها في زجاج نافذة الحافلة، مكان صورتي، تموج في منعطف وتتّضح في امتداد.

هبوب هالة المفاجئ، أوّل هزّة كبيرة تحدث لي خارج حدود المخيم.

في المخيم عشتُ الأشياء بوضوحها، وحدودها، فدائمًا هناك حدّ، ودائمًا هناك مدى، مع أن علاقة أهلي بنور، وعلاقتي بأهلها، أمران فتحا حدودًا كثيرة ووسّعا أكثر من مدى في الجهات.

مُفاجِأةً بدت هالة، تجاوزتْ كلّ مغالاة الخيال، ليس خيالي وحسب، بل خيال طلاب السنتين الأولى والثانية في المعهد، وإلى ذلك خيال عدد كبير من الطالبات.

من عالم آخر أتتْ هالة، ومن جمال ربما لم نألفه، تحدّثتْ عنه أمهاتنا في مديحهنّ لفتاة ما، ليشجعن أحد أبنائهن على الزواج منها: رقيقة شفافة، ترى الماء وهو ينزل من فمها عبر رقبتها، عيناها واسعتان مثل فنجانَي قهوة، فمها مثل حبة الكرز، قامتها، يخزي العين، نخلة، صدرها مثل حبِّ الرّمان، شعرها مثل سهل من القمح، أصابعها...

هالة، استرقنا النّظر إليها، وهي تتمشّى قبيل المغيب جوار منزلها في المعهد، في المنطقة التي لا يُسمح لنا التجوّل فيها بعد انتهاء الدّروس. اتّفقنا أيامها على أنها الأجمل، لا لأننا جوعى إلى الجمال، ولا نطاله، بل لأن أيًّا من الذين وقعوا في حبّ واحدة من الزميلات، لم يجرؤ على أن يقول إن حبيبته أجمل منها.

أما أنا، في ذلك المساء، وقد خلّفتُ موقف الحافلات في ساحة النادي ورائي، فقد كنت على يقين من أن زملائي سيقتلونني، ما إن تتسرّب أخبار العلاقة بيني وبينها، أما إذا عرفوا أنني تهرّبتُ من حبّها، فإنهم سيمزقونني،

ويضعون كلّ قطعة من جسدي على جبل، وفي المقابل، لم يصعب عليَّ أن أتخيّل ما ستفعله نور بي لو وصل إليها الخبر، والأخبار دائمًا تصل، تتأخّر قليلًا أو كثيرًا، لكنها تجد طريقها بخفّة الرياح.

***

وكما لو أن الرياح غيّرت اتجاهها فجأة، داهمتْني رائحة خوف، راحت تزداد قوة، كلّما اقتربتُ من بيتنا. كأنّ نور عرفت بأمر الرّسالة، فطارت من القاهرة وسبقتْني إلى عتبة بابنا.

متأرجحًا بين فرح خفيٍّ، وخوف كبير، ومصير غامض، وحسّ لا يمكن أن أخفيه بالشّهوة، أنا الذي تسمّرتْ عيناي تراقبان شفتَي هالة وهما تتحركان، بحيث اختفى وجهها كلّه.

لم يسبق لي أن قبّلتُ أي فتاة، حتى نور، لم أُقبِّلها، هي التي قبّلتْني دائمًا على خدَّي، في لحظات فرحها بي.

لم أعرف إن كان عليَّ أن أتقدّم إلى البيت أمْ أعود إلى المعهد، أن أضحك أم أبكي.

مع اقترابي من البيت، لمحت جموعًا أمامه، نساء ورجالًا وأطفالًا.

اقتربتُ أكثر، مُسْرعًا، سمعتُ عويلًا، عويلًا مجروحًا، واقتربتُ أكثر، ففوجئتُ ببيتنا وقد غدا بركة من دمع.

وقفتُ في منتصف الشارع الترابي عمودًا من خوف، إلى أن أحسستُ بيد تجرّني، لم أعرف لمن تعود، وصوتًا مبحوحًا يهمسُ لي:

- البقية في حياتك، عمّتك ماتتْ منذ ساعة.

داهمني بردٌ شديدٌ.

بدأتُ أرتجف، كأنني محبوس في ثلاجة. ولولا دفء تلك اليد القابضة على ذراعي اليمنى لتجمّدتُ.

جنازة صغيرة؛

بعض الرّجال، في زمن لم تعد فيه هناك جنازات كبيرة، جنازات الشهداء. لم يعد موتنا يستحقّ أن يُحتفى به، وقد أصبح يوميًّا، عاديًّا؛ هذا ما سأكتب عنه ذات يوم، بعد أن سمعتُ أمّي تتحدّث عن حياة بلا طعم، وأشياء بلا

طعم، وموت بلا طعم الموت، ولا شيء يوضح معنى انعدام الحياة أدقُّ من تغيّر طعم كلّ شيء[17].

***

وتصاعد الحسُّ الشديد بالبرد وأنا أعبر العتبة، أفسح لي الرّجال والنساء الطريق كأنني قادم من وراء البحار للّحاق بالجنازة قبل موعد تحرُّكها بدقائق.

في ممرِّ العويل سرتُ، رأيتُ فدوى الصغيرة ممسكة بيد ابن عمّتي، فتوقّفتُ غير قادر على تحريك قدمَي، وثانية تقدَّمتْ يدٌ، يد أمّي، وجرَّتني إلى الدّاخل. سمعتُ صوتها الذي لم يعد صوتها يهمس لي: ودِّع عمَّتكَ.

للحظة اعتقدتُ أن جسد عمّتي الميتة ما زال دافئًا، سيذيب ثلجي. انحنيتُ وعانقتُها، فتجمدتُ أكثر. لوحًا ضخمًا من الثلج امتدّ جسدها.

بصعوبة أبعدتْني أمّيَ عنها، وقد التصقتُ بالجسد المسجّى فاقدًا حتى أنفاسي...

وحده، أعاد إليّ الحياة من جديد، صوتها الذي جاء من بعيد:

- إذا كنتَ تريد أخًا أو أختًا لكي تصبح، إضافة للشاعر، شيئًا آخر أيضًا، فقُل لي، سأنجبُ لكَ ما تريد.

بعد خروج المُعزِّين، مساء الخميس، استطعتُ الوصول إلى لساني،

---

[17] - كان للخبزِ طعمٌ، تقولُ/ وكان له قبلَ ذلكَ غيمٌ وكانت حقولْ /
كان لليومِ فجرٌ وكان مساءٌ/ وكانت له زهرةٌ تتفتَّحُ، عَبّادُ شمسٍ/ ونجمٌ يدلُّ الطريقَ إلى بيتنا ويُعيدُ المواشي لنا والخيولْ
كان للجار جارٌ/ وللضيف نارٌ/ وإذ يلتقي الغرباءُ تجيءُ القرى من بعيدٍ تفيضُ الحكاياتُ في ظلِّهم والحديثُ يطولْ
كان للعرسِ بهجتُه... والأغاني/ وللنّاي وقْعُ النّدى في المكانِ
وللموتِ... للموتِ حزنٌ عميقٌ ولا ينقضي هكذا كالثّواني.
تغيَّرَ طعمُ الزّمان هنا في أواخرِ روحي/ ولم يبقَ للأخضرِ الآن معنىً.../ كأنّ الذبولْ هنا في المياه/ فلا وصْلَ في الوصْلِ/ أو في الوصولْ
فماذا أقولْ؟

بصعوبة، فقلتُ:

- صباح السبت الماضي ذهبتُ إلى المعهد وهي في أفضل حال.

- "دائمًا تخدعنا أعيننا"، قالت أمّي وهي تسند ظهرها إلى الجدار، وتضيف: "شيء ما، غريب، حدث لعمّتك، بدأتْ تتحدّث عن زوجها كما لم تتحدّث عنه منذ استشهاده، وليلة الاثنين، عادتْ وتحدّثت عنه، وفي منتصف حديثها طلبتْ منّي بطانية، لأنها كما أخبرتْني تحسّ بالبرد، استغربتُ، لم أناقشها، ولم أقل لها "الدنيا موت حَرّ"، لكنني وأنا أغطيها، لمستُ يدها؛ ثلج؛ لم أخبرها بذلك كي لا تبردَ أكثر، وبعد ساعتين طلبتْ لحافًا لتنام، استغربتُ أكثر، وفي الليل وضعتُ لحافًا آخر فوقها، ورغمًا عنّي، وجدتُ يدي تمتدّ في الظلام إلى لحاف لأغطي به نفسي، أيضًا.

الغرفة كلّها أصبحت باردة. وهكذا، إلى أن وضعْنا فوقها خمسة لُحف في الليلة الماضية. وعند ظهر اليوم ...".

لم أنم، كأن عمتي التي غدتْ في القبر، تركتْ خلْفها قاتلها: البرْد.

وجدتُني أطلب من أمّي لحافًا.

خافتْ.

وطلبتُ لحافًا آخر، فخافتْ أكثر. رفعتْ طرف الأغطية ونامتْ بجانبي، وهي تحتضنني.

أوّل إنسان بكيتُ عليه في حياتي، عمّتي، وستمرُّ سنوات طويلة لن أبكي فيها على أحد، إلى أن راحت معاناة أبي -بعد عشرين سنة من موتها- تتصاعد مع الرّبو، بسبب غبار التبغ، أبي الذي لم يدخّن في حياته أبدًا، لكن التّبغ قتلَه. صحبْتُه إلى طبيب مختص، أجرى له أربعين تحليلًا باحثًا عن نبات ما، أو رائحة ما، تسبب له السّعال، ولم يجد. في ذلك اليوم، رأيتُ أبي مُستسلمًا لقَدَره، بعد أن قال له الطبيب: "تمنيتُ لو أن علاجكَ عندي"، لكنه وصفَ له دواء يهدئ من حِدّة السّعال كي لا تتفجّر رئتاه.

هبطنا درج العيادة في يوم خميس مُشرق، جميل، والهواء نقيٌّ كالبراءة.

لم يكن ذلك الطبيب، هو الطبيب الأوّل الذي يزوره، بل الطبيب الذي اعتبرَ أنه إن لم يجد عنده الدّواء، فلا دواء بعد ذلك.

- "كلّ الأشياء التي اعتقد الطبيب أنها سببتْ ليَ الرّبو، أعرف أنها لم تكن السبب، لكن الإنسان يشكُّ أحيانًا لأنه لا يحبّ أن يفقد الأمل. لم أكن أريد أن أصدِّق أن الغبار الذي تراكم في رئتَي، على مدى ثلاثين عاماً، لأمنحكم به حياة بلا جوع وبلا مذلة، كان طوال الوقت هو الموت". قال لي بمجرّد أن تحرَّكت الهوندا سفيك الصغيرة.

صباح السبت، بعد اثنتين وأربعين ساعة من خروجنا من عيادة الطبيب، مات.

***

كانت مفاجأتي كبيرة بموته، كما لو أنني لم أكن أعرف أنه مريض، كما لو أنه لم يبلغ الثامنة والستين من عمره، كما لو أنه كان طفلًا واختُطِف، أو ضيَّعَ طريقه إلى البيت، فأجلسُ مع أمّي على عتبة البيت في انتظار عودته، ذلك العامل الأنيق الذي كلّما تأمّلتُ صوره فوجئتُ بأناقته، بل وبجماله؛ ففي كثير من صوره بدا لي أنه يشبه إلى حدّ بعيد الممثل المصري رشدي أباظة، بشاربيه وبريق عينيه ولفتته وربطة عنقه الأشبه بنهرين؛ أبيض وأسود؛ يلتفّ الواحد منهما على الآخر برقه غير عادية.

كلّ شيء جميل تحقق في ما بعد في حياتي، تمنيتُ لو أنه كان حاضرًا ليشهده، ليفرح به؛ من جائزة نلتُها أو كتابِ كتبته، أو شقة استطعتُ امتلاكها بأعجوبة، وسكنتُها حتى اليوم.

أعرف أنني لم أدّخر جهدًا لمساعدته، ومساعدة الأسرة، في كلّ مرحلة من مراحل شقائها، إلى أن أصبح لها البيت الذي أصبح بيتها وبيت عشر من أخواتي وإخوتي، ومنهم مَن عمّروا شققهم فوقه في ما بعد. في الطفولة عملت بائعًا متجولًا لكلّ ما طاب طعمه وقلَّ سعره، في سوق الخضار حمّالًا، ، في الكسارات، في مقهى، في شركات توريد الخضار إلى الخليج التي كان العمل فيها يستمر 18 ساعة _أقسى تجارب طفولتي التي تحدثتُ عنها طويلًا في "طيور الحذر"_ وعملت في شركة التبغ والسجائر، خلال الصيف. كلّ رواتبي التي حصلتُ عليها لسنوات طويلة كنتُ أسلِّمها لأمّي، أولم تكن وزيرة المالية، ماليّتنا؟ وتوالت السنوات، وبصورة أو بأخرى أصبحتُ أب أخواتي وإخوتي، الذي عليه أن يقوم بدور رعايتهم وكأنهم أولاده، ورعاية

أولادهم وكأنهم أحفاده، لكنني بقيت أفتقد أبي، كان غيابه يتحوّل إلى حضور أقوى مع كلّ يوم يمرّ، إلى أن وجدتُ نفسي بعد ثلاث سنوات من رحيله أكتب ديوان "بسم الأم والابن" سيرة أمّي وسيرته، وما فعله موته بي وبها. هذا الديوان جزء لا ينفصل عن كلّ ما كُتِبَ هنا؛ فيه كانت أمّي تحكي، وأنا أحكي، وعذابنا الواحد يحكي:

كلّما حدثتنيَ عنه اكتشفتُ بلادًا بعيدةْ
كأنْ لم أكنْ قمحها ذات يوم ولم أطوها في قصيدةْ
كلّما حدَّثتنيَ عن شمسهِ
عن عصافيرَ تخفقُ في إسْمهِ
وعن رحمة اللـهِ تجري كما النَّهرِ في دمهِ
كلّما حدَّثتنيَ عن خوفهِ كجناحٍ علينا
وعن حُلْمهِ بصباح أليفٍ تناثرَ،
ندعوه، يأتي، كما الطّيرِ سعيًا إلينا
كلّما حدَّثتنيَ عن مطر يتدفّق كالماء في كلماتِهْ
وعن صوته وشموخ صلاتهْ
وعن زهوه آخر العمر سرًّا بأقمار أبنائه وبناتِهْ
كلّما حدَّثتنيَ عن ذلك البحرِ في صدرهِ
وعن عِـزَّةِ النّخل في فقرهِ
وعن حُلْمهِ بثلاثينَ حرْفًا يُـرَتِّـبُها
كي يُسطِّرَ أسماءنا مثلَ طفلٍ بدفترهِ
خلتُ أن أبي كانَ يكتبُ شِعراً
ولسنا سوى بعضِ أشعارِهِ

16

مرضتُ، باتَ الجميع متيقّنين أنني سألحق بعمّتي. لم يعد لحافٌ واحد يكفي، وفي الليل أرتجف، فترتجف الغرفة والمنزل. أمّي بكتْ بصمت، ليس أمامي، تخرج، وتعود دائمًا بعينين فارغتين.

إلى سلسلة من الإغفاءات، تحوّل نومي، وفي كلّ مرّة صحوتُ فيها، وجدتُ فدوى ساهرة قرب رأسي مثل ملاك ضائع لم يعثر بعد على طريقه إلى الجنّة.

تمتدّ يدها، وتمسح العرق عن جبيني، وأنا أتساءل: كيف تلتقي النار والثلج في جسد؟ هل العرق هو الثلج الذائب بفعل النار؟ لا أعرف.

أشار أحد جيراننا أن يتمّ استدعاء سيارة الإسعاف التابعة لوكالة الغوث. أمّي رفضتْ:

- لا أحد يعود من هناك حيًّا، بعد أن تأخذه هذه السيارة.

أخذوني إلى عيادة ممرض في شارع "اللّدّاوي"، ممرض شهير، نجاحاته في علاج مرضاه فاقت نجاحات الأطباء، وما يتقاضاه أقلّ منهم بكثير.

ومرَّ السبت. تبعثر الناس بعد العزاء، العزاء الذي انشغل فيه الناس بي، فللحيِّ الأولوية على الميت.

وخفتُ على فدوى، خفتُ أن يحدث لها شيء؛ في الليل أصحو على يدي تدفعها بعيدًا، أنتبه، أفتح عينَي، أجدها تقبّل يدي بحنان.

أعود للنوم، أهمس لنفسي: لن أموت ما دامتْ هنا بجانبي، حارستي، وأنام. أحلم أن نور جاءت من القاهرة، أفتح عينَيّ، ولا أجدها، أتذكّر رسالة هالة، عينيها الخضراوين، تحذيرها الحاسم كدعاء أمّ وهي تطلب منّي ألّا أتأخّر.

أنسى أين وضعتُ رسالتها، أتلفّتُ حولي في الغرفة باحثًا عن مكان ما أكون وضعتُها فيه، أتذكّر أنها لم تزل في جيبي، أمدّ يدي، ألمسها، ألمسها بطريقة مختلفة، لا كما ألمس أيّ ورقة، ففي داخل الرسائل، دائمًا، هناك بشرٌ

عليك أن تكون حذرًا وأنت تلمس كلماتهم، كي لا تجرّحهم، أو تُلحِق بهم ضررًا دون أن تنتبه.

غفوتُ ويدي في جيبي، وصحوتُ ويدي في جيبي.

تلفتُّ حولي، رأيتُ فدوى نائمة بلا غطاء، جميلة، تأكّد لي أنها ملاك، مطمئنة للمرّة الأولى منذ اشتعالي بثلج عمّتي، أو تجمّدي بنار غيابها، وسمعتُ صوت نور تتحدّث عن زميلها طالب الطبّ، الأديب الذي يقرأ قصائدي، وسؤالها عن زميلاتي، وعن واحدة جميلة من بينهنّ، لا بدّ أنها اختطفتْ قلبي.

ويدي على الرّسالة.

لم يلزمِ أمّي الكثير من الجهد لدفْعي للنهوض، فهناك أياد لا تُرَى، كثيرة، كانت تحثّني على أن أفعل.

الطريق إلى المعهد مفتوح في أيّ وقت، ما دام هناك سكَنٌ داخلي. إلّا أن أكثر الأشياء التي كنتُ بحاجة إليها، هي الشجاعة؛ كلّي خوف لأنني ذاهب للدفاع عن نفسي.

مسألة الدفاع عن النفس أقلقتني طوال طريقي إلى تلك البوابة الواسعة؛ لماذا أنا مضطر للدفاع. عمّتي ماتت، وهذا سبب سيُقنع الإدارة، فلماذا لا يُقنع هالة؟

كلّ ما بيني وبينها رسالة، حتى إنها لم تسمح لي، عمليًّا، أن أتكلّم، لم أسمع صوتي وهي بجانبي.

ارتديتُ قميصًا أسود، بنطالًا أسود، باحثًا كما يبدو عن لسان يتحدّث باسمي.

لم أجد لسانًا يعبّر عما فيّ أفصح من اللون الأسود.

***

قبل الوصول إلى رأس الشارع المؤدي إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون، أشرعتُ شبّاك الحافلة، حرارتي بدأت ترتفع، أرجعتُ ذلك إلى اللون الأسود. واقتربتِ الحافلة أكثر، شاقّة طريقها إلى الغرب. قلتُ إنها الشمس، هي السبب، مع أن قليلًا من ضوئها تسلل إليّ، من الجهة الشرقية الجنوبية.

لو أستطيع فتح شبابيك الحافلة كلها، بابيْها، كما أفتح أزرار قميصي.

إلى الباب تقدّمتُ، إلى يميني أشجار سرْو عالية، تقيْني الشمس. حرارتي ترتفع أكثر، تذيب الشارع نفسه.

وصلتُ...

اتصل حارس البوابة وأخبر الإدارة بقدومي، إذ لا يجوز أن أدخل دون علْمها، فها أنا آتي في وقت لا يخرج فيه الطلاب من المعهد إلّا بإذن، ولا يدخلون إلّا بإذن.

وانتظرتُ.

عينَاي على شباك آخر، خائفًا أن يتحرك خلف ستارته الشّفيفة ظلّ، أيّ ظلّ.

وطال الانتظار، لم يكن هناك من يُجيب. أدركتُ أنني سأتحوّل إلى بركة عرَق صغيرة.

سمعتُ سيارة تاكسي تتوقّف أمام الباب، في الخارج، لاحظها الحارس. عليه أن يتأكد ممّن في داخلها، وما إذا كان مسموحًا له بالدّخول. أطلّتْ من النافذة، نتالي، شقيقة هالة، تبتسم للحارس، رأتْني، انكمشت ابتسامتُها، بل تحوّلت إلى غضب؛ نتالي التي أطلق عليها والدها هذا الاسم لفرط إعجابه بالممثلة نتالي وود، كما سأعرف، وعندما كبرتْ، تبين أنها نسخة عنها.

قالت لي هالة في ما بعد: لم تكن تشبه أي امرأة في العائلة، لذا، ما زلنا نتساءل: هل احتلّ اسمُ أختي جسدَ نتالي وود، أم أن جسدَ نتالي وود احتلّ اسمَ أختي؟ وكأن نتالي هوليوود في البعيد أرادت أن تحقق نبوءة هالة، فاختفت من العالم بعد سنوات قليلة، تاركة جمالها كلّه لنتالي عمّان.

على بعد خمسين مترًا توقّف التاكسي، ترجّلتْ نتالي منه بسرعة. ألقتْ نظرة نحوي، كما لو أنها تريد أن تتأكّد من أنني لم أختفِ. دخلتْ بسرعة، وبعد ثوانٍ قليلة ظهرت هالة أمام المنزل.

سقط قلبي.

لم أعرف ما الذي يحدث لي، وفيّ.

اتصل الحارس ثالثة أو رابعة بمكتب الإدارة، وتكلّم أخيرًا مع الطرف الثاني، قال لي:

- إنهم ينتظرونكَ الآن.

وأشار بيده أن أدخل.

للحظة تمنيتُ لو أنه أعادني، ذلك أفضل، لو قال لي: "عُد في بداية الأسبوع المقبل". ذلك سيكفي لأن أفكّر في ما يمكن أن أقوله لهالة، أو لعلّها تنساني وتنسى الرّسالة.

هدوءُ منطقة المسرح والسّاحة الملاصقة له، وصمت باحات بيوت الإداريين، في الساعة الثالثة، وحرارة الظهيرة التي لم تُبدِّد برْدي، كانت كلها ملائمة لأن أجد نفسي وجهًا لوجه مع هالة دون عواقب.

استدارتْ حول البيت كأنها تتفقّده، فلم يعد باستطاعتي أن أراها، أو يراها الحارس.

وصلتُ بوابةَ المسرح، الدرج الملاصقَ لبوابته الشّرقية، فسمعتُ صوتها غاضبًا. قريبة كانت:

- تأخّرتَ.

استدرتُ؛ لم أكن بحاجة لأن أشرح لها، فشحوبي، وعيناي المطفأتان، وانعكاس اللون الأسود على وجهي، والأسود ذاته، دفعاها لأن تهمس برعب:

- شو صار لك؟

- توفيت عمّتي.

تجمّدتْ مكانها، ورأيت لأوّل مرّة كيف يتجمّع الدّمع في عينين خضراوين واسعتين، وينحدر.

استدرتُ وواصلتُ هبوط الدّرجات.

ترددتْ كلمات العزاء كثيرًا ما إن انتشر الخبر في المسكن وغرف التدريس، وتكرّر السؤال عن عمْر عمّتي، وعلاقتي بها، واستغرب بعض زملائي ارتدائي للأسود.

كان يمكن أن أُسرِّب لزميل أثق به، ما باتَ يملأ قلبي ويفيض؛ حكايتي مع هالة؛ "صُبحي"، مثلًا، الذي بات الأقرب إليّ، أو أن أبدو مزهوًّا وأنا أحدِّثه عن رسالتها، وما حدث بيننا بعد ظهر الخميس.

لم أستطع.

في اليوم التالي، تعمدتْ هالة الظهور بطريقة غير مألوفة من قبل، بدءًا من الواحدة من بعد الظهر، الطلاب يروحون ويجيئون، وأعينهم ترى كلّ شيء عبر شبابيك الغرف الدراسية الواسعة المطلّة على باحة وقوف السيارات.

في ذلك اليوم أعلنتْ، بنفسها، حبَّها لي، بارتدائها السّواد.

17

فاتنة أكثر من أي يوم مضى؛ ملأت عينَي، عينَي وحدي، إذ لم يعد، بالنسبة إليّ، أي وجود للآخرين هناك، لا لشيء، إلّا لأنها لم ترَ غيري. وتحوّلت الهمسات إلى رائحة أخّاذة، تتنقل بين أجنحة الطالبات والطلاب، دراسةً وسَكنًا، ووجدتُ أن عليّ أن أوقف الهمس لئلّا يتحوّل إلى كلام. خلعتُ الأسود في اليوم الثالث، وإذا بي أشعل المعهد من جديد دون أن أدري.

اختفتْ ثياب هالة السّوداء، وارتدتْ فستانًا أزرق، سماويًّا، بلون قميصي وبنطالي الجينز ذي السّاقين العريضتين، فتحوّل الهمس إلى كلام.

أغرب ما في هالة، هو ذلك الفرح الطاغي الذي راح يدفعها أمامه بكلّ ما فيه من قوة لكي تكشف سرّنا بكلّ الطرُق المتاحة، وغير المتاحة، كما لو أن علاقة كهذه يجب أن تعرف بها البشرية كلّها؛ العدوّ قبل الصديق، والأهل وإدارة المعهد قبل الطالبات والطلاب، حتى بعد أن أبصرت بنفسها، بسبب علاقتنا، فوهة مسدس أحد أقاربها، العاشق لها، ملتصقة بجبيني. هل كان الأمل سبب ذلك، الجنون، ضيْق الجسد على الروح، أم الخوف من ألّا يُكتب لعلاقتنا النّجاح؟ لم أسألها، لأنني أدركتُ أنها لا تستطيع الإجابة عن سؤال كهذا.

***

صُبحي، أقرب أصدقائي، الذي يسكن في "مخيم الحسين"، كان بالتأكيد أكثر شباب المعهد تجربة، وخبرة على المستوى العاطفي. وسامته وروحه الجميلة وجرأتُه كانت تفتح له الأبواب كلّها، باب الحبّ، وباب الدراسة، وباب الموت في ما بعد.

أمسكني صبحي من يدي، وأخذني جانبًا: لن أسألكَ ما الذي يحدث بينك وبين هالة، فكلّنا نعرف، ولكن كيف حدث هذا؟ متى؟ وكيف لا أعرف؟ كيف تَقبل أن أعرف بعلاقتك منها، لا منكَ؟

فوجئتُ بسؤاله الأخير: هل أخبرتْكَ؟

- طبعًا أخبرتْني، أخبرتِ المعهد كلّه، بحِدادِها وبفساتينها التي بلون قمصانك، فالفتاة مجنونة بكَ، لدرجة أنها تريد أن تخبر البشر كلّهم. ثمّ أين موقع نور في كلّ هذا؟ هل تبخّرتْ.

كنت على وشك أن أنفي، ولكن ورودَ اسم نور أربكني.

- هي التي فاجأتْني، أعني هالة، بالنسبة إليّ أنتَ تعرف، أنا لم أحاول أبدًا، في الوقت الذي كان فيه الطلاب يحاولون، لا الوصول إليها فحسب، بل إلى كلمة واحدة تخاطب بها أحدهم.

حدّثته عن كلّ شيء، كيف تبعتْني، كيف أعطتْني الرسالة، كيف أوصتْني ألّا أتأخّر، وتأخّرتُ.

- ونور، هل ستخبرها؟

كرهتُ نفسي وكرهتُ صُبحي في ذلك المساء، إصراره على أن يذكِّرني بمن لم أنْسَ، ولن أنسى.

- لم يحدث أي شيء لأخبرها به. هالة تقول إنها تحبّني، وأنا لم أقل لهالة إنني أحبها، فبماذا أخبر نور؟

- تضحكُ عليّ أمْ تضحكُ على نفسك؟ أم تظنّ أنّ أحدًا يمكن أن يصدّق أنّ هناك رجلًا يمكن أن يقول لواحدة مثل هالة "لا"؟ منذ عام ونصف لم تُعِرْ أفضلنا انتباهًا، وإذا تذكرتَ طلبة السنة الثانية الذين تخرّجوا، ستتأكدُ من أن أحدًا منهم لم يجرؤ أن يدعي أنها رأتْه، وهم يقولون الشيء نفسه عن فوج الطلبة الذي سبقهم. هذا شيء يحدث للمرّة الأولى، وأنا أؤكّد لكَ أن كلّ طالب في المعهد على استعداد لأن يقتلكَ، إذا قلتَ لها "لا"، أو أحسّ بأن له فرصة ضئيلة ليحتلّ مكانك، وأنا منهم.

- هل تعني؟

- أنا لا أعني، أنا أصرخ، ما دُمْنا نتحدّث عن هالة.

لم يكن باستطاعتي التّسلّل في نهاية الأسبوع عائدًا إلى البيت. أقنعتُ نفسي بأن من حقّ هالة، التي أعلنتْ ذلك الحزن كلّه، أن تُعبِّر عنه بكلمات عزاء تقولها لي وجهًا لوجه.

صُبحي دفع بهذا الاتجاه، ولعل سبب استماتته، هو أنه يريد معرفة ما

سيحدث بعد الرّسالة الأولى.

تأخّرتُ، مخترعًا أسبابًا لكلّ من يدعوني للسَّير معه إلى بوابة الخروج، فالشارع.

يقين خسارتهم جميعًا لهالة، جعلهم ينتقلون إلى الخيار الثاني: أختها نتالي، فلعل حبًّا آخر يولد؛ وكأن الزميل الذي سيسير معي، هو من سيملك فرصة الوصول إلى قلب الأخت أكثر من سواه.

***

وكما حدثَ في المرّة الأولى، تبعتْني. لم تكن هذه المرّة مضطرة للنداء، كنتُ أسمعها قبل أن تفعل، ولم تكن مضطرّة للسير بخطوات سريعة، كنت أنتظرها، أنا الذي لم أتوقّف عن المشي.

سمعتُ خطاها خلْفي، اقتربتُ من الأشجار إلى يساريَ أكثر، ليصعب على حارس البوابة أن يراني، وتوقّفتْ. قلبي ينبض بشدّة، خوفًا، أكثر منه حبًّا.

استدرتُ، فاجأتْني بشعرها الأشقر الناعم الطويل، بعينيها الخضراوين، شفتيها الحمراوين المكتنزتين، وغمازتيها العذبتين.

بصعوبة التقطتُ أنفاسي، وهي تنطق تلك الجملة التقليدية التي تقال في مناسبات العزاء، الجملة المؤثرة جدًا: العُمر لكَ.

- والعُمر لكِ.

- معكَ، معكَ وحدكَ سيكون للعمر الذي تتمناه لي معنى، بودي أن أحضنك الآن، وأُقبّل عينيكَ، لكننا كما تعرف في الشارع، وكلّ الشوارع ظالمة هنا، حين يتعلق الأمر بقُبلة أو احتضان. لكنني لن أنسى أن لك عندي قُبلة واحتضانًا، سأخبئها لكَ. هل تسمح لي بالسّير معك حتى الشارع الرئيسي؟

تزايد خوفي، لكنني أشرتُ لها أن نتحرّك.

لم أتحدَّث كثيرًا، وحسنًا أنها تفهّمتْ ذلك، مُعيدةً السبب لحزني، ربما.

بعد دقائق نظرتُ إليها، كانت تسير ثملةً، ممتلئةً بفرح لم أرَه من قبل.

تشجعتْ، وقد التقتْ أعيننا:

- كنتَ تحبّها، واضح ذلك، فالرّجال لا يرتدون الأسود غالبًا.

مثل نهر تدفقتُ، أريد أن أقول لها كلّ شيء عن عمّتي، عن شتاءات كنّا سنموت فيها لو لم تكن بجانبنا، عن حبها للمصريّ، استشهاده، وعن موتها بَرْدًا، وكيف أوشكتُ أن أموت بردًا أيضًا.

- لولا أننا وصلنا إلى الشارع لاحتضنتكَ، تأكّد أن البرْد لن يمسّكَ بسوء ما دمتَ معي.

وامتدّت يدها إلى جيب فستانها، أخرجتْ رسالة، ما إن لمستُها، حتى تأكّد لي أنها ثلاثة أضعاف الرسالة الأولى.

- كتبتُ لكَ الكثير، أطول رسالة أكتبها في حياتي، أتعرف لماذا؟ لكي تُمضي الإجازة كلّها وأنت تقرأها، أتعرف لماذا؟ حتى لا تنساني لحظة.

18

أمضيتُ عطلة الأسبوع باحثًا عن كلمات أكتبها لنور.

رسالة هالة انتهتْ في أقلّ من ربع ساعة، لكن صداها استمرّ طويلًا، حتى بعد عودتي إلى المعهد.

أخبرتُ نور بكلّ شيء، بعاصفة هالة، لكنني لم أُشِرْ إلى جمالها؛ قدّمتُ تقريرًا عن نفسي لا يستطيع أن يكتبه أيّ مخبر، مهما بالغ في إخلاصه لدائرة الاستخبارات التي يعمل فيها.

وانتظرتُ.

***

أخبار حكاية الحبّ كانت تتنقّل بسهولةِ تنقُّل الطيور بين جناح الطالبات وجناح الطلاب اللذين يفصل بينهما سور بارتفاع لا يتجاوز ثلاثة أمتار، ولا يزيد سُمْكه على خمسة وعشرين سنتمترًا.

ووصلت الأخبار إلى بيوت الإداريين، لتنتقل إلى المعلمات والمعلمين.

أما أنا وهالة، فكنّا نسير ونتنقّل في المعهد كآخر من يعلَم، وباستثناء أختيها، نتالي، وسوزان، فإن أسرتها بدتْ غير موجودة؛ لم يجرؤ أحد، من قريب أو بعيد أن يُعلِم الأب أو الأمّ، فهذه واحدة من الأشياء المحْرِجة، التي لا بدّ أن يعرفها الإنسان بنفسه.

***

معلِّمتنا هيفاء، طلبتْ مني أن أكتبَ مسرحية، كان رأيها: ما دمتَ كتبتَ أغنية جميلةً، وقصيدة جميلة، وقدمتَها على مسرح فوق خشبته ولِدتَ شاعرًا، فإنني أكلّفكَ بكتابة مسرحية عن المخيم، نشأتِه، فلقد رأيتَ كلّ شيء.

بدأتُ الكتابة فورًا. فوجئتُ أنني أكتبُ بسرعة لم أتوقّعها، وكأن الوصول إلى نهاية المسرحية، النهاية التي لم أكن أعرفها، سيجعلني أعرف تاريخ عودتنا إلى فلسطين، وحلَّ لغز حكايتي مع هالة ونور، دفعة واحدة.

أنهيتُ الفصل الأول، أعدتُ قراءته، دققتُهُ، وسلَّمته إلى معلّمتي التي

فوجئتْ بسرعة الإنجاز.

- لن أقول لك شيئًا قبل أن أقرأ الفصل. عُد بعد ساعتين.

أغلقتِ الباب خلْفي، وسمعتُ المفتاح يدور في القفل.

ما فعلتْه أراحني كثيرًا.

بعد ساعة جاء أحد العاملين في المعهد إلى قاعة التدريس، وطلب الإذن من أستاذ مادة علم النّفس، يوسف قطامي، أن يسمح لي بالذّهاب إلى الإدارة لأمر مُستعجل.

طرقتُ باب مكتب الأستاذة هيفاء بخوف، فأن تستدعيني على عجل فمعنى ذلك أنها لم تُكمل قراءة النصّ.

بانفعال أعلنتْ لي حبها لما كتبتُ، ولعلها بالغتْ: "في رأيي، هذه أفضل بكثير من مسرحية خوازيق. كيفَ استطعت كتابتَها، وبهذه السّرعة؟"، أوشكتُ أن أقول لها: "لأهرب مما ستؤول إليه علاقتي بهالة ونور، وربما لأعرف تاريخ العودة الذي لا يعرفه أحد".

- إذا سلّمتني الفصلين التاليين بالسرعة نفسها، ستتيحُ لنا مزيدًا من الوقت لكي نتدرب أكثر، وبالتالي لنقدّمها على المسرح بأفضل مستوى. هل تتوقّع أن تكون هناك أغنية أيضًا في المسرحية، أو أكثر؟

- لا أعرف، في الفصل الأوّل لم أعثر على مكان لها، ربما في المنتصف، النهاية، لا أعرف، أظنّ أن أيّ طلب الآن، سيربكني.

لم تُظهِرِ الأستاذة هيفاء أيّ غضب بسبب ما قلت، بل قالت جملة غامضة، كنت سأحبها أكثر لو أن علاقتي بهالة لم تكن معروفة: في الحب لا تستطيع أن تُغيِّر مسار القلب بالقوة، وفي الكتابة أيضًا، وإلا ستفشَل عاشقًا وتفشَل كاتبًا.

رغم ذلك، كتبتُ الجملة ما إن خرجتُ، وها أنا أضعها كما قالتْها بالضبط هنا بعد كلّ تلك السنوات.

أمضيتُ الأيام التالية وأنا على يقين من أن نور ستسبقني، وستصل رسالتُها إلى بيتنا، قبل أن أصله، وهذا ما حدث:

"هذه فتاة تشبهني، إياك أن تخسرها، لذا، اِسمحْ لي أن أوصي قلبكَ، ولعله

يسمعني من هنا، أن يُفسح لها مساحة رحبةً فيه".

هكذا استهلّتْ رسالتها، قبل أن تكتب أي شيء، قبل أن تخاطبني باسمي.

***

في انتظار رسالة نور، كنّا استرقْنا مشاوير كثيرة حول المعهد، أما بعد الرّسالة، فقد توّجنا لقاءاتنا المسروقة بالذّهاب لحضور فيلم في سينما الرينبو، السّينما المفضلة لدى بشير وصديقته فادية، ولا أعرف حتى اليوم لماذا كانت هذه السّينما مفضلة، بشكل خاص للعشّاق، دون سواها، بل إنني سأكتب بعد هذا عن بطل رواية لي اصطحب صديقته إلى هذه السّينما، وحدثَ معه، للمصادفة، ما حدث معي تمامًا.

لم أعرف اسم الفيلم، لذا لا أتذكّره، لا أتذكر أي حدثٍ فيه، أو مَن البطلة، البطل، لا شيء. أمضينا الفيلم يقظَين، خائفَين من أن يفاجئنا ضوء كشاف عامل السّينما الذي لا يكفّ عن إزعاج الجمهور، وهو يهمس بطريقة مكبوتة: "ببسي، ببسي، بُشَار، بُشَار"، وهو يضاعفُ عمله، عادةً، في تلك المناطق التي جلس فيها شاب وفتاة معًا، لأغراض رقابية تتجاوز مسألتَي البيع والشراء.

رغم ذلك، استطاع كلّ من اشترى تذكرتين لحضور فيلم ما، بهدف الحصول على قُبْلة، الوصول إلى تلك القُبلة التي تسبقها ملامسة الأصابع، عن غير قصد، لتنتهي عن قصد، ويُتوَّج الفيلم لا بقُبلة البطَلين على الشاشة، بل بقبلتِهما في الصالة المعتمة، وتلك بالتأكيد، ليست النهاية السعيدة المعتادة، بل سعادة السعادة.

***

كنوع من الإخلاص لنور، الذي أقنعتُ نفسي أنني أمارسه، تركتُ لهالة المجال لتتحرّك على راحتها، بأيّ مستوى جرأة تريد، وأرجو منها ألّا تغضب عند قراءتها لهذا الكلام الآن، وألّا تعتبر أنني كنتُ محايدًا، فما حدث من أشياء جميلة في تلك العتمة، أضاء لي عالـمًا لم أكن أتخيّله حين تُوِّج بأوّل قُبلة في حياتي.

بعد الفيلم حدثت أشياء كثيرة، ولكنني سأكتفي بهذا، كي لا أبدو مُقلّدًا لبطل روايتي تلك التي مرتْ سنوات على كتابتي لها.

***

لم أعرف ما الذي يمكن أن أكتبه لنور، بعدَ السّينما، وفي الوقت نفسه، لم أكن قادرًا على ألّا أكتب لها، أنا الذي انتظرتُ بلهفة رسالتها السابقة التي دفعتني فيها للوقوع في حبّ هالة بكامل حريّتي.

قبل أن أرسل رسالتي، وصلتْني رسالة أخرى منها، تسأل عن مسرحيتي، وأين وصلتْ، وكتابتي. الجملة الوحيدة التي حملتْ أكثر من معنى: "أرجو أن ترقّ قصائدُكَ أكثر، ففي عالم تزداد قسوتُه، نحن بحاجة لشيء دافئ يجعلنا نحسّ أننا لم نزل، بعدُ، على قيد الحياة. حين ألقاك أريدك أن تكون أكثر حياة مما كنتَ قبل أن أسافر، ولأنني سأتأخّر في العودة، للأسباب التي تعرفها، فإنني أريد أن أراك، حينما نلتقي، أكثر كائن حيٍّ في الوجود... تلكَ وصيّتي".

***

لم تطلبْني إدارة المعهد للحديث معي في أمر الحبّ الأوضح من حَبَل، ولم أُبدِ اهتمامًا بالاهتمام المبالغ فيه من طالبات بِتْنَ يتقرَّبن إليّ، فأن تخطفني واحدة من هالة، فهذا يعني أنها ستُحقق إنجازًا غير مسبوق، بلغة المباريات.

أسوأ ما كان يقلقني، ويمهّد الطريق لأخطاء كثيرة، هو الزّمن، الذي لم يكن قد تبقّى لنا منه الكثير، فبعد أشهر يكون التّخرّج.

هالة راقبتْ، مثلي، برعب كلّ ثانية تمرّ، ففي النهاية، سأُغادر بوابة المعهد وستبقى داخل أسواره. كتبتْ إليّ: "أحسّ أن كلّ ما أملكه من حياة هو الأسابيع المتبقّية لكَ في هذا المعهد".

أرادتْ أن تراني أكثر، أن تحبّني أكثر، وأردتُ، لكنني طلبتُ منها أن نكون أكثر حرصًا، فقالت لي بانفعال شديد: "أريد فضيحة، إذا كانت الفضيحة هي ما سيجمعُنا، معًا، إلى الأبد".

ودون أن أدري، أصبحتْ قصائدي أرقّ، بل كتبتُ لغيري عشرات القصائد التي قدّموها إلى حبيباتهم باعتبارهم كتّابها؛ كتبتها بحرارة شديدة. ويمكنني أن أعترف هنا أنها كُتِبتْ كلّها لهالة، التي لم أكتب لها إلّا بعد سنوات، ديوانًا كاملًا، تحيّة لها.

لكن هالة ستُخبرني ذات يوم أنني إنسان ممتلئ بالمشاعر، ولكنني من ذلك

النمط الذي لا يستطيع البوح بما في داخله بسهولة: "ربما تحتَ التعذيب ستعترف كم تحبني"، وضحكتْ كثيرًا لنكتتها.

- أعرف أنني لم أكتب لكِ أيّ قصيدة قبل هذا الديوان.

- لماذا تكذب؟

- فعلًا لا أكذب.

- أنتَ كتبتَ لي الكثير، الكثير جدًا وقد قرأته. كلّ قصيدة كتبتَها لحبيبات أصدقائكَ، وقُدِّمتْ إليهنّ، لم يكن أصدقاؤك وحبيباتهم أكثر من سعاة بريد لإيصال قصائدك إليّ. كلّ تلك القصائد قرأتُها، وأحبّ أن أقول لك، استنسختها، وهي لدي. كنتَ تتحدّث فيها عن امرأة واحدة، هي أنا، لذا لا تكذب عليّ؛ ولو لم تكن هذه القصائد لي وحدي، لطلبتُ منك أن تقرأها الآن، كما تقرأ قصائدك على المسرح.

19

بكيتُ كثيرًا خلال مشاهدتي لمسرحيتي التي كتبتُها؛ غريب هذا، فأنت تعرف الأحداث، تعرفُ أنك الذي ألّفها، تعرف الشّخصيات، تعرف متى سيضحكون ومتى سيبكون، متى يولدون، ومتى يموتون، وتبكي عليهم، هم الذين ما إن يعتلوا خشبة المسرح وتبدأ معاناتهم، حتى تتحوّل إلى مُشاهِدٍ ناقم بسبب معاناتهم، أو فرِح بأفراحهم.

لم أبكِ وحدي لحسن الحظّ، بكى كلّ من يملك قلبًا رقيقًا في ذلك اليوم: هالة بكت مرتين، أو بكاء مضاعفًا، كما أخبرتني؛ الأوّل لأن المسرحية مؤثرة والثاني لأنني نجحتُ في كتابة مسرحية مؤثرة.

من تلك المسرحية، لا أملك سوى الفصل الثالث، الذي نسخته خلال انشغالهم بالعمل على الفصلين الأوّل والثاني.

سأقابل الأستاذة هيفاء بعد ثلاثة أعوام في رابطة الكتاب الأردنيين، وأسألها عن نصِّ المسرحية. اعتذرتْ لي، وقالت: "أنت تعرف، تلك المسرحية لم نعرضها فقط، بل أكلناها لفرط ما أحببناها". ونصحتْني أن التقي الطالب الذي لعب الدوّر الرئيس فيها، ومدحتْ ذاكرته كثيرًا، إلّا أنني لسبب ما لم أفعل، ولم أفهم ذلك، إلى أن اكتشفتُ أنني كنتُ أريد أن أنسى المسرحية، لكتابة رواية تتناول تلك المرحلة، لكن ذلك لم يحدث إلّا بعد ثلاثة عشر عامًا.

***

الغريب، الذي لا بدّ من الإشارة إليه هنا، هو أن آخر ثلاث دفعات تخرّجت من المعهد، وذلك يشمل طلاب السنة الأولى الذين تخرجوا بعدنا بعام، كانت من أكثر الدفعات عطاء على المستوى الإبداعي، إذ ظهرت أسماء أدبية، خلال تلك السنوات، أو بعدها، بطريقة مدهشة: عدد من الشعراء والروائيين، باتوا يملؤون المشهد الثقافي في فلسطين والأردن: محمد الظاهر، غسّان زقطان، يوسف عبد العزيز، جمال ناجي، يوسف أبو لوز و...، وبعضهم حقق حضورًا عربيًّا، بل وعالميًّا محترمًا.

في ما بعد، جفّت ينابيع الإبداع، ولم نسمع عن أيّ شاعر أو روائي أو قاصّ تخرج من ذلك المعهد؛ نقطة كبيرة وُضِعَتْ في نهاية عام 1977، لم نزل حائرين بشأنها، أصدقاء وأساتذة.

... من أطرف ما حدث خلال أيام الدراسة، أنني والشاعر يوسف عبد العزيز كنّا معرَّضين للرّسوب في مساق الرّياضة البدنية، لأننا كنّا في كلّ حصة نتسلُّ مُبتعدَين عن لاعبي كرة القدم وكرة السلة والألعاب السّويدية ليقرأ كلّ منا قصيدته الجديدة للآخر. لا أعرف لماذا كنّا نفعل ذلك، وأمامنا ظهيرة بأكملها وليل حتى منتصفه لقراءة الشِّعر بعد انتهاء المحاضرات. كما أن شابين أمضيا طفولتهما في المخيمات، كان أفضل ما يمكن أن يفعلاه دائمًا هو الرّكض، فلا لعب يصلح بغيره، وثمة خطر خلفهما دائمًا. فكيف لم نحبّ درس الرّياضة، كيف لم نتسلّح به لأيام صعبة قادمة؟

في لحظة غضب قرر أستاذ الرّياضة، محمود، وهو من أحبّ الأساتذة على قلبينا حتى اليوم، ألّا يمنحنا علامة النجاح، لكن أستاذنا الذي رعا موهبتينا بمحبة استثنائية، الأستاذ وليد، قال له: لن أسمح لك أن تحرمهما من النجاح من أجل "الفوتبول" وهما شاعِرا هذا المعهد اللذان ننتظر منهما الكثير.

بعد التخرج، وإلى اليوم، لا أظنّ أنني قرأت مع شاعر في أمسيات مشتركة كما قرأت مع يوسف بعد تخرُّجنا، قرأنا في المدارس، في المخيمات، في النوادي الثقافية، وشاركنا "فرقة بلدنا" الأمسيات الغنائية الشعرية، الفرقة التي غنّت من قصائده، و قصائدي.

الفصل الأخير من مسرحية حياتنا كطلبة، وحياتي بشكل خاص، لم يكن مُفرحًا، رغم كلّ الفرح الذي غمره، فصديقي الأغلى "صبحي"، غادر المعهد في الفصل الأوّل من السنة الثانية، وسافر بعد أن وفّرتْ له الباحثة الفلسطينية تودُّد عبد الهادي بعثة دراسية إلى بغداد. ودَّعتُ صبحي، بأن ذهبتُ إلى بيته في مخيم الحسين، وبعد أن وصلتُ الشارع خارجًا من الزقاق، سمعتُه يناديني.

– نسيت أن أقول لكَ شيئًا واحدًا، إذا أضعتَ هالة فلن ترى وجهي مرّة أخرى.

لم أرَ صبحي، لأنه بات مطلوبًا لمراجعة دائرة المخابرات، لا لشيء، إلّا لأنه يدرس في العراق، والعلاقات الأردنية العراقية سيئة، وسُمْعة الطلبة هناك، رسميًّا، أنهم أبناء تنظيمات فلسطينية أو بعثيّة، لذا، كانت زياراتهم لأهلهم، إن تمّت، تعني حجز الجوازات، والتحقيق، والمنع من السفر في حالات كثيرة.

لم أرَ بعد ذلك صبحي الذي سيتخرّج، ويتزوّج زميلتَه في الجامعة، ويمضيان إلى الكويت، ويعملان هناك، زوجته التي ستحمل بابنته.

ذات صباح سيرفض صبحي مغادرة فراشه، رغم إصرار حبيبته الحامل، ويظلّ مُصرًّا، بكلّ بساطة، لأنه مات، هكذا مات.

ذلك الفلسطيني الوسيم، صاحب الروح الجميلة والجرأة التي تفتح له الأبواب كلّها؛ باب الحبّ، وباب الدراسة، غافله الموت نائمًا، فاتحًا له بابه، فدخله دون أن ينتبه.

***

في اليوم الأخير لنا في المعهد، أطلّت جملةُ صبحي التي قالها لي عن هالة.

تلك الفوضى الكبيرة الجميلة ليوم التخرّج، اجتاحت كلّ شيء، فسمحتْ للطلاب أن يلتقوا بحبيباتهم، فما الذي يمكن أن تفعله الإدارة إن غضبتْ على أحدهم، هل ستفصله بعد أن تخرّج؟

تحدثتُ مع هالة، لأوّل مرة دون خوف، هالة التي راحت تتركني بين حين وحين لتودّع صديقاتها في المعهد، وكلّ منهن تكتب كلمات ما في "أتوغراف" الأخرى.

بعد سنوات سأكتشف مصادفة أن كلمة أوتوغراف كلمة يونانية، حيث autós، تعني "النّفس" و γράφω، أو gráphō، تعني "الكتابة".

أرتْني هالة ما كتبته صديقاتها الطالبات بفرح، تمنّيات وأشواقًا ولِدتْ قبل الفراق، ومقاطع من قصائد أو أغنيات، عهودًا ستتبخّر ما إن تُغادر الكثيرات منهنّ بوابة المعهد، ثم اسم ذلك الإنسان الذي تحبه الواحدة منهنّ أكثر من أيّ شخص؛ هذا تحت عنوان، وفّرته الحريّة القادمة: مَن تحبّين؟

ضحكتُ يومها، وسألتُها:

- وهل كتبتِ في أوتوغراف كلّ واحدةٍ كتبتْ لكِ؟

- طبعًا، ما دامت كتبتْ لي اسم حبيبها. كتبتُ في أوتوغرافات سبع وأربعين بنتًا، اسمًا واحدًا، إجابة على سؤال "من تحبّين": اسمكَ كاملا.

- مجنونة؟

- بل المجنون الذي يُحبُّ امرأة عاقلة.

20

بعد شهرين، في نهايات آب، أغسطس، حزمتْ هالة حقيبتَها، للسفر إلى أمريكا، بعد حصولها على بعثة، انتظرتْها عامًا كاملًا، لدراسة الهندسة في سان فرانسيسكو، المدينة التي تعيش فيها أختها الكبرى، سوزان، مع زوجها.

كنّا التقينا ستَّ مرّات خلال هذين الشهرين، أمضتْها قلقة، إذ لم تَظهر في الجو أي فرصة، لي، للعمل مُدرِّسا في مدارس وكالة الغوث.

لم تتحدّث هالة عن الزّواج، ولم تشر إليه أبدًا، وفي هذا كانت تشبه نور.

أبي وأمّي عرفا بأمر علاقتنا، دون أن أكون مضطرًّا لإخبارهما.

ذات صباح، في الثامنة والنصف، طُرِق بابُ البيت، كنتُ نائمًا، خرجتْ فدوى لتفتح الباب، فوجئتْ، دخلتْ مسرعة تتعثّر بنفسها، لاهثة، مع أن المسافة التي قطعتْها راكضة لا تزيد على ثمانية أمتار.

- شو صار لِكْ؟ سألتْها أمّي.

- ساندريلا أجتْ تزورنا.

خرجتْ أمّي بسرعة، أمّي التي لا أعرف إن كانت سمعتْ باسم ساندريلا من قبل، فوجدتْ نفسها وجهًا لوجه مع هالة، تلك البنت التي وصفتْها باختصار غريب: لقد انقطعتْ أنفاسي حين رأيتها.

سألتْها أمّي التي ظنّت أن تلك الفتاة أخطأت الباب، بعد أن استردّت بعض أنفاسها، إن كان باستطاعتها أن تساعدها في شيء.

- أنت السيدة عائشة؟

فوجئتْ أمّي؛ إنها المرّة الأولى التي تخاطب فيها بكلمة "سيدة" قبل اسمها.

أكّدت لها أمّي ذلك، فأخبرتْها هالة:

- جئتُ لزيارة ابنكِ.

أفسحتْ أمّي لها الطريق بلا وعي، سارتْ هالة أمامها.

- أرجو ألّا يكون نائمًا حتى الآن.

لم تعثر أمّي على إجابة لفرط دهشتها.

- "هل تسمحين لي أن أوقظه؟"، طلبتْ منها هالة.

وثانية لم تجد أمّي كلامًا يُقال، هزّت رأسها موافقة، وأشارت إلى باب غرفتي الصغيرة الضيّقة التي كانت شرفة في البداية.

بين صفّين من المقاعد، كنت أضع فِراشي وأنام.

في النهار كانت الشرفة تتحوّل إلى غرفة لاستقبال الضيوف، إذ بمجرّد أن أصحو، يتمّ رفع الفرشة والوسائد واللحاف، ووضعها في الداخل.

ولأنني لا أستطيع النوم إذا كان هناك ضوء، حتى اليوم، أضع قطعة قماش على عيني. أحسستُ بمن يسحبني من إصبع قدمي اليمنى الكبير. توقّعتُ أن تكون فدوى التي تستعين بها أمّي كلّما أرادتْ شيئًا منّي، لأنها تعرف أن طلباتها تغدو طلبات فدوى، وأنا لا أستطيع أن أقول لفدوى لا.

خبأتُ قدمي تحتَ اللحاف، لكن الأمر تكرّر.

أبعدتُ قطعة القماش عن عيني، فأصبح من الصعب عليّ أن أغلقهما. ثوانٍ بقيتُ صامتًا:

- أنتَ لا تحلم.

- كيف وصلتِ إلى هنا؟ كيف عرفتِ البيت؟ هل رأتكِ أمّي؟

- أمكَ هي التي أدخلتْني.

- أمّي؟

- أمّكَ.

أطلّت أمّي من الباب الحديديّ الذي يفصل الشرفة عن الغرفة الكبيرة، وسألت:

- شو بتحبوا تشربوا؟

تردَّدتُ خجلًا كأنني الضّيف، فابتسمتْ أمّي تشجعني، قلتُ:

- ما تحبّه هالة.

- هالة؛ اسم حلو ما شاء الله، لكنكِ أحلى من كلِّ اسم حتى لو سمّوك جميلة أو وردة.

في تلك اللحظة تبين لي أن أمّي أشجع مني بكثير.

تأملتْ هالة الغرفة بعينين ثملتَين وهي تأخذ نفسًا طويلًا، وسألتْني:

- أنت تحلم هنا إذن؟

-أربكني السؤال:
- أجل، هنا أحلم.
وحركتْ رأسها حتى لامس كتفها اليسرى:
- مَن رسم هذه اللوحة الجدارية؟
بقيتُ صامتًا. فأضافتْ:
- لا تخفْ، إنها جميلة. أنتَ الذي رسمها، صحيح؟
- صحيح.
- لم تخبرني من قبل أنكَ ترسم.
- ربما لم تكن هناك مناسبة لأخبركِ.
- وهل هناك أشياء أخرى، أعْني تبدعها؟
- هناك، لكنني لست متأكدًا من مستواها، ربما ذلك أفضل، فإذا أدرك المجنون أنه مجنون يكون عاقلًا.
- هذه المهمَّة اتركْها لي، فأنا من ستقرر منذ اليوم جنونكَ من عدمه. وصمتت، قبل أن تضيف بانفعال: "إنها جميلة فعلًا، ولو لم تكن مرسومة على الحائط لما خرجتُ من بيتكم إلّا وهي معي".
ثم راحت تضحك بسعادة بالغة: تخيّل لو أنني قررتُ ألّا أخرج من البيت إلّا وهي معي، هههههه، سأكون مجنونة رسْميًّا.
شربنا الشّاي وحدنا، لكن فضول أمّي لم يسمح لها بالجلوس بعيدًا. جاءت حاملة كأس شايها الذي شربتْ نصف ما فيها، وخلفها فدوى. هل تسمحان لنا بالجلوس معكما، أفسحتْ لها هالة الطريق لتمرّ وتجلس بجانبها، في اللحظة التي اندفعتْ سلسلة صليب ذهبيّ صغير خارج قميصها، واستقرَّ فوق صدرها. انتفض قلبي، أدركتْ أمي ذلك، فالتفتتْ إليّ: ألّا يُذكِّركَ ذلك بصليب عمّتك، الله يرحمها.
- "أيّ صليب، هل عمتك...؟"، سألتْ هالة.
- "لا"، قاطعتُها قبل أن تُكمل، وأنا أحاول أن أضحك.
- "هذه قصة طويلة"، علّقتْ أمّي.
لم أعد أذكر شيئًا من ذلك الحديث الذي دار بينهما، ولكنني كنت أرى الضحكات تتطاير في المكان، وكان ذلك يريحني.

لم تكن الساعة قد تجاوزتْ التاسعة والنصف صباحًا، إلّا أنّ أمّي سألتْنا، السؤال الذي لم أسمعه، فهزّتْ كتفي اليمنى برفق، وأعادته:

- كنتْ بسأل، شو بتحبّوا تتغدّوا؟

- يا خالتي عائشة نحن لم نفطر بعد.

- الفطور صار جاهزْ، لكن المهم نبدا انحضِّر الغدا، وإلّا لأْ يا فدوى؟

أكدتْ فدوى ذلك بسعادة منقطعة النظير، وقبل أن تذهب مع أمّي، التي قررت أن تطبخ ما لا نستطيع إلّا أن نأكله، كلّه، لطيبته، سألتْها فدوى:

- أنتِ ساندريلا؟

ضحكتْ هالة كثيرًا، كما لم تضحك من قبل، وعلّقتْ:

- يعني شايفاني لابسة فردة حذاء واحدة؟ تعالي.

تقدّمت فدوى مسحورة، أمسكتْها هالة برفق، وقالت لها:

- أنت إذن التي لولاها لما أصبح هذا الشّاب شاعرًا، كنت أتمنّى أن أكون السّبب، ولكنكِ سبقتِنا جميعًا، سبقتِني، وسبقتِ كلّ الفتيات اللواتي سيُعجب بهنّ مستقبلًا. وقبّلتْها.

- تعرفين أنني معجبٌ بك وحدكِ؟ همستُ.

- أخيرًا تكلّمتَ، الحمد لله. لكن اطمئن، لو قلتَ لي إنني الوحيدة التي ستراها في هذا العالم، سأفقأ عينيكَ.

***

في تلك الزيارة المفاجئة، ستثبتُ أمّي أنها تتجاوزني بمراحل كثيرة، أنا الذي كنتُ أظنّ أنها لو علمتْ بعلاقتي بهالة، ستطردني، هي التي عاشت معي يومًا بيوم علاقتي بنور.

بعد تناولنا الغداء، كان نصف الحارة على علِم بزيارة الفتاة الجميلة لبيتنا. خرجْنا من البيت، سرْنا في ذلك الشارع ذي النهاية المغلقة، فوجدنا أن الشبابيك كلّها مُشْرَعة، والرؤوس تطلّ منها، كما لو أن الهواء لا يوجد إلا خارج الغرف.

بالمناسبة، لا أعرف أيّ مصادفة تلك التي عشتُها وعاشتْنِي، فإذا استثنيتُ بيتنا الأول، فإنّ كلّ بيت سكنته، حتى اليوم، كان بنهاية مُغلَقة، ولعل أجمل ما في الأمر أنني لم أقتنع، في أي يوم من الأيام، بأي نهاية من هذه النهايات.

***

أخبرتْني هالة أنها ستسافر بعد عشرة أيام، لذا، كان من الضروري أن تتعرّف إلى أهلي، وأخبرتها أن سفري للعمل كمدرس في السعودية تأكّد.

- ستركب طائرة إذًا.

- سأركب طائرة.

- كنت أحبّ أن أتعرف إلى والدك في هذه الزيارة، ولكنني سآتي يوم الجمعة الذي يسبق سفري، لأودّعه.

مدّت يدها داخل حقيبتها وأخرجتْ مُغلّفًا، سألتُها عمّا فيه، "أوتوغراف، أوتوغراف كلّ ما فيه لكَ وحدكَ".

كتاب حبّ في 80 صفحة، بدأته بجملة حارقة: "بعد أيام سأرحل، بعد أيام سترحل". كتابُ حبّ امتلأتْ صفحاته ببعض صورها، وبكلّ ما لم تقلْه لي من قبل.

عدت إلى البيت، متوقعًا سماع كلام كثير لن أحبّه، فإذا بأمّي تباغتني:

- "تخرج مع فتاة جميلة مثل هذه وبعد ساعة تعود، هل أنت مجنون؟"، ثم سرحتْ قليلًا وأضافت: "فعلًا مجنون".

طلبتْ مني أن أخبرها بالحكاية من أولها إلى آخرها، فاختصرتُ ما استطعتُ.

- "هل أحببتِها؟"، سألتُ.

- الصحيح، كنتُ فرِحَةً لأنك تخرَّجتَ وجئتَ لي حاملًا شهادة، ولكن من الضروري أن تعرف أَنك لو ذهبت إلى كلّ جامعات الدنيا، وأحضرتَ لي كلّ شهر شهادة، فستكون هذه البنت أفضل شهادة يمكن أن تنالها.

***

ليلًا تسلّلتْ فدوى، واندسّتْ إلى جانبي، سألتْني:

- وين ودِّيتها؟

- مين؟

- ساندريلا.

- روَّحتْ على بيتها.

- قُلتْ آ، قُلتْ لأْ، أنا بدّي إياها.

21

راحتْ السَّكْرة وجاءتْ الفَكْرة.

أمي التي أُخِذتْ بجمال هالة، وخفّة ظلّها؛ أمّي التي بوغتتْ بعاصفتها كما بوغتُّ، أيقظتْني بعد منتصف الليل.

لم يسبق لأحد أن أيقظني في وقت كهذا، أو أنني لا أذكر. في البداية لم أستجب، هزّتْ يدها جسدي، حسِبتُها جزءًا من حلم.

أضاءت لمبة الكهرباء 60 شمعة.

اخترق الضّوء اللحاف ووصل إلى عينَي.

أمّي فعلتْ ذلك، أمّي التي تعرف أنني لا أنام إلّا في العتمة، لأنها سبب هذا؛ إذ كلّما تعبتْ من بكائي، طفلًا، وضعتْ قطعة قماش على عينَي، لأحسب أنني عدتُ إلى الرّحم، ربما، أو أن الليل الذي لم أكن أعرف اسمًا له قد حلّ. هل قلتُ هذا من قبل؟

- البنت التي جاءت لزيارتكَ اليوم، أمس، وأخذتَ بها عقلي، أيقظتْني زيارتها من نومي، بل أطارتْه، كيف جعَلَتْني أنسى نور؟

- سنتحدث صباحًا.

- بل الآن، هل تعتقد أن من تستيقظ لسبب كبير كهذا ستعود إلى النّوم لمجرّد أنك تطلب منها الذّهاب إلى فِراشها؟ فِراشها نفسه طار، مع نومها الذي طار.

- أنت تتصرفين وكأنني سأتزوّجها.

- وهل يعني أنكَ ستَجنُّ بحيث لا تتزوَّجها؟ مجنون من يرفض بنتا كهذه.

- ماذا تريدين أن تقولي فعلًا؟ لا تريدينها، وتقولين إن المجنون يرفض الزواج منها، حيّرتِني.

- لأنني محتارة، لا أعرف كيف أُفكّر، جئتُ أسألكَ ما الذي سيحدث لنور، فهي...، ولكنني قلتُ الكلام الذي لا أريد أن تسمعه منّي عن هذه

الجميلة خفيفة الدم والروح وكلّ شيء.

- اطمئنّي، نور تعرف عن هذه البنت.

- تريد أن تقول إن نور عرفت بوجودها قبْلي؟ قبْلي أنا؟ ماذا عرفتْ؟

- أخبرتُها أن هناك فتاة لطيفة، وأنها أصبحت صديقة لي في المعهد.

- هذه الحلوة تسميها صديقة؟ لطيفة؟ مجنون أنت، بسْ صديقة؟ لا، أنت مجنون.

- وبعدين. ماذا تريدين أن أُخبر نور؟

- لا أعرف.

- نور سافرتْ إلى مصر، وستصبح طبيبة، وأخبرتْني أنها ستذهب إلى بريطانيا للتخصّص هناك، وهالة ستسافر إلى أمريكا لتدرس هندسة، هي أخبرتكِ بنفسها، وأنا سأذهب إلى السعودية، يعني، لن تكون لي فرصة، لا للقاء نور ولا لقاء هالة، أيّ مثل أغنية أم كلثوم التي تقول فيها: "وإذا الأحبابُ كلّ في طريق".

- ستُضيِّع البنتين إذًا. هل تقول لي إنك ستُضيِّع البنتين؟ هل أنت مجنون؟

- "هناك حلّ بسيط"، قلتُ لها، وقد أصبح الأمر أشبه بطرفة، لا تخلو من عبثٍ فريد.

- ما هو؟

- تذهبين غدًا مع أبي وتخطبين لي هالة من أهلها.

- ونور، ماذا يُعيْبُها؟

- إذًا، تذهبين وتخطبين لي نور من أهلها، ونحلّ المشكلة.

- وهالة، ماذا يُعيْبُها؟

صمتتْ أمّي فجأة، وراحتْ تحكّ شَعرها، من الخلف، بقوة، كما لو أنها تريد أن تتأكد من أن تحته رأسًا.

نهضتْ، ولثلاثة أيام تلتْ تلك الواقعة، كنّا نسمعها تتحدّث مع نفسها بصوت مرتفع، وإن لم نتبيَّن، من هذياناتها، سوى كلمات لا تمتُّ الواحدة منها للأخرى بصِلة. مثلها كنتُ، لكنني كلّما ضبطتُ نفسي مفكّرًا في ما تفكّر فيه أمّي، وضعتُ يدي على فمي مُغلقًا الطريق أمام أي كلمة يمكن أن تغافلني وتتسلل إلى آذان الآخرين.

22 مكتبة

في تلك الأيام، عانت أمّي طويلًا من أخي محمد الذي يصغرني بتسع سنوات.

حتى اليوم لا نعرف ذلك الذي راح يحدّثه عن الفدائيين، رغم أن آخرهم أُخْرج من أحراش جرش وعجلون، منذ صيف 1971.

في كلّ مرّة عدتُ فيها إلى البيت، من المعهد، طلبَ منّي أن أصنع له بندقية خشبية جديدة، وفي كلّ مرّة، أعود، أجدها محطمَة. أسأله:

– كيف تحطمَتْ؟

فيجيب:

– في المعركة، هناك معارك كثيرة هذه الأيام.

– أين؟

– في كلّ مكان.

أمّي تعبتْ من تضميد جراحه، فلا معارك دون إصابات. تحمد الله أنه عاد حيًّا، هي التي بسبب الحديث المتواصل عن المعارك، بدأت تظنّ أن هناك حروبًا لم تسمع بها، فتسألني باستغراب:

– هل هناك معارك سريّة تحدث وممنوع عليّ أن أسمع بها؟

***

في الوقت الذي صعدتُ فيه خشبة المسرح لأوّل مرة، لأُلقي قصيدتي، تغيّر شيء ما، عميق، على بعد اثني عشر كيلومترًا من المعهد، أعني بيتنا، فمذبحة تل الزعتر أحدثتْ تحوّلًا في داخل محمّد، غير متوقّع.

ذات ليلة، سمعتْ أمّي صمتًا لم تسمعه من قبل، في البيت، قالت لي: "تسللتُ على رؤوس أصابعي، فرأيت أخواتك وإخوتك متحلّقين في دائرة، وقوفًا وجلوسًا. من فوق رؤوسهم ألقيتُ نظرة، فوجدته يرسم، ويبكي".

أخافها الأمر، لكنها بغريزة ما، في أعمق أعماقها، لم تقطع بكاءه مخافة أن يتوقّف عن الرّسم، وعزّز ذلك إشارة من فدوى تطلب منها أن تصمت.

انصاعتْ أمّي، كأنها البنت الصغيرة وأولادها أولياء أمْرها.

بعد وقت طويل، رفع محمد رأسه، فأبصرتْ قطرات الدّموع حول تلك الأجساد الممزقة التي رسمها.

بالقلم الرّصاص رسم ذلك كلّه، بالأسود، إلّا أن أمّي ظلت تُقسم، وهذه مسألة غير عادية، أن دموعه التي تساقطت في ذلك اليوم على الورق كانت حمراء، وأنه رسم الأجساد بالأسود ودمهم بالدمع.

***

تغير محمّد تمامًا، وباتتْ الجدران كلّها مساحات للرّسم؛ بيتنا أولًا، قبل أن تمنعه أمّي، هو الذي لم يترك جزءًا يستطيع الوصول إليه، وهو واقف أو على كرسي، إلّا ورسم عليه.

كان لا بدّ من جدران أخرى فارغة، ولذا انتقل إلى جدران بيوت الشارع الذي يقع فيه بيتنا.

طردتْه الجارات، رغم أن بعض الرّسومات نُفِّذتْ بناء على رغبة أولاد الجيران الذين وجدوا في أعماله شيئًا جميلًا، يمكن أن تغدو، به، بيوتهم أجمل.

وثانية تمّ طرْده من الحارة.

لم ييأس، فالتجأ إلى الحارات القريبة أولًا، وكلّما انعدمتِ المساحاتُ، ابتعد إلى حارات أخرى.

مُدمّى، كان يعود أحيانًا، كعودته أيام معارك بنادقه الخشبية.

أحضرتُ له دفاتر صالحة للرّسم، وألوانًا.

ارتاحتْ أمّي.

وواصل الرّسم باندفاع أكبر، لم يعد ثمة شيء يمكن أن يوقفه.

سيل من الألوان واللوحات.

وسيذهب إلى معهدٍ ليدرس شيئًا آخر لا يريده، مثلي، ولكنه سيواصل الرّسم. وتمرُّ سنوات، ويتغيّر مع بدايات الانتفاضة الأولى.

سيرسم بغزارة تقول بوضوح إن موعد المعرض الأوّل قد حان.

نبحث أنا وإياه عن مشغَل لتأطير ثلاثين لوحة ورقيّة، نجده في الشارع الخلفيّ لجبل القلعة، المطلّ على وسط عمّان وكثير من جبالها، وبعد أسبوع نذهب لاستلام اللوحات التي منحتْها الإطاراتُ البنيةّ الدّاكنة سحرًا خاصًا

وقوة، فأصبحت لوحات حقيقية.

أثناء بحثنا عن مكان يحتضنُ المعرض، واصل الرّسم، لم يتوقّف، وكأن أعوامًا مرّت على معرضه الأول، وبات الوقت مناسبًا لإقامة الثاني.

في تلك الفترة، ظهر شيء جديد في لوحاته لم يظهر من قبل: الأسلوب؛ فجأة أصبح له أسلوبه الخاصّ به، من خطوط ومساحات، وملمس؛ هناك القشّ، وهناك التراب، بحيث تحسّ كمشاهِد، أن بإمكانك أن تمدّ يدك وتحفِن التراب ببساطة.

في داخلنا، أدركنا أن معظم اللوحات التي تمّ تأطيرها، أقلّ مستوى، بما لا يُقاس، مقارنة بالجديدة.

كنت قد تركتُ التدريس في السعودية، منذ عشر سنوات، وبتُّ أعمل في الصحافة.

المسؤولون في المركز الثقافي الفرنسي، لم يتردّدوا في اتخاذ قرار إقامة المعرض؛ شاهدوا اللوحات، أحبّوها، بل باتوا مفتونين بها. وفي بحثنا عن اسم للمعرض، وجدنا أن "أناشيد التراب" هو العنوان المناسب.

***

في ذلك الوقت، أصبح التّواصل مع نور أسهل، لأنها ببساطة عادتْ إلى عمّان، وتابعتْ معي، ومع هالة، خطوات تطوّر أعمال محمّد، خطوة خطوة.

ذات مساء، وكان الوقت يمرّ بسرعة، مع اقتراب موعد المعرض، اتصلتْ بي نور وسألتني: من سيفتتح المعرض؟

- لم نقرر بعد، هناك اقتراحات كثيرة، ولكننا لا نميل إلى أيٍّ منها.

- في الليلة الماضية استيقظتُ فجأة، لا، لم أكنْ أحلم، استيقظتُ وكأنَّ عليّ أن أحسم مسألة لا تنتظر التأجيل حتى الصباح. حيّرني الأمر، لم تكن هناك أيّ قضية مستعجلة لديّ. قررتُ أن أعود إلى النوم، وقبل أن يُلامس رأسي المخدة، عدتُ وسوّيتُ جلستي في السرير؛ المعرض يجبُ أن تفتتِحه أميرة واحدة لا غير.

- من هي؟

- خالتي عايشة.

"أمُّ إبراهيم" تفتتح معرضاً

سترتدي السيدة "أمُّ إبراهيم"، في السّادسة مساء اليوم، ثوبها المطرّز وأجزم أنها ستنتعل الحذاء الجديد؛ رغم أنه يلحس مؤخّرة القدم. ثمّ.. سيحملها الباص من "مخيم الوحْدات"... نزولاً إلى زحمة البلد... صعوداً إلى المركز الثقافي الفرنسي في جبل اللويبدة.

الغاية من ذهابها إلى ذلك المركز، وفي تلك الساعة بالذات، هي افتتاح المعرض الشّخصي الأول؛ معرض ابنها...

تجربة جديدة... بعيدة، كلّ البُعد، عما ألفناه لدى افتتاح معرض فنّي. أعني... بعيدة، كلّ البُعد، عن المراسم... وصرامة. "الإتيكيت"؛ أعني... بعيدة، كلّ البُعد، عن "مخيمات" المجتمع. أعني... قريبة، كلّ القرب، من همّ الناس.

لك الله يا "محمّد".. من أين تجيء بكلّ هذا النبض؟

لك الله.. إنها التجربة الأولى لكَ.. المعرض الأول، وعلى الرغم من ذلك، فها أنتَ تنعفُ في وجه المتلقي حفنةً من رذاذ الدّهشة.

محمد طُمَّليْة/جريدة صوت الشعب: 1989/7/1

23

أفضل حلم لي بالرّسم، حقّقه محمد، وإن لم يكن منطقيًّا أن تتوقّف عن الغناء لنفسكَ لأن لديك أخًا مُغنّيًا، ومشهورًا، أو لأن لديك حديقة لا تغادرها العصافير.

سأقيمُ معرضًا مشتركًا بعد ذلك. أربعة أصدقاء كتّاب، اعترفوا أنهم يمارسون الرسم: مؤنس الرزاز، فاروق وادي، جمال ناجي، وأنا.

ولِدتْ فكرة معرض "كتّاب يرسمون" خلال لقاء جمعَنا، وصلْنا في حديثنا خلاله إلى الفنّ التّشكيلي.

انسحب مؤنس أثناء التّرتيبات الأخيرة.

وأقمنا معرضنا.

محمد الذي أقام بعد ذلك معرضين، شجّعني، باعتباري فنانًا مبتدئًا، رضيتُ بهذا، ولم أزل. توقّفتْ علاقتي بالرّسم، بعد ذلك، سنوات، بدأ التّصوير يأخذ مساحة أوسع في حياتي؛ فقد وجدتُ في فكرة إلغاء المسافة بين اللوحة والصورة، طريقًا لتأمّل العالم بصريًّا، فأقمتُ أربعة معارض، أحدها في كوريا الجنوبية.

***

قبل افتتاح معرض "كتّاب يرسمون"، اتّفقنا، ثلاثتُنا، على أن يكون الناس الذين سيحضرون هم رُعاة المعرض، وهذا ما كان، لكننا لم نستطع بهذا أن نتجاوز اللحظة الاستثنائية في حياة الفنّ، في هذه المدينة الصغيرة الجميلة، على الأقلّ، التي تقدّمتْ فيها امرأة بثوبها الفلسطيني المطرّز، وبثقة قصّتْ شريط معرض محمد قبل أربع سنوات من إقامتنا لمعرضنا، وسط تصفيق الحضور، ثمّ وهي تتقدّم ببراءة واثقة، مُستعرضةً اللوحات التي شهدتْ ميلاد كلٍّ واحدةٍ منها. أما الأجمل، فإنها تعاملت مع اللوحات كما لو أنها تراها للمرّة الأولى؛ تجوّلت، وتأمّلتْها مبتسمةً، معظم الوقت، دون أن تتوقّف عن إبداء الملاحظات.

خلْفها هناك، بخطى بطيئة، سار مسؤولو المركز الثقافي الفرنسي، دبلوماسيون أجانب، كتّاب وصحفيون، وأمناء أحزاب، وكلّما اقتربَ منها أحدهم لالتقاط صورة، نظرتْ إلى أبي، تستشيره، هو الذي لم يعش أي لحظات كهذه من قبل.

في ذلك اليوم، قطعتْ عائشة خطوة جديدة في مسيرتها المهنيَّة؛ فبعد أن كانت، لزمن طويل، وزيرة للتربية والتعليم، ووزيرة للمالية، صعدتْ جبل اللويبدة أمًّا مُحبّة أنجبتْ أربع بنات وسبعة أولاد، وهبطته أميرة، بل ملكة.

24

لو يستطيع الإنسان، بجسده، أن يتنقّل بين الماضي والمستقبل، والمستقبل والماضي غير مضطر للمرور بالحاضر كمحطة، كما يتنقّل بذاكرته بين زمنين، دون الوقوف في زمن ثالث.

كلّما تذكّرنا اختفى أحد الأزمنة، وإذا استغرقْنا أكثر، يختفي زمنان، أما إذا استغرقنا أكثر وأكثر، فستختفي الأزمنة الثلاثة.

***

بين سفر هالة من عمان إلى أمريكا، وسفر نور من القاهرة إلى لندن، وسفر بشير إلى أمريكا، وقاسم إلى باريس، وسفري إلى السعودية، وعوداتنا، مرّ الزمن سريعًا، وأعمارُنا بالطريقة نفسها.

لم تستطع أمّي أن تحبس دموعها في ذلك اليوم الحارّ، وهي تودّع هالة. أما أبي فاستقبَلها، كما ودّعها بخجل لم يفارقه طوال حياته.

فدوى تعلّقتْ بها وكأنها أمّها؛ فدوى التي تعاملتْ مع الأمر وكأنها داخل حكاية، لا تعرف ما الذي يمكن أن تفعله إذا خرجتِ البطلة منها، وما الذي سيحدث لها.

فدوى دخلتِ الحكاية لأن البطلة هناك، لأن ساندريلا هناك.

أسرّتْ لي أمّي بعد أيام من سفر هالة، أمام مبنى المطار القديم، في ماركا، وهي تودّعني في طريقي إلى الصحراء:

– لا تشغل نفسكَ بشيء هناك، حتى بنا، أو بسوانا. لا أظنّها ستعودُ مرّة أخرى، تعرف مَن أقصد، هالة، ولا أظنّ أن نور ستعود أيضًا، أنت مسافر الآن، لن تستطيع العيش هناك إن تركتَ خلفكَ أحلامًا أنت تعرف أنها لن تكون في انتظارك حين تعود..

في ذلك اليوم لا أعرف كيف ابتسمتُ، وأنا أقول لأمّي:

– كأنكِ تقولين لي لا ترجع؛ هل تريدين هذا؟

– وهل على الإنسان ألّا يعود إلّا لأحلامه؟ دائمًا يمكنك أن تعود لنا، دائمًا

عليك أن تعود لنا، ولفدوى، أم نسيتَ فدوى؟

بكتْ فدوى بهدوء قصيدة هامسة، كأنها على وشك أن تُطردَ من حكايتها الخاصّة، حكايتها التي تحبّها؛ حكاية قدومها إلى هذا العالم.

***

كلّ شيء كان محزنًا أمام بوابة المطار.

في الطائرة التي أستقلُّها لأوّل مرّة في حياتي، عام 1976، رحت أقارن بين الحياة الضيّقة التي سأعيشها، والحياة الرّحبة التي عاشها ويعيشها أقرب الناس إليّ؛ نور، بشير، وقاسم، والحياة التي ستعيشها هالة أيضًا، فأحزن أكثر.

ترتفع الطائرة، تبتعد، أبتعد، لا عن الأمكنة التي أحببتُ أن أكون فيها، بل عن كلّ ما تمنيتُ أن أكونه، وتأكّد لي ذلك وأنا أحمل حقيبتي باحثًا عن سيارة تنقلني، من مطار "جدّة" الكبير، إلى فندق.

لم يحدث معي ما حدث مع بشير، في نيويورك، بشير الذي أقلّه السائق، باعتباره أستاذًا، إلى فندق خمس نجوم، فالسائق الذي أقلّني من مطار "جدة"، سألني عن عملي، أخبرته أنني أستاذ، فمضى بي إلى وسط المدينة، وأنا مبهور بأضوائها، إعلاناتها، صخبها، مدينة لا تشبه عمّان. توقفتِ السيارةُ أخيرًا، أشار السائق إلى باب، موضّحًا لي أننا وصلْنا الفندق.

لم أرَ بابًا يشير إلى وجود فندق، لم أرَ غير باب ضيّق، مُعتم، سرتُ إليه، لمحتُ درجًا مُعتمًا صاعدًا إلى عالم علوي لا يقلّ غموضًا عن العالم السّفلي الذي قرأتُ عنه.

فراغ في الأعلى وصمتٌ، صمتٌ رهيب.

في العتمة التي يُضيئها بعض نور تسلّل من لوحة إعلانية كبيرة لسجائر مالبورو، سمعتُ صوتًا مبحوحًا مثل صدى بقبقة الماء في نرجيلة، يسألني:

– كم ليلة؟

– لا أعرف، ليلة، وربما أمكثُ ليلتين.

– تدفع المبلغ مُسبقًا عن كلّ ليلة ستمضيها هنا.

أراحتْني الصّفقة، لو دفعتُ عن الليلة الثانية، سأكون مضطرًّا لاستعادة مالي، بل تسوُّله، إن قررتُ السّفر غدًا إلى مكان عملي.

أشار إلى ممرٍّ مُعتم: الغرفة الثامنة إلى اليسار.

طلبتُ منه مفتاح الغرفة، فسمعتُ تصاعد ضجره الأشبه باستنشاق نفَس طويل من مبسم النّرجيلة.

استغربتُ ذلك.

- الدنيا أمان هنا.

سرتُ في الممرّ غير قادر على رؤية الأبواب بوضوح، أما التي رأيتها، فبفضل تسلّل بعض الضوء من لوحات الإعلانات.

الشّخير الذي يهبّ من الجانبين، كرياح متعاكسة، كان أفضل دليل.

قدّرتُ أن الحرّ هو سبب ترك الأبواب مفتوحة. استبعدتُ ما خطر ببالي عن عائلات استأجرتِ الغرفَ؛ لا يمكن أن تُترَك الأبواب مشرعة بوجود نساء وفتيات.

لم أكن على يقين من أنني أمام الباب المطلوب، عدتُ ثانية، تاركًا حقيبتي في مكانها. رحتُ أعدّ الأبواب من جديد، بانتباه، تعثرتُ بحقيبتي أمام الباب السابع.

الباب الثامن كان مُشرعًا. الشّخير المتدفّق منه أوسع من الباب، أوسع من الفندق.

تركتُ الحقيبة حيث هي، عدتُ إلى ذلك الصوت الذي عقدتُ اتفاقًا معه، وأخبرته:

- في الغرفة أناس آخرون.

سحَبَ نفسًا آخر، وكأنه يقول لي: الله يصبِّرك يا روح.

- وهل تعتقد حضرتك أنك في الهيلتون؟ طبعًا هناك ناس، الغرفة مشتركة، ابحثْ عن أيّ سرير فارغ ونَمْ.

لم أكن مضطرًّا لأن أعدّ الأبواب في المرّة الثالثة، سرتُ إلى أن اصطدمتُ بالحقيبة، تأرجحتُ قليلًا؛ لحسن الحظ لم أسقط.

تلمّستُ طريقي في العتمة، فرحًا بخيط ضوء يتيم قادم من الشارع، وفي النهاية، توقّفتُ أمام شبح سرير لا يَصدُر منه أيّ شخير، أدركتُ أنه فارغ.

***

مُتعبًا كنتُ إلى درجة لم أستطع معها النّوم، ترحّمتُ على أيام السّكن في

المعهد؛ صحيح أن اثني عشر إنسانًا في غرفةٍ أمرٌ مزعج، لكنك تعرفهم، ولا تفوح منهم كلّ هذه الروائح.

في آخر الليل غلبني التّعب، أسلَمني للنومِ، أفقتُ على أصوات أبواق سيارات كثيرة وهدير محركاتها.

وجدتُ نفسي وحيدًا في الغرفة.

صاحب الصوت، الذي رأيتُه صباحًا، كان شابًّا في الضوء، غيره في العتمة، لدرجة أنني ظننتُ أن مزاجه يتغير بتقلّب الليل والنهار.

أوضح لي أن فندقه مُفضّل للعمال الأجانب، وللمدرّسين في بداية السنة الدّراسية ونهايتها، وسألني إن كنتُ استرحتُ في النوم، فأكدتُ له:

- جدًا.

- التعبُ أفضلُ سرير دائمًا حين تضع رأسك على المخدَّة، أيّ مخدَّة. كلّ زبائني يصلون إلى هنا مُتعَبين. إلى أين وجهتك؟

- القنفذة؟

- أُفّ، مشوارك طويل يا رجل، 350 كم، كما أعتقد، ولا شوارع معبّدة، أنا لا أجرؤ على الذّهاب إلى هناك. على أيّ حال، إذا وجدتَ سيارة، عُد قبل الثانية عشرة ظهرًا، هذا قانون تعمل به حتى الفنادق الكبيرة كما تعرف، مثل الهيلتون والشيراتون، وإلّا سأضطرّ لأن آخذ منكَ أجرة ليلة ثانية. وصمتَ قليلًا، قبل أن يضيف: سأتواطأ معكَ، أَحضِرْ حقيبتكَ ودعْها عندي، كأنكَ ستغادر الفندق، فإذا سافرتَ كان بها، وإن لم تسافر تدفع لي، ما رأيكَ؟

25

يوم عودتي من القنفذة إلى مدينة جدّة، حرصتُ، على ألّا أنزل ثانية في الفندق نفسه.

عائدًا كنتُ إلى عمان، بعد عامين صعبين، سأكتبُ عنهما أكثر من مرّة، في أكثر من كتاب. كلّما اعتقدتُ أنني نسيتُ ما عشته هناك، اكتشفتُ أنني تذكّرته أفضل. عامان طويلان، لا أستطيع القول إنهما مرّا؛ إنهما مقيمان فيّ حتى اليوم، عامان كحربي غير المتكافئة التي خضتُها مضطرًّا مع مرض الملاريا، المرض الأسوأ على الإطلاق من بين كلّ الأمراض التي استطاعت اجتياح خطوط مناعتي.

فرنٌ حقيقيٌّ لحرق الدِّماغ، هي الملاريا. الناموسة أسوأ كائن يملك أجنحة. وحدها التي استثنيتها من القاعدة التي تمسَّكتُ بها دائمًا حول حبّي لكلّ كائن يطير؛ لم أغيِّر رأيي في نحل لسَعَني، دبابير ضاعفتْ حجم رأسي بهجماتها المتتالية، فاختفتْ عيناي خلف جفنَي اللذين تحوَّلا إلى ستائر ثقيلة سميكة، ستائر لا يعبرها ضوء، وانزلق ذقني ليصل صدري جارفًا رقبتي معه.

لم يكن التدريسُ هدفًا أسعى إليه، أو أتمسّك به، عشتُ خارجه، كما سأعيش أيضا خارج الصحافة. سأستعير هنا عنوان رواية ميلان كونديرا "الحياة هي في مكان آخر"، لأوضّح أن حياتي كانت خارج الصحراء، خارج المهنة، وأحلامي أيضًا...

لم أترك أحلامي الكبيرة تعيش وحيدة حينما كنتُ وحيدًا.

لم أنس ما قاله لي موظف المكتبة ذات يوم بعيد: "تذكّر أن إبراهيم طوقان حين كان بعمرك، لم يكن يعرف أنه سيكون إبراهيم طوقان الذي نعرفه الآن".

بعيدًا عن المستقبل، في تلك الصحراء عشتُ، أو ظننتُ أنني عشتُ، لكنني لم أتعب أبدًا من التّسلل إلى الحلم.

أفتح باب غرفتي، أطلّ على الصحراء، فأُصبح أبعد. أُقفِل الباب، نهارًا وليلًا، فأصبِح أكثر بُعدًا.

أكياس الذّرة البيضاء التي تقسِم الغرفةَ الحجريّة الطويلة إلى قسمين، كانت كبيرة عليّ، كما هي الصحراء.

"... ولأنكِ ستقرئين هذه الكلمات الآن، أعني عام 2020، سأعترف لكِ يا نور، أن ما لم أقله في رسائلي لكِ، أيامها، هو أنّ العزلةَ التي عشتُها لعامين، لم تزل أسوأ عزلة عشتها حتى اليوم، أسوأ بما لا يقاس من عزلة زمن كورونا التي أعرفها وتعرفينها.

هناك، كانت ثلاث غرف، يستطيع المرء دخولها طوال العام: غرفته التي يعيش فيها بلا ماء ولا كهرباء، وحيدًا مع البعوض والملاريا، والأفاعي التي تطارد الفئران في سقف القشّ، وهواجس الموت الذي يختطف زملاءه في القرى القريبة والبعيدة، ويختطف طلبتَه الصغار، مُعزَّزًا بمرض السّل، ولا يغادرها بعد غروب الشمس. أما الغرفة الثانية فهي غرفة الصَّفِّ، التي ليست غرفة أصلًا، لأنها من قشّ، في حين أن الغرفة الثالثة هي غرفة الفندق، أو ما يسمى فندقًا عند الوصول وعند المغادرة.

لا أعرف يا نور لماذا تُصرّ البعوضة على البقاء في الغرفة بعد أن تلسَعكَ، أو تُمرضَكَ؟ لماذا لا تغادر مثلما تغادر النّحلة، ويغادر الدّبور، والعقرب، والأفعى، وأمّ أربع وأربعين، والعناكب، والطائرة التي تقصفكَ، لماذا؟

لا أعرف يا نور، وأرجو أن تعتبري هذا الكلام ردًّا على رسالتكِ الأخيرة حول الموت الذي لم نعد نعرف أين يختبئ، أو من أين يجيء، في زمن كورونا هذا.

بالطبع لا أقارن موتًا بموت، ولكن يحقّ لي أن أقارن عُزلة بعزلة، فالموت واحد، سواء أتسلل عبر بعوضة، أو عبر فيروس.

لا أعرف حتى الآن، ما هو الأكثر فداحة؛ موت مُتدرِّع بجسد بعوضة بحجم قشة واهية، موت متوعّد، متجاوزٌ بضوضاء طنينه القاتلة ضوضاء صفارة الإنذار التي بتنا نسمعها مساء كلّ يوم، مع لحظة بدء منع التجوال؟ أم فيروس لعين يمكن أن يحتلّ جسد أحبابكَ وأنفاسهم، وضرورات عيشكَ، وملامِس الأشياء، ولقمة طعامك، وكأس شرابك؟

لكنكِ تعرفين؛ تحت كلّ الظروف، يبقى الموتُ موتًا، ولا انحياز إليه، لأن المسألة لا تشبه صندوق اقتراع من تلك الصناديق التي حُكِم علينا بالذّهاب إليها، دائمًا، للاختيار بين السيئ والأسوأ".

الفكرة الوحيدة التي خطرتْ ببالي، في تلك العزلة، التي لا يخطر فيها للإنسان أن يرى نفسه في المرآة، أكثر من مرّة في الأسبوع، أن ألتحق بجامعة بيروت العربية، فالدراسة بالمراسلة ممكنة، وضروريّة، ما دامتْ خطواتي في اتجاه الشّعر، والرواية مُستمرة[18].

وصلتِ الكتبُ وبدأتُ الدّراسة باجتهاد، فأكبر أنجاز يُمكن أن تحقّقه، هو ألّا تموت وأنت تقارع الفراغ الرّهيب، ما بين مغادرتكَ للمدرسة ظهرًا، وعودتكَ إليها صباح اليوم التالي.

في تلك الصحراء هناك فراغ مختلف، مُطْلَقُ الفراغ. الصحراء كوكب، كوكب غير مأهول، ولا يمكن أن يُصبح مأهولًا لمجرّد وجود شخص فيه.

كانت الحرب الأهلية اللبنانية مستمرّة، لكن الأمل بقي موجودًا في أن تنتهي بسرعة؛ لم تنتهِ، الحروبُ يا نور لا تنتهي أبدًا، حتى حينما يُهيأ لنا أنها انتهتْ، حتى حينما يوقّعون اتفاقيات السلام، ويعود الجنود إلى منازلهم؛ ما يشبه منازلهم، وأُسَرهم؛ ما يشبه أسرهم، وأنفسهم، ما يشبه أنفسهم، ثمة حروب كثيرة ستندلع...

وتجدّد الأمل؛ راجَ حديثٌ عن إمكانية تقديم الامتحانات في عمّان.

واصلتُ الدّراسة كما لو أن الامتحانات في اليوم التالي. لكن إصابتي بالملاريا سحقتْ دماغي، فالتهبَ بالحنين إلى أحلام بدا لي أنها ماتتْ وأنا أموت، كما التهب هذا الدّماغ بالغربة، وانعدام المعنى".

***

كتبتُ كثيرًا من القصائد، معظمها تخاطبُ حبيبة غائبة، وتصفُ لها مكابدة المنفى، دون أن أعرف، للحقيقة، هل كنتُ أكتبُ مخاطبًا هالة، أم نور، أم حبيبة ضائعة مثلي، بجانبي ولا أرها، لعلها فاطمة نفسها بطلة، أو

---

[18] - كانت المحاولة الأولى لكتابة رواية عن تلك التجربة، قد بدأت في تلك العزلة الصحراوية، عام 1977.

ضحية "براري الحُمَّى".

السؤال الذي يمكن أن يتبادر إلى ذهن القارئ: هل كنتُ أحبُّ اثنتين في الوقت نفسه؟

أعرف أن الإجابة صعبة جدًا، وتتطلّب شجاعة غير عادية، ليس خوفًا من القارئ، بل من نور وهالة اللتين ستقرآن هذه الإجابة. لكنني سأقول: كنتُ فقدتُ الأمل في أن أكون مع أيٍّ منهما، مثل أي شخص سيموت في الغد، لن يتبقى له أحد بمجرّد أن يغمض عينيه، لذا، سيحبُّ في يومه الأخير، كلّ مَن كان أحبَّهم.

كلّ شيء في الصحراء كان يومًا أخيرًا لي.

***

واحدة من تلك القصائد عنونتها "ليل الغربة"، أرسلتها إلى عمّان، إلى جريدة الدّستور. كاتب القصة القصيرة المعروف خليل السَّواحري هو المحرِّر. بعد أسابيع وصلتْني منشورة. تلك كانت المرّة الأولى التي تُنشر فيها قصيدة لي. أما الغريب في الأمر، فهو كيف وصلتْني القصيدة: رأتها نتالي، أرسلتْها، مفاجأة لأختها هالة في أمريكا، فأعادتْ هالة إرسالها إليَّ؛ لسبب ما، بخلاف أختِها، حدّثها قلبها أنني لم أرَ القصيدة منشورةً.

عمّ النور ليل الصحراء، لم أنم تلك الليلة، كأن هناك من أخبرني أن القصيدة ستُنشر غدًا، فسهرتُ أمام باب الصحيفة، أو المكتبة التي تبيع الصحف حتى الصباح.

نشْرُ القصيدة الأولى، أو النص الأول، علامة فارقة في حياة كلِّ من كَتَبَ، وهذا ما سأعيشه مرّة أخرى في تلك الليلة التي سيُنشر فيها ديواني الأول. لكن ما لن أنساه أبدًا، هو استلام مكافأة نشر قصيدتين في مجلة "أفكار"، وهو أكبر مبلغ أحصل عليه من كتابتي حتى ذلك الحين: "28" دينارًا، يومها سألني أبي:

– ما الذي ستفعله بمبلغ كبير كهذا؟

– لا أعرف.

– ضعْه في جيبك ولا تناقشني في ما ستفعل به.

أخرجتُ المبلغ من بين صفحات "البؤساء" وانطلقنا إلى ساحة الحافلات.

إلى شارع بسمان مضينا، إلى نهايته من جهة البريد، البريد الذي كان يمكن أن أكون موظفًا فيه لو طاوعت خالي الكبير. قرأت: "محلات الديسي؛ بائعو أقمشة وخياطون".

بعد أسبوع، دخلتُ المكان مرّة أخرى، وحين خرجتُ كنت أحمل بدلتين: كحليَّة، وبُنيَّة، ولعل من المفارقات، أن ثمنهما كان 28 دينارًا، كما لو أن أصحاب المحل كانوا يعرفون تمامًا ماذا يوجد في جيبي وأنا أشير إلى اللونين.

***

في الوقت الذي كانت فيه هالة تكتب الرّسائل وتتحدّث عن عودة سريعة، تخيّلتُ، معها، أنها ستكون في استقبالي، مع أمّي وأبي وفدوى، في المطار، كان الوضع يزداد سوءًا مع نور؛ فالاعتقالات في عمّان، وكذلك المنْع من السّفر، والعمل، عقّدتْ فكرةَ العودة.

كانت نور تبتعد، وضاعف حديث هالة عن فرص العمل في أمريكا من ضبابية أحوالي، رغم قلبها الواضح الذي لم تنسَ أن تضعه في كلّ رسالة جديدة ترسلها إليّ.

رسائل بشير وقاسم أيضًا، زادتْني يقينًا أنهما أمسكا بخيوط مستقبلهما، حتى في الحبّ، كلّ واحد منهما بات يتحدّث عن امرأة واحدة لا غير.

قدّرتُ أنهما لا يريدان مضاعفة أحزاني باستعراض مغامراتهما العاطفية في المدينتين الأكثر انفتاحًا، ربما، في العالم: باريس ونيويورك.

بشير، بين رسالة وأخرى، كان يكتبُ لي: وفي النهاية أحبُّ أن أُذكِّركَ بفادية، كي لا أنساها.

***

ذات يوم وصلتْ إليّ أعمال غسان كنفاني، قرأتُ وقرأتُ، إلى أن وصلتُ إلى رواية "رجال في الشمس"، انتابني حسّ غريب، أنني لم أمُتْ في ذلك الخزان الذي مات فيه أبطال الرّواية، لسبب ما، لا أعرفه. ربما لأنني رفضتُ أن أدخل الخزان، يوم دخلوه، لأنني خفتُ عتمتَه، حرارته التي بلا نور، احتراقي بظلامه.

قراءتي للرواية جعلتْني أحسّ أنني اجتزتُ الحدود، سرتُ بعيدًا، محاذِرًا أن يغيب الصهريج عن عينَي، بينما صعد أبو الخيزران درجات مبنى الأمن،

وغاب... غاب طويلًا في داخله.

كان رجال الحدود يُمازحون أبا الخيزران، قائد الصهريج، ويسخَرون منه، من رجولته، هو المشغول في تلك الظهيرة الملتهبة بشيء واحد؛ أن يمضي بعيدًا عنهم. وفكّرتُ لماذا لم يغامر أبو الخيزران؟ لماذا لم يتحرّك في الليل؟ هل لخوفه من احتمالية وجود دوريات أمن؟ كان يمكن أن يصل في الفجر، صباحًا، وبذلك ينجو أولئك القابعون في جوف العتمة؛ رفاقي في الرّحلة.

سينجون بالتأكيد، ولكن الرّواية ستحرق قلبَ غسان وعقله، لو لم يكتبها، ولن نحترق بها في ما بعد، عندما نقرأها، وبذلك كانت ستفوتنا فرصة مشاهدة أجسادنا وهي تترمّد، ولحظات إذلالنا ونحن نُلقى تحت شمس قاتلة.

دائمًا كنت أخشى ذلك الاطمئنان الذي تزرعه فينا النهايات السّعيدة، للأفلام والروايات، لذا، إن حدث وأن انتهتْ هذه الصفحات بنهاية، قد تبدو للبعض، سعيدة، فإن عليهم أن يُعيدوا قراءتها من البداية، وسيجدون أنها ليست كذلك، فلطالما تساءلتُ: هل تمحو النهاية السعيدة الحياةَ الحزينةَ؟ أحيانًا تكون الرواية كلّها نهاية، من سطرها الأوّل إلى سطرها الأخير، أو تكون كلها بداية، فبعد كلّ نهاية سعيدة بدايةٌ من الصعب أن نعرف نهايتها.

ليس أبو الخيزران من صرخ في تلك الصحراء، بعد أن وجدهم ميّتين: "لماذا لم تدقّوا جدران الخزان؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟"، أنا الذي صرختُ. لماذا يُمنَحُ هذا المتفاخِر شرفَ إطلاق صرخة حارقة كتلك؟

في تلك الغرفة الصحراويّة، غرفتي، كنت أحترق بحمّى الملاريا، وكان حرس الحدود وآباء الخيزران، وكلّ مَن هم على شاكلتهم، يحيطون بها. كنت الوحيد الذي نجا ولم ينجُ، كنتُ في "براري الحُمّى"، تتمّة "رجال في الشمس"، كانوا يتضاحكون مطمئنين، كما لو أنهم والحرّاس يعرفون أنني في الدّاخل، ويواصلون اللعبة، ويتراهنون: كم ساعة يمكن أن يصمد في جوف غرفته؟ في جوف رأسه الملتهب؟ في جسده الذي يقاوم الموت بارتعاشه المجنون؟ كم ساعة سيحتمل العتمة؟ هل سيجرؤ على طرْق الباب من الداخل، أو فتح الشّباك؟ هل سيصرخ أولًا، أم يطرُق أولًا؟ هل سيموت؟

في ذلك الليل الصحراوي المقفل الذي تلعب فيه نجوم السّماء كلَّ الأدوار، إلّا دور الدّليل، وصل غسّان، وقرأته، فنجوتُ، لأنه الدّليل.

امتدَّ طريق عودتي أمامي واضحًا، ثمانية أشهر كاملة، لكن ثمة شيئًا فيّ كان قد تغير إلى الأبد. وبدا أن قلبي بحاجة لاختبار ما، ليلملم نفسه، ليقول لي بوضوح إنه لم يعد حبيس تلك العزلة، إنه في مكان آخر أيضًا، في كلّ مكان.

***

متأخّرة كالعادة أسابيع طويلة، وصلت نسخة الجريدة التي تحمل خبرًا موسّعًا عن الزّعيم الطلابي الجنوب إفريقي، ستيفن بيكو، الذي قتِلَ في ظروف غامضة داخل معتقلات النظام العنصريّ هناك، لم يكن قد تجاوز الثلاثين، هزّني الخبر كثيرًا، أنا ابن الثانية والعشرين، فإذا بي أتحوّل إلى عاصفة غضب وحزن، وأكتب له:

في زمن القهر المتمدِّنِ
تكبَرُ في الظلمةِ مأساة الإنسان الباقي في العالمْ
منبعها آلات العصر الهمجيَّةِ من مُحتَلينْ
تفقأُ أعينَ أحلام الأرض... الفلاحينْ
بالقمع وأنيابِ السكينْ
وطوابير رجالَ الأمنِ تُحيل المنزلَ والشارعَ والجامعةَ
مصائدَ للناس المظلومينْ
يتسلل سـيفُ الليل يُقطِّع أغنيةَ الفجر الإفريقيِّ بنار الغرب الدَّمويَّةْ
إفريقيا تبقى أُغنيَّةْ
حالمةً كوجوه الأطفالْ
تطلعُ من ساحات القرية
من بين الأنهار الحيَّةْ
إفريقيا تبقى أغنيّةْ
تنمو حتى تصلُ الشَّمسا
فتُزلزِلُ ركنَ التحقيقْ
ضحكاتُ الفَجْر المكبوتْ

تصرخُ في وجه عدوِّ الشَّمسِ
غدًا... أو بعد غدٍ ستموتْ

قصيدة من خمسين سطرًا، لم أنسَ تثبيت تاريخ كتابتها 25 أيلول، سبتمبر، 1977. إنها ثاني قصيدة رثاء أكتبها لإنسان بعد رثائي للأستاذ ربيع. كيف انتقلتُ فجأة من "الوحدات إلى جنوب إفريقيا؟ كان علي أن أنتظر طويلًا لأسمع نفسي تجيبني عن السّؤال.

بعد عشر سنوات تمامًا، سأدخل السّينما لمشاهدة فيلم "صرخة الحريّة" الذي يسرد قصة بيكو، من بطولة دينزل واشنطن وإخراج ريتشارد أتنبور، الذي سبق وأن أخرج فيلم "غاندي"، لكنني سأخرج غاضبًا من الفيلم، لأن السّينما حذفت أكثر من أربعين دقيقة منه، دون أيّ سبب غير اختصار دقائقه الـ 157، لأمضي من فوري لكتابة مقال ضدها، فور مغادرتي القاعة.

***

لن يستطيع المرء وصف إحساسه وهو يغادر قبرًا أمضى فيه سنتين، إلى جانب طلبة أحبّهم، بعضهم ماتوا، ومدِّرسين لم يكن من السّهل أن تتحمّل جثثهم لهب الصحراء في طريقها لأحبتهم، في أكثر من بلد، فدُفنوا في أَسرَّتهم؛ ورغم ذلك يوصفون بأنهم "وافدون"؛ تعطي عمرك لكلّ من حولك، وتكون وافدًا، حفنة ريالات مقابل سنتين من عمرك وتبقى وافدًا، مقابل حياتك وتموت وافدًا. كم هو الثمن الحقيقي لسنتين كاملتين من عمر الإنسان؟

ولكنهما العامان الأكثر تأثيرًا، اللذان رأيت فيهما وعشتُ عذابات الآخرين، ففهمتُ عذابي أكثر.

هل قلت هذا الكلام قبل الآن؟

كانت مدينة "جدّة" أجمل مما رأيتها من قبل، والفندق الصغير المتواضع أجمل، أما تذكرة العودة فأشبه بلوحة فنيّة مُذهِلة لا يستطيع أحدٌ أن يُقدِّر ثمنها، لأنها فوق كلِّ ثمن.

من يستطيع أن يقول لي ما هو ثمن تذكرة النّجاة؟

26

لم تكن العودة إلى عمّان سهلة، وإن كان لعمّان صورة الجنّة، طوال فترة وجودي في الصحراء.

بعد فراقها لعامين، يغدو التأقلم، حتى مع الجنة، صعبًا.

في كلّ مكان تذهب إليه تترك جزءًا منك، أما إذا عدتَ كاملًا كما ذهبتَ، فلا معنى لوجودك في ذلك المكان.

لا أدافع عن الأمكنة عبثًا، بل لأنني على يقين من أنّ في كلّ مكان شيئًا ما، لا يوجد في سواه، إن لم نكتشفه في لحظته تلك، فهذا شكل من أشكال عمى المكان، مثلما نقول: عمى الألوان، والأمر يتعلق بعمرنا أيضًا؛ بمرورنا في الزمن، لأنني رأيتُ أن أولئك الذين تمرّ أعمارهم كما لو أنها يومان متشابهان، بينهما ليلة لم يناموا فيها، سيكونون مصابين بمرض آخر هو عمى الأزمان.

لا أعرف عدد البشر الذين استطاعوا النجاة من كلّ هذا.

***

في هذا العام، أعني الآن، 2020، الذي عمّ فيه الوباء، ربما أكون قد مُنِحتُ أفضل فرصة لتأمّل الماضي، بتحوّلات أزمانه، والحاضر الرّابض على الأبواب منذرًا بالموت، والقادم الذي كان في طفولتي مستقبلًا، ولكنني عملتُ الكثير لكي يكون، حين أصله، حاضرًا.

***

تابعتُ مسار حياة نور، وتابعتُ مسارَ حياة هالة، كما أتابع مسار الطائرة على الشاشة أثناء التّحليق.

تابعتُ حياة نور بأدقّ تفاصيلها، لم تكن سعيدة بمن عَرَفتْهم، وقد تبيّن أن أسوأهم ذلك الأقرب إلى قلبها، زميل دراستها في القاهرة، الذي رافقها في رحلة سياحية إلى "أدنبرة"، عاصمة إسكتلندا. كانوا مجموعة من الزملاء

الذين سافروا للتخصص في لندن، وزملاء آخرين.

نور التي حملتْ معها، لتلك الرحلة، ما يكفي من ملابس حسب ظنّها، كفتاة تفتخر بأنها قاهرة للبرد، اكتشفت أن ثلج أدنبرة مختلف عن كلّ ثلج أذابته بمرور خطاها عليه.

طلبتْ منه _ذلك الذي كتبتْ لي عنه طويلًا_ وهي تنظر إلى معطف في واجهة أحد المتاجر، أن يُعطيها بعض المال لأن ما معها لا يكفي. خجلتْ أن تقول له: "اعتبره ديْنًا"؛ ما بينهما أكبر من أن تقول ذلك.

- إذا كنّا سنرتبط ذات يوم، فعليكِ، منذ الآن، أن تعتادي على أن المساواة كاملة بيننا، لن أكون عالة عليكِ، ولن تكوني عالة عليّ.

لم يُعْطها ما طلبتْ...

عادتْ نور إلى لندن مريضة، لا بسبب البرد وحده. كتبتْ إليّ: "لن أراه ثانية. حاولَ من طرفه. لكنه على يقين من أنه لم يرتكب خطأً".

***

لم تحدِّثني نور بوضوح عن علاقات عاشتها، نَمَتْ وذبلتْ؛ أشارتْ دائمًا إلى كلّ علاقة، كما يشير إنسان إلى بيته، دون أن يدعوكَ إلى دخوله، وأنت على بعد أمتار منه.

ذات مرّة، أرسلتْ إليّ: إذا امتلكتُ، يومًا ما، شجاعة الجلوس للكتابة، سأكتب كتابًا بعنوان "رجالي"، بالطبع سأكتبُ عنكَ، ولكن لا كما سأكتب عنهم، أنتَ غير. فقط لو أعرف من أنتَ لي، فربما لو كتبتُ هذا الكتاب سأصفو وأصل إلى شيء ما في داخلي لم أصِلْه حتى الآن، وعندها ستكون نهاية الكتاب هي الجملة التي أقول لك فيها مَن أنتَ بالنسبة إليّ.

في نهاية تلك الرسالة، طلبتْ منّي ألّا أشجِّعها على الكتابة، لأنها، وإن وصلتْ إلى حلّ لغز من أكون لها، فستكون قد عانت طويلًا من استعادة تجارب أخرى، أجمل ما حدث أنها انتهتْ.

ذكرتْني بقاسم، الذي خشيَ الكتابة دائمًا، فعندما طلبتُ منه أن يسجِّل لي، ولو في نقاط، بعض أهم ما حدث معه في الكويت، بعد مغادرته للمخيم، كتبَ: وهل أنا مجنون لأفعل هذا؟ لكنني أعدكَ إذا التقينا في بلد ثالث، أن أُخبركَ بكلّ ما حدث.

لم أعرف، طوال الوقت، إن كانت نور تقول لي الحقيقة، وهي تمرُّ سريعًا في حديثها عن علاقاتها، أم أنها تريدني أن أجد طريقًا آخر إلى الحياة، وفيها، بعيدًا عنها، هي التي اعتبرتْ، دائمًا، أن أفضل وسيلة لعيش الحياة هي الوقوع في الحبّ، لكنني حتى اليوم، لم أعرف إن كانت تلك نصيحتها لغيرها، أمْ أُمنيتها لنفسها.

***

بوْح نور المستمر فتّح لي شبابيك أوسع، لأُطلَّ على هالة بجرأة أكبر؛ فلستُ أنا الذي يبتعد، نور تبتعد؛ وإن ظلتْ حريصةً على أن تكون على مسافة تتيح لي، دائمًا، أن أراها.

كلّ ما حدث بيني وبين هالة أخبرتُ نور به، كما كتبتُ لهالة بجرأة عن نور، ولعلّي كنت أفعل ذلك لأنني توقّعتُ عودتها بسرعة بعد تخرّجها، كنت أريد أن أقول لها كلّ شيء، قبل وصولها، مع أنه سيتبين لي أنني لم أكن مضطرًّا لذلك.

***

أفضل ما حدث، أنني أنهيتُ ديواني الأول، لم أُحدِّثْ هالة عنه، أما نور، فقرأتْه على دفعات؛ كلّما أنهيتُ قصيدة أرسلتُها إليها.

- "أكبر سعادة يمكن أن أعيشها في حياتي، أن أكون في مدينة ما، وأدخل مكتبة، فأجد كتبكَ فيها"، ذلك حلم هالة الذي فتَنَ خيالي.

لم أعرف إن كان إخفائي أمرَ الديوان، عن هالة، سيسعدها أم سيغضبها. وحينما راحت المقالات تُنشر عنه في الصحف الأردنية والعربية، كان أكثر ما يخيفني أن تعرف أنني أصدرت الديوان الذي أحببتُ أن أفاجئها به، في المكتبات.

اتصلتْ بي نتالي تهنئني، سألتُها إن كانت هالة تعرف. نفتْ، فرجوتها: أرجوكِ، لا تخبريها.

لعلّ في هذه الحكاية طفولة مبالغًا فيها، أو براءة في غير زمانها، ربما.

حصول الديوان على جائزة أفضل ديوانٍ شعر في ذلك العام، ضاعف خوفي. كرهتُ الجائزة، لم أكن أريد الجائزة حقًّا.

27

وصول الإسرائيليين إلى بيروت في ما بعد، دفعني لكتابة أغنيات جديدة، أصبحتْ رائجة، لكن اشتداد الحصار دفعني للذهاب إلى مبنى منظمة التحرير بعمّان. كنتُ مُصرًّا على التّطوّع. لم أخبر أحدًا بذلك، لا أمّي ولا أبي، ولم يكن هناك وقت كافٍ لأن أكتبَ لهالة ونور. أما الشيء الذي لم يعرفه أحد، سواي، فهو أن بشير أصبح في بيروت، بعد قيام السّلطات الأمريكية بترحيله قبل أن يُتمّ متطلبات الحصول على الدكتوراه بثمانية أشهر.

لم أكن أتقن الهتاف، حتى خلف من يهتفون. خجولٌ يكتبُ الأغاني للناس، ويغنونها في مظاهراتهم، لكنه لا يملك جرأة غنائها معهم، وفي الوقت نفسه يملك جرأة التطوّع للالتحاق بالمقاومة المحاصرة.

- هناك، في بيروت، المقاومة لا ينقصها شيء، السلاح موجود والرّجال موجودون، ما يهمّهم أن يقف الناس معهم؛ بمظاهراتهم، بتأييدهم، بأغنياتهم.

ولأن من كنت أتحدّث معه يعرفني، أضاف: وبأشعارهم.

خيبة أمل أخرى، أعيشها بعد أن عشتُ خيبة الأمل في معسكر الأشبال، المعسكر الذي وفِّقْتُ في أن أكون حارسًا أمام بابه، بتوصية من الأخ جورج.

يومها، سلّموني سلاحًا لم أتدرب عليه، سألتُهم: ما الذي يمكن أن أفعله بسلاح لا أعرف استخدامه.

- لا ضرورة لأن تعرف، فأنتَ حارس، وهنا، لن يهاجمنا أحد، لكن وجودك بالباب أمرٌ ضروري، يُثبتُ للناس أننا مستعدّون، ويقظون، أفهمتَ؟

لم أفهم.

فما قالوه ذكّرني بالعملية الوهمية التي خدعوا فيها نور وبقية الزّهرات.

28

وجود هاتف في بيتنا ـبتسهيلات صحافيةـ وآخر في الجريدة، ساهم في أن أظلّ على تواصل مع هالة. كنّا نتحدث مرّة كلّ أسبوعين، ودائمًا يوم السبت.

ظهيرة يوم الجمعة الحادي عشر من شهر شباط 1983، اتصلتْ بي، وأخبرتْني أنها لن تستطيع الحديث معي غدًا السبت، لأنها مريضة قليلًا، ومُضطرّة لدخول المستشفى لإجراء عدة فحوصات، طلبتْ مني ألّا أقلق، إلّا أنها بالغتْ في ترديد تلك الوصيّة المستحيلة، فقلقتُ أكثر.

تماسكتُ كي لا أكون حِمْلًا عليها، هي التي بحاجة لكلّ قواها لمواجهة مرضها، مرضها الذي لم تخبرني أي شيء عن طبيعته.

... وببراءة أيضًا، مبالغ فيها، تمنيت لو أنها في لندن، لأنها ستكون في أمان بين يدي نور الطبيبة، رغم أنني لا أعرف إن كان تخصص نور سيكون نافعًا لدحْر مرضها.

***

لم أستطع كتْم خوفي، اتّصلتُ بنور، مكالمة قصيرة أجل، مثل كلّ المكالمات الدولية في ذلك الزمان، بسبب الكلفة العالية. كان الكلام له ثمن، وليس كاليوم.

- إذا كنت تظنّ أن هناك خطورة، فأنا على استعداد للسفر إليها، إلى أمريكا.

فاجأتْني نور بعرْض لم أتوقّعْه، عرْض قالته بروح قوية لا تقلّ حماسة عن حماستي يومَ طلبتُ الذّهاب إلى بيروت، تحت القصف، للتطوّع.

29

بعد ظهر الاثنين الرابع عشر من شباط، فبراير، سمعتُ طَرَقَات على باب مكتبي في الجريدة. من مكاني دعوتُ الطّارق للدخول، انتظرتُ قليلًا، لم يدخل، وسمعتُ الطَّرْقَ ثانية، نهضتُ، فتحتُ الباب، تجمّدتُ، اشتعلَ قلبي بنبضات متسارعة، هادرة، ملأت الممرّ.

أمام الباب وقَفَتْ، بكلّ ما فيها من عذوبة افتقدتُها طويلًا.

ستّ سنوات مضتْ، حوَّلتها إلى امرأة مذهلة.

- ماذا؟ ألن تدعوني للدخول؟

خطتْ خطوتين إلى الداخل، غير منتظرة الإذن، واحتضنتني برفق غريب يفوق أيّ عناق حار.

- كلّ عام وأنتَ بخير.

- كلّ عام وأنتِ بخير؟ قلت مرتبكًا وأنا أفتش في ذاكرتي عن المناسبة التي دفعتْ هالة لأن تأتي من أقصى الشاطئ الغربي للولايات المتحدة، عابرة القارة الأمريكية، ظلمةَ الأطلسي، وأوروبا لتصِل إلى باب مكتبي.

- اليوم عيد الحبّ، أم نسيتَ؟

- عيد الحب، طبعًا؛ كلّ عام وأنتِ بخير.

عرفتُ عيد الحبّ على استحياء، أنا القادم من المخيم، سمعتُ به للمرّة الأولى من هالة نفسها. يومها، صنعتُ لها بطاقة بنفسي، رسمتُها وكتبتُ فيها خمسة أبيات من شعر نزار قباني. لم أجرؤ على الدّخول إلى متْجر لشراء بطاقة مزيّنة بقلوب حُمْـر مُتَّقدة، مُعلنًا بنفسي عن نفسي أنني واقع في الحبّ. هذا ما كان، أمّا أن تأتي هالة من أقصى العالم، إلى عمّان، لتقول لي وجها لوجه: "كلّ عام وأنت بخير"، فذلك أمرٌ يفوق الخيال.

***

في الممرّ الضيّق أمام الباب، لاحظتُ أن حركة العابرين تضاعفتْ ثلاث مرّات على الأقل، وكلّما مرّ أحدهم، أو إحداهنّ، حرص/ ت على إلقاء نظرة

إلى داخل غرفتي، وإلقاء التحية بتعمّد واضح، في الوقت الذي لم أستطع فيه إخفاء ضيقي مما يحدث.

لم يكن صعبًا عليّ أن أعرف سبب الدّهشة التي عمّت الجريدة في ذلك اليوم، إذ لم يسبق لي أن رأيتُ فتاة تزور الجريدة، تتمتّع، حتى، بنصف هذا الجمال.

نظرتْ هالة إليّ بابتسامة كاشفة عن كلّ ما في روحها من بهجة، وامتدّتْ يدها إلى حقيبتها، أخرجت مُغلّفًا أبيض وناولتْني إياه دون أن تفارقها تلك الابتسامة.

قرأتُ: "كلّ عام وأنت الحبّ كلّه".

– هذا العام، قررتُ ألّا أتركَ للبريد مهمّة القيام بحمْل قلبي إليكَ، قلتُ، سأُسلِّمك إياه من يدٍ ليدٍ، من قلبٍ لقلب.

تذكّرتُ أنني لم أرسل لها رسالةً، أو بطاقة، فازداد حرجي.

– لا تعتبي عليّ، نسيتُ أن أرسل إليكِ بطاقة هذا العام. هل تقبلين أن أرسم لك واحدة وأقدِّمها لكِ الآن؟

– "أنتَ قدّمتَها فعلًا". ومدّتْ يدها ثانيةً إلى حقيبتها، أخرجتْ مُغلّفًا كبيرًا، تبيَّن أن فيه كتابين، لم يكن صعبًا عليّ أن أعرف أنني كاتبهما.

– هل يمكن أن توقّع لي مؤلّفَيكَ؟ كنت أظنّ أنني أعدّ لك أجمل مفاجأة بزيارتي هذه، لكنك أعددتَ لي مفاجأة أكبر منها بكثير، لقد حققتَ حُلمي بأن أجد نفسي ذات يوم وجهًا لوجه مع كتبكَ. أما الأغرب من هذا، فهو بائع الكتب، جوار مبنى البنك العربي، "أبو علي"؛ تعرفه؛ رآني أتأمّل الكتب دون أن تمتدّ يدي لتصفّح أيٍّ منها. قال لي: "إن كنتِ محتارة بشأن الكتاب الذي ستختارينه، فاسمحي لي أن أختار لكِ ما سيعجبكِ كثيرًا، ولكن عليكِ أن تنتظري ثلاث دقائق، إذا كان وقتكِ يسمح بهذا، فالكتابان اللذان اخترتُهما لكِ بعتُ آخر نسختين منهما قبل ساعتين". اختفى داخل الكشك قليلًا، وظهَر ثانية، وهو يؤكد لي: "ثلاث دقائق فقط، بل ربما أقلّ".

انشغلتُ بتأمّل وجوه العابرين، والأبنية على الرّصيف الثاني، وضجّة وسط عمّان، محاطة من أربع جهات برائحة الكنافة التي تملأ الزقاق الصغير في ظلال البنك. سمعتُه يقول: "تفضّلي". تجمّدتْ يدي في الهواء، وأنا أحدّق إلى

الغلافين أمامي. "ألا تقرئين الشِّعر؟"، سألني، "اطمئنّي، إذا أعجبتك القصائد تدفعين ثمن الديوانين في ما بعد، لكن صدّقيني، ستدْعين لي". تناولتُ الديوانين، تأمّلتهما وكأنهما طفلاي اللذان حملتُ بهما سنوات وأنجبتهما في ثوان على ذلك الرّصيف. أخرجتُ عشرة دنانير من حقيبتي، ارتدَّتْ يداه إلى الوراء: "لن آخذ ثمنهما منكِ قبل أن أسمع رأيكِ فيهما"، بل سأدفع ثمنهما الآن، لأنني لم آتِ إلى هنا إلّا بحثًا عن كتب هذا الشاعر. غريب أن يحدث هذا، صحيح؟

والآن، هل ستتفضّل عليّ بتوقيع ديوانَي شاعري المفضّل؟".

أمسكتُ يدها الممتدّة بالديوانين، لامسًا أصابعها برفق، مستعيدًا مسارنا كلّه، من لحظته الأولى أمام بوابة المعهد، إلى تلك اللحظة، وكأنني في حلم.

وانطلقتْ ضحكة خافتة جميلة:

– أرجو ألّا يكون الإهداء مقاطع من شِعر غيركَ.

– الصحيح؛ كلّما حاولتُ الكتابة لكِ اكتشفتُ أنني لم أصبح شاعرًا بعد.

– أنتَ كتبتَ كلّ ما أتمنى أن أقرأه قبل وصولي، ودقّتْ بسبابة يُمناها على الديوانين اللذين وضعتْهما على طرف الطاولة. اختر أيّ مقطعين تحبّهما، واكتبهما، سيكونان أجمل إهداءين.

اخترتُ، وناولتُها الكتابين.

نظرتْ إليّ طويلًا، إلى درجة أحسستُ معها أن وجهيَ باتَ أكثر احمرارًا من أيّ بطاقة حبّ، وقالت: هناك شيء لم أقلْه لك من قبل، أحبّ أن أقوله الآن: في المرّة الأولى التي قرأتَ فيها شعركَ على خشبة المسرح، وصلتُ متأخّرة؛ أولًا بسبب تردّدي في حضور ذلك النشاط، ثم لمعرفتي أن المسرح لم يسبق أن رأيته ممتلئًا. ما أدهشني في ذلك المساء أنني لم أجد لي مقعدًا فيه. كنتُ على وشك المغادرة، ربما لأنني لستُ من جمهور المسرح، لا لأنني لا أحبّ المسرح، ولكن لأنك لا يمكن أن تكون من جمهور المسرح في وقت لا وجود فيه لمسرحيات تعرض كفاية في المكان الذي أنتَ فيه. قصيدتكَ شدّتني، لا لأنك أوّل شاعر أستمع إليه يلقي قصائده مباشرة. أحببتُها، وحين بدأتِ المسرحية أدركتُ أنها تستحقّ كلّ ذلك الجمهور الذي تجمّع من أجلها. ربما أغرب ما حصل، أنني أنا التي لم تجد مقعدًا لها في مسرح بذلك

الاتساع، اكتشفتْ وجود ذلك المقعد الشاغر لكَ في قلبها.

***

خرجنا تحت مظلّة واحدة، وصلنا الباب المؤدي إلى الشارع.

- هناك أشياء أخرى أحضرتُها لكَ، لكن كان من الصعب عليّ أن أحملها معي إلى هنا، خفتُ أن تبتلّ، فتركتُها في الفندق.

- في الفندق؟

- لا أحد يعرف أنني هنا إلا أختي سوزان التي في أمريكا، ونتالي التي في عمّان، فلو عرفت نتالي أنني أتيتُ ولم أرها، فأنت تعرفها، لا أظنّ أنها ستتحدّث معي طوال الحياة.

***

ما فعلتْه هالة، فاق كلَّ فكرة خطرت ببالي عن الحبّ. لذا، ستمرّ عشرة أيام قبل أن أبدأ باستيعاب ما حدث، ولكن، بمساعدة نور.

اتصلتُ بها. أوّل سؤال سألتْه لي:

- ما هي أخبار هالة الصحيّة، هل هناك شيء جديد؟

- هالة في عمّان؟

- ماذا؟

- هالة في عمّان، كلّ ما أخبرتْني به عن المستشفى، واعتلال صحّتها، لم يكن صحيحًا، كانت تبحث عن فترة من الزمن كافية، لتطير من أمريكا إلى الأردن، وتصل في يوم عيد الحبّ.

- من هناك جاءت للاحتفال معكَ بعيد الحب؟ حتى أنا المجنونة، لا يمكن أن تخطر ببالي فكرة عبقريّة كهذه.

انتشر صمتٌ غريب لا أعرف كيف استطاعت أسلاك الهاتف احتماله، ولما عاد صوت نور حارًا، كان يحمل الكلمات التي لم أتوقّعْها أبدًا:

- تزوَّجْها، هذه الفتاة يجب أن تتزوّجها، لقد قامتْ بشيء عظيم، لا أستطيع تخيّله، مع أنه حدث. تزوّجها. وتذكّر دائمًا أن هناك علاقات تكبرُ بها، وعلاقات تصغرُ بها، وهناك أشياء تفعلها فتُغْنيْكَ، وهناك أشياء تفعلها فتُفقِرُكَ وتنقصكَ، فانتبه. إبراهيم.. تزوّجها.

- ليس الأمر بهذه السهولة.

- عليكَ؟ أمْ عليها؟ أم عليّ؟ بالنسبة إليّ المهم أن تكون متأكّدًا من أنكَ تحبّها؛ هكذا، فقط، لا تجرحْني. أما هي، فأظنّ أن من تقطع كلّ هذه المسافة لتقول لك "أحبّكَ"، لن يصعب عليها أيّ شيء. هذه فتاة من العار أن تُهزَم أمام أيّ رجل، حتى لو كان هذا الرجل هو أنتَ. إن لم تَقُم أنت بالخطوة التالية فستهزمُني، أنا التي أحسستُ، دائمًا، أن كلّ نصر تحقق في حياتي، تحقّق لأنكَ فيها.

- وأنتِ؟

- أنا، أنا أمرٌ آخر، كما أنتَ لي أمرٌ آخر. أنتَ تعرف رأيي: "كلّما التقى نهران، اتَّسع المجرى، وتباعدت الضِّفّتان". أريد أن نواصل جرياننا جنبًا إلى جنب، يمكن أن نتقاطع أحيانًا فنختلط، فأجْري وبي بعضُ مائك، وتجري وبكَ بعض مائي، لكننا مهما ابتعدنا، ولا أظنّنا سنبتعد، فسنلتقي في البحر الكبير. وإن كان مسموحًا لي أن أنصحك الآن بشيء سأقول لكَ: كلّ من لا يتقدّم يتراجع، وبقاؤك في مكانك تراجعٌ أيضًا. على أيّ حال، سأخبركَ من أنتَ حينما نلتقي قريبًا، هذه المرّة أعِدُكَ: سأخبرك.

- نلتقي أين؟

- في عمّان بالطبع، لحضور حفل زواجك. هل تعتقد أنني سأفوّت مناسبة كهذه؟ هل أنا مجنونة لأفعل ذلك؟ بالتأكيد، كنت أحبُّ أن يكون حضوري إلى عمّان مفاجأة لك، ولكنها ستكون مفاجأة بلا طعْم، مُكررة بعد ما فعلتْه هالة. اسمعْني؛ سأتركك أسبوعًا، وأتصلُ بكَ لسماع الأخبار المفرحة، ولكن عليك أن تتذكّر أن كثيرًا من خسارات البشر تحدث دائمًا لأنهم تأخّروا خطوة واحدة، واحدة فقط لم يجرؤوا على القيام بها.

ما حيرني فعلًا، أن نور تحدّثت بوضوح وبساطة لم أتخيّلها، ربما لا يوازيها، في القدرة على إثارة الدهّشة، إلّا وصول هالة من ذلك البعيد.

***

- "أنتَ تعرف أن أمر زواجنا مسألة معقّدة"، قالت هالة.

- أعرف، وإن كنتُ أظنّ أن المسألة ليست صعبة مع عائلتي، فهم أحبوكِ دائمًا، وأمّي لا تتوقّف عن السؤال عنكِ، وتتبّع أخبارك، أما فدوى، فمسألة أخرى؛ فدوى كبرتْ... لن تعرفيها الآن ربما، لكن أغرب ما يحدث معي

دائمًا، أنها لا تسألني عنكِ إلّا حين أكون مُنهمكا في كتابة قصيد، وكأنها تريد أن تقول لي "أعرف أنكَ تكتب لها الآن". فدوى تتعامل معكِ كأنكِ قادمة من حكاية تفوق الخيال، قلتُ لكِ هذا، أليس كذلك؟

- هذه البنت تغلَّبتْ عليّ منذ أن رأيتُها، أتعرف لماذا؟ لأنها قادمة من حكاية واقعية تفوق الخيال، أظنّ أن أفضل قصيدة كتبتَها بكلّ روحكَ، حتى الآن، هي قصيدة وجود فدوى في هذا العالم.

- ومسألة زواجنا؟

- دعنا نفكّر.

30

كانت الثمانينيات من القرن الماضي حافلة بكلّ شيء، لذا، سأتوقّف عن الرّحيل لما بعدها، باستثناء ذلك الرحيل الذي يحدث خطفًا، وتمليه سطوة الذاكرة ومسار الكتابة.

-1

عودة نور، الأولى، ارتبكتْ، فألغتْ سفرها.

لم تسِر الأمور كما تمنّينا؛ معارضة أهل هالة للزواج جاءت قاطعة، كأنهم ينتقمون منّا نحن الاثنين بسبب ما سببته قصّة حبّنا من مشكلات لهم، اجتاحتهم في النهاية، وغمرتْ المعهد وملأت آذان الدّارسين والمدرِّسين والمديرين والعاملين فيه، وفاضتْ، حتى وصلت إلى آذان أناس آخرين. ردود الفعل الغاضبة كانت على وشك أن تتجاوز الاعتراض إلى ما هو أخطر منه بكثير، حين ظهر السلاح، ووجدتُ نفسي وجهًا لوجه مع فوهة مسدس ملتصقة بجبهتي، وإصبع ابن عمها العسكري على الزّناد.

تنامى التردّد في عائلتي. أمّي قالت بغضب:

- وهل هو زواج أمْ حرب؟

فدوى التي باتت أكثر خوفًا عليّ، تحوَّلتْ إلى ظلٍّ رحيم ملتصق بي، كأنها لم تكن واثقة بإخلاص ظلّي لي.

ولم يطل الوقت قبل أن تطير عائلة هالة إلى أمريكا، مع جدّتها، لتستقر هناك، تاركةً خلفها نتالي التي تزوّجت.

-2

بشير الذي استقر في بيروت لفترة، قبل أن ينتقل إلى دمشق بعد الحرب، كان وجوده في بيروت تُهمة في عمّان. أما الذي لا يقلّ فداحة عن ذلك، فهو تراجع بصره إلى درجة لم تعد تتيح له فرصة السَّير وحده. ذلك لم يُفْقِدْه خفّة ظلّه، لا في عمّان، ولا في بيروت.

مع اشتداد الحصار الإسرائيلي، جلس المقاتلون يوزّعون المهام. لم يكن بشير مقاتلًا، بل صحافيًّا، ولكن كان عليه أن يحمل بندقية. عندما سأله مسؤول المجموعة عن المهمة القتالية التي يعتقد أنها تلائمه، أجاب بثقة أدهشتْ الجميع:

- قيادة وحدة المدفعية؟

سألوه باستغراب:

- ولماذا؟

- تعرفون أن القوات الإسرائيلية باتت منتشرة في كلّ مكان حول المدينة، وأظنّ أنني، باعتباري لا أُبصرُ تقريبًا، أفضل شخص يمكن أن يقود عمليات القصف العشوائي.

ضحكوا ليلتها كثيرًا...

-3

عانى بشير بعد عودته إلى عمان باحثًا عن عمل، متنقلا بين صحيفة خاصة ومجلة ثقافية خاصة.

- "المال هو أفضل خادم متذلّل للسلطات في أزمنة القمع"، جملة ظلّتْ ملتصقة بلسان بشير، حتى بعد فقدانه القدرة، تمامًا، على العمل بسبب كبر سنه، وتزايد مشاكل عينيه.

بعد تقاعده، بدأ يقول: المال أفضل خادم متذلل للسلطات، حتى بعد زوال القمع؛ لأن (المال) يعتقد، وهو مصيب في هذه، أن القهر ما زال موجودًا، وعليه ألا ينسى ذلك، وأن أي فترة انفراج أو تحوّل ما هي إلّا مصيدة تنصبها الدولة لهذا المال لمعرفة مدى إخلاصه لها.

... وما دمنا نتحدّث عن بشير هنا، فأظنّ أن من حقّه عليّ أن أقفز للمستقبل لأسجّل _قبل الوصول إلى الصفحة الأخيرة_ أنه اتّصل بي ذات يوم، وأخبرني أن لديه مفاجأة.

ذهبتُ.

تحدّث باندفاع عن رواية لي، وذكّرني كم يحبّها، لذا، قرّر أن يعيد قراءتها من جديد. بعد أن أتمّها سأل نفسه:

– ما الذي يمكن أن أفعله بآخر ما تبقى لي من قوة إبصار، قبل أن أفقد نظري تماماً؟ أجبتُ نفسي: سأترجم هذه الرواية إلى الإنجليزية. وهذا ما فعلتُه.

– هل ترجمتَها إلى الإنجليزية؟ كلّها؟

– كلّها.

– بقيتْ هناك بعض الكلمات التي سأسألك عنها، قبل أن أعتمد ترجمتها. لم أكن أريد أن أسألكَ قبل أن أُنهي الترجمة، حتى لا تظنّ أنني لم أعد أتقن القراءة.

بعد أشهر قليلة، اتصل بي وقال:

– أظنّ أننا أنجزنا الترجمة في الوقت شبه الضائع.

– لماذا تقول هذا؟ سألته.

– بصراحة منذ ثلاثة أيام لا أستطيع أن أرى أيّ شيء، ولكنني كنت أريد أن أتأكّد من هذا قبل أن أخبركَ.

-4-

كان على نور، في ما بعد، أن تعاني كثيرًا وهي تبحث عن عمل، رغم امتلاكها مؤهلات فتحتْ لها الأبواب، واسعة، للعمل في مستشفيات بريطانية. قالت:

– الله يغفر الخطايا، أما الحكومات، للمفارقة، فلا تغفر لنا دفاعنا عن أيّ شيء جميل، حتى الوطن نفسه تعاقبنا إذا أحببناه أكثر، بحجَّة أنها المسؤولة عن مراقبة منسوب الحبّ له في دماء مواطنيها، كما تدعي أنها المسؤولة عن الدفاع عنه.[19]

---

[19] – وما دمْنا وصلنا في الحديث إلى هنا، فلا بدّ لي من أن أتذكّر بعض ما حدث في مستقبل تلك السنوات؛ فقد تمّ القبض على اثنين من مدراء المخابرات بعد أكثر من عشرين سنة، بتهم الفساد، أولئك الذين أحالوا حياة البشر إلى جحيم، بحرمانهم من العمل والسفر والتعليم. وحرمانهم من الحرية، بزجّهم في السجون، وتعذيبهم، و (حوكِما) على مال سرقاه، لكنهما لم يحاكما على ما ارتكباه، من جرائم حقيقية، ضد آلاف الناس.

وجدتْ نور عملًا في مستشفى خاص بامتيازات لا تليق بشهاداتها وخبرتها، لكنها قبِلتْ بذلك.[20]

-5

بعد باريس، عاد قاسم إلى الكويت، وكان علينا أن ننتظر حتى نهاية ذلك العقد ليصل إلى عمّان، مدفوعًا بأمواج الهجرة الفلسطينية الجديدة بعد الاحتلال العراقي، ليكتمل عددنا.

-6

بالنسبة إليّ، أنا الذي حظيتُ بزيارات لعدد من البلدان للمشاركة في مؤتمرات أدبية، مثل بيروت، دبي، عدن، صنعاء، بغداد، ليبيا، مِصر، كان عليّ أن أنتظر طويلًا بعدها، بسبب إدراجي في قائمة طويلة من الممنوعين من السفر. سيمتد (الحجْر) بلغة زمن كورونا الذي نعيش، ستّ سنوات. قبل أن تُفتح الأبواب للجميع في نهايات عام 1989، ومطلع السنة التالية، فأزور كلّ تلك البلدان التي زرتها طفلًا، مستخدمًا مطاري الخاصّ، وطائرتي الخاصّة. زرت باريس، فعلًا، نيويورك، سان فرانسيسكو، شيكاغو، لوس أنجلوس، مدريد، روما، أوسلو، لندن، موسكو، ستوكهولم، أثينا، برلين و...، وصولًا إلى حافتَي الأرض: الشرقية، كوريا، والغربية، كولومبيا.

فترة المنع من السفر حرمتْني من تلبية دعوة لزيارة أهمّ مكان كنت أحبّ أن أراه: الصين، لكن ذلك التّضييق، المزعج فعلًا، راحت أثاره تضعف؛ أوّلًا بمواصلة الكتابة، ثم لوجودنا، في النصف الثاني من الثمانينيات، باستثناء قاسم، في قفص واحد، نور، هالة، بشير وأنا.

[20]- كان المال الخاصّ، في معظمه، يصبح أكثر جشعًا كلّما علِم أنكَ مضطرّ للعمل، وقد استغلّتْ كثير من الشركات من هم بحاجة للوظائف، وبالغتْ في استغلالها لهم كلّما علمتْ أنهم من "المغضوب عليهم" أمنيًّا.

31

في ذلك البعيد، كلّ ما استطاعت هالة أن تفعله هو التهرّب من كلّ فرصة عمل لاحتْ لها في أمريكا، كما نجحتْ في التهرّب من كلّ عرض زواج.

وفي الوقت الذي لانتْ فيه الأسرة قليلًا، بعد عام من المعارك المباشرة وغير المباشرة، تحوّل الأمر إلى جحيم، مع عودة أخيها، بعد إكمال دراسته في كلية "سان جان" العسكرية بكندا.

عاد إلى البيت ليتصرّف وكأنه الحاكم العسكري للأُسرة.

الفترة التي أعقبتْ عودته، تحوّلتْ إلى جحيم فعليّ، لهالة ولي، حيث أصبح تلقِّيها لأيّ رسالة، منّي، مهمة مستحيلة، وكذلك أيّ اتصال، صادر أو وارد، كما أن محاولات الحديث التي كانت تتمّ، عبر هاتف شقيقتها نتالي في عمّان، ظلّت محفوفة بالمخاطر، إلى أن انقطعت تمامًا، بعد أن انتزع من هالة سماعة الهاتف ذات يوم، وسمع صوتي على الجانب الآخر.

***

- "لا تزعل على هالة"، قالتْ نتالي برجاء، "عليك أن ترى أخي؛ فمنذ أن بلغ سنوات مراهقته، تحوّل إلى دبّابة تجتاح كلّ ما في طريقها، أبي نفسه لم يحتملْه، لذا، تركه في رعاية أختي الكبرى، بعيدًا عنّا، ليُتِمّ دراسته في أمريكا، التي وِلِد فيها ونال جنسيتها قبل أيّ واحد منّا. أصارحكَ لم نكن، كلّنا، نحبّ الذّهاب إلى أمريكا لاستكمال متطلبات الحصول على الجنسية، لأنه هناك. أنا متأكّدة أنه لو كان في عمّان، خلال وجودكَ في المعهد، لكانت علاقتكما مستحيلة. أبي رقيقٌ بالمناسبة، وهالة ليست ضعيفة، أنت تعرفها، ولكنها تخاف على أبي، كلنا نخاف عليه، بسبب الضغط والسّكري اللذين يعاني منهما، ولهذا تحاول هالة أن تختصر، أن تبتعد عن أيّ مشكلة".

32

"تمنَّيتُ ألا يكون فائض غضبي عليه، هو السبب في مقتله"، أرسلتُ لهالة، أخبرها وأعزّيها. فكتبتْ لي: غضبُنا عليه وضيقه بنا وبعلاقتنا ليسا السّبب. حتى لو كان الوضع عكس ذلك تمامًا، فلن يتغيّر مصيره. منذ أوائل شبابه تحوّل إلى إعصار، أفسد الكثير من حياتنا، وقسَم العائلة إلى نصفين، لم يردعْه شيء، كنّا نخشى أثناء وجودنا في عمّان، أيّ اتصال يرِدُ من سوزان في سان فرانسيسكو. كلّ مكالمة حملتْ إلينا الخوف من أن يكون ارتكب أمرًا فظيعًا. الغريب في الأمر أنه كان ذكيًّا؛ لم يكن مضطرًّا لأن يُلقي نظرة على كتبه بعد عودته من المدرسة أبدًا. يذهب إلى الامتحانات دون أن يستعدّ، ويحصل على نتائج لا نتخيّلها. أما الأغرب من ذلك كلّه، فهي إجابته حينما اتصل به أبي، مجامِلًا، يهنئه على تخرجه من المدرسة:

- والآنَ ماذا يريد بطلنا أن يُصبح؟

- دبّابة.

- لا أمزح، فعلًا ماذا تريد أن تدرس، أن تكون؟

- دبّابة فعلًا، قلتُ لكَ.

.. التحق بسهولة بكلية "سان جان" العسكرية الكندية. سأله أبي ولماذا لا تلتحق بكلية عسكرية أمريكية؟ أخبره أن صديقًا له التحقَ بها. فاستغربنا أن يكون له أصدقاء. أبي فرح باختياره لتلك الكلية، "على الأقل الأمور في كندا أقلّ عنفًا من أمريكا، كما أن الحياة العسكرية ستغيّره، وستمتصّ طاقته المدمِّرة، أو تُشذّبها".

من الكلية تخرَّج أكثر ثقة بنفسه وبقوّته، تعامل مع كلّ شيء حوله كهدف لا بدّ من قصْفه، ومع الآخرين باعتبارهم فرائس. ولذا، كان من الطبيعيّ أن يُقتَل على يدَي أحد عشر رجلًا في شجار، بإحدى عشرة طعنة.

33

بعد ثمانية أشهر من مقتله، عدتُ ذات يوم إلى البيت في وقت متأخِّر. فوجئتُ بأمّي ساهرة كعادتها في انتظاري.

- تأخّرتَ، قالت لي.

اعتذرتُ لها أنني كنتُ السّبب في سهرها إلى وقت متأخّر.

- وما الذي يمكن أن يقوم به قلبُ الأم، إن لم يفعل هذا؟ أن يطمئنّ؟ هذا مستحيل. هل تعشّيتَ؟

- لستُ جائعًا.

- تأكل حصَّتكَ غدًا.

دائمًا كانت تخبئ لي حصتي مما طبختْ، لأتناولها في اليوم التالي، وفي بعض المرّات تُصرّ عليّ أن تكون تلك الحصة فطوري، مع أنها لا تصلح إلّا كغداء: ملوخية، مقلوبة، فاصولياء، مسخّن، منسف.

- أظنّ أن عليّ أن أنام، وفورًا.

- يمكنك أن تنام في فراش فدوى.

- ولماذا لا أنام في فراشي؟

- هناك ضيفة، وفدوى تنام معها في فراشكَ.

- من هيَ.

- في الصباح ستعرف بنفسك.

***

في الظهيرة أتصلتُ بنور في لندن، نور التي ستعاني، بعد وصولها، من كلّ ما ذكرتُه في النصف الثاني من صفحة 478. أخبرتها أنني سأكون وهالة في انتظارها. سألتْني إن كنتُ بحاجة لشيء تحضره لي، معها، فأخبرتُها: نور، أريد أن تُحضري معكِ نور.

ضحكتْ: هذه لم تغادر عمّان. على أيّ حال اشتريتُ لك بدلة، قميصًا، حزامًا وحذاءً، وجرابات كثيرة. لا تظن أنني نسيت ربطة العنق، لكنني

أعرف أنك لا تحبّ الرَّبطات، ولن تستخدمها، حتى لو كانت هديّة مني.

حدّثتُ نور عن مخاوفي بسبب عودتها، فأخبرتْني أنها تعرف هذا، فكثير ممن سبقوها، وعادوا، واجهوا مشكلتَي المنْع من العمل ومن السفر وأحيانًا ما هو أقسى.

- أنا عائدة نهائيًّا. أظنّ أنني ابتعدتُ أكثر مما يجب، لا أريد أن أعيش أيّ نهاية جميلة، أو حزينة، بمفردي.

34

سألتني: هل تتذكر أُمنيتي القديمة التي أربكتكَ كثيرًا في ذلك اليوم البعيد؟

- أيُّ أُمنية؟

***

في شقّتها التي لم تؤثّث بعد، الشّقة الفارغة، تمّ تجهيز الحمّام قبل أيّ جزء فيها. الماء الساخن، المناشف، الصّ ابون، وذلك البياض الذي يغمر كلّ شيء.

بين يديها جلستُ مثل طفل، الماء المتدفّق مختلفٌ، جسمي مختلفٌ، انكماشي على نفسي، ليس بسبب برودة أو سخونة عالية، مختلفٌ. الماءُ يتدفّق، وأنا أتصاعد، مختبرًا للمرّة الأولى في حياتي معنى أن تكون آمنًا، إلى تلك الدّرجة التي لا تفكّر فيها بأهمية وجود أجنحة لكَ، لتحلّق مبتعدًا كلّما داهمكَ خطر. وددتُ لو يكون لدي ذراعان أطول لاحتضنَ العالم كلّه، الطائر في سمائه والسَّمكة في بحرها.

كنت قد نسيتُ، تمامًا، آخر مرّة أجلستْني فيها أُمّي أمامها، على مقعدة خشبية صغيرة، وحمّمتْني. غريب ألّا نملك القدرة على استعادة سعادة كهذه.

.. وكنتُ هناك شابكًا ذراعَي، أشدّ على صدري، مُحاوِلا أن أجعل من كلّ خليةٍ ذاكرةً كاملة، كي لا تهرب سعادتي وأحاسيسي بتلك اللحظة، كما هربتْ في أزمنة ماضية.

فرَكتْ رأسي برفْق، سألتْني إن كان الصابون يُضايقني. كم ضايقني الصابون في طفولتي، صابونة واحدة كنّا نغسل بها الجسم كلّه، من الشَّعر حتى أصابع القدمين، قبل اختراع آلاف الأنواع من الصّابون للشَّعر ومثلها للجسد.

... وكنت مُنشغلًا بالماء، الماء الذي يتدفّق من الأعلى، لكنني لا أراه تحت قدَمي يجري، حاملًا ملوحةَ جسد تعرّق أو تغبّر. كان الماء المتدفّق من الأعلى

يغوص فيّ شلالًا من الذّكريات الجميلة، والسنوات التي أحببتُها كلّها، أو أنني أحببتها أكثر بعد انقضائها، مثل كلّ البشر الذين لا يحبون شقاءهم، ولا يتغنّون به، إلّا بعد انتصارهم عليه.

... كنتُ أحسّ بأنني شجرة، كلّ ما يسقط عليّ وحولي، ينتهي فيّ، إليّ.

الماء يتدفّق، ويدان حانيتان تستعيدان رقّة كلّ يدٍ زرعتْ، ذات يوم، شجرة أو شتلة ورْد، أو فتحتْ نافذة في جدار، أو هدهدتْ قلقًا أو تعبًا أو خوفًا وحولتْها كلّها إلى أحلام.

وددتُ لو أن تلك اللحظات لا تنتهي أبدًا... لكنها انتهتْ.

بصوتها الدافئ الموشّى ببحّة، مثل ذلك النّمش الجميل الذي غطّى جزءًا من خديها بلون خمريّ رقيق، أعلنتْ أن حمَّاميَ انتهى، فتحتُ عينَي، رأيتُها تتناول المنشفة، وتبدأ بتجفيف شَعري. استسلمتُ لذلك.

كنتُ على وشك أن أقفَ، استعدادًا للعودة إلى العاديّ، اليوميّ، ثانيةً، لكنها طلبتْ منّي أن أبقى مكاني.

- دائمًا كنتَ تسألني، من أنتَ بالنسبة إليّ؟ أتذكُرُ منذ متى؟ لا تتكلّم. أنت تعرف أن بعض الأسئلة لا يمكن أن يجيب عليها الإنسان لمجرّد أن له لسانًا. المسألة معقّدة، ومعكَ، دائمًا كانت أكثر تعقيدًا، مع أننا عشنا حياة ربما تكون الأكثر بساطة. إياكَ أن تعتقد أنني تعمَّدتُ التهرّب من الإجابة، لا، كنتُ أخشى أن تقفز إلى لساني كلمة مُستهْلَكة مثل كثير من الكلمات التي تقفز على ألسِنتِنا، كلمات بلا معنى، أو كلمات لها معنى عظيم ولكننا نستهلكها مثلما نستهلك أيّ شيء، وبما أننا في الحمَّام الآن، يمكن أن أقول: نستهلكُها مثلما نستهلكُ أيّ قطعة صابون، نظلّ نستخدمها، واثقين أنها الأبد، إلى أن لا نعود قادرين على الإمساك بها لفرط ما صغرتْ، ورغم ذلك نبقى مصرّين على استخدامها وكأنّها كاملة.

لعل أنسانًا ما يستطيع أن يحمي حبيبًا أو صديقًا أو أختًا أو أخًا، بحيث لا يحوّلهم، أو يحوّل أحدهم، أو يحوّل نفسه، إلى صابونة، سأغبطه على نجاحه.

لا أدّعي أنني كنتُ أفهم هذا حين كنّا صغارًا، لكنني كنتُ أحسّ بعبث الكلام، ونقصانه.

هل بردتَ؟

وواصلتْ: لقد رأيتُ الكثير من البشر، وعايشتُهم، وعايشتُ أحاسيسَ وعلاقات، على بعضها شهدتُ، وبعضها شَهِدَ عليّ، ورأيتُ أن تسمياتٍ مثل: صديق، حبيب، إلى آخر الأمر، كانت تحيّرني. جراَةُ البشر على التّحديد تحيّرني، إصرارهم على وجود حدود صارمة لا يجتازها حتّى الطائر، يحيرني. يُسأَلُ أحدهم أو إحداهنّ: هل هذا حبيبكِ أو حبيبتكَ؟ فيردّ بحزْم: بل صديقتي، صديقي، أو العكس، أو يحاول تجميل الأمر فيقول: توأم روحي، رفيق حياتي، نور عيني. الآن، أقول لكَ إنني لم أكن أريدكَ محدَّدًا، محشورًا في حدود أيّ كلمة.

هل تذكر حكاية جدّكَ التي روتْها لنا أمّكَ، خالتي عايشة، لقد استطاع جدّك، في الحكاية، أن يختار ما لم يستطع أحد من البشر أن يفعله، خالتي عايشة تحدَّثْنا يومها. هل تذكر حين قالت لنا: تلك حكاية أبي التي لا تشبهها حكايةٌ، فما هي حكايتكم؟ وما الذي تستطيعون فِعلَه، ولم يفعلْه أحد قبلكم؟ أنتَ سبقتَني، وحققتَ ما يمكن أن أدعوه حكايتكَ الخاصّة، التي لا شبيه لها، حينما قاتلتَ من أجل أن تكون هناك فدوى، وتكون أنتَ شاعرًا وأكثر. أما أنا، فإن أجمل وأصفى فكرة راحت تلحّ عليّ، هي أن لكلٍّ إنسان ملاكًا خاصًّا به، رغم أن الإنسان لا يستطيع أن يختار ملاكه (الذي لا يُذكَّر ولا يؤنّثُ)؛ لا يستطيع أن يختاره لأنه لا يستطيع أن يخوض حربًا مع الغيب في أمر كهذا، لكنه قادر على اختيار كائن آخر بكامل إرادته، أتعرف من هو؟ إنه إنسانه.

دائمًا أردتَ أن تعرفَ مَن أنتَ بالنسبة إليّ، والآن، أستطيع أن أقول لكَ بسلام عميق: أنتَ إنساني. الآن تستطيع أن تذهب لتتزوّج إن أردتَ، وتُنجب وتُسافر، وتكتب قصائد، وروايات، وربما سينبتُ لكَ جناحان، كما حلمتَ دائمًا، لكن كلّ ما هو لكَ، سيكون لي، لأن ذلك كلّه فيكَ، وأنتَ فيّ.

لا تقلق عليّ، ربما عليكَ أن تقلق عليكَ، أنا فكّرتُ وتأملتُ وعشتُ الكثير، وأعرف أنني انتصرتُ لأنني أستطيع أن أشير إليكَ من بين كلّ البشر وأقول بصوت مرتفع: هذا إنساني. هل سأكون إنسانكَ؟ لا أعرف، ربما تكون هالة إنسانكَ، ربما تكون فدوى، ولعلها كذلك، ولعلكَ إنسانها لأنها خرجتْ من العتمة إلى النور لتجعلكَ نفسكَ التي أردتَها، ولعله يكون إنسانًا آخر سواهما، أنا. ولكن، لا تمُتْ قبل أن تعثر على إنسانكَ.

الرسالة السادسة

يسعد مساك،

لا أستطيع أن أقول لك الكثير بعد الجملة الأخيرة في الفصل السابق، فهي كثافتي، كثافتنا، بشكل أو بآخر، وقد تأكّد لي ما أحسستُ به دائمًا ولم أستطع التعبير عنه بوضوح: للجمال أسماء كثيرة.. لكن أعظمها محبتنا له وعيشنا له، ودفاعنا عنه. كما أنني الآن بتُّ متأكدة من أننا لسنا بحاجة لإنسان نشيخ معه، بقدر ما نحن بحاجة لإنسان نبقى معه أطفالًا.

هناك دائمًا طمع بطفولة أخرى، طمع في ألّا ننتهي.

محبتي

نور

طُفولَةٌ سادِسَةٌ

زووم إن

المرّة الأولى، فعْلًا لا حلمًا، التي تمنيتُ فيها أن أكون مخرجًا، يوم لقائنا جميعًا على الغداء في مطعم "البستان".

لم نكن بحاجة للجلوس معًا لاكتشاف تلك المفارقة الغريبة.

على الطاولة كانت هناك، باستثناء هالة، ثلاثُ نساء بشعر أحمر، نور ـالتي حجزتْ الكرسي الملاصق ليمينهاـ وأروى زوجة قاسم، وسامية زوجة بشير.

تلك اللقطة كانت كافيه لإعادة قراءة تاريخ مجموعتنا الصغيرة التي أسسها ثلاثة أولاد وبنت.

لم يكن الشَّعر الأحمر هو وجه الشّبه الوحيد بين النساء الثلاث، النساء اللواتي بتْنا ندعوهنّ الأخوات. لكن النساء بحاستهنّ الثامنة، كنّ يقرأن الحكاية بوضوحها الذي لا يمحوه إصرار قاسم وبشير، على الحديث المستمرّ، عن الفروق الواضحة بين صاحبات الشَّعر الأحمر.

كانا يريدان منّا أن نقتنع، أربعتنا: سامية، أروى، نور، وأنا، بما لم يكونا مقتنعَين به:

بطريقة ما، كانت هالة خارج الموضوع، مراقِبةً مستمتِعَةً بحرصنا المبالغ فيه على إخفاء حقيقة أوضح بكثير من شَعر أحمر. ولعل أكثر ما كان يريحها أنها لم تكن تشبه نور أبدًا ـإلّا بامتلاكها عينين خضراوين أيضًاـ نور التي مالت نحوي وسألتني ذلك السؤال المفاجئ:

- هل ترى كم يشبه ذلك الجالس هناك، وحيدًا، صديقنَا نبيل؟

كنتُ على وشك أن أستدير، فطلبتْ منّي ألّا أنظر فورًا، كي لا يلاحظ.

همستُ لقاسم بما همستْ به نور لي، وهمس بدوره لبشير.

- بماذا تتهامسون؟ سألتْ هالة.

- سنخبركِ بعد أن نتأكّد.

استدرتُ ونظرتُ، كان نبيل فعلًا هناك، وحيدًا، مستغرقًا، كما لو أنه يحدق في مصيره الضبابيّ فوق تلك الصخرة.

أكدتُ لنور وللبقية أنه هو، صديق طفولتنا.

- "لا يعقل أنه لم يزل وحيدًا حتى الآن"، قالت نور بأسى.

- "أظنّ أن عليكَ أن تدعوه لينضمّ إلينا"، همستْ هالة.

- "كنت أعتقد أنه سيتغيّر، بعد أن حقّق حلمه، وذهب إلى روما، وأصبح طبيبًا"، قلتُ.

لم أكد أُكمِل، نهضتْ نور، التي حسمتْ تردُّدنا، وهي تعلن أنها هي التي ستدعوه، تابعناها بقلوب منفعلة، وقبل أن تصِل، رأينا امرأة جميلة جدًا، تتقدّم من طاولتِه، وتسبق نور. تباطأتْ نور، إلى أن رأتْ، ورأينا معها، المرأة تجلس إلى طاولة نبيل، فتبادلنا نظرات فرحة، مُعلنة أنه يُتقن الاختيار.

بعد أن جلستْ تلك المرأة الجميلة، تقدّمتْ نور ثانية، فرأينا نبيل ينهض بانفعال ويصافحها، صائحًا: نور؟

كلّ مَن في المطعم سمعوا صرختَه، فاستدارتْ رؤوسهم نحو مصدر الصوت. أشارت نور إلى حيث نجلس، اندفع نبيل نحونا، فسقط الكرسي على الأرض مُحدِثًا جلبة كبيرة، وبسرعة تقدّم نحونا، تاركًا نور تشرح الأمر للمرأة الجميلة التي فوجئتْ بكلّ ما حدث.

لم يكن يتقدّم بسرعة، كان يركض، أما الشيء الوحيد الذي سبقَهُ فهي ابتسامته العريضة الأشبه بضحكة.

عانَقَنَا مُحدِثًا جلبة أعلى من الجلَبتين السّابقتين، وقبل أن يستدير نحو تلك المرأة الجميلة ونور، كانتا قد وصلتا طاولتنا.

- Buonasera[21]، حيَّتْنا المرأة الجميلة بالإيطالية، وهي تبتسم بعذوبة، فدخلتْ قلوبنا على الفور.

مكتبة

---

[21] - "بوناسيرا": مساء الخير.

***

في ذلك اليوم الصيفي، عام 1991، رسمتُ في خيالي سيناريو الفيلم:

* زووم إن:

الكاميرا تتقدّم ببطء، تتوقّف. صورة لتسعة أشخاص يتناولون الغداء: ثلاثُ نساء بشعر أحمر، أربعة رجال، وامرأتان أخريان، واحدة تشير ملامحها إلى أنها أجنبية.

تظلّ الصورة ثابتة على الشاشة إلى أن يظهر ويختفي اسم المخرج/ المؤلف، تبدأ الحياة حركةً في الصورة.

يستمر مشهد الغداء دقائق، في جو مُبهج، تتخلله نظرات ساهمة بين حين وحين من امرأة لامرأة، من رجل لامرأة، من رجل لرجل.

* زووم آوت:

المشهد يتحوّل إلى صورة ثابتة.

* زووم إن:

على الصورة الثابتة. تتوقّف الكاميرا عند وجه إحداهن، تبدأ صورتها بالتحرّك، تضحك من كلّ قلبها. فتحكي الكاميرا قصة ذلك الوجه، مُتتبّعة حياة صاحبته. تنتهي القصة عند نقطة ما، ونرى الوجه في الصورة يعود إلى حالة سكونه.

* زووم آوت

نرى الصورة الثابتة كاملة، ونرى حركة الكاميرا المرتبكة، وكأنها لا تعرف مَن ستختار من بين الوجوه.

تختار وجه قاسم.

وهكذا، تستعرض الوجوه كلّها وحكايتها، وفي كلّ مرّة تعود الصورة ثابتة، وتعود الكاميرا لتختار واحدًا منها.

في النهاية تختار وجْهي، تختارني. أنظر إلى الكرسي الفارغ بجانب نور باستغراب. ثم أنظر إلى الكاميرا مباشرة، وكأنني مصعوق مما أرى، تتّسع عيناي.

* قطـع:

رجلٌ يتقدّم من بعيد، يحجبُ وجهَهُ ضوء قوي خلْفه، تتضّح ملامحه شيئًا فشيئًا، يواصل التقدّم نحو الطاولة، مبتسمًا لنور، رجل يشبهني، يشبهني كثيرًا، يصافحنا جميعًا، يصل إليَّ، يصافحني، يشدّ على يدي بحرارة، يجلس على الكرسي الفارغ بجانب نور.

* زووم إن:

تتقدّم الكاميرا نحوه ببطء، دون تردّد، وتبدأ بسرد حكايته منذ الطفولة. لينتهي الفيلم بلحظات دخولنا الأولى على دفعات إلى المطعم، وجلوسنا، وبداية كلام لا يسمعه المشاهد، ثم ضحكات، وفترات صمت، وصورة ثانية، ثابتة، لا تشبه الأولى. عليّ أن أفكّر فيها جيدًا، قبل أن أقرر هل ستكون صورة صامتة، أم ضاحكة، أم صورةً ينظر كلّ شخص فيها إلى شخص آخر من المجموعة، أم ينظرون كلهم إلى شخص واحد، أم إلى الكرسي الفارغ؟

6 أشياء يجب أن تُعْرَف عن بشير:

1. التقى فادية في باريس، مصادفة، في سهرة لعدد من الأصدقاء العرب، حين انتهت السهرة، طلبت منه أن يرافقها. أوصلها إلى بيتها، مدّ يده ليصافحها مودِّعًا، جرَّته إلى الداخل: كم سنة أخرى عليكَ أن تنتظرني، وأنتظركَ؟
2. تفهّمت جامعة كولومبيا مسألة إبعاده، بعد مشاركته في مظاهرة أمام البيت الأبيض ضد الرئيس ريغن، وسمحت له بمناقشة رسالة الدكتوراه، وحصل عليها عام 1986.
3. ترجم عددًا من الكتب، وعشرات المقالات، كما ترجم ديوانًا شعريًّا لشاعر روسي.
4. بعد أن فقد بصره تمامًا، عاش مكتفيا بذكرياته الخصبة، وقدَّم له الإنترنت خدمة كبرى، إذ بدأ يتابع النّدوات والسّجالات الفكرية عبر اليوتيوب، ويتابع المحاضرات الفلسفية والأفلام العربية والأجنبية القديمة، والجديدة، ومباريات كرة القدم، صوتًا.
5. اتّسع خياله إلى درجة تدعو للدهشة.
6. عاش مخلصًا للضوء، ولكيلا يفقد نفسه، بعد عماه، أخلص لعتمته.

9 ميتات أخرى نجا منها قاسم بأعجوبة، وشيء آخر:

1- عام 1981 زار بيروت قادمًا من الكويت، حضر جنازة تمّ فيها إطلاق نار كثيف تحية لروح الشهيد، قالت له زميلته الواقفة إلى جانبه "امسح الدم عن وجهك"، رفع يده، عادت حمراء، تبين أن رصاصة مرّت أعلى أنفه، بين عينيه تمامًا، واقتطعتْ جزءًا من جلده.

2- في طريقه إلى باريس، أعلن الطيار، أن الهبوط سيكون بعد عشرين دقيقة. مرت خمسون دقيقة والطائرة تحوم في سماء المطار، بعد أن اقتربت من المطار رأوا سيارات الإسعاف والمطافئ. هبطت الطائرة، انزلاقًا، بعد أن فقدوا الأمل في فتْح مغاليق عجلاتها.

3- كانت لديه حبيبة في باريس، صعدا إلى متنزه فوق جبل عالٍ، أصرّت أن تعلّمه كيف يركن السيارة، رجع إلى الخلف بسرعة، طارت السيارة من فوق الحاجز وهوت من فوق الجبل. لحسن الحظ تلقّفتْها شجرة كبيرة. بعد أسبوعين، عادا وزرعا شجرتين تكريمًا للجبل.

4- في زيارة لمدينة سالونيك، اليونان، وصل متعبًا، نام، بعد نصف ساعة أحسّ أن السرير يتأرجح، فتح عينيه، الغرفة أيضًا تتأرجح، بدأت الحيطان بالتشقّق، جلس على حافّة السرير للحظات مذهولا، قبل أن يكتشف أن عليه أن يهرب. نزل الدرجات التي يسمع تمزّقها. ربع عَارٍ، وصل الرّصيف، أمامه انهار مبنى كبير قُتل فيه ثلاثون ساكنًا. ركض نحو حديقة مجاورة، سمع صوت انهدام آخر، نظر إلى مصدر الصوت، كان الفندق على الأرض.

5- ذهب لإجراء فحص دم عادي، عام 2004، تبين أن لديه لوكيميا، بدأ العلاج.

6- بعد عام، ذهب لإجراء عملية بواسير، عرض الدكتور عليه أن يجري تنظيرًا للقولون، اكتشف وجود سرطان، بدأ العلاج.

7- ذهب مرّة ثانية من أجل البواسير، اكتشفوا أن السرطان اخترق

جدار القولون، وأصبح خارجه، بدأ العلاج.

8- ودّعوه في مطار الكويت، حلّقت الطائرة. بعد نصف ساعة نظر عبر الشباك، كانت النار مشتعلة في المحرك، نصف ساعة أخرى، والنار تتّقد أكثر. أخيرًا هبطت الطائرة، بمعجزة، بعد أن تمكّن الطيار من العودة بها إلى المطار.

9- واكب قاسم كتاباتي وأصدر كتابًا عنها، كما أصدر كتابًا رائعًا عن حبيبنا غسان كنفاني. وترجم كتابين مستقبليين بالاشتراك مع بشير.

7 أشياء عن خالي محمود لم أكتب عنها:

1 – زار عمّان مرّتين بعد استقراره في السّويد.

2 – لم يلتقِ حبيبته الأولى أبدًا.

3 – نشر عددًا من الدواوين الشعرية بالسويدية.

4 – احترف ابنه الملاكمة، وأصبح بطلًا للسّويد، وخاض مباريات عالمية حقّق فيها نجاحات كبرى. كتبتْ له بعض الفرق السويدية وغنّتْ أغنيات تمجِّد انتصاراته.

5 – ما زال يعيش في السّويد.

6 – أصدرَ مختارات من أشعاره بالعربية، 2019، وكنتُ سعيدًا بكتابة مقدّمة لها، بناء على رغبته.

7 – بعد أن تجاوز الخامسة والستين لم يعد يكتب إلّا عن البحر.

8 أشياء يجب أن تُعرف عن نبيل:

1- لم يرسل له والده أي أموال خلال دراسته في إيطاليا.

2- نصحوه بأن يدرس الهندسة. كتَب ذلك في طلب الالتحاق بالجامعة. صديق له شطب تخصّص "هندسة"، ووضع مكانه تخصص طبّ، وهو يقول له، "شِكْلَك طبيب مش مهندس".

3- عادة ما يُطلق الناس على أبنائهم لقب "الدكتور"، بمجرّد أن يجلسوا على مقاعد كلية الطب في اليوم الأوّل للدراسة؛ لم يفعل والده ذلك إلّا بعد سنوات طويلة من تخرّجه، حين زار نبيل عمّان عام 1994 خلال مرض والده كثيرًا، فخاطبه الأب: "يعني معقول أموت بسبب المرض وفي هذا البيت دكتور"، عالجه نبيل، شفي، ومن يومها لم يتوقّف عن مناداته بالدكتور، بحيث نسي أن اسمه نبيل.

4- أسس نبيل مهرجانًا ثقافيًّا مهما في إيطاليا، وقد سعدتُ بدعوته لي لتقديم محاضرات، وتوقيع كتبي الصّادرة بالإيطالية، مرّات كثيرة.

5- أصبح ناشطًا سياسيًّا، وله حضوره القوي في أوروبا.

6- هو الآن من أعز أصدقائي، ويقول لي، على دفعات، كلّ ما لم يقله لي أيام طفولته الصامتة.

7- يُعرفُ الشارع، الموازي لشارعنا، الذي كان يقع فيه بيت نبيل، بأنه "شارع الأطباء"، فعلى مدى خمس عشرة سنة، بعد سفره إلى روما، تبعه إلى إيطاليا، لا سواها، أحد عشر طالبًا، لدراسة الطبّ، ممن تقع بيوتهم في ذلك الشارع.

8- نبيل الآن؟

- نادرًا ما أراه عابسًا.

5 أشياء متفرقة كان لا بدّ من ذكرها:

1 - الأستاذ سليم، والد بشير، أصدر كتابًا عنوانه: "فلسطين والرحلة التعليمية.. من التجربة الإماراتيّة حتى مدرسة الأشرفية".

2 - سافر ابن عمّتي إلى مصر، ملبّيًا ذلك النداء الغامض الذي تفوّق على أيّ نداء آخر، مُكمِلًا رحلةً توقّفتْ باستشهاد والده.

3 - درس ابن عمتي العلوم السياسية بعد حصوله على بعثة من منظمة التحرير الفلسطينية. اشتغل في مكتبها هناك، ثم في سفارتها؛ ونلتقي كلّما زرتُ القاهرة.

4 - أُمّي التي ربّته، تعتبره من أولادها، وأحفاده من أحفادها الذين تجاوز عددهم السبعين، حفيدات وأحفادًا حتى الآن، (ملاحظة: الرقم مُتغيِّر باستمرار).

5 - تزوّج فتاة مصرية. لديه ثلاثة أولاد وبنت، يتحدّثون اللهجة المصرية بطلاقة.

6 أشياء لم يتسع المجال لورودها عن فدوى وفدوى:

1- لقاءاتي بفدوى طوقان، وزيارتها لبيتنا عام 1996، وسماعي الكثير منها عن إبراهيم طوقان.

2- سماع فدوى لحكايتي مع فدوى.

3- لقاء فدوى بفدوى.

4- كتابتي حكايتي مع فدوى وإبراهيم طوقان، ونشرها في صحيفة "القدس العربي"، بعد رحيلها عام 2003؛ تلك الكتابة كانت بذرة كلّ ما كُتب هنا.

5- فدوى وفدوى، لم تشتركا في الاسم وحسب، بل في كثير من الصفات الشّخصية، ففدوى بقيتْ الأكثر رهافة، بين أخواتي.

6- زواج فدوى الأخت؛ أنجبت ولدًا وستّ بنات.

5 أشياء لم تعرفْها نور عنّي:

1 -

2 -

3 -

4 -

5 -

قصيدة أحببتُ أن أُنهي بها كلَّ ما سبق:

تغيَّرَ فيَّ الكثيرُ أجلْ
شابَ شَعْري
الخطايا أقلُّ
وأما الخُطى فهْيَ أقصرْ
قهوتي في المساءِ أخفُّ، وشاييَ من دونِ سُكَّرْ
أميلُ إلى الأغنياتِ البسيطةِ، أكثرَ من أيِّ يومٍ مضى
وأسيرُ على مَهَلٍ
وورائي عواءُ ذئابٍ وعشرونَ خِنْجرْ
أُفكِّرُ في كلِّ ما مرَّ لكنْ
أُطيلُ تأمُّلَ ما ظلَّ أكثرْ
وتكفي ثلاثُ دقائقَ حتى أنامَ وأصحو
وخمسُ دقائقَ كي أتذكَّرْ
مروري على الأرضِ مثل الفراشةِ
حُلْماً تجلَّى وحُلْماً تَكسَّرْ
ويَفتنُني قمرٌ مطمئنٌ لعشّاقهِ
وسحابٌ فقيرٌ إذا مرَّ أمطرْ

خسرتُ كثيراً لأكسبَ نفسي
ظلالي مملوءةٌ بالمياه
وقلبيَ لما يزلْ، بَعْدُ، أَخْضَرْ

/

رسالة ليست أخيرة، بالتأكيد:

يسعد أيامك،

قرأتُ الطفولة السادسة، وما بعدها، بلهفة من تريد أن تعرف ما هو مصيرنا: مفاجئ، أليس كذلك؟ أظنّ أنك أضفتَ بعض الجُمل على لساني، مع أنني لم أقُلْها، ولكنها أعجبتني، ههههههه. أتمنى أن أكون قُلتها حقًّا.

أعرف أن هناك أشياء لم تَرِدْ، كنّا عشناها، أو قُلناها، هل نسيتَها؟ أم (فضّلتَ) عدم ذكرها؟ أعرف أنّ قوْل كلّ شيء أمرٌ فيه استحالة، ويُفسِد كلّ شيء، ربما. سأكتفي بأن نستعيد، معًا، التفاصيل الهاربة من هذه الصفحات في أوّل لقاء يجمعنا بعد أن يتمّ رفع الحَجْر. لكنني سعيدة أنك أحييتَ تقليدًا قديمًا، كنّا عشناه مع رواياتك الأولى، أنا وأصدقاؤنا، وأبناء الجيران، وعايشة، وفدوى، يوم كنّا نجلس على عتبة بيتكم لنقرأ الفصول التي تكتبها أولًا بأوّل.

جميل أنك صحّحتَ بعض المعلومات التي حدَّثتكَ عنها. لم تكن كثيرة على أيّ حال، ولكن ذاكرتنا بحاجة دائمًا لذاكرة أخرى تتكئ عليها، كما يحتاج الإنسان لكتف طيبة يضع رأسَه عليها.

أحببتُ أن نهاية الرواية لم تتضمن "خمسة أشياء لم أعرفها عن نور". لو فعلتَها، كنتُ سأغضب، لكنني لن أسألك عن الأشياء الخمسة التي لم أعرفها عنكَ، لأنني على يقين من أنها أكثر من 20... ههههههه.

وفي النهاية، أو، وفي البداية، كما يحلو لكَ أن تقول: الرواية تنساب بشقاوة، تجعل الطفولة، بما تعنيه في حياتك، هي الحياة، من المرحلة الجنينية، كما كتبتَها في عمل آخر، حتى (الآن).

أجل، قمّة النّضج أن نظلّ أطفالًا، لأن الطفولة قمة الحياة... ذروتها، لا بداياتها الأولى وحسب، وغير ذلك، بغيرها، لا شيء إلّا الصدأ.

سعيدة أننا، خمْستُنا، رفضنا أن ننضج بما يكفي لنقبل أن يكون الجهل جزءًا من حياتنا، والصّفاقة، والغباء المتعالم، والغرور، والتذلّل للأقوياء ومجاملة أصحاب الأحكام القاطعة جزءًا من حياتنا. سعيدة أننا رفضنا أن تكون البشاعة جزءًا من حياتنا، والقبول بما يُفرض علينا، وحَشْر القلب تحت صخرة والجلوس عليها حتى التأكّد من أنه لم يعد ينبض... جزءًا من حياتنا، وسعيدة بإيماننا دائمًا أننا وِلدنا بأجنحة، ولكن أجنحتنا هذه لم تكن في أي

يوم من الأيام، أكثر أهمية من أقدامنا، كما لم تكن أقدامنا، في أي يوم من الأيام، أكثر أهمية من أجنحتنا... أما سؤالي الذي أضحى مُلحًّا ما إن أنهيتُ قراءة عملك الجديد هذا، فهو: هل ستكتبُ ما تبقى مما عشناه معًا؟ أو ما عشتَه وعرفناه؟ أو ذاك الكثير الذي أعرف أنكَ عشتَه ولم نعرفْه بعد؟ سأحلم بذلك دائمًا.

إبراهيم...

لقد أعدتَني طفلة، تترقّب مسار أحداث عشتُها، ومنحتَني حياةً أخرى، هي حياتي، التي تمنّيتُ لو عشتُها كما عشتَها هنا...

شكرا لأنكَ جعلتَنا نُولَد مرّة أخرى، من رحْم هذه الصفحات.

سلمتَ.. ودمتَ طفلًا .. ودُمْنا

نور

مكتبة

طُفولةٌ سابِعَةٌ

الخيول على مشارف المدينة،1980. المطر في الداخل، 1982.
الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق، 1984. نعمان يسترد لونه، 1984.
أناشيد الصباح، 1984. الفتى النهر والجنرال، 1987. عواصف القلب، 1989.
حطب أخضر، 1991. فضيحة الثعلب، 1993.
الأعمال الشعرية- مجلد يضم الدواوين التسعة الأولى، 1994.
شرفات الخريف، 1996. كتاب الموت والموتى، 1997.
بسم الأم والابن، 1999. مرايا الملائكة، 2001. حجرة الناي، 2007.
لو أنني كنت مايسترو، 2009.أحوال الجنرال -مختارات، 2011.
عودة الياسمين إلى أهله سالما-مختارات،2011.
على خيط نور.. هنا بين ليلين، 2012.
طيب مثل قلب سحابة- مختارات، 2017.
الحبّ شريرٌ، 2017.
الأعمال الشعرية، 2021 (3 مجلّدات تضمّ الدواوين الصادرة من 1980-2017)

***

الشرفات:

براري الحُمّى، 1985. الأمواج البرية، 1988. عَوْ، 1990.
حارس المدينة الضائعة، 1998. شرفة الهذيان، 2005.
شرفة رجل الثلج، 2009. شرفة العار، 2010.
شرفة الهاوية، 2013 *(اللائحة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية، 2014)*. شرفة الفردوس، 2015،
حرب الكلب الثانية، 2016 *(الجائزة العالمية للرواية العربية 2018)*.
مأساة كاتب القصة القصيرة، 2021.

الملهاة الفلسطينية:

طيور الحذر، 1996. طفل الممحاة، 2000. زيتون الشوارع. 2002.
أعراس آمنة، تحت شمس الضحى، 2004.
زمن الخيول البيضاء، 2007 *(اللائحة القصيرة لجائزة البوكر العربية، 2009)*
قناديل ملك الجليل، 2012 *(اللائحة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية، 2013)*. مجرّد 2 فقط، 1992.

أرواح كليمنجارو، 2015 *(جائزة كتارا للرواية العربية 2016).*
ثلاثيـــة الأجـــراس،2019: *ظلال المفاتيح 2- سيرة عين 3- دبابة تحت شجرة عيد الميلاد (جائزة كتارا للرواية العربية 2020).*
طفولتي حتى الآن، 2022،
شمس اليوم الثامن، 2023.
***
هزائم المنتصرين- السّينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق، 2000.
ديـواني - شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم، 2002.
السيرة الطائرة: أقل من عدو، أكثر من صديق، 2006.
صور الوجود ـ السّينما تتأمل، 2008.
كتاب الكتابة: تلك هي الحياة.. ذاك هو اللون، 2018
ليل المحو.. نهار الذاكرة، شهادات ومقالات، 2021
***
كتّاب يرسمون
(معرض رسم مشترك مع فاروق وادي، جمال ناجي)، 1993.
***
*معارض تصوير:
سيرة عين، 1996، صور وكلمات، 2004، حياة البحر الميت، 2004، تحت شمسين، 2010.
***
*كتابة أكثر من 50 أغنية

مطلع أغنية "كن هناك"
شعر ولحن:
إبراهيم نصر الله

دع الشّمس تشرق ثانيةً
فوق أرض سواكْ
فوق بيت سواكْ
لا تقُل لصغاركَ نحن هنا
قُلْ لهم: حيثما سُحقتْ وردةٌ
نحن دوما هناك

كن هناك
Ibrahim Nasrallah Be There
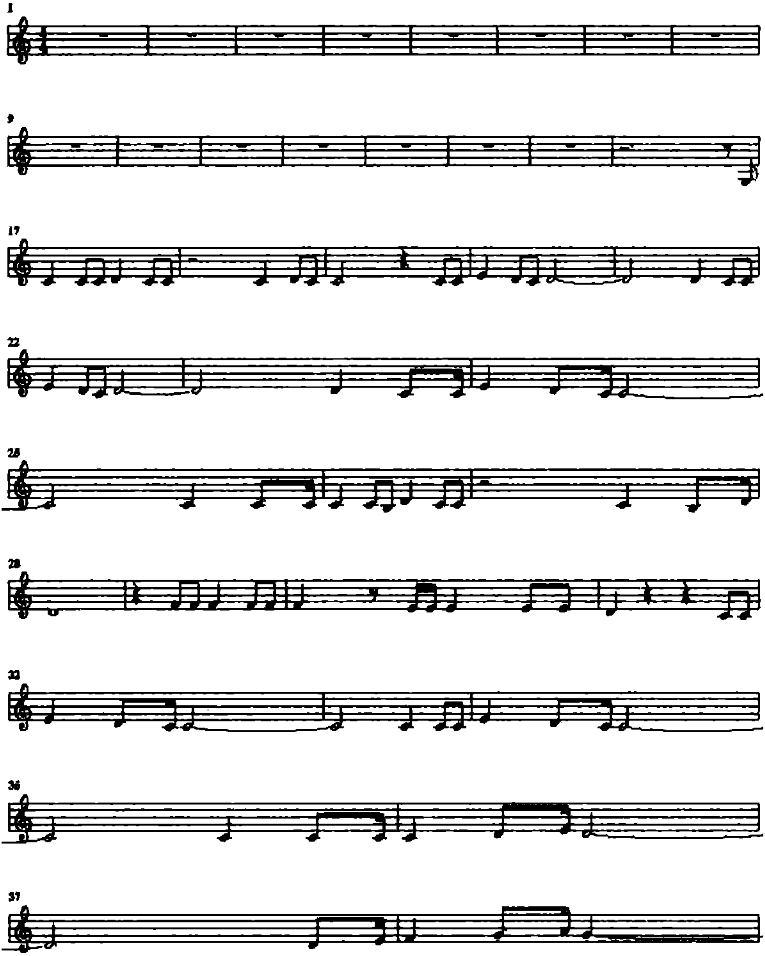
رابط الأغنية

https://tinyurl.com/pjm9xvhj

مكتبة

IBRAHIM NASRALLAH

MY CHILDHOOD SO FAR

طفولتي حتى الآن

«لقد بتُّ متأكِّدةَ الآن من أنّنا لسنا بحاجة لإنسان نشيخُ معه، بقدر ما نحن بحاجة لإنسان نبقى معه أطفالًا».

نور، من الرواية

«على الرّغم من أنّني قرأت جميع أعمال إبراهيم نصر الله الروائيّة، بلا استثناء، إلاّ أن سحر «قناديل ملك الجليل» ظلّ طاغيًا في عقلي ووجداني، لم يزحمها من أعمال ابراهيم السرديّة على هذه المكانة إلّا رواية «طفولتي حتى الآن»، وهي عمل ساحر بمواصفات فنيّة إبداعيّة أخرى، جديدة ومختلفة. وفي مقارنة شفاهيّة بين العملين، قلتُ لإبراهيم: إذا كانت «القناديل» هي رواية عقلي التي نهضت على سرد ابداعيَ واستقصاء بحثي تاريخيَ لم يَحُلْ دون بهاء التخييل بأجنحته المحلقة، فإن «طفولتي حتى الآن» هي رواية قلبي التي ارتبطتُ بها وجدانيًا أكثر من غيرها، لما فيها من عناصر السَيرة، أو شبه السَيرة، بكلَ ألقها وحميميتها التي لم تحُلْ دون جنوح الخيال وانطلاقته الحُرةَ.

على أيَ حال، فإن رواية قلبي الإبراهيميّة هي الآن بين أيديكم، ولن أُفْرِطَ في الحديث عنها، فأصادر حقّكم في المتعة والعيش والتّأمل والدّهش».

الرّوائي والناقد فاروق وادي

ISBN: 978-614-01-3466-9

9 786140 134669

جميع كتبنا متوفرة على الانترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com